سلسلة
آفاق عالمية
139

المائة كتاب
100/23

رواية

آل بودنبروك (الجزء الأول)

توماس مان



ترجمة (عن الألمانية) وتقديم:
محمد أبو رحمة

آل بودنبـــروك

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• آل بودنبروك ج١
• ترجمة وتقديم: محمد أبو رحمة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2015م
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية:
محمود أبو عيشة
• رقم الإيداع: ٢٧٢١١ / ٢٠١٥
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

(139)

سلسلة تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية فى الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

توماس مان

آل بودنبروك

(الكتاب الأول)

ترجمة وتقديم:
محمد أبو رحمة

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

مقدمـــة

كان توماس مان في الحادية والعشرين من عمره حـين رحـل إلى رومـا عام 1896، ليلحق بشقيقه الأكـبر الأديـب هـاينريش مـان، لينتقـل الاثنـان إلى "بالسترينا" الواقعة على بعد ثلاثين كيلومترًا جنوبي العاصمة الإيطالية. وهناك، يبدأ توماس مان كتابة أولى رواياته "آل بودنبروك، انهيار عائلة"، التي نُشرت عام 1901 في ميونيخ، بعد تردد مِن الناشر وإلحاحٍ من الكاتب، لتفوز الرواية بجائزة نوبل للآداب عام 1929.

وكانت الأكاديمية السويدية قد عقدت جلسةً يوم الثاني عـشر مـن شـهر نوفمبر عام 1929، لتقرر، طبقًا لبنود وصية "ألفريـد نوبـل"، الـتي صـاغها في السابع والعشرين من نوفمبر 1895: "منح الدكتور توماس مـان جـائزة نوبـل للآداب، وبصفةٍ خاصة عن روايته آل بودنبروك".

ومما جاء في حيثيات قرار منح هذه الجائزة الرفيعـة إلى تومـاس مـان، على لسان السيد فريديك بوخ، عضو اللجنة المانحة:

"تُعتبر رواية آل بودنبروك دُرةً فنيةً يزهو بهـا الأدب الألمـاني. وهي الروايـة الألمانية الواقعية غير المسبوقة حتى الآن، وقد احتلت مكانةً رفيعة بلا منازع،

وكذلك في الآداب الأوروبية".

"وقد برع الكاتب الشاب في استخدام الأسلوب الواقعي، متأثرًا برؤية شوبنهاور ونيتشه المتشائمة في نقد واقع الأحوال الاجتماعية، وكذلك سبر أغوار شخصيات الرواية الرئيسة..".

هكذا جاءت أولى روايات توماس مان لترصد وقائع قصة حقيقية لصعود وانهيار عائلة بورجوازية، تماثلت بعض ملامحها وظروفها مع ملامح وظروف أسرة المؤلف نفسها. إلا أن توماس مان عالجها بأسلوبٍ نفسي- فلسفي؛ فغاص في وجدان شخصيات الرواية محللاً نموها، وعوامل تدهورها، مفسرًا انهيار هذه العائلة اقتصاديًّا واجتماعيًّا، بل نفسيًّا وفسيولوجيًّا كذلك، حتى تلقى نهايتها المحتومة. وفي نفس الإطار، تناول الكاتب ظروف الطبقة البورجوازية الألمانية والأوروبية بشكلٍ عام.

يقول توماس مان، في حفلٍ أُقيم تكريمًا له بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين: "لقد أضفتُ إلى الرواية تجربة أسرتي الشخصية، وأنا أشعر أن في نسيجها شيئًا من فن الأدب، أي الفكر، أي الحالة العامة؛ إلا أنني لم أكن على وعيٍ شخصي آنذاك بأنني تناولت بأسلوبٍ أدبي انحلال بيتٍ بورجوازي. كنت أسجل تحلل ونهاية طبقة ثقافيًّا واجتماعيًّا على نحوٍ أعظم وأفقٍ أرحب".

❖

وقد أدت هذه المعالجة إلى اعتبار أن الرواية تنتمي إلى أسلوب المدرسة الواقعية، إلا أن وصف الكاتب المسهب والدقيق لمظاهر الحياة، والظاهر الخارجى للأفراد، يجعلنا نميل أيضًا إلى الأخذ بالرأى القائل بأن الرواية تنتمي أيضًا إلى المدرسة الطبيعية؛ إضافةً إلى التناول الفلسفي لأفكار ومشاعر أبطال الرواية.

كما تأثر توماس مان أيضًا بالموسيقي الألمانى العظيم ريشارد فاجنر، وقد استغل حبه للموسيقى، ودرايته الواسعة بها، في تصوير فني بديع للمشاعر المرهفة الغامضة الكامنة في عمق النفس البشرية.

وكما تبدت ثقافة توماس مان في معالجته للرواية، تبدى كذلك حسه الرفيع في أسلوبه الرصينورغم ذلك، فإن أسلوب توماس مان يتسم بروح ساخرة حقيقية، وهو ما سوف نلمحه في بعض أحداث الرواية.

❖

وُلد توماس مان في السادس من يونيو 1875، وتُوفي في الثاني عشر من أغسطس 1955. وفي سن السابعة عشرة توفي والده، ليَلي ذلك تصفية شركته لتجارة الغلال. وبعد عدة شهور، عمل الشاب الصغير توماس بجريدة شهرية تخصصت في الفنون والآداب والفلسفة، ثم انقطع عن الدراسة، وانتقل للحياة مع أمه وأخواته في ميونيخ، حيث عمل متطوعًا لدى شركة تأمين ضد الحرائق. وفي تلك الأثناء، كان قد كتب أول أقصوصة نشرتها جريدة "دي جسلشافت". وفى عام 1895، تفرغ للكتابة، كما انتسب أيضًا إلى مدرسة الهندسة العليا. ثم عكف على كتابة روايته الأولى "آل بودنبروك" بين عامي 1896 و1898. وفي عام 1905، تزوج كاتيا برينجزهايم، المنتمية لأسرةٍ مثقفة تشتغل بالصناعة، وأنجب منها عدة أبناء. وما إن سيطرت النازية على حكم ألمانيا، حتى بادر بالهجرة إلى سويسرا عام 1933، ثم رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ليعود إلى سويسرا، ليسافر مرةً أخرى إلى أمريكا، ولم يزر ألمانيا إلا عام 1949.

ومن أهم أعمال توماس مان: رواية "آل بودنربروك" (1901)، "تريستان" (مجموعة قصصية – 1903)، رواية "جبل السحر" (1924)، رواية "يوسف

وإخوته" (1948)، وكـذلك "لوتّـه في فايمـار" و"طونيـو كروجـر"، و"دكتـور فاوستوس".

❖

وفي النهاية يبقى سؤالٌ وجيه عـن اضـطلاع القـائمين على سلـسلة "آفـاق عالمية" بإعادة ترجمة ونشر أعمال روائية، تُرجمت ونُشرت بالفعل من قبل!

أما الإجابة على هذا التساؤل، فتشمل عدة أوجه:

أولاً: إن مثل هذه الأعمال الفنية ذات القيمة الرفيعة لم تعد، منذ سنواتٍ طويلة، متوافرة للقراء من أجيال مختلفة. لذا كان طرح هذه الأعمال مرةً أخرى (بسعرٍ زهيد) مهمةً جليلة، يستحق من قاموا بها الشكر والعرفان والامتنان.

ثانيًا: كان لا بد من تقديم هذه الأعمـال بلغـةٍ تناسـب لغـة عـصرنا هـذا وحساسيته، بعد تقادم لغة أجيال سابقة بفعل الزمن.

ثالثًا: (وهو السبب الأهم) إن بعض الأعمال الأدبية المترجمة (سابقًا) يشوبها عوارٌ يصل إلى حد الخلل بلغة ومعنى وأسـلوب النـص الأصـلي، ناهيـك عـن أخطاء واضحة، تبدأ من مفردات لغوية، وصولاً إلى الهدف الذى سعى المؤلـف لتحقيقه من خلال كتابة هذا النص أو ذاك.

هذا بالإضافة إلى سطوة بعض المترجمين على النص، باعتباره ملكًا شخصيًّا، مما حدا ببعضهم إلى حذف ما رآه غير مناسب لما يعتقد هؤلاء أنهـا تقاليـد لا يجب المساس بها.

محمـد أبو رحمـة

الجـــزء الأوَّل

الفصـل الأوَّل

"ما هذا – ما – هذا.."

"هذه هي المسألة، هذه هي القضية، أيتها المدموزيل الغالية!"

كانت زوجة القنصل بودنبروك تجلس بجوار حماتها على أريكةٍ مستقيمة بيضاء، مزدانةً برأس أسدٍ ذهبي، عليها وسائد غطاؤها بلونٍ أصفر فاتح، وكانت قد ألقت نظرة على زوجها الجالس بجوارها على مقعد بمسند، حين سارعت لمساعدة ابنتها الصغيرة التي كان يحملها الجد على ركبتيه عند النافذة. وقالت: "طونيا! اعتقد أن الرب.."

أما أنطونيا الصغيرة، ذات الثمانية أعوام، صاحبة القوام الرقيق، المرتدية ثوبًا قصيرًا من الحرير الخالص، فأدارت رأسها الشقراء الجميلة بعيدًا بعض الشيء عن وجه جدها، ناظرةً بعينيها الزرقاوين الرماديتين إلى داخل الغرفة، متتبعةً شاردةً دون أن ترى شيئًا– وكان أن كررت مرةً ثانية "ما هذا؟"، ثم أردفت ببطء: "أعتقد أن الرب.."، ثم أشرق وجهها وهي تضيف بسرعة: "قد خلقني مع كل المخلوقات".

وفجأةً عثرت على ضالتها، فأشرق وجهها، وانطلقت تقرأ فصلاً كاملاً من "كتاب التعاليم"، على حالته التي صدر بها عام 1835، بعد مراجعة وإجازة مجمع سامٍ حكيم.

وقد خطر ببالها أثناء ذلك أنها تشعر كأنها في فصل الشتاء، تهبط بزلاقةٍ بصحبة أخويها من قمة "جبل أورشليم"، وتداهمها أثناء ذلك أفكار لا تستطيع درءها، حتى لو أرادت.

"كما أنعم علينا أيضًا بثيابٍ وأحذية وطعام وشراب ومنزل وفناء وزوجة وأبناء وحقل وماشية.."

عند هذه الكلمات انفجر العجوز م. يوهان بودنبروك ببساطة في الضحك، ضحكًا صافيًا كان يكبته حتى لحظة كان يتوقعها.

ضحك مستمتعًا بفرصةٍ واتته للسخرية من "كتاب التعاليم". ولعله قد خطط لهذا الامتحان البسيط من أجل هذا الغرض فقط.

ثم كان أن استفسر من أنطونيا عن حقلها وماشيتها، وسأل عما تطلبه مقابل جوال من القمح، مقترحًا عقد صفقة معها.

وكان وجهه البريء المستدير المشرب بالحمرة، الذي لا يمكن- مهما كانت نيته- أن يغشاه الغضب، محاطًا بشعرٍ تناثر به شيبٌ بلون الثلج، وقد تدلى منه ما يشبه خصلةً صغيرة للغاية لتلامس ياقة سترته الرمادية.

كان- وهو في السبعين من عمره- لا يزالُ مخلصًا لصيحة الموضة أيام صباه، ولم يستغن إلا عن زخرفة كانت تمتد من الأزرار حتى جيبه الكبير؛ لكنه لم يرتدِ قَط، طوال حياته، تلك السراويل الطويلة.

وقد جاراه الجميع في ضحكه، مجاملةً منهم لعميد العائلة.

أما السيدة أنطوانيت بودنبروك، سليلة آل دوشامب، فقد قهقهت مقلدةً زوجها. كانت امرأة بدينة يتهدل شعرها خصلاتٍ بيضاء على أذنيها، مرتديةً ثوبًا أسود بقلمٍ رمادي فاتح ينم عن البساطة والتواضع. وكانت لا تزال تحتفظ بيدين صغيرتين بيضاوين جميلتين، كانتا تحملان حافظة مخملية على حِجرها. وكان وجهها- بمرور الزمن- قد تحول على نحو عجيب، ليتخذ ملامح وجه زوجها. عدا رسم عينيها، ولونهما الداكن المفعم بالحيوية؛ فقد كانا يوحيان بأن لها بعض أصولٍ رومانية. فأصولها- من ناحية جدها- كانت ترجع لأسرةٍ فرنسية- سويسرية، أما هي فقد ولدت في هامبورج.

وكانت حماتها، القنصلة اليزابت بودنبروك، سليلة آل كروجر، تضحك مثل أهل زوجها، ضحكة تبدأ بمصمصة الشفاه، فيما تضغط ذقنها على صدرها.

وقد كان لها، مثلها مثل عائلة كروجر، مظهرٌ أنيق للغاية، رغم أنها لم تكن جميلة، وهكذا كان صوتها الجلي والمتروي وحركاتها الهادئة والواثقة والناعمة تعطي كل من حولها شعورًا بالوضوح والثقة.

أما شعرها الأحمر الملتف على هيئة تاجٍ صغير أعلى رأسها، فصُفِّفَ خصلاتٍ عريضةً فوق أذنيها بشكلٍ بديع، فكان متسقًا- على نحو غير مألوف- مع بشرتها الناعمة التي تناثر عليها النمش الصغير.

وكان وجهها ذو الأنف الطويل والفم الصغير يتميز بعدم وجود تجويف بين شفتها السفلى وذقنها.

وكان قميصها القصير بكميه المنتفخين، المنتهي إلى تنورة ضيقة من نسيج حريري بلون زهري فاتح زاهٍ، قد كشف عن عنقها فائق الجمال،

المزدان بشريط من الساتان يومض بمجموعة من قطع الماس الكبيرة.

وكان أن انحنى القنصل بحركة عصبية قليلاً من مقعده إلى الأمام، وكان يرتدي سترةً من القطيفة ذات طيات عريضة وأكمام على هيئة المقمعة تنتهي أسفل المعصم، أما سرواله فكان من نسيج أبيض قابل للغَسل، تمتد على جوانبه الخارجية خطوطٌ سوداء. وحول ياقة القميص الحادة، التي حُشرت فيها ذقنُه، التفت ربطة العنق الحريرية، وكانت- بسُمكها وعرضها- تملأ تمامًا فتحة السترة الملونة.

كانت له عينا أبيه العميقتان إلى حدٍّ ما، الزرقاوان والمنتبهتان، غير أن تعبيرهما كان يميل إلى الرومانسية، لكن ملامحه كانت أكثر جدية وحدة؛ أما أنفه فكان معقوفًا، نافرًا من وجهه نفورًا شديدًا.

أما وجنتاه، اللتان كان يخطهما جديلتان من لحية مجعدة، فكانتا أقل امتلاءً من وجنتي العجوز بكثير.

ثم التفتت السيدة بودنبروك، وهي تغالب الضحك، إلى زوجة ابنها، وضغطت بيدها على ذراعها ناظرةً إلى حِجرها قائلة: "إنه مثلما كان دائمًا، هذا العجوز، بيتسي؟" ونطقت "دائمًا" "تائمًا".

وكان أن أنذرت القنصلة بصمتٍ، ملوحةً فقط بيدها الرقيقة، حتى إن سوار معصمها الذهبي أصدر وسوسة خافتة. ثم أتت بحركة معتادة بيدها وكأنها تسوي شعرها الذي كان قد ضل طريقه.

أما القنصل، فقد قال بصوت ممزوج بالتفهم واللوم: "لكنك يا أبي تعاود السخرية من المقدسات".

كان الجمع يجلس في غرفة المنظر الطبيعي بالطابق الأول في البيت

القديم بشارع منجشتراسه، الذي اشترته شركة يوهان بودنبروك من زمنٍ ولم تسكنه الأسرة إلا من فترة قريبة.

وكان كساء الحائط السميك اللين الذي يفصل بينه وبين الجدران بعض الفراغ، يزدان بمناظر طبيعية غنية وألوان رقيقة مثلها مثل البساط الرقيق الذي يغطي الأرض، وهي نماذج من طراز القرن الثامن عشر تعرض بعض مزارعي الكروم المبتهجين وفلاحين نشِطين وراعيات غنم يتزين بشرائط لطيفة، ويحملن في حجورهن حملانًا نظيفة على حافة مياهٍ صافية، بينما كان بعضهن يُقبِّلن رعاةً ممشوقي القوام.

كان غروب الشمس الشاحب يخيم على معظم هذه الصور متناغمًا مع لون الكسوة الصفراء للأثاث المطلي بالأبيض، ومع ستائر النافذتين الحريرية الصفراء. وعلى النقيض من حجم الغرفة، كان الأثاث قليلاً. أما المائدة المستديرة بأرجلها الدقيقة المستقيمة، المموهة بنقوش ذهبية، فلم توضع أمام الأريكة، بل عند الجدار المقابل بجوار أرغن صغير فوق غطائه حافظة ناي. وعدا المقاعد الصلبة ذات الأذرع المتراصة بانتظام بجوار الجدران، لم يكن ثمة سوى خزانة أوراقٍ شخصية رقيقة فخمة تغطى سطحُها بالتحف.

ومن خلال باب زجاجي، مواجه للنوافذ، يستطيع المرء رؤية بهو أعمدةٍ شبه مظلم، حيث كان يوجد إلى يسار الداخل بابٌ أبيض عالٍ بمصراعين يفضي إلى قاعة الطعام، وعلى الجدار المقابل- داخل كوة بهيئة نصف دائرة، خلف سور من "الفورفورجيه" البديع- كان ثمة مدفأةٌ أُشعلت بعد أن حل الطقس البارد قبل أوانه. فخارج البيت- وعلى الجانب الآخر من الشارع، وفي هذا الوقت من منتصف شهر أكتوبر- كانت أوراق شجر الزيزفون

الصغيرة المحيطة بفناء كنيسة سانت ماريا قد ذبلت بالفعل، بينما كانت الرياح تعوي حول نواصي وأركان الكنيسة الضخمة المشيدة على الطراز القوطي. وكان رذاذ مطرٍ بارد يتساقط؛ مما استدعى إغلاق النوافذ المزدوجة مراعاةً للسيدة بودنبروك.

كان الخميس هو اليوم الذي يجتمع فيه أفراد العائلة، مرةً كل أسبوعين على نحوٍ منتظم؛ أما اليوم، فقد تم دعوة بعض أصدقاء الأسرة المقربين، بالإضافة لأفراد العائلة المقيمين في المدينة، إلى وجبة غداءٍ بسيطة للغاية، وها هم يجلسون الآن، حوالى الساعة الرابعة عصرًا، في الغسق المائل للغروب، بانتظار الضيوف.

أما أنطونيا الصغيرة فلم تكترث بوجود جدها أثناء ممارستها للتزلج. ولم يبد عليها سوى بعض العبوس دافعةً بشفتها العليا البارزة بعض الشيء إلى ما فوق شفتها السفلى. كانت قد وصلت- في هذه اللحظة- إلى سفح "جبل أورشليم"، ولما كانت تفتقد القدرة على إيقاف الهبوط السريع فجأةً، فقد تجاوزت نقطة النهاية بقليل.. وصاحت: "آمين، أنا أعرف شيئًا ياجدي!".

"حسنًا، ها هي قد عرفت شيئًا"، هكذا صاح الرجل العجوز، كأن الفضول قد امتلك عليه كيانه. ثم أردف "ألا سمعتِ، ماما، إنها تعرف شيئًا، وليس بوسع أحد إخباري به.."

فقالت أنطونيا مؤكدةً على كل كلمة بإيماءة من رأسها "إذا هبت ريحٌ دافئة، أعقبها برقٌ، أما لو كانت باردةً فإن الرعد هو الذي يعقبها!"، ثم عقدت ذراعيها ناظرةً في الوجوه الضاحكة، مبتسمةً كمن يوقن من نجاحه.

إلا أن السيد بودنبروك غضب مما قيل، وأصر على معرفة من لقن الطفلة

هذه الترهات. وعندما اتضح أن "إيدا يونجمان"، الآنسة التي أوكل إليها رعاية الأطفال مؤخرًا، كانت هي المسؤولة عن ذلك، اضطُر القنصل أن يدافع عن إيدا هذه، القادمة من مارينفردر.

"إنك تبالغ في تشددك يا والدي، فلماذا لا يكون للمرء في مثل هذه السن الحق في تكوين تصوراته الشخصية غير المألوفة.."

"معذرةً، ياعزيزي.. فهذا هو الجهل، فأنت تعلم أني أضيق بمثل هذا التأثير الظلامي على رؤوس الأطفال". ثم أضاف باللهجة العامية "فماذا يعني "يعقبه الرعد"؟ فليخطف الرعد أبصار هؤلاء، ولتذهبوا مع هذه البروسية بعيدًا عني".

وفي حقيقة الأمر، فلم يكن السيد العجوز يطيق "إيدا يونجمان"، إلا أنه لم يكن ضيق الأفق وهو الذي زار أجزاءً من العالم؛ فقد سافر كمورد للجيش في عام 1813 إلى جنوب ألمانيا بعربة تجرها أربعة خيولٍ لشراء الغلال لبروسيا، وزار أيضًا أمستردام وباريس، كما أنه امتنع كرجل مستنير حقيقي عن إصدارأحكام مسبقة عما هو خارج حدود موطنه ذي النظام الطبقي؛ وبغض النظر عن معاملاته التجارية، كان أكثر حدة من ابنة القنصل فيما يخص العلاقات الاجتماعية، فقد كان يميل إلى وضع حدود صارمة لذلك، كما كان يتجاهل الغرباء.

ولذلك كان القنصل قد دخل في جدال حاد مع أبيه العجوز، الذي حادثه باللغة الفرنسية واللهجة العامية، حول المشاعر الدينية عندما عاد أبناؤه بهذه الفتاة من رحلة إلى غرب بروسيا كطفلةٍ مسيحية، يتيمة، ابنة صاحب مطعمٍ كان قد توفي قبيل وصول آل بودنبروك إلى مارينفردر، وقد بلغت الآن

العشرين من عمرها. وعموما فقد أثبتت إيدا يونجمان كفاءةً في أعمال المنزل ومعاملة الأطفال.

كما أثبتت جدارتها بوظيفتها في هذا المنزل، من خلال ولائها وإلمامها بالتقاليد البروسية بمفهوم النظام الطبقي. وكانت على دراية بمبادئ الأرستقراطية، فكان بوسعها أن تفرق بدقة متناهية بين الطبقتين العليا والتي تليها، وبين الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة الدنيا. وكانت فخورةً بانتمائها إلى أرقى الطبقات، كخادمة مخلصة، ولم تكن لترضى بأن تصادق طوني زميلةً لها في المدرسة من الطبقة المتوسطة حتى لو كانت راقيةً، حسب تقدير الآنسة يونجمان.

في هذه اللحظة، برزت البروسية من خلال الباب الزجاجي في صالة الأعمدة، فبدت فتاةً ممشوقة، قوية البنية، ناعمة الشعر، صادقة الوجه، ترتدي ثوبًا أسود، وكانت تقود الصغيرة كلوتيلده التي بدت طفلةً هزيلة للغاية، ترتدي ثوبًا قطنيًا موشى بالزهور، أما شعرها فكان رماديًا باهتًا وترتسم على وجهها أمارات العنوسة؛ فقد كانت تنتمي لفرعٍ من العائلة ثانوي معدم، وكان والدها، ابن أخ السيد بودنبروك الكبير، يعمل مدير أملاكٍ بالقرب من روستوك. ونشأت في المنزل لأنها كانت طفلةً طيبة، وكانت في مثل عمر أنطوني.

"كل شيء على ما يرام"، قالت إيدا ذلك مغمغمةً بحرف الراء الذي لم تستطع بطبيعتها نطقه مطلقًا، ثم أردفت: "لقد اجتهدت الصغيرة كلوتيلده في مساعدتنا في المطبخ حتى إن (تارينا) لم تفعل بالكاد شيئًا".

أما السيد بودنبروك، فتبسم ساخرًا من طريقة نطق إيدا الغريبة؛ وأما

القنصل فداعب خد ابنة أخيه الصغيرة، وقال: "لقد أحسنتِ صنعًا، تيلده، فالعمل عبادة، وعلى أنطونيا ابنتنا الاقتداء بك، فهي تميل غالبًا إلى الكسل والغرور".

أما أنطونيا فظلت منكسة الرأس، وهي تتطلع إلى جدها. كانت تدرك أنه سوف يدافع عنها كعادته، هو الذي قال "كلا، كلا! ارفعي رأسك يا أنطونيا وتشجعي، فكلٌّ مسئولٌ عن أفعاله، وقد منح الرب كلاً منا ما يعيننا على أداء دورنا، فتيلده تتمتع بالبسالة، إلا أننا أيضًا لدينا ما نفخر به، ألم أشهد الحق، بيتسي؟" ثم التفت إلى زوجة ابنه، التي اعتادت أن توافقه رأيه. بينما كانت السيدة أنطوانيت تنحاز غالبًا إلى رأي القنصل بدافع من ذكاء لا اقتناع. بذلك مد الجيلان أيديهما إلى بعضهما البعض كما يفعلون في الرقصات الجماعية. أما القنصلة فقالت: "لقد أصبتَ يا أبي، فستجتهد أنطونيا كي تصبح امرأةً ذكية ماهرة"، ثم سألت إيدا "هل عاد الأولاد من المدرسة؟"

أما أنطونيا التي كانت تراقب النافذة من فوق ركبة جدها فهتفت في الوقت نفسه تقريبًا: "ها هما توم وكريستيان يظهران من شارع يوهانيسشتراسه.. وكذلك السيد هوفشتيده وعمي الطبيب.."

كان ناقوس كنيسة سانت ماريا يدق: بانجا بينج، بينج– بونج.. حتى تعذر إدراك معنى ذلك بالتحديد. إلا إنه كان مفعمًا بالاحتفاء، وبينما كان الجرسان الصغير والكبير يصدران ترنيمةً مبشرة جليلة بتمام الساعة الرابعة، كان رنين جرس الباب الخارجي للمنزل يتصاعد خلال الممر الكبير، معلنًا وصول توم وكريستيان، اللذين وصلا بالفعل مع أول الضيوف، جان جاك هوفشتيده الشاعر والدكتور جرابو، طبيب العائلة.

الفصل الثَّـاني

كان السيد جان جاك هوفشتده، شاعر المدينة يحتفظ، يقينًا، ببعض أبيات الشعر بجيبه لمثل هذا اليوم، وهو الذي لم يكن يصغر يوهان بودنبروك الكبير كثيرًا، وكان يرتدي ملابس تتفق مع ذوق بودنبروك، فيما عدا سترته ذات اللون الأخضر.

لكنه كان أكثر نحولاً ومرونةً من صديقه العجوز، وكان ذا عينين صغيرتين متألقتين، تميلان للون الأخضر وأنف صغير طويل مدبب. "شكرا جزيلاً"، قالها بعد أن صافح الرجال، أما السيدات- خاصةً القنصلة، التي كان متيمًا بها إلى حدٍّ يفوق الوصف- فقد خصهن بأفضل عبارات الإطراء التي لم يعد بوسع الجيل الجديد التحية بمثلها، وكانت مصحوبةً بابتسامة رقيقة ذات مغزى.

"شكرا جزيلاً على الدعوة الكريمة، يا سادتي الأفاضل"، ثم أشار إلى توم وكريستيان الواقفين بجانبه، واللذين كانا يرتديان معطفين زرقاوين بأحزمةٍ جلدية، ثم أضاف: "لقد قابلنا هذين الشابين أنا والدكتور في شارع

كوينجشتراسه في طريق عودتهما من الدراسة. إنهما صبيان رائعان- أليس كذلك، سيدتي القنصلة؟ أما توماس فهو صلبٌ، حاد الذكاء، وسيكون له شأنٌ في عالم التجارة، بينما يبدو لي كريستيان كأنه داهية، أليس كذلك؟ إنه مراوغٌ على نحوٍ ما، لكني لا أخفي دعمي له، ولسوف يكمل دراسته، فيما أعتقد، وهو يتمتع بروح الدعابة، كما أنه صاحب موهبةٍ بارعة".

مد السيد بودنبروك يده إلى صندوق تبغه الذهبي الصغير، ثم قال "إنه "قرد". ألم يحن الوقت ليصبح شاعرًا الآن، هوفشتيده؟".

وما إن أغلقت الآنسة يونجمان ستائر النافذة، حتى انتشر في الغرفة ضوء شموع لطيف، غامض ومضطرب قليلاً؛ كان ضوءًا صادرًا عن الثريا الكريستال والشمعدانات فوق خزانة الأوراق الشخصية. أما القنصلة ذات الشعر الذهبي اللامع فقالت: "حسنًا! كريستيان! ماذا حصَّلت من دروس عصر اليوم؟"، فأجابها كريستيان بأنه تلقى دروسًا في تمارين الكتابة والحساب والغناء.

كان صبيًا في السابعة، ومن المثير للعجب أنه كان في هذه السن قد صار شبيهًا بأبيه. فقد كانت له نفس العينين الصغيرتين للغاية، المستديرتين الغائرتين، ونفس الأنف النافرة المعقوفة المميزة، وأسفل عظام وجنتيه كانت بعض الغضون توحي بأن هيئة وجهه لن تحتفظ بالامتلاء الطفولي الحالي.

وفيما كانت عيناه تنتقلان من واحدٍ إلى آخر في الغرفة، كان قد شرع في الثرثرة فقال: "لقد أسرفنا في الضحك". فلتنتبهوا إلى ما قاله السيد شتنجل لسيجموند كوسترمان، فقد انحنى إلى الأمام، وهز رأسه ليتحدث بسرعة، غير ملتفت لأحد بعينه: "إن ظاهرك.. مظهرك، أيها الولد الطيب، لرقيقٌ

وطاهر، حقًّا، لكن.. باطنك يا ولدي الطيب.. أسود"، قال ذلك مُدغمًا أحد حروف كلمة أسود لينطقها مرققةً، وقد رسم على وجهه أمارات السخرية المؤكدة وعدم الرضا عن هذه "الرقة والطهارة" الظاهرية، حتى إن الجميع انفجر في الضحك.

مقهقهًا، كرر بودنبروك العجوز العبارة: "هو قرد". أما السيد هوفشتيده، فلم يتمالك نفسه من فرط الطرب وصاح: "جميل! منقطع النظير، يجب أن نتعرف على مارسيل شتنجل، فهو هكذا تمامًا، لا، إن هذا لأكثر إمتاعًا".

أما توماس المفتقر لمثل هذه الموهبة فقد وقف بجانب شقيقه الأصغر وضحك بحرارة، ودون أن يشعر نحوه بالحسد. وكانت أسنانه لا تتمتع بقدرٍ ما من الانتظام، بل كانت صغيرة تعلوها طبقةٌ صفراء اللون. ولكن أنفه كان رقيقًا مميزًا، وكانت ملامح وجهه وعيناه تشبه إلى حدٍّ كبير ملامح جده.

كان البعض قد جلس على المقاعد والأريكة وأخذوا يثرثرون مع الأطفال، ويتحدثون عن البرد الذي حل قبل أوانه وعن المنزل. أما السيد هوفشتده فكان يبدي إعجابه بدواة الحبر الفاخرة المصنوعة من "خزف-سيفر"، التي كانت على هيئة كلب صيد أسود اللون أرقط.

أما الدكتور جرابو- الذي كان في مثل عمر القنصل- فقد ارتسمت ابتسامةٌ على وجهه الطويل الطيب اللطيف، الذي تحيط به لحيةٌ خفيفة، وهو يتأمل الفطائر وخبز الكورينث وملاحات صغيرة ممتلئة مختلفة وضعت على المائدة من أجل الزينة. كان هذا هو "العيش والملح" المهدى للعائلة من الأصدقاء والأقارب بمناسبة الانتقال إلى مسكن جديد.

وحتى لا يظن أحدهم أن هذه الهدية قدمتها عائلاتٌ رقيقة الحال، فلم

يكن الخبز سوى فطائر ثقيلة بعضها مخبوزة بالسكر، والبعض الآخر بالبهارات والحلوى، وكان الملح في آنية من الذهب المصمت.

"لديَّ الآن ما أفعله"؛ قال الدكتور وهو يشير إلى الحلوى، محذرًا الأطفال. ثم تناول مطأطئ الرأس إناءً كبيرًا للملح والفلفل والخردل.

أما السيد بودنبروك فقال مبتسمًا، هذه هدية من لبرشت كروجر، لقد كان دائمًا سخيًا، قريبي هذا الرجل العزيز، لم أمنحه مثل هذه عندما قام ببناء منزله الصيفي أمام بوابة بورجتور، ولكن هذا عهدي به دائمًا، فهو نبيلٌ كريم، فارس عصري. وعلا رنين الجرس عدة مرات وتردد خلال المنزل كله مع وصول القس فيندرليش، الرجل المسن البدين، مرتديًا سترةً سوداء طويلة، وهو ذو شعر أشيب ووجه أبيض مريح بشوش، وعينين رماديتين يقظتين ملتمعتين. كان قد ترمل منذ عدة أعوام، ويعتبر نفسه أعزب من الزمن البائد. مثله في ذلك مثل السمسار طويل القامة، السيد جراتينس، الذي جاء معه، وكان يكور إحدى يديه الهزيلتين أمام عينيه كنظارة معظمة، كأنه يقوم بفحص لوحة ما، فقد كان أحد متذوقي الفن المعترف بهم على نطاق واسع. كما وصل السيناتور الطبيب لانجهالس مع زوجته، وهما صديقان للعائلة منذ فترة طويلة، ناهيك عن كوبن- تاجر النبيذ- ذي الوجه الكبير الأحمر الداكن، المرتفع فوق الأكمام المبطنة، مصطحبًا زوجته التي تعاني من السمنة المفرطة كزوجها.

كانت الساعة قد أشارت إلى الرابعة والنصف عندما وصلت أخيرًا عائلة كروجر، كبارها وصغارها: القنصل والقنصلة كروجر مع ابنيهما يعقوب ويورجن، اللذين كانا في عمر توم وكريستيان. وفي الوقت نفسه تقريبًا وصل

كذلك والدا القنصلة كروجر، تاجر الخشب بالجملة أوفرديك بصحبة زوجته، وهما زوجان مسنان رقيقان، اعتادا مناداة بعضهما البعض بأسماء الدلال علنًا كأنهما ما يزالان عروسين.

وقال القنصل وهو يقبل يد حماته: "النبلاء يأتون متأخرين"، ثم مد يوهان بودنبروك يده بعيدًا فوق رؤوس أقاربه من عائلة كروجر ليشد على يد كبير العائلة وهو يردد: "وأنتم أيضًا بنفس الحرارة".

أما لبرشت كروجر، الذي كان يمثل ظاهرةً متميزة كفارسٍ عصري، فكان رغم شعره المبدر يرتدي ملابس عصرية. وعلى سترته المخملية ومض صفان من الأزرار من الأحجار الكريمة. وكان ابنه يوستوس، ذو اللحية الصغيرة والشارب المفتول، يشبه أباه بشدة قلبًا وقالبًا، وكذلك في حركة اليد الأنيقة والرشيقة.

لم يبادر الجمع بالجلوس، بل ظلوا واقفين منتظرين الحدث الرئيس وهم يتجاذبون أطراف حديثٍ مؤقت متمهل. وقدم يوهان بودنبروك، الكبير، ذراعه للسيدة كوبن، وهو يقول بصوتٍ مسموع: "سيداتي وسادتي، أليست لدينا جميعًا الآن الشهية لتناول الطعام؟"

كانت الآنسة يونجمان ومساعدتها قد قامتا بفتح مصراعي الباب الأبيض المفضي إلى قاعة الطعام، فتحرك الجمع إلى هناك بخطًى وئيدة واثقة، وهم يتوقعون ما تقدمه عائلة بودنبروك مما لذ وطاب.

الفصل الثَّـالث

خلال تقدم الجمع كان رب البيت الصغير قد مد يده إلى الجانب الأيسر من صدره، ليتردد صوت خشخشة أوراق، وتختفي ابتسامة المجاملة فجأةً من وجهه فيحل محلها تعبيرٌ متوتر قلق، تبدَّى في حركة أعصاب فَوديه، كأنه يعض على أسنانه. وتظاهر بقطع بضع خطواتٍ إلى قاعة الطعام، إلا أنه توقف وراح يبحث بعينيه عن والدته، التي كانت مع القس فوندرليش آخر من شاء اجتياز عتبة الباب. "عفوًا، أيها القس العزيز.. أريدكِ أمي في كلمتين"، وبينما كان القس يحني رأسه مرحبًا، دفع القنصل السيدة العجوز للعودة إلى غرفة المنظر الطبيعي نحو النافذة.

"حتى أوجز لكِ الأمر فإنه قد وصلت رسالة من جوتهولد"، قال هذا بسرعة هامسًا، بينما كان ينظر في عينيها السوداوين المتسائلتين، وهو يسحب من جيبه الرسالة المطوية الموسومة بخاتم: "إنها بخط يده.. وهو المكتوب الثالث ولم يرد والدي سوى على خطابه الأول.. فما عسانا نفعل الآن؟ وقد تسلمتُها في الساعة الثانية وكان عليَّ تسليمها لوالدي منذ فترةٍ طويلة، لكن، هل أفسد عليه بهجة اليوم؟ فما رأيك؟ فما تزال أمامنا

فسحة من الوقت لإخباره بالأمر.."، فقالت السيدة بودنبروك: "كلاً، جان، إنك محقٌ، فلنرجئ هذا!". ثم قبضت بحركة سريعة، كعادتها، على ذراع ابنها، لتضيف مهمومةً: "فماذا يا ترى كتب؟ إنه لا يتراجع، هذا الصبي، فهو مصممٌ على مبلغ التعويض عن نصيبه في الدار.. كلاً، كلاً، جان، لم يحن الوقت بعد.. ربما مساء اليوم، قبل الذهاب للنوم".

"فماذا سنفعل؟" كرر القنصل تساؤله وهو يهز رأسه المنكس ثم قال: "لقد راجعتُ أنا نفسي والدي بما فيه الكفاية، كي يتراجع عن موقفه.. إلا أن هذا يجعلني أبدو كأنني، أنا أخوه غير الشقيق، الأثير لدى والديه، أتآمر على جوتهولد.. وأربأ كذلك بأبي أن يظن بي هذا.. فإذا توخيت الصدق فإنني في النهاية شريكٌ، كما أنني وبيتسي نقوم بسداد إيجارٍ مناسب للطابق الثاني حتى الآن، وفيما يتعلق بأختي في فرانكفورت فقد تم تسوية الأمر. وسوف يحصل زوجها على مبلغ على سبيل التعويض أثناء حياة والدي، وهو لا يمثل سوى ربع ما تم دفعه في شراء الدار.. وهذه صفقةٌ رابحة أنجزها والديهنجاحٍ ويُسر وكانت في صالح الشركة. أما إذا ظل والدي على موقفه هذا من تجاهله التام لجوتفريد، فسوف يحدث.."

"كلاً، هذا هراء، جان، فموقفك من هذه المسألة واضح. إلا أن جوتهولد يظن أنني، كزوجةٍ لأبيه، لا أهتم سوى بأبنائي وأني أسعى متعمدةً لإبعاد أبيه عنه، وهذا هو الأمر الذي يؤسف له.."

"لكن هذا ذنبه هو"؛ هكذا صاح القنصل بصوتٍ يكاد يكون مرتفعًا، ثم واصل حديثه بصوت خافت وهو ينظر نحو قاعة الطعام ليقول: "إنه ذنبه هو في خلق هذه العلاقة المؤسفة! ولتحكمي أنتِ نفسك، لماذا لم

يسلك سبيل الحكمة، لماذا أصر على الزواج من الآنسة شتيفج هذه، وأما الشركة.."؛ وعند ذكر هذه الكلمة ضحك القنصل حانقًا حائرًا، ثم قال: "فموقف والدي الرافض لفكرة الشركة يؤخذ عليه، لكن كان على جوتهولد احترام هذا التعالي البسيط.."

"آه، جان، إن أفضل شيء هو أن يتراجع الوالد عن موقفه!"

قال القنصل هامسًا: "لكن هل بوسعي إسداء نصح لأبي في هذا الشان؟"؛ محركًا يده بحماس نحو جبينه، ثم أضاف: "فأنا شخصيًا مهتمٌ بذلك، ولذا يتحتم عليّ أن أقول: ادفع يا أبي، لكنني أيضًا شريكٌ وأمثل مصالح الشركة، حتى لو رأى والدي أن واجبه نحو ابنه العاصي المتمرد يُلزمه بسحب هذا المبلغ من رأسمال الشركة.. فالأمر يتعلق بما يربو على أحد عشر ألف ريال. وهذا مبلغٌ ضخم.. كلاًّ، كلاًّ، إنني لا أنصح بهذا ولا بالنقيض كذلك، ولا أريد معرفة أي شيء عن هذه المسألة. إن حال والدي يرثى له".

"فلنرجئ الأمر إلى ساعةٍ متأخرة من المساء، جان، تعال الآن، فهناك مَن ينتظرنا".

دس القنصل الورقة في جيب سترته، مقدمًا ذراعه لأمه ليعبرا معًا العتبة إلى قاعة الطعام الزاهية بالأنوار، وكان الجمع قد انتهى في هذه اللحظة من اتخاذ أماكنهم حول المائدة المديدة.

هناك أطلت من بين الأعمدة الرقيقة صورُ الأرباب البيضاء كأنها نُحتت في كساء الجدران المشوب بلون السماء الزرقاء. وقد أُسدلت الستائر الحمراء السميكة فوق النوافذ، وفي كل ركن من أركان القاعة كانت تتوهج فوق شمعدان عالٍ مُذهب ثماني شموع، ناهيك عن تلك القائمة على شمعدانات

فضية فوق المائدة. كما عُلقت أعلى البوفيه العامر المواجه لغرفة المنظر الطبيعي لوحةٌ كاملة لخليج إيطالي كان للونه الأزرق القاني أثرٌ يفوق الوصف. وقد استندت إلى الجدران أرائك بمساند صلبة كُسيت بالحرير الأحمر.

زال كل أثرٍ للهَم والقلق من وجه السيدة بودنبروك عندما استقر بها المقام بين كروجر العجوز الجالس بجوار النافذة والقس فوندرليش.

"بُون أبِيتي!" قالتها مصحوبة بهزة من رأسها قصيرة خاطفة حميمة وهي تطوف سريعًا بنظرها على امتداد المائدة إلى حيث مجلس الأطفال.

الفصل الرَّابــع

"كما يقال، لك كل التقدير، بودنبروك"؛ هكذا طغى صوت السيد كوبن الرخيم على الأحاديث كافة، عندما دخلت الخادمة بذراعين عاريتين متوردتين، مرتديةً تنورة من نسيجٍ سميك مخطط، وقد غطت مؤخرة رأسها بقبعةٍ صغيرة بيضاء، وشرعت بمساعدة الآنسة يونجمان ووصيفة القنصلة في تقديم حساء الأعشاب الساخن، مضافًا إليه خبزٌ مقدد، ليبدأ الجميع في تناول الطعام.

"كل التقديرا لهذا الكرم الفياض، وهذا النبل.. ولا بد أن أقول، إن هنا يُعرف معنى الحياة، لابد أن أقول هذا". لم يكن السيد كوبن قد خالط مالكي الدار السابقين، ولم يكن قد أثرى إلا من فترة وجيزة، كما أنه لا ينتسب إلى عائلة عريقة، ولم يكن، للأسف، قد أقلع بعد عن بعض التعبيرات الركيكة، مثل تكراره لعبارة "لابد أن أقول"، بالإضافة إلى قوله "تكدير" بدلاً من "تقدير".

"إنها لم تتكلف نقودًا"، هكذا قال بجفاء السيد جراتينس، وهو يتأمل من

خلال يده الخالية لوحة الخليج الإيطالي، وهو الذي كان يعرف ما يقول.

كانت العائلة قد حرصت على تنوع مواقع جلوس الضيوف قدر الإمكان، وذلك من خلال كسر سلسلة الأقارب بجلوس أصدقاء العائلة بين هؤلاء، إلا أن ذلك لم يلق التزامًا جادًّا من البعض، فقد جلس العجوز أوفرديك بجوار زوجته المسنة متلاصقين كعادتهما، وهما يتبادلان هز رأسيهما بحرارة. أما كروجر العجوز فقد تصدر موقعه منتصب القامة بين السيناتورة لانجهالس والسيدة أنطوانيت، موزعًا حركات يديه ونكاته المتحفظة على كلا السيدتين. ومال السيد هوفشتده ناظرًا عبر المائدة إلى بودنبروك الكبير، الذي كان يتحدث إلى السيدة كوبن بنبرة متبسطة يشوبها بعض السخرية، ليسأله: "متى تم بناء هذه الدار؟"

"في عام.. انتظر لحظة.. حوالى عام 1680، إن لم أكن مخطئًا. إلا أن ابني على دراية أفضل مني بمثل هذه التواريخ.."

"1682"، قال القنصل مؤكدًا وهو ينحني، وكان قد جلس على الطرف الآخر بعيدًا بدون امرأة بجانبه إلى جوار السيناتور لانجهالس، ثم قال: "في عام 1682 تم الانتهاء من بنائها. وكان نجم شركة راتنكامب وشركاه حينذاك في صعود مذهل.. ومن المؤسف أن تتدهور أحوال هذه الشركة في العشرين سنة الأخيرة".

وخيم السكون على الجميع، وامتد لنصف دقيقة. فأخذ كلٌّ ينظر في الصحن أمامه، متأملاً حال تلك العائلة المجيدة التي شيدت هذه الدار وسكنتها، وهجرتها فقيرة بعد أن أخنى عليها الدهر.

فقال الوسيط جراتينس "إنه حقًّا لأمرٌ مؤسف إن تصورنا الجنون الذي

جر هذا الخراب، فيا ليت راتنكامب ما اتخذ حينذاك جيلماك هذا شريكًا! ويعلم الرب أنني ضربت كفًا بكف عندما بدأ هذا يدير اقتصاد الشركة، وقد علمت أيها السادة من أفضل المصادر كيف كان هذا يضارب على نحو مريع من خلف ظهر راتنكامب، فيضع رهونات هنا وصكوكًا هناك باسم الشركة.. وفي النهاية ضاع كل شيء.. وهنا ساور البنوك الشك، فلم يعد هناك غطاء مالي.. وليس بوسعكم تصور عمن كان يسيطر على المخازن، ربما جيلماك؟ لقد عششوا هناك مثل الفئران، عامًا بعد عام، إلا أن راتنكامب لم يهتم بشيء.

"لقد كان مثل مَن أصابه شلل"، قال القنصل ذلك وقد اكتسى وجهه بأمارات الانقباض والعبوس، ثم انحنى إلى الأمام ليُقلب حساءه بالمعلقة، مسددًا من حين لآخر نظرة خاطفة بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين نحو رأس المائدة.

"لقد تورط في هذا تحت وطأة ضغطٍ ما، وأنا أعتقد أننا نستطيع إدراك مدى هذا الضغط. فما الذي اضطره لمشاركة جيلماك، الذي لم يضخ في رأسمال الشركة سوى النذر اليسير، وهو مَن كانت الألسنة تلوك سيرته؟ فلابد أنه أحس بالحاجة إلى إلقاء جزء من المسؤولية الرهيبة على أي شخص، لأنه شعر أن الانهيار قادمٌ لا محالة.. لقد أفلست هذه الشركة وانتهى أمر هذه العائلة العجوز. أما فيلهلم جيلماك فكان هو يقينًا آخر من ساهم في هذا الخراب".

"فهل تذهب إلى الرأي نفسه، سيدي القنصل الكريم؟" تساءل القس فوندرليش بابتسامة مرتابة، وهو يصب لجارته ولنفسه كأسًا من النبيذ

الأحمر. ثم قال: "أكان كل ما جرى سيقع حتى بدون مشاركة جيلماك، وبدون مسلكه البربري؟"

فأجاب القنصل، شاردًا دون أن يتجه نحو شخص بعينه: "لا أظن هذا، لكني أظن أن ديتريش راتنكامب قد اضطُر مرغمًا لمشاركة جيلماك ليحدث ما حدث، ولابد أنه فعل هذا تحت ضغط احتياجٍ مُلح.. آه، إنني مؤمن بأنه كان يعرف إلى حدٍّ ما بما يمارسه شريكه، كما أنه لم يكن غافلاً عما يحدث في مخازنه، لكنه كان مغلول اليدين".

"فلنكتفِ بهذا، جان" قال بودنبروك الكبير طارحًا ملعقته عن يده، ليضيف: "إن هذا ليس سوى من صنع خيالك". فرفع القنصل كأسه تجاه أبيه، وقد شاعت بوجهه ابتسامة مرتبكة. إلا أن لبرشت كروجر قال: "لا، فلنستمتع بجمعنا السعيد!".

كان أثناء ذلك قد أمسك بحرصٍ ولياقة بفوهة زجاجة النبيذ الأبيض التي أمامه، وكان منقوشًا على سدادتها وعلٌ، وهو يقرأ الشعار المكتوب عليها: "س. ف. كوبن"، ثم أومأ إلى تاجر النبيذ: "أوه، ماذا نساوي بدونك؟"

تم تغيير صحون "المايسن" ذات الحواف المذهبة، بينما كانت السيدة أنطوانيت تتابع حركة الخادمات برقابة صارمة، وكانت الآنسة يونجمان تصدر أوامرها من خلال ميكروفون يربط قاعة الطعام بالمطبخ، ليتم تقديم السمك، وأثناء ما كان القس فوندرليش يتناول شيئًا منه بحرص، قال: "إن جمعنا السعيد هذا لم يلتئم شمله مصادفةً، فالشباب الذين يسعدون الآن بصحبتنا، نحن الكبار، لن يخطر ببالهم أن الحال كان يمكن أن يكون على غير ما يرونه الآن.. ولتسمحوا لي أن أقول إنني شاركت غير مرة شخصيًا

فيما آل إليه حال أصدقائنا آل بودنبروك.. فعندما أرى مثل هذه الأشياء أمامي (وهنا التفت نحو السيدة بودنبروك، متناولاً من فوق الطاولة شوكة فضية)، فلابد أن أتذكر أنها كانت من ضمن القطع التي أمسك بها صاحبنا الفيلسوف لينوار، الذي حمل رتبة الرقيب تحت إمرة صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون، في عام 1806.. وهو ما يذكرني بلقائنا في شارع الفشتراسه، يا سيدتي.."

نكست السيدة بودنبروك بصرها، بعد أن ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ موزعة بين الارتباك ووطأة الذكرى. أما توم وطوني، الجالسان هناك في طرف المائدة، واللذان لم يأكلا السمك متابعين حديث الكبار بانتباه، فهتفا في نفس واحد تقريبًا: "أواه، فلتحكِي لنا ذلك يا جدتنا!" إلا أن القس الذي يدرك أنها لا تحبذ ذكر الواقعة التي تسبب لها شيئًا من الحرج، بدأ هو، بدلاً منها، في قص الحكاية التي كان لا يمل الأطفال سماعها للمرة المائة، والتى لم تصل إلى أسماع هذا أو ذاك من بينهم.

"بإيجازٍ مفيد، فلتتخيلوا: أنه كان في عصر أحد أيام نوفمير الباردة الممطرة، وأستعيذ بالرب، كنت قد أنهيت بعض أعمالي الرسمية ماضيًا في شارع الفشتراسه، مفكرًا في تلك الأوقات العصيبة. وكان الأمير بليشر قد غادرنا، بينما كان الفرنسيون بالمدينة. إلا أنني لم ألحظ إلا القليل من الاضطراب السائد حينذاك.

"كان السكون يغمر الطرقات بعد أن التزم الناس بيوتهم محاذرين، وكان شيخ الجزارين "برال" واقفًا أمام بابه، ويداه بجيبي سرواله، وهو يصيح بأعلى صوته هادرًا بلهجته العامية: "شيء فظيع، أم ماذا!"، فإذا برصاصة تدوي

فوق رأسه ببساطة.. ففكرت: إنني أريد زيارة آل بودنبروك، فقد كانت المؤازرة واجبة في مثل هذه الظروف بعد أن لزم السيد الفراش يعاني من مرض الحمرة، وسوف تكون السيدة منشغلة بأمور الإيواء".

"وفي اللحظة نفسها، أرى مَن يسرع نحوي؟ سيدتنا الموقرة المبجلة السيدة بودنبروك. فعلى أية حالٍ كانت؟ كانت تهرول تحت المطر حاسرة الرأس، ولم تكن قد وضعت حتى شالاً فوق كتفيها، وكانت تعدو أكثر مما تمشي، وقد انحل شعرها في فوضى عارمة، لا، بل إنها الحقيقة، سيدتي! فلم يكن هذا وقت الاهتمام بتصفيف الشعر.

"فيا لها من مفاجأة سارة! هكذا قلت، إلا أنني سمحت لنفسي بأن أمسك بكمها بعد أن لاحت لي نُذر شر.. إلى أين تهرولين يا عزيزتي؟ فانتبهت لوجودي، فنظرت إليّ وصاحت: ها أنت إذن.. وداعًا! لقد انتهى كل شيء! أنا ذاهبة لألقي بنفسي في "ترافه"!

فقلت وأنا أشعر بامتقاع وجهي "ألا لا قدر الرب، إن هذا المكان ليس لك، ياعزيزتي! وتشبثت بها بقدر ما سمحت حدود الاحترام، وقلت "ماذا حدث؟" فصاحت وهي ترتعد: "ماذا حدث؟ لقد هجموا على الفضيات، فوندرليش! هذا هو ما حدث! أما جان فهو راقد يعاني من مرض الحمرة ولا يستطيع نجدتي، حتى لو كان متعافًى. إنهم ينهبون ملاعقي، ملاعقي الفضية، هذا ما حدث، فوندرليش، وأنا ذاهبة لأغرق نفسي في الترافه". حسنًا، ها أنا أتشبث بصاحبتنا وقلت ما يقال في مثل هذه المواقف، "تحلي بالشجاعة، يا أعز الناس"، و"سوف يصبح كل شيء على ما يرام"، و"لنذهب للحوار مع هؤلاء، فلتتماسكي، أستحلفك بالرب، فلنذهب!". ومضيت بها نخترق

الشارع إلى البيت. وهناك وجدنا المليشيا كما تركتهم السيدة، ما يربو على عشرين رجلاً محيطين بالخزانة الكبيرة التي تحتوي الأدوات الفضية، فسألت متأدبًا: "أيها السادة، مع مَن منكم أستطيع التشاور؟" وهنا انفجر الجميع في الضحك وتصايحوا: "معنا جميعًا أيها الأب!" إلا أن أحدهم تقدم بعد ذلك، كان رجلاً بطول الشجرة، بشارب أسود مفتول ويدين كبيرتين متوردتين برزتا من أساور كميه المنحسرين، وقدم نفسه: "لينوار"، محييًا بيده اليسرى، فقد كانت يمناه تقبض على مجموعة من خمس أو ست ملاعق فضية، ثم أردف: "الرقيب لينوار، فماذا يريد السيد؟"

فقلت، متعمدًا استفزاز أسباب الكرامة لديه: "سيدي الضابط، هل يتفق انشغالكم بهذه الأشياء مع مهمتكم المجيدة؟.. فالمدينة لم تغلق أبوابها أمام الإمبراطور.."، فأجاب: "ماذا تريد؟ إنها الحرب والرجال بحاجة إلى مثل هذه الأدوات.." فقاطعته بعد أن راودتني فكرة، قائلاً كل ما يمكن قوله في هذه الحال: "ينبغي أن تضع في اعتبارك أن هذه السيدة، ربة هذه الدار، ليست، كما تظن، ألمانية، بل تكاد تكون إحدى مواطنيكم، إنها فرنسية.. فكرر هو ما قلته: "ماذا؟ فرنسية؟"، فماذا تظنون ما أضافه هذا المقاتل الضخم؟ لقد قال "هي إذن مهاجرة؟ إذن فهي معادية للفلسفة!"

"فاعترتني الدهشة إلا أنني كتمت الضحك، وقلت: "إنك رجلٌ ذكي كما أرى، وإنني أكرر أنه يبدو لي أنه لا يليق بك أن تنشغل بمثل هذه الأشياء". فلاذ بالصمت لبرهة، إلا أنه فجأةً اكتسى وجهه بحمرة الخجل ليطرح الملاعق الست في الخزانة، ويصيح "مَن قال لك إنني أردتُ ما هو أكثر من تأمل هذه الأشياء؟! إنها أشياءٌ جميلة، أليس كذلك! فماذا لو شاء واحدٌ أو

آخر من هؤلاء أن يحتفظ بقطعة منها على سبيل التذكار.."

"حسنًا، لقد أخذوا، إلى حدٍّ ما، ما يكفيهم على سبيل التذكار، ولم تُجدِ معهم أية مناشدة بتوخي العدالة الإنسانية أو الإلهية.. فهم لم يعرفوا إلهًا سوى هذا الرجل القصير الرهيب.."

الفصل الخــامس

"فهل رأيته سيدي القس؟"

ها هي أطباقٌ تحل محل أخرى، فقُدمت قطعٌ هائلة من لحم الخنزير، منها المقدد مثل القرميد الأحمر ومنها المُدَخَّن، وغيرها مسلوق، مع صلصة بنية اللون ذات مذاقٍ لاذع وكميات هائلة من الخضار، حتى كادت صحيفة واحدة فقط لتشبع الجميع. وقام لبرشت كروجر بمهمة تقسيم اللحم، فرفع رسغيه بحركة رشيقة وفرد سبابتيه الطويلتين على استقامتيهما فوق ظهر المدية والشوكة وأخذ يقطع بحرص اللحم البض.

وقُدم طبق القنصلة بودنبروك الشهير "الطاجن الروسي"، وهو خليط من الفواكه المحفوظة، يطغى عليه مذاق المشروبات الروحية.

"كلاَّ!"، هكذا أبدى القس فوندرليش أسفه على أنه لم يلتق بونابرت قط. إلا أن بودنبروك الكبير، وكذلك جان جاك هوفشته، كانا قد شاهداه وجهًا لوجه، مرةً في باريس، قبيل الحملة على روسيا أثناء استعراض بفناء قلعة توليريه، وكانت المرة الأخرى في جدانسك.

"يا إلهي، لم يكن مظهره مريحًا"، قال هذا وهو يُحمِّل على شوكته قليلاً من لحم الخنزير والكرنب والبطاطس، ويدفع به إلى جوفه رافعًا حاجبيه. ثم أضاف: "وفيما عدا ذلك كان مسلكه مرحًا في جدانسك. وقد تداول الناس حينذاك إحدى نوادره، فقيل إنه كان يمارس الشغب مع الألمان طوال اليوم، وإن كان ذلك على نحو غير سلمي، وفي المساء كان يلعب مع قواد جيشه.. أليس كذلك، رابّ؟" قال ذلك وهو يتناول حفنة من حلقات ذهبية اللون، "إن الألمان يحبون حلقات نابليون هذه؟" فأجاب رابّ: "نعم، سيدي، وتحديدًا الكبير منها".

وفي غمرة الطرب الذي ساد الجمع، والذي ازداد صخبًا بعد أن قص هوفشتده الحكاية بأسلوب جميل، مقلدًا قليلاً تعبيرات وجه الإمبراطور، قال بودنبروك الكبير: "والآن، بلا مزاح، فكل التقدير لعظمة شخصه.. فيا لها من شخصية".

فهز القنصل رأسه، وقد علت وجهه أمارات الجدية، وقال: "كلاَّ، كلاَّ، فنحن الأحدث سنًا لم نعد نفهم الإعجاب بهذا الرجل الذي اغتال الدوق فون انجهين وذبح ثمانمائة أسير بمصر".

فقال القس فوندرليش: "ربما يكون هذا نوعًا من المبالغة وتزييف التاريخ، فقد قيل عن الدوق إنه كان متمردًا أهوج، أما الأسرى فقد كان إعدامهم تنفيذًا لقرار راجح وضروري صدر عن مجلس حرب سليم"، ثم ذكر كتابًا كان قد قرأه، وكان مؤلفه هو أمين سر الإمبراطور، وقد صدر قبل عدة سنوات. "وهو جدير بالاهتمام".

وشرع القنصل في تنظيف الشمعة المتوهجة فوق الشمعدان أمامه،

وقال: "على الرغم من ذلك، فأنا لا أستطيع إدراك سر الإعجاب بهذا الإنسان المتوحش، فأنا كرجل مسيحي وإنسان لديه وازعٌ ديني لا أجد مكانًا في قلبي لمثل هذا الشعور".

كان وجهه قد اكتسى بسيماء السكينة والشاعرية، بل مال برأسه جانبًا، بينما بدا حقًّا، كأن كلاًّ من أبيه والقس يتبادلان ابتسامة هامسة تمامًا.

وأشرق وجه يوهان بودنبروك وهو يقول: "نعم، نعم، لكن لحلقات نابليون الصغيرة طعم غير سيء، أليس كذلك"، ثم أضاف: "إن ابني يهيم أكثر بلويس فيليب".

فكرر جان جاك هوفشتده بشيء من السخرية: "هيام؟ إن هذا لاجتماع غريب بين الهيام وبين فيليب إجاليتيه".

قال القنصل بجدية وحماس: "حسنًا، فبربي، يبدو أن أمامنا الكثير للتعلم من امبراطورية يوليو.. فعلاقة مبادئ الدستور الفرنسي الوثيقة والمفيدة بالمُثُل والمصالح العملية في العصر الحديث، لأمرٌ جدير بالعرفان الكبير".

"مُثُل عملية.. كذا، كذا"، وأخذ بودنبروك الكبير يداعب علبته الصغيرة الذهبية، مانحًا فكيه فترةً من الراحة. "مُثُل عملية.. لا، لستُ معك في هذا على الإطلاق". ولشدة غضبه استعان بلهجته العامية وقال: "إذن فلسوف تنفجر في وجوهنا معاهد التدريب المهني والمعاهد الفنية والمدارس التجارية، أما التعليم الثانوي والتعليم التقليدي فلسوف يختفيان فجأةً، ولن يتكلم سائر الناس إلا عن أعمال المناجم والصناعة والربح المادي.. عظيم، كل شيء عظيم! ولكن، على الجانب الآخر، يكمن بعض من حماقة سوف تستمر للأبد، أليس كذلك، وأنا لست أدري سر رؤيتي لذلك بمثابة

السُبة.. لم أقل شيئًا، جان.. إن امبراطورية يوليو لشيءٌ طيب".

وكان كلٌّ من السيناتور لانجهالس وكذلك جراتينس وكوبن قد أيدوا موقف القنصل.. نعم، حقًّا، فالحكومة الفرنسية والطموحات المماثلة في ألمانيا تستحق كل التقدير.. وكان السيد كوبن قد كرر ثانيةً "تكدير"، وكان وجهه قد صار أكثر احمرارًا أثناء تناول الطعام، كما صار لتردد أنفاسه وقعٌ مسموع، أما القس فوندرليش فقد ظل وجهه على لونه الأبيض، رقيقًا متيقظًا، برغم أنه كان يحتسي الشراب على راحته، الكأس تلو الأخرى.

أصبحت الشموع تحترق ببطء، ذائبةً ببطء، فإذا دفع تيار الهواء بين الحين والآخر شعلتَها جانبًا، فاحت منها رائحةُ شمعٍ لتغمر المائدة.

وكان الجمع قد جلسوا على مقاعد ثقيلة بمساند عالية، يتناولون بأدوات فضية ثقيلة طعامًا ثقيلاً، ويحتسون فوقه ألوانًا من النبيذ ثقيلة، متبادلين الآراء. وسرعان ما تناول حوارهم مسائل الأعمال التجارية، وهم ينزلقون قسرًا أكثر فأكثر إلى الحديث باللهجة العامية، بهذا الأسلوب ثقيل الوقع المريح في التعبير، الذي يجمع إيجاز التجار واسترخاء الأثرياء، والذي يمكن استخدامه من حينٍ لآخر بحسنِ نيةٍ للتعبير عن السخرية من الذات على نحوٍ مبالغ فيه؛ فلم يكن يقال "في البورصة"، بل "فلبواصة"؛ أما حرف الراء فيُهمل وينطَق كحرف "الألف" مرققًا، وتبدو وجوههم أثناء ذلك راضية.

أما السيدات، فكُن قد توقفن عن متابعة الجدل منذ فترة طويلة، بعد أن أخذت السيدة كروجر تحادثهن مستعرضةً، على نحوٍ يثير الشهية، أفضل طريقة لطهي سمك الشبوط في النبيذ الأحمر: "فإذا قُسم إلى قطع متناسبة، يا عزيزتي، فضعيه في القدر مع البصل والقرنفل والعصيدة، ثم ضعيه على النار

بعد إضافة بعض السكر وملعقة زبد.. على ألاَّ تغسليه، يا عزيزتي، فهذه كارثة، بل اتركي كل ما فيه من دم".

أما العجوز كروجر، فراح يمطر من حوله بأكثر النوادر إمتاعًا. بينما كان ابنه يوستوس، الجالس بجوار الدكتور جرابوف بعيدًا على الطرف الآخر بالقرب من الأبناء، فقد أدار حديثًا فَكِهًا مع الآنسة يونجمان التي كانت تكاد تطبق جفنيها على عينيها السمراوين، رافعةً كعادتها المدية والشوكة وهي تحركهما بخفة هنا وهناك. بل إن الزوجين أوفرديك صارا على حالة من الصخب والحيوية التامة. وكانت القنصلة الكبيرة قد ابتكرت اسمًا تدلل به زوجها، فتناديه: "أنت، أيها العصفور الطيب!" ثم تهز قبعتها طربًا.

ثم اتخذ الحديث مسارًا واحدًا عندما تناول جان جاك هوفشتده موضوعه الأثير، عن رحلته إلى إيطاليا، التي قام بها قبل خمسة عشر عامًا مع أحد أقاربه من أهل هامبورج الأثرياء. فحكى عن ڤينسيا وروما وفيزوف، وتحدث عن ڤيلا بورجيزه التي كتب فيها الراحل جوته جزءًا من فاوست، وهامَ بنافورات عصر النهضة الملطفة لحرارة الجو، والطرق التي أُحسن تخطيطها وتحث على التسكع الممتع. وهنا تذكر أحدهم بستان آل بودنبروك الأغبر الذي كان يقع خلف بوابة بورجتور مباشرةً.

فقال بودنبروك الكبير: "أنا أقر مخلصًا بأن الضيق ينتابني لإهمالي رعاية البستان حينذاك، فلم أبذل حياله ما يكسبه مظهرًا إنسانيًّا إلى حدٍّ ما! وقد تمشيتُ خلاله مؤخرًا، فأحسست بالعار إزاء هذه الغابة البكر! وكم سيكون قطعة لطيفة من أملاكنا إذا مددنا يد العناية إلى الحشائش، وشذبنا الأشجار في أشكال مخروطية مكعبة".

فانبرى القنصل مبديًا اعتراضه بحماس: "ألا لا قدَّر الرب، يا والدي! فأنا أحب الذهاب في الصيف إلى هذه الغابة البكر، وسوف يعكر صفوي إذا قُطعت أوصال هذه الطبيعة الجميلة الحرة على هذا النحو المؤسف".

"فإذا كانت هذه الطبيعة الحرة ملك يميني، أفلا يكون من حقي، بربك، أن أهذبها كيفما شئت".

وكان أن صاح بودنبروك الكبير فجأة: "كريشان، لا تفرط في التهام الطعام، أما تيلدا فلا يضرها هذا.. فهي تلتهم حتى الأشواك، تمامًا مثل ماكينة الدراس".

كان هذا واقعًا ملموسًا، فمن العجب أن نمت قدرات هذه الصبية على التهام الطعام، وهي الهادئة الهزيلة ذات الوجه الطويل الشائخ. فقد ردت على السؤال عما إن كانت تريد صحن حساء لمرة ثانية ردًّا ممطوطًا خانعًا "ن-عـ - م، م-ن فضـ - لك".

كانت قد تناولت من السمك ولحم الخنزير مرتين منتقيةً كل مرة أكبر القطع، بالإضافة إلى أكوام من الأطعمة الأخرى، لتنحني بحذر على الصحن، بسبب معاناتها من قِصَر النظر، ملتهمةً كل شيء بقضمات كبيرة على مهل وبهدوء. وردت على كلمات رب البيت الكبير ردًا ممطوطًا ودودًا مفعمًا بالدهشة والبساطة: "يا ربي-عـ-مـ-ـي؟" إلا أنها لم تُلق لذلك بالاً، ولم تهتم بأن هناك من يرقبها أو يسخر منها. وأكملت التهام الطعام بشهية الاستغلال الغريزي لفتاة فقيرة على مائدة أقاربها العامرة المباحة؛ فكانت تبتسم غير عابئة وهي تشحن صحنها بكل ما لذ وطاب، صابرةً، مثابرة، جائعةً وهزيلة.

الفصل السَّـــادس

ها قد جاء البودينج في صحيفتين كبيرتين من البللور، وهو طبقاتٌ مزيجها المكرونة والتوت والبسكويت وكريم البيض؛ إلا أن الحماس اشتعل في نهاية المائدة لحصول الأطفال على وجبة الحلوى الأثيرة، أي بودينج البرقوق المتوهج.

وفيما كان يوهان بودنبروك قد أخرج سلسلة مفاتيحٍ كبيرة من جيب سرواله وقال: "توماس، ولدي، ألا تسدي لي معروفًا، هناك إلى يمين القبو الثاني فوق الرف الثاني، خلف نبيذ "بوردو" الأحمر، زجاجتان، أُحضرهما، وخُذ حذرك".

فمضى توماس، الذي يعرف قدر مثل هذه المهمات، ليعود بزجاجتين مغلفتين بالشِّباك، وقد غطاهما الغبار تمامًا. وما إن بدأ هذا "المالڤازييه"، الحلو الأصفر كالذهب، في التدفق من القارورة، المتوارية خلف غلافها، إلى كؤوس النبيذ الحلو الصغيرة، حتى حانت اللحظة التي وقف فيها القس فوندرليش، فيما التزم الجميع الصمت، فأمسك بالكأس بيده وبدأ يقدم

نخب المناسبة بعباراتٍ لطيفة. ثم مال برأسه قليلاً وعلى وجهه الأبيض بسمةٌ رقيقة مرحة، محركًا يده الأخرى بإشاراتٍ قصيرة رشيقة، وتحدث بنبرةٍ طليقة راضية كتلك التي كان يؤثر التحدث بها فوق المنبر: "والآن، فلتتفضلوا أيها الأصدقاء البواسل بمشاركتي في احتساء كأس من هذه القطرات الفريدة في صحة مضيفينا الكرام في بيتهم الجديد الفخيم.. في صحة أفراد عائلة بودنبروك الحاضر منهم والغائب.. تحية لهم!".

"الغائب منهم؟" كان هذا ما دار بخلد القنصل، وهو ينحني أمام الكؤوس التي رُفعت تجاهه: "فهل كان يقصد فقط هؤلاء الموجودين بفرانكفورت، أم، ربما آل دوشامب في هامبورج، أم كان للعجوز فوندرليش دوافعه الخفية؟" ثم نهض ليقرع كأسه بكأس والده، وهو ينظر بحبٍ عميق في عينيه.

ثم غادر الوسيط جراتينس مقعده، وقد استغرق ذلك وقتًا، إلا أنه عندما انتهى من ذلك، رفع كأس نخب شركة يوهان بودنبروك محييًا بصوته المتحشرج بعض الشيء، متمنيًا لها دوام الازدهار والنماء والتقدم، مما يعد فخرًا للمدينة.

وشكر يوهان بودنبروك الجميع على كلماتهم الحميمة، بوصفه عميد العائلة أولاً، وأقدم رئيس للشركة ثانيًا، ثم أرسل توماس لجلب زجاجة مالڤازييه ثالثة، بعدما تبين خطأ حسابه، ظنًّا منه بأن اثنتين تفيان بالغرض.

كما تحدث أيضًا لبرشت كروجر، الذي سمح لنفسه بالبقاء جالسًا أثناء ذلك؛ لأن ذلك يترك أثرًا أوقع، ولكي يكون بوسعه الإيماء برأسه والإشارة بيديه على راحته ليهدي نخب تحيته لكلا سيدتي المنزل، السيدة أنطوانيت

والقنصلة.

فلما انتهى، وكاد الجمع يفرغ من تناول البودينج واحتساء المالڤازييه، إذا بالسيد جان جاك هوفشتده ينهض ببطء مغالبًا حشرجة صوته بين صيحة "آآه" جماعية.. أثناء ما كان الأطفال يصفقون طربًا.

"نعم، عفوًا، فليس بوسعى إلا المشاركة" هكذا استهل حديثه، وهو يمس أرنبة أنفه مسًّا خفيفًا، ويسحب بعض الأوراق من جيب سترته، فيما كان سكونٌ عميق يغمر القاعة.

كانت الورقة التي بين يديه بيضاوية زاهية الألوان، رُسم على سطحها الخارجى ورودٌ حمراء وزخاف مذهبة، وراح يقرأ:

"بمناسبة مشاركتنا الحميمة لعائلة بودنبروك في حفلها السعيد بافتتاح دارها التي ابتاعتها مؤخرًا. أكتوبر 1835".

ثم قلب الورقة، وبدأ يقول بصوت مرتعش بعض الشيء:

"سادتي الأفاضل! ها كم قصيدتي،

متواضعة فلا تضيعوا فرصة سماعها

فهي هنا معكم بدار

لكم، هبة الأقدار لكم

هي لك خليلي، صاحب الشعر الفضي

ولزوجتك الكريمة ولابنيكما المتزوجين

مهداة بفرح

فالمهارة والجمال الحيي

اجتمعا أمام ناظرينا

فى أناديومن، زهرة ڤينوس
ويد "ڤولكاني" الماهرة
فلا أزعج نذيرٌ مكدرٌ
صفو حياتكم
وليهبكم كل يوم جديد
دومًا هناءً جديدًا
ويسعدني بلا حد
سعادتكم في المستقبل
فإن كنت غالبًا ما سأجدد أمنيتي
فهذا ما ترونه في نظرتي
ولتهنأوا بحياتكم في داركم الفخمة
ولتحفظوا القيمة والحب
لمن أوجز وكتب لكم هذه السطور
ثم انحنى، ليدوي تصفيقٌ جماعي حار طربًا.

وهتف بودنبروك: "جميل، هوفشتده! في صحتك! فقد كان هذا أفضل ما قيل!".

إلا أن بشرة القنصلة الناعمة اكتست بحمرة رقيقة تمامًا عندما شاركت الشاعر الشراب، بعد أن مسها تكريمه الفريد لها، بوصفه لها بأنها أناديومين، زهرة ڤينوس..

الفصل السَّــابع

٥

هكذا بلغ طرب الجمع أوجه في هذه اللحظة، وشعر السيد كوبن بحاجةٍ ماسة لفتح بعض أزرار صدريته، لكن للأسف لم يكن بوسعه فعل ذلك، فلم يكن من حق حتى كبار السن أن يسمحوا لأنفسهم أن يأتوا بمثل هذا.

أما لبرشت كروجر، فقد ظل على جلسته المستقيمة التي اتخذها من بداية الطعام، وأما القس فوندرليش فقد ظل على وضاءة وجهه ومسلكه المحافظ، وأما بودنبروك الكبير، فانسحب قليلاً، إلا أنه ظل محافظًا على مسلكه النبيل، ولم يكن سوى يوستوس كروجر الذي بدا عليه شيء من أمارات نشوة الشراب.

"أين الدكتور جرابو؟" نهضت القنصلة دون أن تلفت انتباه أيٍّ من ضيوفها، مغادرة المكان، بعد أن لاحظت خلو مقاعد الآنسة يونجمان والدكتور جرابوف وكريستيان على الطرف الآخر من المائدة، ومضت مسرعة خلف الخادمة التي كانت قد قدمت الزبد والجبن والفاكهة لتدخل الصالة، وهالها ما كان هناك في شبه الظلام فوق الأريكة المبطنة أمام العمود

الأوسط، حيث رقد أو انكمش كريستيان الصغير وهو يصدر أنينًا يكسر القلب.

فبادرتها إيدا الواقفة بجوار الدكتور: "آه، يا ربي، سيدتي الصغيرة، إن حالة كريستيان، الصغير، سيئة للغاية".

أما كريستيان فأخذ يئن وهو يقول: "أشعر بالغثيان يا أمي، إن حالتي سيئة للغاية، فيا لَلعنة". أما عيناه المستديرتان الغائرتان فراحتا تطوفان حائرتين هنا وهناك فوق أنفه الضّخم. ولم يكن قد لفظ كلمة اللعنة إلا بعد إحساسه باليأس المفرط. أما القنصلة فقالت: "إن استعمالنا لمثل هذه الألفاظ لحري بأن ينزل الرب الحبيب عقابًا أشد".

وقام الدكتور جرابوف بفحص نبضه، وقد بدا وجهه الطيب أكثر اعتدالاً واستطالة، ثم قال مواسيًا: "سيدتي القنصلة، إنه يعاني عسر هضم بسيطًا، لا يمثل خطرًا"، ثم أردف بنبرة بطيئة متحذلقة: "مِن الأفضل أن يُنقل إلى الفراش.. قليلاً من مسحوق الأطفال، وقدحًا صغيرًا من شاي البابونج المدِر للعرق، ووجبة طعام خفيفة للغاية، سيدتي القنصلة، كما قلت وجبة خفيفة للغاية، حمامةً صغيرة، قليلاً من خبز فرانتس".

فانفجر كريستيان صائحًا: "لا أريد حمامًا! لا أريد أن آكل ثانيةً أبدًا، أنا أشعر بالغثيان، غثيان لعين"، ويبدو أن هذا اللفظ، الذي كان ينطقه بمثل هذا الحماس، كان يشعره بالارتياح.

ابتسم دكتور جرابو ابتسامة متساهلة كاد الشجن يغشاها. فهو سوف يعاود تناول الطعام، هذا الفتى، وسوف يعيش حياته كسائر البشر، مثل آبائه، وأقاربه، ومعارفه، ولسوف يقضي أيامه جالسًا ملتهمًا أثناء ذلك أربع

وجبات مما لذ وطاب.

والآن، في رعاية الرب! هكذا كان هو، فريديش جرابو، فهو لم يكن مَن يرغب في تغيير عادات حياة كل عائلات هؤلاء التجار، الطيبة الموسرة المريحة، فهو يأتي عندما يتم استدعاؤه ثم ينصح بوجبات خفيفة ليوم أو يومين: حمامة صغيرة، شريحة من خبز فرانتس، مؤكدًا بضمير مستريح بأن هذه المرة لا تمثل خطرًا ما. وكان عاديًّا منذ صغره أن يمسك بيد أحد الرجال الأشداء التهم آخر قطعة من اللحم المدخن وآخر قطعة من لحم ديك رومي محشو، ليسقط فجأةً فوق مقعد مكتبه، أو يرقد فوق فراشه الوثير العتيق معانيًا من الآلام، مستسلمًا لأمر الرب. إنها جلطة، هكذا كان يُقال، أي شلل، موت مفاجئ غير متوقع.

نعم، نعم، وهو، فريدريش جرابو، كان بوسعه توقع ذلك، في كل تلك المرات العديدة التي كان يؤكد خلالها أنه ليس هناك ما يخشاه، وربما أيضًا عندما لم يُستدع ذات مرة، حين كان أحدهم يعود بعد تناوله الطعام إلى مكتبه فيشعر بدوار بسيط غريب.. حسنًا، لتنفذ مشيئة الرب!

إنه هو، فريدريش جرابو، الذي كان هو نفسه لا يبخل على نفسه بلحم الديك الرومي المحشو. لقد كان لحم الخنزير هذا المحمر ومعه حساء شارلوت وجبةً طيبة اليوم، وليذهب الشيطان إلى الجحيم، ثم يصاب بضيق التنفس من البودينج والمكرونة والتوت وكريم البيض، نعم، نعم.. "وجبة خفيفة، كما قلت، وجبة خفيفة– سيدتي القنصلة؟ حمامة صغيرة – قليلاً من خبز فرانتس".

الفصل الثّـامن

كان الجمع بالداخل، بقاعة الطعام، يتأهب للانطلاق.

"نعم، أيها السيدات والسادة ستحصلون على وجبات مبروكة وفي الطرف الآخر ينتظر العشاق سيجارًا ورشفة قهوة لنا جميعًا، فإذا تكرمت السيدة، فسنحصل على شراب أيضًا، أما قاعة البلياردو، في الخلف، فهي تحت تصرف أي أحد كالعادة، جان، فلتتسلم القيادة إلى خلف المنزل، .. مدام كوبن.. تفضلي".

كان الجمع يتجاذب أطراف الحديث وقد بلغ طربهم أوجه، آملين في الحصول على وجبة طعام مبروكة وهم يمرقون من مصراع الباب الكبير إلى حجرة المنظر الطبيعي.

إلا أن القنصل لم يذهب في البداية إلى هناك، بل جمع حوله في الحال السادة المهتمين بالـبلياردو. قال: "أبي! ألا تريد المغامرة بلعب دورا"

-لا.

وسوف يبقى لبرشت كروجر عند السيدات، أما يوستوس فبوسعه أن

يمضي إلى الخلف، بينما بقي جراتينس ودكتور جرلبوف عند القنصل، وأراد جان جاك هوفشتيده اللحاق بالآخرين، لكنه قال: "سيعزف يوهان بودنبروك الناي، ولا بد أن أنتظره، فـ أوروڤوار أيها السادة".

وسمع السادة الستة- عندما شقوا طريقهم في صالة الأعمدة- أول أنغام الناي القادمة من غرفة المنظر الطبيعي مصحوبة بعزف للقنصلة على الأرغن، لحنًا قصيرًا مشرقًا رائعًا ينساب حميمًا خلال الأروقة الفسيحة.

أما القنصل فكان يسترق السمع طالما كان هناك ما يُسمع، وكان يود لو ظل في غرفة المنظر الطبيعي جالسًا في مقعد وثير ليعيش مع أحلامه وأحاسيسه.. لكنه، واجب الضيافة!

ثم قال للخادمة التي كانت تصعد الدرج: "احضري بعض أقداح القهوة وبعض السيجار إلى غرفة البلياردو".

"نعم! لينا، قهوة، أنت؟ قهوة!" كرر السيد كوبن ذلك بنبرة خرجت من أعماق معدته، محاولاً القبض على ذراع الفتاة الأحمر. وكان قد نطق حرف "القاف" من أعماق حلقه، وكأنه قد رشفه وتمتع بمذاقه.

فقال القنصل كروجر: "أنا موقن أن السيدة كوبن رأت ذلك من خلال الزجاج".

فسأل لانجهالس: "هل تقيم بالطابق الأعلى، بودنبروك؟"

فقد كان السلم ناحية اليمين يفضي إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرف نوم القنصل وعائلته، وكما كان يوجد على الناحية اليسرى من البسطة العديد من الغرف.

ونزل السادة الدرج العريض بسياجه المصنوع من الخشب المخروط،

المطلي باللون الأبيض، وهم منتشون.

وهذا الطابق المسحور يحتوي على ثلاث غرف، واحدة للإفطار، وغرفة نوم لوالديَّ، وغرفة لا تستخدم إلا نادرًا وتفضي إلى الحديقة، وهناك معبر ضيق يتوازى مع الممر.. والآن إلى الأمام! أرأيتم؟ ها هو الممر الذي تخترقه عربة النقل، وسوف تسير خلال قطعة الأرض هذه حتى تصل إلى شارع "بيكر جروبه".

أما الممر الفسيح المجوف، تحتنا، فقد تم رصفه ببلاط مربع كبير. وعند باب مسقط الهواء، وكذلك عند الطرف الآخر، ثمة مكاتب العمل، أما المطبخ الذي ما تزال رائحة الصلصة الحمضية تنبعث منه، فيقع في الطريق إلى البدروم يسار السلم. وأمامه، وفي مكان مرتفع للغاية برزت من الجدار بعض النتوءات العشوائية النادرة، لكنها غُطيت بعناية بالخشب المطلي اللامع، وهي غرف الخادمات التي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال سُلم متحرك بالممر، وبجوارها كان هناك بعض الخزائن العتيقة للغاية، وصندوق من الخشب المزخرف بالحفر.

ومن خلال باب زجاجي مرتفع، يخرج المرء عبر عدة درجات سهلة ومسطحة تمامًا إلى الفناء، الذي يوجد في يساره غرف الغسيل. ومن هناك يستطيع المرء النظر إلى الحديقة ذات الموقع الرائع، وهي الآن رمادية ورطبة بفعل فصل الخريف، وقد تم حماية أحواضها ضد الصقيع بحصير من البوص، وكذلك واجهة منزل الحديقة من طراز الروكوكو الموجودة بالخلف وقد أُغلقت بوابتها.

أما السادة فقد شقوا طريقهم من الفناء باتجاه اليسار، وهو طريق بين

جدارين يؤدي إلى الفناء الثاني حيث المبنى الخلفي.

وهناك تفضي بعض الدرجات الزلقة إلى قبو من الطوب اللبن كان يُستخدم مخزنًا، ويتدلى من أعلى أرضه حبل لرفع أجولة الحبوب.

ولكن الجمع صعد يمينًا إلى السلم المحتفظ بنظافته إلى الطابق الأول، حيث قام القنصل بنفسه بفتح باب قاعة البلياردو أمام ضيوفه.

ألقى السيد كوبن بنفسه مجهدًا فوق أحد المقاعد الـصلبة المستندة إلى أحد جدران المكان الذي بدا فسيحًا مقفرًا وكابيًا. ثم صاح وهو ينفض قطرات المطر العالقة بسترته: "سوف أكتفي في البداية بالمشاهدة، وليرحمنا الرب، فيا لها من رحلة خلال بيتك، بودنبروك!".

وهناك كانت توجد أيضًا مدفأة خلف سياج من النحاس الأصفر، كتلك الموجودة بغرفة المنظر الطبيعي. ومن خلال ثلاث نوافذ عالية ضيقة كان يمكن النظر عبر الأسطح إلى الأفنية والأسطح الهرمية الغابرة.

"مباراة كارمبولاج، سيدي السيناتور؟" هكذا تساءل القنصل وهو يأخذ عصي اللعب من الحامل. ثم مضى ليسد المنافذ على جانبي منضدة البلياردو، ثم أضاف: "مَن سيشاركنا؟ جراتينس؟ الدكتور؟ حسنًا. جراتينس ويوستوس سيأخذان الكرات الأخرى.. وأنت كوبن ستنضم إليّ".

وكان تاجر النبيذ قد وقف بفم مليء بدخان السيجار ليسمع الريح وهو تصفر بين المنازل، ورذاذ المطر يلطم زجاج النوافذ، ثم يعوي في مدخنة المدفأة.

"اللعنة، هل تظن أنه سيكون بوسع سفينة "فولنفر" الدخول إلى الميناء، بودنبروك؟ يا له من طقس شيطاني".

حقًّا، فقد كانت الأنباء الواردة من ترافهمنده غير مُبشرة، وهو ما أكده القنصل كروجر وهو يمسح قمة عصاه بالطباشير. فقد هبت العواصف على كل السواحل، ولم تكن نَوة العام 1824 أكثر سوءًا، يعلم الرب، عندما هاجم الطوفان العظيم بطرسبرج.. ها، قد وصلت القهوة.

تناول كلٌّ منهم قدحًا ورشف رشفة ليشرعوا في اللعب، لكنهم سرعان ما بدأوا الحديث عن الاتحاد الجمركي.. وكم كان إعجاب القنصل بودنبروك بالاتحاد الجمركي: "يا له من إبداع!" هكذا صاح، وهو يتجه إلى الجانب الآخر من المنضدة بحيوية، متابعًا تسديدةً للكرة، حتى وصل إلى حيث كان قبل كلمته الأولى، ليضيف: "ولسوف ننضم إليه عند أول فرصة".

إلا أن السيد كوبن لم يذهب إلى هذا الرأي، فانبرى معارضًا، وقد ارتكز على عصاه متأهبًا للنزال، وتساءل مغاضبًا: "وماذا عن استقلالنا وعن استقلال إرادتنا؟ وهل ترتضي هامبورج المشاركة في هذه البدعة البروسية؟ ولماذا لا نندمج من الآن مع بروسيا، بودنبروك؟ أعوذ بالرب، كلاًّ، فماذا نجني من وراء الاتحاد الجمركي، هذا ما أريد أن أعرفه! أليس كل شيء على مايرام؟"

"أجل، لعلك تقصد تجارتك بالنبيذ الأحمر! وقد نضيف إلى ذلك المنتجات الروسية، فعن هذا ليس لديَّ أي تعليق. ولكننا لا نستورد حقًّا غير ذلك! فماذا عن التصدير، حسنًا، فنحن نصدر بعض الحبوب إلى هولندا وانجلترا، بالتأكيد!.. لا، كلاًّ، ليس كل شيء على ما يرام، للأسف. فوربي كانت هناك أنشطة تجارية أخرى في الماضي، لكن في حال انضمامنا للاتحاد الجمركي فسوف تُفتح أمامنا أسواق مكلنبورج وشلسفيج- هولشتاين.. ولا

يمكننا توقع مدى نمو نشاطنا الاقتصادي".

انحنى جراتينس بعمق على العصا وأخذ يوجهها بيده ذات العظام البارزة هنا وهناك بحرص، لتحديد الهدف ليبادر قائلاً: "لكني أرجوك، بودنبروك، فهذا الاتحاد الجمركي.. لا أفهمه؛ فالنظام الراهن بسيط وعملي للغاية، أليس كذلك؟ أما الاعتماد على عهد المواطنة".

فكان على القنصل أن يعترف: "إنها مؤسسة عريقة جميلة".

فقال السيناتور لانجهالس مغاضبًا بعض الشيء: "لا، إنه الحق، سيدي القنصل- عندما تجد شيئًا جميلاً فأنا لست تاجرًا.. وإن تحرينا الصدق- فلا، فأنا أجد عهد المواطنة شرًّا، أو سيؤول إلى ذلك تدريجيًّا، لابد أن أقول هذا! فلقد صار صيغة قانونية يمكن تجاهلها، كما تغاضت الدولة عنه. ثم نتكلم عن أشياء، هي سيئة. وأنا على يقين من أن الانضمام لاتحاد الجمارك من جانب مجلس الشيوخ..."

"ثم ينشب نزاع!" تملك السيد كوبن الغضب، فرمَى بالعصا إلى الأرض. وقال: "نساع"، متنازلاً عن كافة أوجه الحرص فيما يخص نطق الألفاظ.

"يعني هو نزاع.. أنا فاهم، لا، مع كل التكدير سيدي البلَّماني، لكن لن نستطيع مساعدتك.كان الرب في عونك". ثم تحدث بحماس عن لجان الفصل وسلامة الدولة وعهد المواطنة والمقاطعات الحرة.

وكان فضلاً من الرب أن وصل جان جاك هوفشتيده متأبطًا ذراع القس فوندرليش: سيدان عجوزان يتمتعان بالتفتح وروح المرح.

ثم قال مبادرًا: "والآن أيها الأصدقاء البواسل لدى ما أقوله لكم، إحدى النوادر، الفكهة إلى حدٍّ ما، هي قطعة شعر قصيرة بالفرنسية انتبهوا".

ثم استرخى على مقعد مواجهًا اللاعبين المعتمدين على العصي، مستندين على طاولة البلياردو، ثم سحب وريقة من جيبه واضعًا إصبعه السبابة الطويلة ذات الخاتم على أنفه الحاد، وشرع يقرأ بنبرة شعرية حالمة بسيطة فرحة:

خرج مارشال ساكسن يومًا للنزهة
بعربة ملكية ذهبية مع بومبادور المختالة
والنشوة تظلهما
فرأى فريلون الرفيقين
فهتف، انظروا ها هما الرفيقان
سيف الملك وما يُغمد فيه

ارتبك السيد كوبن برهة مهملاً "النساع" وسلامة الدولة، وشارك الآخرين القهقهة حتى رددت القاعة صدى الضحك. أما القس فوندرليش فقد ذهب إلى إحدى النوافذ كاتمًا ضحكه الذي فضحه اهتزاز كتفيه.

قضى الأصدقاء فترة طويلة معًا، هناك في الخلف في قاعة البلياردو، فقد كان ما يزال لدى هوفشتيده مثل هذه النوادر الجاهزة.

وكان السيد كوبن قد فتح سترته عن آخرها، وكان هنا في أفضل حالاته المزاجية عما كان عليه بقاعة الطعام، وصار مع كل تسديدة يستخدم تعبيرات بالعامية، مستمتعًا من حين لآخر بترديد: "خرج مارشال ساكسن ذات يوم".

وكانت هذه الأبيات تتبدى على نحو عجيب في نبرات صوته العالي الأجش.

الفصل التاسع

كان الوقت متأخرًا، حوالي الحادية عشرة، وكان الجمع الذي التأم شمله ثانيةً بغرفة المنظر الطبيعي قد أخذ- تقريبًا في وقت واحد- في الانصراف.

بعد أن قبل الجميع يدها، صعدت القنصلة في الحال إلى غرفتها لترى كريستيان العليل، تاركة للآنسة مهمة الإشراف على الفتيات اللاتي يقمن بجمع الأواني.

بينما عادت السيدة أنطوانيت إلى الطابق المسحور. وقام القنصل باصطحاب الضيوف على السلم عابرًا الممر حتى باب البيت الخارجي.

كانت ريحٌ حادة قد ساقت المطر جانبًا، وأسرع كروجر وزوجته العجوزان، متدثرين بمعطفيهما الفراء، ليندسا في عربتهما الفخمة التي كانت تنتظرهما منذ زمن.

وكان ثمة ضوءٌ أصفر مرتعش، ينبعث من مصابيح زيت متوهجة أعلى أعمدة أمام المنزل، وأخرى علقت على سلاسل عبر الشارع.

وكانت منازل، ملحقًا بها مبانٍ أمامية، تتناثر هنا وهناك في الشارع

المنحدر إلى نهر ترافه، وبعضها يشتمل على ملحقات أو بنوك. وقد نبت عشبٌ رطب بين ثنايا البلاط الرديء.

ضغط لبرشت كروجر على يد القنصل الواقف أمام العربة، وقال: رسّي ـ رمي ـ جان، لقد كان الحفل على أفضل وجه". ثم صفق الباب لتنطلق العربة. كما شق القس فوندرليش والسمسار جراتنيس طريقهما شاكرين.

أما السيد كوبن، فقد تدثر بمعطف ذي خمس ثنيات واضعًا على رأسه قبعة رمادية كبيرة، متأبطًا ذراع زوجته البدينة، ثم قال بصوته الأجش: "طابت ليلتك، بودنبروك، فلتدخل حتى لا تصاب بالبرد، شكرًا جزيلاً- على فكرة؟ لقد أكلت ما لم آكله منذ زمن.. وشربت أربعة من النبيذ الأحمر.. مرةً أخرى ليلةً طيبة!"

ومضى الزوجان مع القنصل كروجر وعائلته منحدرين نحو النهر، بينما اتخذ السيناتور لانجهالس ودكتور جرابوف وجان جاك هوفشتيده الاتجاه الآخر.

أما القنصل بودنبروك فكان قد دس يديه في جيبي بنطلونه فاتح اللون وقد أحس على نحوٍ ما بالصقيع تحت سترته الجوخ، واقفًا على بعد بضع خطوات من بيته، مسترقًا السمع لصدى وقع دبيب الأقدام في شوارع مهجورة مبتلة ذات إضاءة بائسة.

ثم استدار ناظرًا إلى واجهة البيت الجمالونية الرمادية، وعلقت عيناه بمأثور نقش بحروف قديمة أعلى المدخل:

"Dominus providebit" (الرب حافظنا).

وفيما كان ينكس رأسه قليلاً دلف إلى الداخل، وأغلق بحرص باب البيت ذي الصرير الثقيل. ثم أغلق باب مسقط الهواء وشق طريقه على مهل عبر الممر المجوف.

سأل الطاهية التي كانت تنزل الدرج حاملة صينيةً مليئةً بأوان تصدر وسوسة: "تارينا! أين السيد؟"

"في قاعة الطعام، سيدي القنصل.." ثم تورد وجهها بلون ذراعيها، فقد كانت من تلك الفتيات الريفيات اللائي سرعان ما ينتابهن الارتباك.

صعد إلى أعلى وتوقف في غرفة الأعمدة المظلمة، وأتى بحركة بيده نحو جيب سترته العلوي، فخشخش الورق داخله.

ثم دخل البهو الذي كان بأحد أركانه بقايا شموع مشتعلة فوق شمعدان لتضيء الطاولة الخالية. وكانت رائحة صلصة الشالوت اللاذعة ما تزال عالقةً بالهواء، وهناك في الخلف، بجوار النوافذ، كان يوهان بودنبروك واضعًا يديه وراء ظهره، وهو يروح ويجيء على مهل.

الفصل العاشر

توقف ومد نحو ابنه يدًا بيضاء قصيرة إلى حدٍّ كبير، برغم شكلها الرقيق الخاص بآل بودنبروك، وقال: "والآن يا بني يوهان، إلى أين أنت ذاهب؟" قلقًا وبلا مبالاة، ومن بين ظلال اللون الأحمر الداكن لستائر النوافذ، نهض بقامته المتينة التي لم يظهر منها سوى باروكته المنثورة بالبودرة وحلية الدانتيل اللامعة.

"ألم تتعب بعد؟ إنني أروح وأغدو مستمعًا للرياح، فهو طقسٌ لعين، والقبطان كلوهت في طريق عودته من ريجا".

"آهٍ يا أبي! بعون الرب سوف يصبح الأمر على ما يرام!"

"هل لي أن أعتمد على ذلك؟ لو اعترفنا بأن علاقتك بالسيد الرب علاقةٌ مباشرة".

أدى هذا المزاج الطيب بالقنصل إلى أن يشعر بارتياح أكبر.

"عمومًا، من أجل الدخول إلى الموضوع"، هكذا شرع في الحديث، "لم أكن أريد أن أتمنى لك ليلةً طيبةً فحسب يا أبي، بل.. لكن لا تغضب،

اتفقنا! فأنا لم أشأ حتى الآن أن أعكر مزاجك في هذا المساء السعيد بهذا الخطاب الذي وصل عصر اليوم".

"هو السيد جوتهولد إذن"، واصطنع العجوز الهدوء التام تجاه هذا الخطاب الموسوم بالخاتم والمائل إلى اللون الأزرق.

"إلى السيد بودنبروك، ليده شخصيًا، .. إن السيد أخاك غير الشقيق يا جان رجل يعرف الأصول، هو الذي لم ترد على خطابه الثاني مؤخرًا ورغم ذلك فها هو يكتب خطابه الثالث"، فيما كان وجهه الوردي يزداد امتقاعًا فض الخاتم بإصبعه، وفتح بسرعة الورق الرقيق، ثم مال ليعرض الورقة تحت ضوء الشمعدان، وضرب الورقة بظاهر يده بعنف.

وها هو الانفعال والتمرد يتبديان حتى في خط يده، وبينما كان آل بودنبروك يكتبون على الورق بسرعة ويُسر حروفًا صغيرة مائلة، كانت هذه الحروف مرتفعة وحادة، يميزها ضغط مفاجئ، وكانت هناك كلمات وُضع تحتها على عجل خط مقوس.

انسحب القنصل جانبًا قليلاً نحو الحائط حيث توجد المقاعد، إلا إنه لم يجلس، بل قبض متوترًا على أحد المساند العالية، وهو يراقب العجوز الذي نكس رأسه جانبًا مقطبًا حاجبيه محركًا شفتيه بسرعة وهو يقرأ:

والدي

آمل أن أكون مخطئًا فيما شعرتُ به عندما ظل خطابي الثاني بشأن المسألة المعهودة بلا رد، بعد أن وصلني رد على الرسالة الأولى (بغض النظر عن الأسلوب الذي كُتب به). ولابد أن أصارحك (والشكوى لله) أن أسلوبك العنيد لا يزيد الهوة بيننا إلا اتساعًا، وهو جُرمٌ سوف تُسأل عنه يومًا

سؤالاً عسيرًا أمام عرش الرب.

وإنه من المحزن بما يكفي أنني لما لبيت نداء قلبي قبل سنين عديدة، فتزوجتُ على غير رغبتكم تلك المرأة التي أصبحت عقيلتي منذ ذلك الحين، وتوليت مسؤولية أعمال أحد المحال، كنتُ بذلك قد جرحتُ كبرياءك الذي يفوق الوصف، فتحولتَ عني تحولاً تامًا ورهيبًا للغاية، أما الأسلوب الذي تعاقبني به الآن فهو يصرخ للسماء؛ وإن كنت تعتقد أن صمتكم سيجعلني ألزم الصمت والسكينة فإنك ترتكب خطًا جسيمًا.

إن سعر بيع المنزل الذي اشتريته مؤخرًا في شارع منجشتراسه بلغ 100000 مارك. وقد نما إلى علمي أيضًا أن شريككم وابنكم من الزواج الثاني يوهان يسكن لديكم بالإيجار، وبعد موتكم سوف يكون هو المالك الوحيد للمنزل والشركة.

وقد عقدتَ اتفاقات مع أختي غير الشقيقة وزوجها بفرانكفورت، ليس لي أن أتدخل فيها، أما فيما يخصني أنا ابنك البكر، فإنك تتطرف في غضبك عليَّ بما يجافى تعاليم المسيحية، فترفض رفضًا باتًا منحي أي مبلغ عوضًا عن نصيبي في المنزل. ولقد تجاوزتُ ذلك ملتزمًا الصمت عندما دفعت لي 100000 مارك لزواجي واستقراري، ولم تنص لي في وصيتك إلا على 100000 فقط هو كل نصيبي في الميراث.

حينذاك، لم أكن على دراية كافية بمقدار ثروتك، أما الآن فقد اتضح لي الأمر على نحو أفضل. ولما كنت مبدئيًا لا أعتبر نفسي محرومًا، إذن فإنني أستحق في هذه الحالة إجمالي تعويض قدره 33335 مارك، وهو ما يعادل ثلث ثمن الشراء.

وأنا أربأ بنفسي عن سوء ظنٍ حول هذه المسالة التي كان لها تأثير لعين عليّ، واضطررت لتحملها حتى الآن. ولسوف أحتج على نفس المسألة بكل روح الناموس المسيحي وميثاق رجال الأعمال، وأؤكد لك للمرة الأخيرة أنني- في حال أنك لم تستطع حسم أمر احترام حقوقي العادلة- فلن أحترم مسيحيًّا أو رجل أعمال بعد ذلك.

جوتهولد بودنبروك

قال يوهان بودنبروك وهو يلقي بالخطاب لابنه غاضبًا: "عذرًا، فأنا لا أجد من دواعي سروري أن أعيد عليك تلاوة هذه الرسالة- ها هي!".

فتلقف القنصل الخطاب حين رفرف قرب ركبتيه، وراح يتابع خطى أبيه بنظرات زائغة حزينة.

أمسك السيد العجوز بمطفأة الشمع الطويلة المرتكنة قرب النافذة، ومضى مشدودًا حانقًا بحذاء الطاولة صوب الشمعدان في الركن المقابل.

"كفى، هذا ما عندي، انتهى الكلام، فلنمضِ إلى الفراش".

هكذا تحدث بودنبروك مازجًا كلماته الألمانية بالفرنسية. والشعلة تلو الأخرى تخبو مستسلمة لقمع الرأس المعدنية المثبتة أعلى المطفأة.

لم يكن قد تبقى سوى شمعتين مشتعلتين حينما استدار إلى ابنه، الذي كاد أثره ألاَّ يظهر وهو يمضي خلفه.

"حسنًا.... ما رأيك، لا بد أن تقول شيئًا ما".

"وماذا أقول يا أبي؟ أنا محتار".

"ما أيسر وقوعك في الحيرة".. هكذا تلفظ يوهان بودنبروك بنبرة حانقة وكأنه هو نفسه يدرك أن هذه العبارة لا تنطوي على صدق كبير، فقد كان

ابنه وشريكه يفوقه أحيانًا في القبض الحاسم على المصلحة.

وقال القنصل: "إنه أثر لعين وسيء.. هذا ما فهمته من السطر الأول! فحضرتك لا تدرك مدى الأذى الذي ألم بي؟ ثم إنه يتهمنا بالكُفرا".

اقترب يوهان بودنبروك حانقًا، وهو يجرجر خلفه مطفأة الشمع: "أيصيبك هذا الخطاب البائس بالخوف؟"

"كُفرا ها! يا له من ذوق رفيع يتمتع به أولئك المتدينون الجشعون، وأنا أجد نفسي مضطرًا لقولي هذا، فأية عصابة أنتم حقًّا، أيها الشبان، حقًّا؟ لقد امتلأت رؤوسكم بأباطيل مسيحية خيالية.. و.. مثالية!

"أما نحن الكبار، فلسنا سوى الهازئين غلاظ القلوب.. ومعنا امبراطورية يوليو والمثل العملية.. بل إن سب أحدكم لأبيه بأقذع الشتائم في عُقر داره لهو أيسر عنده من تنازله عن بضعة آلافٍ من الملاليم، وبعد ذلك يؤثرني باحتقاره لي كرجل أعمال!

"حسنًا! فأنا كرجل أعمال أعرف ماهية النفقات العارضة.. النفقات العارضة!" أعاد العبارة بنبرة باريسية، ضاغطًا على حرف الراء، في غيظ.

"كما أن تساهلي وخضوعي لن يجعلا هذا الابن الغرير العاق متسامحًا".

"والدي العزيز، بماذا ينبغي عليَّ الرد! فأنا لا أريد أن يكون الحق في جانبه فيما قاله عن تلك الدوافع!"

"حقًّا! نعم، أقسم لك بشرفي أنك محقٌّ فيما ذهبت إليه، حقًّا، جان، فكيف تسير الأمور إذن؟ آنذاك، عندما كان قد شغف حُبًّا بآنسته شتيوفنج ودخل معي في نزاعٍ تلو الآخر، وفي النهاية عقد قرانه متحديًا رفضي التام لذلك، هنا كتبتُ له ابني العزيز جدًا أنت تتزوج متجرك، قُضي الأمر. ولن

أحرمك من الميراث، ولن أفتعل فضيحة، ولكن حبل الود بيننا قد انقطع، وها أنا أرسل إليك 100000 هديةَ زواجك وسأُضمِّن وصيتى 100000 أخرى، وهذا هو كل شيء، وبذلك أكون قد سويت حسابك، ولن أدفع فوق ذلك شلنًا واحدًا- وآثر هو الصمت عن ذلك. فما شأنه إن كنا كسبنا صفقات؟ وإن كنتَ وأختك قد ربحتما بجهدكما نصيبًا أكبر؟ وإن اشتريتما منزلاً من نصيبكما في الميراث.."

"لو أنك تدرك، يا أبي، مدى الورطة التي وقعت فيها بسبب حرصي على لم شمل الأسرة.. لكن.."

تنهد القنصل تنهيدةً هينةً مستندًا إلى أحد المقاعد. أما يوهان بودنبروك فقد اتكأ على المطفأة مستطلعًا بانتباه المكان شبه المعتم المفعم بالتوتر، من أجل تفحص تعبير وجه ابنه.

كانت الشمعة قبل الأخيرة قد خبت جذوتها من تلقاء نفسها، ولم يكن هناك في الخلف سوى واحدة ما تزال تتوهج، ليظهر من نقش الجدار من حين لآخر وجهٌ أبيض مبتسمًا ليختفى ثانيةً.

فقال القنصل: "والدي، إن علاقتنا بجوتهولد تحزنني!"

"هذا هراء، جان، دع العاطفة جانبًا! فماذا يحزنك؟"

"أبي.. لقد التأم شملنا اليوم، غمرنا الفرح، واحتفينا بيوم جميل، وكنا سعداء وفخورين، مدركين أننا أنجزنا شيئًا وأننا أحرزنا شيئًا.. وأننا بلغنا بشركتنا وعائلتنا إلى مستوى أكسبنا أعظم تقدير واعتبار.. لكن، أبي، هذا العداء المستطير لأخي، ابنك البكر.. لا ينبغي أن يصبح صدعًا داخليًّا في بنيان شيدناه بعون من الرب، فلابد أن تبقى الأسرة على وحدتها، متماسكةً،

يا أبي، وإلا حل بنا الويل".

"ترهات، جان! هراء، أيها الفتى العنيد.."

ثم ساد الصمت، بينما كانت الشعلة الأخيرة تخبو شيئًا فشيئًا.

وسأل يوهان بودنبروك: "ماذا تفعل، جان؟ أنا لم أعد أراك".

فرد القنصل مجافيًا: "أسوي بعض الحساب".

اشتعلت جذوة الشمعة فبدا الآن منتصبًا محدقًا في الشعلة الراقصة بعينين باردتين يقظتين، كما لم تكونا طوال عصر اليوم.

"من ناحية: سوف تدفع حضرتك 33335 لجوتهولد و15000 للأخرى في فرانكفورت، فيكون الإجمالي 48335. ومن ناحية أخرى: ستعطي تلك التي في فرانكفورت 25000 فقط، وهو ما يعني ربحًا للشركة قدره 23335. ولكن هذا ليس كل شيء. فإذا افترضنا أن حضرتك سوف تدفع لجوتهولد تعويضًا عن نصيبه في البيت وبذا تقوض المبدأ، لأنه لم يتم الاتفاق على ذلك آنذاك اتفاقًا نهائيًا، فيكون من حقه بعد وفاتك المطالبة بنصيب في الميراث يتساوى مع نصيبي ونصيب أختي وهو ما سيؤدي إلى خسارة الشركة لمئات الألوف التي لا يمكن للشركة أن تتحملها، وأنا أيضًا لن أطيقها كمالكٍ وحيد في المستقبل.. لا، يا أبي!"

هكذا حسم الأمر بحركة قوية بيده واعتدل أكثر انتصابًا عن ذى قبل.

"إذن! قُضي الأمر، انتهى الكلام! إلى الأمام! إلى الفراش!".

أخمد الشعلة الأخيرة بالقُمع المعدني. وخطا كلاهما خلال البهو في ظلام دامس، وفي الخارج عند الدرج المفضي إلى الطابق الثاني تصافحا.

"طابت ليلتك، جان.. تشجع، حقًا؟ لم يكن هذا سوى منغصات.. إلى

اللقاء غدًا عند الفطور!".

صعد القنصل الدرج إلى مسكنه، بينما كان العجوز يتحسس السياج نازلاً إلى الطابق الأوسط. ثم غرق البيت القديم الفسيح في ظلامٍ وسكون. وهدأت المخاوف والآمال والتباهي، بينما في الخارج، في الشوارع المقفرة، كان المطر يعصف ورياح الخريف تصفر في الأركان والأسقف الهرمية.

الجـــزء الثَّـــاني

الفصـل الأوَّل

بعد عامين ونصف، وفي منتصف أبريل، كان الربيع قد حل مبكرًا عن ذي قبل، وفي هذه الأثناء، وقع حدثٌ جعل يوهان بودنبروك العجوز يغني فرحًا، مما دفع ابنه لفرحة عارمة.

ففي صباح يوم أحد، حوالى الساعة التاسعة، كان القنصل يجلس في حجرة الإفطار أمام حافظة الأوراق الشخصية الكبيرة، بنية اللون، القائمة أمام النافذة، وقد ارتد غطاؤها المقوس إلى الخلف بفعل الزنبرك.

وقد وضع أمامه حافظة كبيرة من الجلد انتفخت بالأوراق، إلا أنه سحب كُراسًا بغلاف مضغوط مُذهب وعكف على الكتابة بحماس وبلا انقطاع بخطه الصغير الدقيق السريع، فلم يكن يتوقف إلا لغمس ريشة الأوز في دواة الحبر المعدنية الثقيلة.

كانت النافذتان مفتوحتين، فهب من الحديقة هواء ربيعي معبق بالانتعاش وروائح التوابل الرهيفة، دافعًا بنعومة وبدون صوت الستائر قليلاً، وهناك كانت شمسٌ معتدلة تلقي بأشعتها على البراعم الأولى، حيث

كان بعض أصوات الطيور الصغيرة تجاوب بعضها البعض. وهناك على مائدة الطعام كان ضوء الشمس ساطعًا إلى حد يخطف الأبصار على غطاء الكتان الأبيض.

كان مصراعا الباب المفضي إلى غرفة النوم مفتوحين، ومن هناك تسلل صوت يوهان بودنبروك الذي كان يتغنى بصوت خفيض للغاية بلحن قديم مرح:

رجلٌ طيب، رجلٌ مهذب
رجلٌ رقيق الحاشية
طها حساءً وهدهد طفلاً
تفوح منه رائحة البرتقال

كان قد جلس بجوار مهدٍ صغير يزدان بستائر حرير أخضر، قائم بجانب سرير القنصلة المغطى بناموسية، وكان يحافظ على أرجحته بانتظام بإحدى يديه.

كانت القنصلة وزوجها، قد رتبا مقامهما هنا بالطابق الأسفل مؤقتًا لدواعي تيسير الخدمة، فيما كانت الغرفة الثالثة بالطابق المسحور مخصصةً لنوم الأب والسيدة أنطوانيت، التي كانت تجلس بالطرف الآخر بالمائدة، وقد ارتدت مئزرًا فوق ثوبها المخطط، واضعة قبعة دانتيل مدببة على خصلات شعرها الأبيض الغزيرة، عاكفةً على غزلها من الفلانيل والكتان.

كان القنصل بودنبروك منهمكًا بعمله إلى حد أنه لم يلق نظرة بالكاد إلى الغرفة الجانبية، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجدية وتعبير الورع المتبتل، وفغر فاه قليلاً فتدلت ذقنه بعض الشيء، وعيناه تغيمان من حين

لآخر وهو يكتب:

"في السادسة من صباح اليوم الموافق 14 أبريل 1838 رُزقت زوجتي الحبيبة إليزابيث، ابنة كروجر، بعون الرب ورحمته الواسعة، بابنة صغيرة، وقد منحها كرسي المعمودية اسم كلارا. وقد أعانها الرب الرحيم حقًّا رغم تصريح الدكتور جرابو بأن الولادة سبقت موعدها قليلاً، فلم يجر كل شيء على خير وجه مما أدى إلى معاناة "بيتسي" آلامًا شديدة. آهٍ، أين مثل هذا الرب الذي يماثلك أنت يا رب الجنود، المعين على كل كرب ومحنة، لتعلمنا الامتثال لمشيئتك حتى نخشاك مخلصين لإرادتك وأمرك. فاهدنا يا رب وسدد خطانا ما بقينا أحياءً على الأرض". وكانت الريشة تجري بسرعة وسلاسة وتناجي الرب من سطرٍ لآخر، وتنقش من حينٍ لآخر بعض رتوش اعتادها التجار.

وقد كتب بعد صفحتين:

"لقد أودعت لابنتي الصغيرة وثيقة تأمين قدرها 150 ريالاً، فلتأخذ بيدها يا إلهي إلى سبيلك، وهبها قلبًا مخلصًا فتدخل به يومًا دار السلام الخالدة. فنحن ندرك حقًّا كم هو عسير الإيمان بكامل الروح بأن المسيح الحبيب الوديع قد خلص لي كله. فقلوبنا الدنيوية الصغيرة الواهنة.."

وبعد صفحات ثلاث كتب القنصل: "آمين".

كانت الريشة تنساب تلقاء نفسها، كانت تنساب بصريرٍ رقيق فوق بعض الأوراق تنهل من موردٍ عذب يشفي غليلَ الهائم المنهَك لتكتب عن الجراح الدامية المقدسة لمخلِّص البشرية وعن سبلٍ فسيحة وضيقة، وعن الرب صاحب المجد العظيم.

ولم يكن ممكنًا إنكار أن القنصل كان يشعر بعد هذه الجملة أو تلك

بالميل إلى الاكتفاء، ليرفع القلم ويمضي إلى زوجته أو إلى المكتب.

لكن كيف! هل تعب سريعًا هكذا من مناجاة خالقه ورازقه؟ أي جحودٍ للرب هذا الذي يحول بينه وبين الكتابة.. لا، لا، ولكي يكبح جماح رغباته أخذ يقتبس فقرات أطول من الكتاب المقدس، كما أخذ يصلي من أجل والديه وزوجته وأبنائه ومن أجل نفسه، وكذلك أيضًا من أجل أخيه جوتهولد- وفي النهاية، وبعد آخر آية من الإنجيل وثلاث مرات أخيرة من ترديده: "آمين"، نثر رمالاً ذهبية فوق الكتابة ليتنهد، مريحًا ظهره إلى مسند المقعد.

وضع ساقًا فوق الأخرى، وأخذ يقلب ببطء في دفتره، ليقرأ هنا وهناك مقطعًا من البيانات والتأملات التي كتبها بيده، ليسعد ثانيةً بإدراكه أن يد الرب كانت دائمًا تباركه في كل المحن. فقد داهمه الجدري بشدة حتى إن كل الناس أيقنوا بهلاكه إلا أنه برأ منه. وذات مرة، أثناء صباه، كان يحضر حفل زواج، حيث كان يُخمر الكثير من البيرة، (كان تخمير البيرة بالبيوت عادةً قديمة) ومن أجل هذا التخمير أقيم برميلٌ ضخم أمام الباب، فإذا بالبرميل يهوي بقاعه على الصبي بعنف ودوي شديدين، حتى إن الجيران هرعوا إلى الباب، وبذل ستة منهم جهدًا عظيمًا من أجل إعادة البرميل إلى وضعه السابق. سُحقت رأس الصبي وتدفقت الدماء على كل جسده. ثم حُمل إلى أحد المتاجر. ولما كان ما يزال فيه رمق من الحياة، نُقل إلى الطبيب ومضمد الجراح.

وقد قيل للأب بأنه عليه التسليم بمشيئة الرب، فمن المحال بقاء الصبي على قيد الحياة.. والآن فلتنصت: فالرب القادر على كل شيء، بارك الوسيلة،

وساعده لاستعادة عافيته كاملة!- فلما استعاد القنصل هذا الحادث حيًّا في ذاكرته أمسك بالريشة وكتب بعد آخر كلمة آمين: "نعم، سيدي، فلأسبحنك للأبدا"

وذات مرة أخرى أنقذه الرب من الغرق، وكان قد ذهب إلى بيرجن وهو ما يزال في ريعان شبابه، وهو ما سجله كالتالي: "كنا في وقت مد البحر، وهو وقت يوافق وصول سفن الشمال، وتعين علينا بذل مجهود كبير حتى نصل إلى جسرنا عبر قوارب الصيد؛ أما ما حدث لي أثناء ذلك فكان كالتالي: كنت واقفًا على حافة القارب، مثبتًا قدمي بحلقات المجذاف، معتمدًا بظهري على قارب الصيد حتى أسحب القارب، ولسوء حظي إذا بحلقات المجذاف تنكسر حيث كنت مثبتًا قدمي، فسقطت برأسي في الماء. طفوت أول مرة ولم يكن هناك أحدٌ بالقرب مني يمكنه الإمساك بي، فلما طفوت ثانيةً لم يكن هناك سوى القارب الذي اتجه نحو رأسي. كان هناك أناس بما فيه الكفاية، يتمنون إنقاذي، لكن كان عليهم الدفع بالقارب والمركب الشراعي أولاً حتى لا يصطدما بي، إلا إن كل مجهودهم لم يكن ليثمر لولا أنه في هذه اللحظة انقطع حبل إحدى سفن الشمال فأبحرت السفينة، وأتاحت القدرة الإلهية لي بذلك فرجةً للنفاذ منها. ورغم أنني لم أطفُ للمرة الثالثة إلا بقدر ظهور شعري فحسب، فقد كانت هناك رؤوس متناثرة هنا وهناك تنظر من فوق القارب إلى الماء، وكان أحدهم قد مال بجسده خارج القارب، فاستطاع القبض على شعري، فقبضت أنا على ذراعه.

فلما لم يستطع التماسك صرخ وزأر بقوة فسمعه الآخرون، فهرعوا ليمسكوا بخصره ويثبتوه بقوة، مما ساعده على الصمود. وكنت أنا أيضًا أتعلق

به بقوة بينما كان هو يعض ذراعي، لكنه كان من خلال ذلك قد استطاع نجدتي.."

ثم تلا ذلك صلاةُ شكر طويلة أداها القنصل بعينين دامعتين.

وقد سجل بموضعٍ آخر: "كان بوسعي ذكر الكثير لو توفرت لديَّ إرادة البوح بعواطفي"، إلا إن القنصل تجاهل ذلك وشرع في قراءة بضع سطور من هنا وهناك عن بداية فترة زواجه وبكورة أبوته.

لم يكن هذا الارتباط- والحق يقال- هو تحديدًا ما يسمى زواجًا عن حب.

كان أبوه- آنذاك- قد ربت على كتفه، لافتًا انتباهه إلى ابنة كروجر الثري الذي سوف يُدخل الشركة صداقًا كبيرًا، فوافق من كل قلبه، وبعدها صار يعشق زوجته كأنها شريكة حياته التي وهبها له الرب.

ولم يتغير الحال بعد الزواج الثاني لوالده، فقد ظل:

إنسانًا طيبًا

إنسانًا لطيفًا

رقيق الحاشية

كان يتغنى بهذا في غرفة النوم. إلا أنه للأسف لم يكن يولي هذه المذكرات القديمة إلا القليل من الاهتمام، فقد انشغل تمامًا بأمور حياته الآنية، متغافلاً ماضي عائلته. برغم أنه كان قد أضاف في الماضى إلى الدفتر السميك الذهبي، بخطه المنمق، بعض الملحوظات التي يدور معظمها حول زواجه الأول. وكان أن قام القنصل بفتح الأوراق التي كانت أكثر صلابةً وخشونة من الورق الذي كان قد أضافه بنفسه إلى الدفتر، والذي أخذ لونه

يميل إلى الشحوب.

حقًّا! لابد أن يكون يوهان بودنبروك قد أضمر لزوجته الأولى هذه، ابنة تاجر بريمن، حبًا آسرًا. وقد بدت له السنة القصيرة التي قضاها معها أجمل سنوات عمره وهو ما دونه باللغة الفرنسية هكذا:

"L'année la plus heureuse de ma vie" (أسعد أعوام حياتي)، وقد وضع أسفل هذه العبارة خطًا متعرجًا، خوفًا من اطلاع السيدة أنطوانيت عليها. ثم كان أن وُلد جوتهولد ليقضي الطفل على يوسفينه، وقد سُجلت في الورق الخشن ملحوظاتٌ عجيبة في هذا الشأن. ففيما يبدو أن يوهان بودنبروك كان يشعر نحو هذا الكائن الجديد بكُره حقيقي مرير، منذ تسببت حركته الأولى الفجة في آلام رهيبة لأمه، ليخرج هو إلى الدنيا متمتعًا بالعافية والحيوية.

كانت قد فارقت الحياة وهى تمرغ رأسها الواهنة في الوسائد، ولم يغفر قَط لهذا الدخيل عديم الضمير قتل أمه، فيما هو ينمو قويًا بلا مبالاة.

إلا أن القنصل لم يفهم ذلك، فقد كان يفكر أنها فارقت الحياة وهي تؤدي واجبها الأنثوي الأسمى، فكان عليّ نقل مشاعري نحوها، برفق، إلى الكائن الذي وهبته الحياة، والذى تركته بعد وفاتها. أما هو، الأب، فلم ير في ابنه البكر سوى شقي قضى على سعادته.

ثم تزوج فيما بعد أنطوانيت دوشامب، سليلة عائلة هامبورج المرموقة، وعاشا معًا يتبادلان الاحترام واهتمام كلٍ منهما بشؤون الآخر.

راح القنصل يُقلب هنا وهناك بدفتره. فقرأ في نهايته الأحداث الساذجة التي وقعت لأبنائه عندما أصيب توم بالحصبة وأنطوني باليرقان، وشفاء

كريستيان من الجدري المائي.

وقرأ عن رحلاته المختلفة مع قرينته إلى باريس وسويسرا وماريNباد.

ثم أخذ يُقلب حتى وصل إلى أوراق تشبه "الرّق"، مهترئة، مليئة بالبقع الصفراء، التي كان قد كتبها جده يوهان بودنبروك الكبير بمدادٍ رمادي باهت وبخط بديع سلس. وقد بدأت هذه العبارات بذكر شجرة نسبٍ عميقة الجذور، متتبعةً الفرع الرئيس. وكيف عاش أحد آل بودنبروك في نهاية القرن السادس عشر، وهو الأقدم والأشهر، في بارشيم، وكيف أصبح هو وابنه عضوين بمجلس مدينة جراباو. وكيف أن واحدًا آخر من آل بودنبروك- وكان خياطًا بارعًا- قد تزوج في روستوك، وأنجب عددًا كبيرًا من الأبناء، منهم من توفاه الرب ومنهم من بقي على قيد الحياة، وكذلك كيف بقي آخرٌ، يدعى يوهان، في روستوك بعد أن اشتغل بالتجارة، وكيف جاء في النهاية، وبعد عدة سنوات، جد القنصل إلى هنا ليؤسس شركة الحبوب، وقد توافرت كل المعلومات عن هذه التجربة: فقد دوَّن بأمانة متى أصيب بالحصبة أو بالجدري الخطر، كما سجل أيضًا بإخلاص سقوطه من الطابق الثالث فوق الـفرن وبقاءه على قيد الحياة، رغم اصطدامه ببعض العوارض الخشبية، وكيف عانى من ارتفاع درجة الحرارة المصحوبة بالحمى.

كما أضاف إلى ما سجله بعض النصائح المفيدة لذريته، والتي كتبها بعناية داخل إطار بحروف بخط قوطي رائع: "يا بني فلتسعد بعملك نهارًا ولا تؤت منه إلا ما يجعلنا ننام ليلاً مطمئنين". ثم تلت ذلك إشارةٌ متكلفة إلى أن الإنجيل القديم المطبوع في فيتمبرج هو ملك شخصي له، على أن يؤول إلى ابنه البكر ليذهب بدوره بعدها إلى أكبر أبنائه.

قرَّب القنصل بودنبروك الحافظة الجلدية ليأخذ منها بعض الأوراق القديمة ليطالعها، فعثر على رسائل عتيقة باهتة ممزقة، كانت الأمهات المهمومات قد أرسلنها إلى أبنائهن العاملين بالخارج، وقد سجل المُرسَل إليهم بعض الملحوظات، مثل: "وصلتنا بسلام وتلقيناها بترحاب". كما عثر على خطابات من الأهالي تحمل شعار مدينة هانزه الحرة وخاتمها، وكذلك بعض الصكوك وقصائد شعر للتهنئة، وتلك الرسائل التجارية التي تثير العاطفة، والتي أرسل بعضها الابن إلى والده وشريكه من ستوكهولم أو أمستردام، لطمأنته فيما يخص تأمين صفقة القمح إلى حد بعيد، وقد اقترن ذلك بضرورة إبلاغ تحياته إلى كل من الزوجة والأولاد.

كما كانت هناك مذكرات مهمة للقنصل عن رحلته إلى انجلترا وباربانت، وقد كانت هذه عبارة عن دفتر، على غلافه لوحة نحاسية تُظهر قلعة أدنبورج وأسواق الأعشاب. كما كانت هناك وثائق تثير الأسى، وهي رسائل غاضبة من جوتهولد إلى والده.

وفي النهاية، كان مسك الختام قصيدة العيد لجان جاك هوفشتده.

ثم انتبه إلى رنينٍ رقيق متلاحق معلنًا عن تمام العاشرة على نحو خاص، صادرًا عن ساعةٍ حقيقية ببرج الكنيسة، أعلى لوحةٍ لسوقٍ من العصور الوسطى ذات ألوان غير براقة، معلقة فوق خزانة الأوراق الشخصية. فأغلق القنصل حافظة أوراق الأسرة، ووضعها بحرص في رف خلفي بالخزانة. ثم مضى إلى غرفة النوم.

هناك كانت الجدران مبطنة وأسدلت فوقها ستائر نقشت عليها زهور كبيرة، ومن النسيج نفسه، صنعت ستائر فراش النفساء.

وقد شاع بالغرفة قليلٌ من حرارة المدفأة، وخيم عليها جوٌّ من الارتياح والسكينة بعد التغلب على مشاعر الآلام والخوف، وعبقت بمزيج من رائحة ماء الكولونيا والدواء، ولم تسمح الستائر المسدلة إلا ببصيصٍ من النور.

وقف الوالدان بجوار بعضهما البعض، وقد مالا على المهد متأملين الطفلة النائمة. أما القنصلة التي كانت ترتدي سترة أنيقة من الدانتيل، وتصفف شعرها الأحمر على أفضل وجه، ويبدو عليها بعض الشحوب، فقد ابتسمت سعيدة وهي تمد نحو زوجها يدها الجميلة التي ازدان معصمها بسوار ذهبٍ موسوس. وقد أدارت كف يدها قدر الإمكان كعادتها لتبدي حميمية الحركة على نحوٍ أعظم.

"والآن، كيف حالك.. بيتسي؟"

"على أفضل حالٍ، على أفضل حال".

كان ممسكًا بيدها وقد وقفا حيال الوالدين، ثم اقترب بوجهه من الطفلة التي كانت تشهق أنفاسًا متلاحقة، ليستمتع هو للحظة بتنسم عبق الهواء المؤثر والمريح والدافئ الذي كانت الطفلة تزفره.

قال هامسًا: "بارككِ الرب!"، وطبع قبلة على جبهة الكائن الصغير التي كانت أصابعها الصغيرة الصفراء المجعدة تشبه أرجل الدجاج شبهًا بائسًا. قالت السيدة أنطوانيت: "لقد أُتخمت رضعًا، انظروا إلى زيادة وزنها العجيبة".

كان وجه يوهان بودنبروك اليوم يكاد ينطق بشرًا وفخرًا عندما قال: "أتصدقاني إن قلت إنها تشبه أنطوانيت. فلها عيون كحيلة براقة تكاد تُذهب عقلي".

واحتجت السيدة الكبيرة بتواضع: "آه! كيف يتسنى لنا الآن الحديث عن شبهٍ ما.. أما كنت تنتوي الذهاب إلى الكنيسة، يا جان؟"

"حقًّا! الساعة الآن العاشرة، لقد أزف الوقت، وأنا بانتظار الأبناء".

سمع مقدم الأبناء محدثين ضجة غير ملائمة على السلم، بينما كانت كلوتيله تحاول تهدئتهم وهي تزوم. ثم بدوا في معاطفهم الفراء، فقد كان برد الشتاء بالطبع ما يزال يخيم على كنيسة ماريا، إلا أنهم دخلوا بهدوء وحذر أولاً بسبب الأخت الصغيرة، وثانيًا لأن تجمعهم لأداء الصلاة يفرض عليهم ذلك.

كانت وجوههم قد كساها الاحمرار. فيا لها من مناسبة سعيدة اليوم! فلابد أن طائر اللقلق القوي الكريم لم يحمل إليهم يقينًا أختهم الصغيرة فقط، بل أيضًا كل ما هو غالٍ وثمين: حافظة مدرسية من جلد سبع البحر لتوماس، ودمية كبيرة بشعر طبيعي، وهو ما كان استثناءً فقط من أجل طوني، وكتاب صور ملونة لكوتيلده العجيبة، التي التزمت الهدوء في امتنان، ولم تنشغل تقريبًا إلا بقراطيس الحلوى التى كانت قد وصلت توًّا. أما كريستيان فقد حصل على مسرح عرائس كامل، شمل السلطان وملاك الموت والشيطان.

قبّلوا والدتهم وسُمِح لهم مرةً ثانيةً أن يلقوا نظرة خاطفة وحذرة خلف الستار السندسي، ليصطحبهم بعد ذلك الوالد إلى الكنيسة، بعدما ارتدى معطفًا بياقة عريضة، متأبطًا كتاب الترانيم، فمضوا ملتزمين الصمت والهدوء، مُشيَّعين بصراخٍ مُلح من عضو الأسرة الجديد الذي كان قد استيقظ فجأة.

الفصل الثَّاني

في فصل الصيف كانت أنطونيا بودنبروك دائمًا ما تنتقل في شهر يونيو أو حتى في شهر مايو بسعادة غامرة إلى منزل جديها القائم أمام بورجتور خارج المدينة.

فقد كانت الحياة تطيب لها هناك في الخلاء، في الفيلا الفاخرة المؤثثة بالرياش، ذات الأبنية المتعددة الرحبة، ومساكن الخدم وموقف للعربات، وبستان الفاكهة والخضروات والزهور الهائل، الذي يميل منحدرًا صوب نهر ترافه.

فقد كان آل كروجر يعيشون حياةً مترفة، وبرغم الفارق بين هذا الثراء المغشي للأبصار وبين الرفاهية الراسخة ببيت والدَي أنطونيا، إلا أن كل شيء لدى الجدين كان أكثر فخامة مما لدى والديها بدرجات، وهو أمر كانت لا تخطؤه العين، وهو ما كان يؤثر في الآنسة بودنبروك الشابة. فهنا لا يخطر ببال أحد القيام بعمل في المنزل أو المطبخ، بينما كان الجد والأم في منجشتراسه، غالبًا ما يلفتان نظرها إلى إزالة الغبار، والاقتداء بابنة العم

تيلده النشطة والورعة.

وكانت النزعة الإقطاعية الموروثة عن عائلة الأم تتبدى في مسلك الآنسة الصغيرة عندما تصدر أمرها من فوق المقعد الهزاز إلى الوصيفة أو الخادم، وقد كان هناك- بالإضافة إلى هذين- خادمتان وسائس يقومون بخدمة السيدين المسنين.

ويمكن القول إنه من دواعي المتعة أن يستيقظ المرء صباحًا في غرفة نوم مبطنة بورق حائط زاهٍ ليلمس بأول حركة من يده غطاءً من الساتان الوثير، وألا ينسى أنه هنا لا يُقدم له القهوة أو الشاي، وإنما قدح من الشوكولاته كفطور أولي في الشرفة، فيما نسيم الصباح ينسل من الباب الزجاجي المفتوح، هكذا كانت تُقدم بالفعل كل يوم الشوكولاته الفاخرة مع قطعة كبيرة من فطير طري طازج. وكان على أنطونيا تناول طعام الفطور هذا وحيدةً بالطبع فيما عدا أيام الأحد، فقد اعتاد الجدان ألا ينزلا إلا بعد مضي وقت طويل عن موعد المدرسة.

فإذا ما تناولت الفطير والشوكولاته التقطت حافظتها وهرولت مغادرةً شرفة البستان الأمامي المعتنَى به تمامًا.

وكم كانت أنطونيا بودنبروك الصغيرة تتمتع بالرقة الفائقة، وكانت خصلات شعرها الغزير تنساب أسفل قبعتها الخوص، وكان شعرها الأشقر قد صار مائلاً إلى اللون الداكن بمرور السنين. أما شفتها العليا البارزة قليلاً فكانت تمنح وجهها الصبوح- بعينيه الزرقاوين الرماديتين- تعبيرًا من جرأة تنعكس على قوامها الضئيل الممشوق، وكانت تدس ساقيها النحيلتين بكثير من الحرص والمرونة في جوربين في لون بياض الثلج.

كان كثيرٌ من الناس يعرفون ابنة القنصل بودنبروك الصغيرة فيقومون بتحيتها، عندما تغادر بوابة البستان إلى طريق شجر الكستناء. ومن بين هؤلاء كانت ربما بائعة الخضروات بقبعتها الخوص الكبيرة المزدانة بشريط ذي لون أخضر فاتح، وقد جاءت بعربتها الصغيرة، فكانت تهتف بحرارة: "إصباحلخير" يا آنسة، وكذلك حمال الحبوب الضخم "ماتيسن" بردائه الأسود وسرواله الفضفاض وجواربه البيضاء وحذائه ذي الإبزيم، وكان إذا مر بها رفع لها قبعته المستديرة الصلبة احترامًا. وكانت أنطونيا تتوقف قليلاً بانتظار جارتها يولشن هاجنشتروم التي اعتادت مرافقتها في الطريق إلى المدرسة.

كانت هذه الطفلة ذات الكتفين المرتفعتين بعينين كحيلتين لامعتين تسكن بڤيلا مجاورة تكتنفها شجيرات الكروم. أما والدها، السيد هاجنشتروم، الذي لم تسكن عائلته هذه المنطقة إلا من عهد قريب، فكان قد تزوج بفتاة من فرانكفورت، كانت سيدة بشعر أسود غزير يفوق الوصف، وتزين أذنيها بأكبر قرطين من الماس عرفتهما المدينة وكانت- بالمناسبة- تنتمي إلى عائلة سملينجر.

وكان السيد هاجنشتروم شريكًا بشركة "شترونك وهاجنشتروم للتصدير"، وقد شارك في الشأن العام، الخاص بالمدينة بحماس وطموح كبيرين، إلا أن زواجه أثار غضاضةً لدى عائلات محافظة للغاية، مثل آل مولندورف ولانجهالس وبودنبروك.

وبغض النظر عن ذلك، فإنه لم يكن محبوبًا على نحو خاص برغم منصبه كعضو بلجان ومجالس إدارات، وما شابه ذلك.

وبالإضافة إلى تجاهله لعائلات عريقة، فإنه كان ينتهز كل فرصة

لمعارضتهم ودحض آرائهم بأسلوب ماكر، عاملاً على تنفيذ آرائه وإثبات أنه يفوقهم كثيرًا مهارةً وحضورًا، ولا يمكن الاستغناء عنه، على النقيض منهم.

وقد قال عنه القنصل بودنبروك: "إن هينريش هاجنشتروم لا يكف عن ملاحقتنا بمشاكله، ولابد أنه يستهدفني أنا شخصيًّا بالذات، فهو يضع العراقيل أمامي كلما استطاع ذلك، وهو ما تعرضت له اليوم في لجنة رعاية الفقراء المركزية، وكذلك قبل عدة أيام في الإدارة المالية"، ثم علق يوهان بودنبروك على ذلك فقال: "يا لَه من رجلٍ لزج". وذات مرة أخرى جلس الأب والابن للطعام حانقين محبطين، فماذا كان السبب؟ آه، لاشيء، لقد خسرا صفقة كبيرة لتوريد الشعير إلى هولندا بعد أن خطفتها "شترونك وهاجنشتروم" من بين أيديهما، هذا الثعلب هينريش هاجنشتروم.

كان استماع أنطونيا لمثل هذه العبارات كافيًا لئلاَّ يطرأ تحسنٌ ما على علاقتها مع يولشن هاجنشتروم، فلم تكن ترافقها طريقها إلا لكونها جارتها فحسب، ورغم ذلك كانت كلٌّ منهما تضيق ذرعًا بالأخرى فى أغلب الأحوال.

فكانت يولشن تقول وهي مؤمنة بافترائها كذبًا صريحًا: "إن أبي يملك ألف ريال، فهل لدى أبيك مثلها؟" أما أنطونيا فكانت تسكت وهي تشعر بالحسد والإهانة. ثم تقول بهدوءٍ تام بلا مبالاة: "لقد كان مذاق الشوكولاته الذي احتسيته رهيبًا، فماذا تحتسين أنتِ حقًّا على الفطور؟ يولشن!"، فترد يولشن: "أتريدين واحدة من تفاحاتي؟- حقًّا، لكني لن أعطيك منها!" ثم تتلمظ بشفتيها أثناء ذلك، وقد دمعت عيناها السوداوان من فرط المتعة.

كما كان هرمان شقيق يولشن الذي يكبرها بعدة سنوات يذهب إلى

المدرسة في الموعد نفسه. وقد كان لها شقيق آخر يُدعى موريتس إلا أن هذا كان مريضًا فراح يتلقى دروسه بالبيت.

كان هرمان أشقر البشرة إلا أن أنفه الأفطس كان يطغى على شفته العليا. وكان أيضًا يُرعش شفتيه دومًا لأنه لم يكن يتنفس إلا عن طريق فمه.

وقد قال: "هراء، إن لدى أبي أكثر من ألف ريال بكثير".

إلا أن ما كان يثير الدهشة من أمره أنه لم يكن يأخذ ساندويتش الفطور الثاني معه إلى المدرسة، وإنما كعكة الليمون: فطيرة بيضوية مخبوزة باللبن وتحتوى على الزبيب، وكان يبالغ في ذلك فيحشوها بشرائح اللسان أو صدر الأوز... كان هذا هو ذوقه.

وقد رأت أنطونيا في هذا أمرًا جديدًا. فطيرة ليمون بصدر الأوز- بالمناسبة- فمذاقه طيب! وعندما كان يدعها تلقي نظرة في حافظته الصفيح كانت تبوح برغبتها في تذوق قطعة منه. وذات صباح قال هيرمان: "أنا لا أستطيع الاستغناء عن شيء من هذا، طوني، فسوف أحضر غدًا قطعة إضافية تكون من نصيبك، إن منحتني شيئًا في المقابل".

ثم حدث في الصباح التالي أن خرجت أنطونيا إلى الطريق، وانتظرت لخمس دقائق دون أن تظهر يولشن، فانتظرت دقيقةً أخرى جاء بعدها هرمان وحيدًا وهو يطوح بعلبة فطوره من رباطها هنا وهناك قليلاً، وقال:

"ها، ها هي فطيرة الليمون بصدر الأوز، خالية من الدهن تمامًا- لحم خالص.. فماذا تعطيني مقابلها؟"

"حسنًا! ربما شلنًا؟" تساءلت أنطونيا بينما كانا يقفان بوسط الطريق. أما هيرمان فردد بعد أن ابتلع ريقه: "شلنًا..، لا، فأنا أُريد شيئًا آخر".

كانت أنطونيا على استعداد لدفع أي شيء مقابل الوجبة الشهية فقالت: "ماذا إذن؟"

"قُبلة!" هكذا صاح هيرمان مطوقًا أنطونيا بذراعيه وأخذ يقبلها في أي مكان دون أن يصل إلى وجهها، بعد أن تراجعت برأسها بخفةٍ بالغة، وراحت تصده بحافظتها في صدره ولطمته بيمناها ثلاث أو أربع مرات على وجهه بكل قوتها. فترنح متقهقرًا، وفي اللحظة نفسها، كانت أخته يولشن تمرق من خلف شجرة كشيطان صغير أسود، وألقت بنفسها فوق أنطونيا وهي تزوم لتنتزع قبعتها من فوق رأسها، وراحت تخمش وجنتيها بشراسة متناهية، فكانت هذه الحادثة بمثابة النهاية لعلاقة رفاق الطريق. إلا أن أنطونيا- عمومًا- لم ترفض قُبلة هاجنشتروم الصغير بداعٍ من الخجل يقينًا، فقد كانت تتمتع بجرأة كبيرة كانت تسبب تداعياتها المتاعب لوالديها، بل القنصل تحديدًا.

وبرغم أنها كانت تتمتع بذكاء يساعدها على التحصيل المبهر بالمدرسة إلا أن مسلكها كان يقل عن ذلك بكثير، حتى إن مشرفة المدرسة، أجاتا فيرمرن، كانت قد مضت إلى منجشتراسه لتلتمس من القنصلة تحذير ابنتها تحذيرًا نهائيًا، فقد أتت بالفعل المعيب نفسه علنًا في الطريق، رغم التحذير الودي مرارًا.

ولم يكن من غضاضة أن تتعرف أنطونيا خلال الطريق على الجميع وأن تثرثر مع الجميع. وكان القنصل قد أبدى رضاه عن هذا عدة مرات، فمسلكها لم يكن يعبر عن استعلاء، وإنما عن روح الجماعة و"محبة القريب". فكانت تتجول بصحبة توماس بين شون الغلال على ضفة ترافه

بين أكوام الشوفان والقمح المكدسة على الأرض، فتحادث العمال والكتبة المفترشين هناك الأرض المستوية في المحال العتمة، بل إنها كانت تعاون في ربط الأجولة. كما كانا يعرفان الجزَّارين الذين كانوا يطوفون بالشارع العريض بمآزرهم البيضاء وصحافهم.

كما عرفت بائعات الحليب القادمات من الريف بأوعيتهن الصفيح، حتى إنها كانت تركب معهن لمسافةٍ ما. كما عرفت بعض الحرفيين ذوي اللحى البيضاء، العاملين في أكشاك الصاغة التي أقيمت في بواكي السوق، وكذلك بائعات الخضروات والفاكهة والأسماك والخدم الذين كانوا يمضغون التبغ على نواصي الشارع.. كان كل هذا أمرًا لا غبار عليه.

وكان هناك رجل، شاحب اللون حليق الذقن لا يمكن تقدير عمره، اعتاد ارتياد الشارع العريض بابتسامة حزينة، لا يملك إلا أن يرقص على قدمٍ واحدة إذا سمع فجاةً صيحة "ها" أو "هاعاي"، فكانت أنطونيا تدعه يرقص كلما قابلته.

كما لم تكن تستاء إذا سمعت هتافات مثل "مظلة يا مدام" أو "شيئًا من الفِطر"، فقد كانت أنطونيا لا تحب أن تُغضب تلك المرأة الصغيرة القصيرة ذات الرأس الكبيرة التي كانت تحتمي بمظلة مهترئة من الطقس السيء.

أما الأمر الجدير باللوم، فكان أن تذهب مع اثنتين أو ثلاث من مثيلاتها إلى منزل صغير لبائعة الدُّمَى العجوز التي تعرض دُمًى من الصوف بزقاق ضيق من شارع يواهنيس شتراسه، وهناك كانت تقوم بصبغ عينيها بلون أحمر غريب للغاية لتدق الجرس بكل ما أوتيت من قوة، فإذا خرجت العجوز سألتها بأدبٍ مفتعل عما إذا كانت عائلة "البصّاق" تسكن هنا، ثم يولين

الأدبار بعد ذلك.

وكانت أنطونيا بودنبروك تفعل كل هذا- فيما يبدو- بضمير مرتاح تمامًا. فإذا ما هددها أحد المتضررين كان عليه أن يراها وهي تتخذ خطوة للخلف لتطرح رأسها الجميل بشفتها البارزة للوراء وهي تصيح بمزيج من السخط والسخرية: "ها"، كأنها تقول: "فلتجرؤ على المساس بي! فأنا ابنة القنصل بودنبروك إن لم تكن تعرف ذلك".

كانت تمضي في المدينة كملكة تحتفظ بحقها في المسلك الودود والقاسي كيفما تراءى لها.

الفصـل الثَّـالث

كان لجان جاك هوفشتده رأي صائب في شأن كلا ولدي القنصل بودنبروك. فتوماس كان مهيئًا منذ مولده لأن يصبح تاجرًا وصاحب الشركة في المستقبل، فدرس بالقسم العلمي بالمدرسة الثانوية العتيقة ذات الأقبية الغوطية، وكان ذكيًا نشطًا متعقلاً، إلا أنه كان يسعد كثيرًا حين كان يقوم أخوه كريستيان- الذي كان آنذاك تلميذًا بالمدرسة الثانوية ولم يكن يقل عنه موهبةً، إلا أنه كان أقل منه جديةً- بتقليد المدرسين بحنكة بالغة، خاصةً السيد شتنجل مارسيلوس المجتهد، الذي كان يدرس الرسم والغناء وغيرهما من تلك المواد اللطيفة.

إنه السيد شتنجل، الذي كان تبرز من جيوب سترته دائمًا نصف دستة من الأقلام شحذها على نحو رائع، وكان يستخدم شعرًا مستعارًا كفراء الثعلب الأحمر ويرتدي معطفًا مفتوحًا، ذا لون بني فاتح يصل تقريبا إلى كاحل قدمه، وياقة قميص مرتفعة تغطي فوديه، وكان يتمتع بروح مرحة، كما كان يؤثر المفارقات الفلسفية، فيقول مثلاً: "أيها الابن العزيز، لقد كان

عليك أن ترسم خطًا، فرسمت سطرًا"، ناطقًا كلمة "الخط" باللغة الإنجليزية. أو كان يخاطب أحد التلاميذ الكسالى، فيقول "أنت لست في السنة الرابعة، بل قد مرت عليك سنوات أربعة". وكان ينطق كلمة "الرابعة" "ريابعة"، وكذلك كلمة سنوات، كـ"ثنوات" تقريبًا.

وكانت الحصة الأثيرة لديه هي تلك الحصة التي كان يمرن التلاميذ أثناءها على أغنية "الغابة الخضراء" الجميلة، حيث كان بعض التلاميذ يخرجون إلى الممر، منتظرين ترديد الجوقة لجملة: "ها نحن نجوس ونمرح خلال الحقول والغابات"، ليرددوا الكلمة الأخيرة كصدى على نحو هامس متقن.

فإذا ما كُلف بذلك كريستيان وابن عمه يورجن كروجر أو صديقه أندرياس جيسيكي، نجل مدير المطافئ، كانوا لا يرددون الهمس، بل يلقون بصندوق الفحم إلى أسفل الدرج. فكان يعاقبهم باحتجازهم بمنزله حتى الساعة الرابعة عصرًا. وهناك كان يحتفي بهم بعد أن يكون السيد شتنجل قد نسي كل شيء ليأمر مدبرة منزله بتقديم فنجان من القهوة لكل من التلاميذ بودنبروك وكروجر وجيسيكه، ليسمح لهم بعدها بالمضي إلى حال سبيلهم.

وتحت الإدارة الودودة لرجلٍ مسن حسن الطوية يستنشق السعوط، فإن المعلمين الذين يؤدون مهمتهم في أقبية المدرسة، التي كانت ديرًا، كانوا في الواقع مسالمين يتمتعون بطيبة القلب. وقد اتفق رأيهم على أن العلم والمرح ليسا على طرفي نقيض، وكانوا يقبلون على عملهم بهمة منشرحي الصدر.

وكان هناك مدرسٌ بالفصول المتوسطة، واعظٌ سابق كان يدعى هيرته

ويدرس باللاتينية، وهو رجل طويل القامة ذو لحية بنية اللون وعيون متألقة، وكان أسلوب حياته يتفق تقريبًا مع اسمه هيرته أي الراعي، وكانت عبارته الأثيرة هي "ضيق الأفق الرحيب"، ولم يتضح إن كان يستخدم هذه العبارة على سبيل المزاح.

فإن شاء مفاجأة تلاميذه كان يستخدم فن زم الشفتين وإطلاقهما ثانيةً محدثًا صوتًا مدويًا كالذي يحدث عند فتح زجاجة الشمبانيا.

وكان يحب التجوال بالفصل بخطى واسعة ليقص على بعض التلاميذ كل تفاصيل مستقبلهم بحيوية هائلة، وكان يهدف من وراء ذلك، صراحةً، إلى إثارة خيالهم بعض الشيء.

إلا أنه كان ينتقل بعد ذلك جديًّا إلى العمل، أي أنه كان يستمع إلى أبيات عن قواعد الشعر وصور فنية أخرى صاغها بحنكة بالغة، أبيات كان القس هيرته يرددها بنبرة منتصر لا تبارَى، ملتزمًا أثناء ذلك بالوزن والقافية.

إلا أنه لم يكن هناك حدث مهم من أيام صبا توم وكريستيان يستحق الذكر.

ففي تلك الأيام كانت شمس السعادة تغشى دار بودنبروك، وكان العمل في مكاتب تجارته يجري على أفضل وجه. ومع ذلك كانت تهب أحيانًا عواصف فاجعة تافهة الشأن مثل هذه:

فقد كان للسيد شتوت، الخياط بشارع "جلوكنجيسرشتراسه" زوجةٌ تشتري الملابس القديمة، وهو ما يسر لها الاختلاط بالطبقة الراقية، وكان السيد شتوت يرتدي قميصًا من الصوف فوق بطنه الذي كان يطغى بحجمه الغريب على سرواله.

فحدث أن حاك السيد شتوت لولدَي بودنبروك حلتين بلغت تكلفتهما سبعين ماركًا، إلا أنه رضخ صاغرًا لطلب الشابين بطلب ثمانين وتسليم الباقي لهما، وقد كان ذلك صفقةً صغيرة. وبرغم أنها كانت غير بريئة تمامًا، إلا أنها لم تكن غير مألوفة على الإطلاق.

إلا أن الفاجعة تمثلت في انكشاف الأمر كله بتدبير من سوء الحظ، فكان أن اضطُر السيد شتوت إلى الحضور إلى المكتب الخاص بالقنصل وقد ارتدى سترة سوداء فوق قميصه الصوفي، ليشهد تحقيقًا صارمًا مع توم وكريستيان، وكان على السيد شتوت- الواقف بساقين منفرجتين بجوار مقعد القنصل ذي المسندين، مائلاً برأسه بهيئة تنم عن الاحترام البالغ- أن يلقي كلمة مؤثرة فحواها "هو ده اللي حصل"، وأنه سيكون سعيدًا إذا تقاضى السبعين ماركًا "بعد انكشاف الأمر".

وكان غضب القنصل حادًا تجاه هذه الفعلة، إلا أنه بعدما أمعن التفكير في الأمر توصل إلى نتيجة برفع مصروف جيب ولديه، عملاً بالآية: "ولا تُدخلنا في تجربة".

وقد بدا واضحًا للعيان أنه يعقد آماله على توماس أكثر من أخيه. فقد كان سلوكه متزنًا على قدر معقول من المرح، وعلى النقيض، كان كريستيان متقلبًا، فكان يميل من ناحية إلى الكوميديا السوداء، ومن ناحية أخرى كان بوسعه أن يسبب فزعًا للعائلة كافة على أغرب وجه.

فأثناء تناول الطعام ذات يوم، وفي ظل حديث حميمي، كان كريستيان قد أقبل بشهية على تناول الفاكهة، فإذا به فجأة يعيد ثمرة من الخوخ كان قضمها إلى الصحن، وقد شحب وجهه واتسعت عيناه فوق أنفه الضخم

للغاية، ويقول: "لن آكل خوخًا مرةً أخرى".

"لم لا، كريستيان.. ما هذا الهراء الذي تفعله؟"

"تصوروا، فإن ابتلعت بطريق الخطأ.. هذه النواة الكبيرة، فتعلق في حلقي.. فلا أستطيع التنفس.. فأهب لأقفز من الاختناق المريع وكذلك تفعلون".

وفجأةً يلحق ذلك بأنة قصيرة زافرًا: "أوه"، مفعمةً بالهلع، ويرتفع بهامته فوق مقعده متوترًا، كما لو كان على أهبة الفرار. فتقفز القنصلة والآنسة يونجمان بالفعل "يا رب السموات، كريستيان، هل ابتلعتها؟"، فقد بدا كأن هذا قد حدث حقيقةً. فيقول كريستيان وقد أخذ روعه يهدأ شيئًا فشيئًا: "لا، لا، لكن لو أنني ابتلعتها!".

أما القنصل، فيمتقع وجهه كذلك ويبدأ في تأنيبه، بينما الجد يدق بسخط على الطاولة رافضًا تحمل نوادر الحمقى.. وحده كريستيان كان يكف عن أكل الخوخ حقًّا لوقت طويل.

الفصـل الرَّابـع

لم تكن أعراض تقدم العمر هي التي حدت بالسيدة أنطوانيت العجوز، بعد ست سنوات تقريبًا من انتقال العائلة إلى شارع منجشتراسه، إلى أن تتهالك في غرفة النوم بالطابق المسحور على فراشها العالي ذي الستائر، ذات يومٍ من أيام يناير الباردة.

وقد تماسكت السيدة المسنة إلى اللحظة الأخيرة محافظةً على مظهرها النبيل، بخصلات شعرها الأبيض على جانبي وجهها، بعد أن شاركت مع زوجها وأبنائها في الولائم الرئيسة التي أقيمت بالمدينة، وكذلك اللقاءات التي كان ينظمها آل بودنبروك، وأثناء ذلك لم يكن مظهرها- بوصفها ممثلةً للعائلة- يقل عن مظهر زوجة ابنها الأنيقة.

ولكن ذات يوم، داهمها فجأة ألم غامض، كان مغصًا خفيفًا في البداية، إلا أنها ما إن تناولت ما نصحها به الدكتور جرابو: حمامة وخبز فرانتس، حتى صاحب ذلك قيءٌ ومغص، وسرعان ما أدى هذا إلى ضعفٍ غير مبرر، وإلى حالة من الوهن والارتخاء استدعت القلق.

وبعد أن تشاور الدكتور جرابو مع القنصل بإيجاز وجدية على الدرج

بالخارج، وبعد استدعاء طبيبٍ آخر، بالإضافة إلى جرابو، بدا ممتلئ الجسد ذا لحيةٍ سوداء ونظرة متكدرة، فصارا يدخلان ويخرجان حتى تغيرت حال الدار.

فبدأ الجميع يسيرون على أطراف أصابعهم، يتهامسون مهمومين، ولم يعد مسموحًا بدفع العربات في الممر. فقد حل شيءٌ جديد غريب غير مألوف، سرٌ يقرأه كلٌ منهم في عين الآخر، فقد سرت فكرة الموت في الأذهان.

وأثناء ذلك عُطلت الاحتفالات بعد وصول أحد الزوار. وقد استمرت فترة المرض لأربعة عشر يومًا، وبعد أسبوع جاء السيناتور دو شامب العجوز، شقيق المحتضرة من هامبورج بصحبة ابنته، بينما وصلت بعد عدة أيام أخت القنصلة مع زوجها المصرفي من فرانكفورت.

وأُنزِل السادة بالدار لتنشغل إيدا يونجمان بتدبير غرف النوم وإعداد وجبات الفطور الطيبة المزودة بالجمبري والنبيذ، أثناء ما كان المطبخ منشغلاً بقلي الطعام وخبز الفطائر.

وهناك كان يوهان بودنبروك قد جلس عند فراش المريضة ملتزمًا الصمت، وقد أخذ اليد الواهنة للفاتنة العجوز بين يديه شاردًا ببصره وقد تدلت شفته السفلى قليلاً. وبينما كانت ساعة الحائط تدق على فتراتٍ متباعدة دقاتٍ مكبوتة، كانت أنفاس المريضة تتراجع لتزفر تنهيدة قصيرة خفيفة، بينما كانت ممرضة سوداء تعد على المائدة شاي البيف، الذي كان قد رؤي محاولة تقديمه للمريضة، ومن حينٍ لآخر كان يدخل أحد أفراد العائلة بهدوء ليعود أدراجه ثانيةً.

وقد حاول الرجل العجوز أن يتذكر كيف جلس للمرة الأولى قبل ستة

وأربعين عامًا إلى فراش احتضار زوجته، محاولاً مقارنة ذاك القنوط الوحشي الذي اجتاحه آنذاك بذلك الحزن المتروي الذي ينظر به الآن، بعد هذا العمر، إلى الوجه الحائل الخالي من أي تعبير غير المبالي على نحو مريع، وجه المرأة العجوز التي لم تكن قط سببًا في شعوره بسعادةٍ غامرة أو آلام كبيرة، لكنها ثابرت لسنواتٍ طويلة على مساندته، متحلية بالمسلك القويم الرشيد، وها هي تنسحب الآن على النحو نفسه.

لم يفكر كثيرًا، بل هز رأسه هزةً بسيطة وهو يتأمل مستغربًا حياته والحياة بشكلٍ عام، التى بدت له بعيدة مدهشة للغاية، وتلك الضجة الصاخبة المحيطة به، التي أخذت تنحسر فجأةً عنه دون أن يلحظ ذلك، وراحت تدوي من بعيد في أذنه المصغية المندهشة.. فكان يقول أحيانًا لنفسه: "أمرٌ غريب، أمر غريب!".

وعندما لفظت السيدة بودنبروك آخر أنفاسها القصيرة دون مقاومة، كان الحمالون يرفعون التابوت المكتسي بالزهور ليخرجوا متهادين من قاعة الطعام، التي أقيمت فيها أيضًا صلاة الجنازة، دون أن تتحرك مشاعره، بل إنه لم يبكِ، وقد صار تعبير "أمر غريب" الباسم تقريبًا قوله الأثير.. ولا غرو أنه صاحب يوهان بودنبروك إلى النهاية. فصار يجلس بين أفراد أسرته صامتًا غائبًا، فإذا جلست كلارا الصغيرة على حجره ذات مرة ليغني لها إحدى نوادر أغانيه، مثل: "الحافة تجوب المدينة" أو "انظرا هناك يجلس أشقياءُ على الجدار"، كان بوسعه أن يصمت فجأةً لينزل الحفيدة، ويخرج في الوقت نفسه عن مجرى أفكاره العميق غير الواعي بعض الشيء، وهو يهز رأسه مرددًا مشيحًا بوجهه "أمر غريب".. وقد قال ذات يوم: "جان - ألا اكتفيت؟"

وسرعان ما بدأ منشوران مطبوعان بشكل جيد، مذيلين بتوقيعين، في الانتشار في المدينة، يعلن فيهما يوهان بودنبروك أن سنه المتقدمة قد دفعته إلى التنازل عن نشاطه التجاري، وطبقًا لذلك فإنه يقوم بتسليم المؤسسة التجارية التي أسسها المرحوم والده يوهان بودنبروك عام 1768 بقضها وقضيضها من تاريخ اليوم إلى ولده وشريكه إلى هذا الحين، تحت نفس الاسم، ليصبح مالكها الوحيد، آملاً أن يحافظ ابنه على الثقة الكبيرة لتي أولاه إياها... مع فائق الاحترام - يوهان بودنبروك الكبير الذي تنازل عن التوقيع.

وما إن شاع هذا الإعلان بالمدينة حتى أعلن العجوز مقاطعته لمكاتب الشركة منذ هذه اللحظة، وهو ما أدى إلى تفاقم شروده البليد على نحو مريع. وهكذا كان زكام ربيعي بسيط في منتصف مارس، أصابه بعد عدة شهور من وفاة زوجته، كفيلاً بأن يلزمه الفراش، ثم حلت ذات مساء الساعة التي أحاط فيها أفراد العائلة بفراشه، وحينئذٍ قال للقنصل: "أتمنى لك كل السعادة، جان، وتحلَّ دائمًا بالشجاعة!".

وإلى توماس: "فلتكن في عون أبيك!"، وإلى كريستيان: "فلتكن شيئًا صالحًا!".

ثم لاذ بالصمت، والجميع ينظرون إليه وهو يستدير نحو الحائط قائلاً: "أمرٌ غريب". ولم يذكر اسم جوتهولد حتى آخر لحظة، كما أنه لم يشهد احتضار والده، وكان رده هو الصمت على طلب القنصل التحريري.

إلا أن أمرًا غريبًا حدث في الصباح المبكر لليوم التالي، ولم تكن إعلانات الوفاة قد نُشرت بعد، وكان القنصل قد هرول فوق الدرج لينجز

أمورًا مهمة، فإذا بجوتهولد بودنبروك، صاحب شركة سيجموند شتيفنج وشركاه لتجارة الكتان بشارع برايتنشتراسه، يقابله وهو مقبل بسرعة نحو الممر بخطى واسعة.

كان في السادسة والأربعين، قصير القامة، بدينًا، ذا رأس قوية بشعرٍ أشقر رمادي يتخلله بعض الشعر الأبيض، وكان قصير الساقين، يرتدي سروالاً فضفاضًا منتفخًا كالجوال من نسيج خشن.

فصعد الدرج بمواجهة القنصل وهو يرفع حاجبيه أسفل حافة قبعته الرمادية ليقطبهما ثانيةً. وقال دون أن يمد يده لأخيه بنبرة رقيقة عالية: "يوهان، كيف الحال؟"

فقال القنصل متأثرًا، وهو يمسك بيد أخيه التي يحمل بها مظلةً: "لقد انتقل إلى الدار الآخرة الليلة. نعم هو، أفضل الآباء".

فأخفض جوتهولد حاجبيه حتى أطبق جفنيه. وبعد برهة صمت قال وهو يضغط على مخارج ألفاظه: "ألم يتغير شيء حتى النهاية، يوهان؟"

وفي الحال ترك القنصل يده، بل إنه تراجع إلى درجة أخرى من الدرج، وفيما كانت تصفو عيناه الغائرتان المستديرتان، قال: "لا شيء".

فعاود جوتهولد رفع حاجبيه أسفل حافة قبعته، وهو يسدد نظرةً حادة نحو أخيه، وقال بنبرةٍ خافتة: "فما الذي أتوقعه من عدالتك؟"

فما كان من القنصل إلا أن أخفض نظرته، ودون أن يرفعها ثانيةً حرك يده حركة حاسمة من أعلى إلى أسفل، وأجاب بحسم هامسًا: "لقد مددتُ لك يدي كأخٍ في هذه اللحظة الصعبة الجادة، ولكن فيما يخص الأمور المادية فليس بوسعي إلا أن أقف أمامك بوصفي مديرًا للشركة العظيمة، وقد

أصبحتُ مالكها الوحيد اليوم. فلا يمكن أن تتوقع مني شيئًا يناقض الواجبات التي تفرضها عليّ هذه الصفة، أما مشاعري الأخرى فلا مكانَ لها هنا".

مضى جوتهولد إلى حال سبيله، إلا أنه عاد إلى الجنازة بعد أن غُصت الغرف والدرج والممرات بجموع الأقارب والمعارف والأصدقاء من رجال الأعمال ووفود حمالي الحبوب وموظفي المكتب وعمال المخازن. وبعد أن اصطفت عربات الأجرة على امتداد شارع منجشتراسه- جاء إلى الجنازة، وهو ما جدد سعادة القنصل الحقيقية، بل إنه اصطحب كذلك قرينته، سليلة آل شتيفنج، وبناته الثلاث اللاتي صرن يافعات: فريدريكه وهينريته اللتين كانتا يتمتعان بطول قامة ونحافة شديدتين وفيفي الابنة الصغرى البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، وقد بدت قصيرةً وبدينةً للغاية.

وهناك، خارج المدينة، أمام بوابة القلعة حيث المدفن الخاص بآل بودنبروك، على حافة أدغال الجبانة، كان كولينج، قس كنيسة سانت مارين، وهو رجل قوي البنية ذو رأس ضخم، قد وقف ليشيد بأسلوبه الفج في التعبير بحياة الراحل التقي الورع، على نقيض هؤلاء الشهوانيين الشرهين السكارى، على حد تعبيره، بينما كان بعض الحاضرين يهزون رؤوسهم يتذكرون عظمة فوندرليش الذي فارقهم منذ ساعات.

وعندما انتهت الطقوس والشعائر، وبدأت عجلات عربات الأجرة السبعين أو الثمانين تدور عائدةً إلى المدينة.. طلب جوتهولد بودنبروك اصطحاب القنصل، لأنه يريد محادثته على انفراد. فانظر: ها هنا بجوار الأخ غير الشقيق على المقعد الخلفي للعربة العالية الرحبة قد جلس واضعًا إحدى

ساقيه القصيرتين على الأخرى مبديًا روح التصالح والرضا.

قال إنه قد أدرك شيئًا فشيئًا أنه كان على القنصل أن يفعل ما فعله، وحتى تبرأ ذكرى أبيه من كل سوءٍ بالنسبة له، فهو يتنازل عن كل حقوقه على نحوٍ أفضل مما كان يعتقد، بأن ينسحب من جميع أعماله ليتقاعد مكتفيًا بنصيبه من الميراث، وما يتبقى له من غير ذلك. فتجارة الكتان لم تعد تسعده كثيرًا، وقد ضاق رزقها إلى حد أنه قرر ألا يستثمر أموالاً أكثر فيها.

"إن عناده لأبيه لم يعد عليه بالنفع"، هكذا فكر القنصل بنفس مفعمة بالورع، وربما يكون جوتهولد قد فكر كذلك.

وفي شارع منجشتراسه، اصطحب أخاه إلى الطابق الأعلى، حيث غرفة الفطور، وهناك تناول كلاهما قدحًا من الكونياك بعد الانتظار الطويل في هواء الربيع، وقد صارا يرتعشان تحت رداء الفراك.

وبعد أن تبادل جوتهولد بعض العبارات اللطيفة والجادة مع زوجة أخيه، ومسح على رؤوس الأطفال، مضى إلى حال سبيله ليعاود الظهور في "يوم الأنجال" التالي الذي يقيمه آل كروجر في بستان فناء المنزل.. هكذا كان قد بدأ في تصفية علاقاته.

الفصل الخامس

كان الأمر الذي يثير أشجان القنصل هو تحديدًا: أن الوالد لم يعد بوسعه أن يشهد دخول حفيده الأكبر إلى عالم التجارة، وكان موعده عيد الفصح من العام نفسه.

كان توماس في السادسة عشرة من عمره عندما أنهى دراسته. وكان عوده قد اشتد في الآونة الأخيرة، وبعد طقس تثبيت إيمانه على يد القس كولينج الذي أوصاه- بعبارات زاجرة- بتوخي الاعتدال، أصبح يرتدي الملابس اللائقة بالرجال، التي جعلته يبدو أكبر سنًا، فعلّق حول عنقه سلسلة الساعة الذهبية الطويلة التي كان جده قد منحها له، وقد تدلت منها ميدالية تحمل شعار العائلة الكابي، وهو صورة لمنطقةٍ مظللة على نحو عشوائي، تظهر مستوية بمرج وحيد مقفر على ضفة نهر. أما الخاتم الأكثر قدمًا بالفص الأخضر، والذى ربما كان يحمله خياط روستوك ذو الثراء العريض، فكان من نصيب القنصل بجانب الإنجيل الكبير.

وكان توماس قد اكتسب ملامح جده، بينما كان كريستيان يشبه أباه، خاصةً فيما يتعلق بذقنه المستديرة القوية، والأنف المستقيم الدقيق، وهما ما

ورثهما عن جده. أما شعره المصفف إلى جانب رأسه مرسَلاً إلى الخلف، مرتفعاً فوق فوديه النافرين على نحوٍ لافتٍ للنظر، فكان بلون أشقر قان. وعلى النقيض من ذلك، كانت أهدابه الطويلة وحاجباه اللذان كان يؤثر رفع أحدهما، عديمة اللون شاحبةً شحوبًا غير مألوف. أما حركاته وأسلوب كلامه وضحكه، الذي كان يفتر عن أسنان غير سليمة إلى حدٍ كبير، فكانت تتسم بالهدوء والاتزان. وكان يتطلع إلى مهمته الجديدة بحماس وجدية.

وقد كان يومًا مشهودًا عندما اصطحبه القنصل بعد وجبة الفطور الأولى إلى المكتب، ليقدمه إلى السيد ماركوس، الوكيل، والسيد هافرمان، الصراف، وهم باقي فريق العمل الذي كان على علاقة صداقة قوية بهم منذ أن جلس لأول مرة على مقعد المدير الدوَّار، وانشغل بحماس بختم الأوارق والتنظيم والنسخ. وعندما اصحبه والده إلى ضفة بحيرة ترافه، حيث مخازن أخشاب شجر الزيزفون والبلوط و"الأسد" و"سمك الحوت"، وهي ما كان يألفها توماس منذ زمن بعيد، كان يدخلها الآن كزميل عمل.

كان مخلصًا لعمله، مستلهمًا اجتهاد والده الصامت المثابر، الذي كان يعمل بإصرار، وقد سجل في مذكراته بعض الأدعية، راجيًا العون الإلهي من أجل استعادة الوسائل المهمة التي فقدتها الشركة، وهي الهدف الأسمى، بوفاة الرجل الكبير. وذات مساء، في وقت متأخر للغاية، وفي حجرة "الطبيعة"، دار حوارٌ طويل بينه وبين القنصلة حول تلك الأمور.

كان ذلك في الحادية عشرة ونصف، وكان الأبناء، وكذلك الآنسة يونجمان، نائمين بالغرف على جانبي الممر، بعدما صار الطابق الثاني شاغرًا ولا يسكنه إلا الضيوف من حين لآخر. وقد جلست القنصلة على الأريكة

الصفراء بجوار زوجها الذي كان يدخن السيجار، وهو يطالع جدول معاملات البورصة بجريدة إعلانات المدينة، بينما كانت هي قد عكفت على تطريز نسيج من الحرير، محركةً شفتيها بخفة لتحصي بالإبرة صفًّا من الغُرز. وبجوارها على طاولة الخياطة الرقيقة كانت ست شمعات تتوهج فوق الشمعدان، بينما كانت الثريا المعلقة فوقها غير مضاءة.

كان يوهان بودنبروك يقترب شيئًا فشيئًا من منتصف الأربعينات، وقد بدت عليه أمارات تقدم العمر بوضوح في السنوات الأخيرة، فظهرت عيناه الصغيرتان المستديرتان أكثر عمقًا، وبرز أنفه الضخم المعقوف، وكذلك عظام وجنتيه، على نحوٍ أكثر حدةً؛ وبدا أن فرشاة صبغة الشعر قد مست عدة مرات شعر سالفيه الأشقر الرمادي المصفف بعناية إلى جانب رأسه. أما القنصلة فكانت قد بلغت بالفعل أواخر الثلاثينيات، إلا أنها كانت تعتني بمظهرها غير الجميل والرائع في آن على أفضل وجه. أما بشرتها الشاحبة التي يتناثر النمش عليها فلم تفقد شيئًا من نضارتها. وقد تخلل ضوء الشموع شعرها الأحمر المصفف بعناية فائقة. وبينما كانت تنظر بطرف عينيها الزرقاوين قالت: "عزيزى جان، لديَّ سؤال أنصحك بأن تأخذه بعين الاعتبار، وهو أليس من المستحسن أن نتخذ خادمًا، وقد راودتني هذه الفكرة عندما كنت أفكر في حال والدَي".

ترك القنصل الصحيفة لتهوي على ركبتيه، وفيما كان يبعد السيجار عن فمه بدا الاهتمام في عينيه لتعلق الأمر بالإنفاق.

"حسنًا، عزيزتي بيتسي الجليلة"، هكذا شرع في حديثٍ مسهب، فقد كان عليه ترتيب أسباب اعتراضه: "خادمًا؟ لقد احتفظنا بدارنا منذ وفاة

الوالدين المباركين بكل الخادمات الثلاث، بالإضافة إلى الآنسة يونجمان، ويبدو لي.."

"آه، إن الدار كبيرة جدًّا، جان، والعمل على تدبير شؤونها يكاد يكون قاتلاً. فتجدني أحيانًا أقول: لينا، بنيتي، إن القسم الخلفي من المنزل لم يقم أحد بنفض الغبار عنه منذ وقت طويل جدًّا!، إلا أنني لا أريد إرهاق هؤلاء الفتيات، ولسوف يسقطن من التعب إن شئنا جعل ما تراه أمامك نظيفًا مرتبًا. ولسوف يكون الخادم مفيدًا في قضاء احتياجاتنا من الخارج وغير ذلك من الأمور المماثلة، وبوسعنا الحصول من الريف على رجل أمين بلا تطلعات.. وقبل أن أنسى، جان، فإن لويزه مولندورف سوف تستغني عن خادمها أنطون؛ وقد رأيته بعيني أثناء قيامه بعمله".

فكان أن أخذ القنصل يتململ هنا وهناك، وقد أحس بشيء من عدم الارتياح ليقول: "لابد أن أعترف أن هذه الفكرة غريبة بالنسبة لي. فنحن الآن لا نقوم بزيارة أحد ولا نستقبل زيارات".

"كلاَّ، كلاَّ، فلدينا في الغالب ما يكفينا من الزوار، وهذا لا يد لي فيه، عزيزي جان، برغم أنني أسعد بهذا من كل قلبي، فإن زارنا أحد رجال الأعمال من أصدقائك من مدينة بعيدة، فأنت تقوم بدعوته إلى الطعام، ولأنه لم يحجز بفندق فإنه بالطبع يقضى الليلة بدارنا. ثم يزورنا أحد المبشرين ليقضي عندنا- ربما- ثمانية أيام.. ونحن ننتظر الأسبوع بعد القادم زيارة القس ماتيا من كانشتات.. والآن، بإيجاز، ستكون النفقات قليلة للغاية".

"ولكنها سوف تتزايد، بيتسي، فنحن ندفع أجورًا لأربعة هنا بالبيت،

بينما تغفلين الرجال الكثيرين الذين يعملون بالشركة".

"أليس بمقدورنا حقًّا اقتناء خادم؟" قالتها القنصلة مبتسمةً وهي تنظر برأس مائل جانبًا. ثم أردفت: "إنني أتذكر عدد الخدم بدار والدَي".

"والداك، عزيزتي بيتسي! كلاَّ، حسنًا فلأطرح عليك سؤالاً عما إن كنت على دراية بينة بأحوالنا؟"

"كلاَّ، هذا حقيقي، جان، فليست لديَّ فكرة عن ذلك". فقال القنصل: "حسنًا، فهذا أمرٌ من السهل شرحه". ثم اعتدل في جلسته على الأريكة، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، وسحب نفسًا من السيجار، وفيما كان يغمض عينيه بعض الشيء أخذ يطرح أرقامه بسلاسة غير مألوفة.

"بإيجازٍ مفيد: كان صافي ثروة المرحوم والدي آنذاك، قبل زواج شقيقتي، حوالي 900000 مارك، بغض النظر بالطبع عما يملكه من أراضٍ، بالإضافة إلى القيمة المادية للشركة، صُرف منها 80000 ذهبت إلى فرانكفورت كهدية زواج و100000 لتأسيس شركة لجوتهولد ليبقى: 720000. وتلا ذلك شراء هذه الدار، وقد تكلفت 100000 كاملةً شاملةً نفقات أعمال التجديد والمشتروات الجديدة، برغم تحصيل قيمة بيع الدار الصغيرة في شارع الفشتراسه، ليصير الباقي: 620000. وقد ذهبت مبالغ تعويض إلى فرانكفورت بقيمة 25000 ليتبقى: 595000، وكان هذا سيكون هو الوضع عند وفاة الوالد لو لم يتم تصحيح هذه النفقات خلال السنوات الماضية بحوالي 200000 مارك، ليبلغ إجمالى الثروة 7950000.

ثم تم إرسال 100000 أخرى إلى جوتهولد، وكذلك 267000 إلى فرانكفورت؛ فإذا ما أضفنا إلى ذلك مبالغ أخرى صغيرة أوصى بها والدي

تبرعًا لمستشفى الروح القُدس وصندوق رعاية أرامل التجار وغير ذلك، فيتبقى مبلغ 420000 ليزيد بهدية زواجك البالغة بنحو 100000. هذا هو الوضع تقريبًا بحساب هذه المبالغ الدائرة، بغض النظر عن كل التقلبات البسيطة. فنحن إذن لسنا أثرياء على هذا النحو الفاحش، عزيزتي بيتسي، وفوق كل هذا فلابد أن نأخذ في الاعتبار أنه برغم تراجع أعمال الشركة إلا أن نفقات الشركة ظلت على حالها؛ لأن وضع الشركة لايسمح بخفض المصروفات.. فهل استطعتِ متابعة ما قلت؟"

لم يكن رد القنصلة على ذلك سوى أن هزت رأسها مترددة بعض الشيء، وقد وضعت غزلها في حجرها: "على نحو جيد، عزيزي جان" قالت هذا برغم أنها لم تستوعب كل شيء، ولم تفهم على الإطلاق كيف تحول كل هذه المبالغ الضخمة دون استقدام خادم.

وكان أن أعاد إشعال سيجاره، ونفث دخانه أمامه وهو يميل برأسه جانبًا ليواصل كلامه: "وأنت تعتقدين أنه إذا انتقل والداك العزيزان إلى رحمة الرب أننا سنحصل على إرثٍ كبير، وإن كان هذا بالفعل صحيحًا، إلا أننا لا ينبغي إلا أن نتوخى الحرص في أخذ ذلك بعين الاعتبار. وأنا على علم بأن والدك قد مُني بخسارة تكاد تكون فادحة على يد يوستوس تحديدًا كما يعرف الجميع. وبرغم أن يوستوس إنسان ودود للغاية، إلا أنه ليس رجل أعمال بارعًا، وقد رُزق سوء حظٍ لا يد له فيه. وقد كبده عملاء عديدون خسائر مزعجةً للغاية، فأدى به نقص السيولة المالية إلى الاقتراض من البنوك بسعر فائدة مرتفع؛ مما دفع أباك إلى دعمه بمبالغ كبيرة ليحول دون وقوع الكارثة. وقد يتكرر مثل هذا، ولسوف يتكرر لا قدر الرب، لأن الحياة المترفة

المرحة- ولتغفري لي بيتسي، إذ صارحتك- التي ينعم بها والدك الذي انقطعت صلته بإدارة أعماله، هي حياة تعود بالضرر على أخيك كرجل أعمال.. وأنت تفهمين ما أعني.. فهو يفتقر إلى الحرص، أليس كذلك؟ وهو متسرع بعض الشيء، حالم، وفيما عدا ذلك فوالداك يتمتعان بكل شيء، وهو ما يسعدني حقًّا، فهما ينعمان بحياةٍ رائعة بما يتفق مع ظروفهما".

فابتسمت القنصلة متساهلةً، فهي تعرف حكم زوجها المسبق على نزوع عائلتها للحياة المترفة. أما هو فقد وضع ما بقي من سيجاره بمنفضة السجائر ليواصل حديثه: "أما أنا، فإنني من جانبي أعتمد أساسًا على أن الرب سيحفظ عليَّ قدرتي على العمل حتى أستطيع بعونه وبركته إعادة ثروة الشركة إلى ما كانت عليه في الماضي.. وآمل أن تكون فكرتك قد صارت أكثر وضوحًا، عزيزتي بيتسي؟"

"على أكمل وجه، جان، على أكمل وجه!"، هكذا سارعت القنصلة بالرد، فقد منحت الخدم إجازة لمساء اليوم. ثم أردفت: "ألا نذهب للراحة، ألا توافقني، فقد تأخر الوقت كثيرًا". وعلى أية حال، فقد حدث بعد عدة أيام، عندما عاد القنصل من المكتب لتناول الطعام بمزاج رائق أن اتخذ القرار باستقدام أنطون، خادم مولندورف.

الفصل السَّادس

"سنُدخل أنطونيا مدرسة داخلية، تحديدًا مدرسة الآنسة فايشبروت".. هكذا تكلم القنصل بودنبروك، وقد عبر عن ذلك بحزم، حتى إنه صار قرارًا. وقد ألمح إلى أن رضاءه عن أنطونيا وكريستيان أقل مما يبديه نحو توماس، الذي عايش تجربة إدارة أعمال التجارة بموهبة، ونحو كلارا التي نضجت فصارت فتاةً مرحة، وكذلك كلوتيلده المسكينة التي يتمنى كل إنسان أن يكون له مثل شهيتها. وقد حاز كريستيان أقل درجات رضائه، فقد كان مضطرًا لتناول القهوة عصر كل يومٍ تقريبًا مع السيد شتنجل، وهو ما وجدته القنصلة أمرًا لا يطاق، فأرسلت ذات يوم دعوة شخصية رقيقة إلى السيد المعلم من أجل التشاور معه في شارع منجشتراسه. فجاء السيد شتنجل بشعره المستعار الخاص بيوم الأحد، مرتديًا سترة ذات ياقة عالية، وقد برزت من جيبها أقلام الرصاص، وجلس إلى القنصلة بغرفة المنظر الطبيعي، بينما كان كريستيان يسترق السمع من قاعة الطعام. وقام المعلم البارع بعرض فكرته عن الفارق المهم بين السطر والخط ببراعة مشوبة ببعض الارتباك،

كما ذكر الغابة الخضراء الجميلة وصندوق الفحم، وفيما عدا ذلك فقد كان حريصًا أثناء هذه الزيارة على استعمال "تبعًا لذلك"، معتقدًا أنه الأنسب في مخاطبة علية القوم.

وبعد ربع ساعة، ظهر القنصل ليطرد كريستيان معربًا للسيد شتنجل عن شديد أسفه لما سببه ابنه له من إزعاج.. "أوه، لا سمح الرب، سيدي القنصل، أرجوك، فالتلميذ بودنبروك يتمتع بالذكاء والمرح الفائق، وتبعاً لذلك فهو فقط متهور بعض الشيء، إن سمحت أن أقول ذلك، همم.. وتبعًا لذلك.." وقاده القنصل بأدب جم خلال الدار، ليمضي السيد شتنجل بعد ذلك إلى حال سبيله، إلا أن كل ذلك لم يكن أسوأ الأمور. فقد وقع الأسوأ عندما شاع التالي: قيل إن التلميذ كريستيان ارتاد ذات مساء مع صديقٍ حميم مسرح المدينة، حيث كانت تقدم رواية "وليم تِل" لشيلر، وكان يقوم بأداء دور "ڤالتر"، صبي "وليم تل"، فتاةٌ شابة تدعى الآنسة مايير دي لاجرانج، اعتادت، سواء ناسب ذلك دورها أم لا، حمل بروش من الماس على المسرح. وكان الجميع يعلمون أنها ماس أصلي هديةً من القنصل الشاب بيتر دولمان، ابن المرحوم دولمان، تاجر جملة الخشب بشارع ارستنفالشتراسه، المواجه لبوابة هولسنتور. وكان القنصل بيتر يُعد من هؤلاء الرجال الذين أطلق عليهم أهل المدينة المتحررين، مثله في ذلك مثل يوستوس كروجر، وهو ما يعني أن هؤلاء كان لهم مسلك حياةٍ غير ملتزم بعض الشيء. وقد كان متزوجًا، بل كانت لديه ابنة صغيرة، إلا أنه كان في حالة خصام مع زوجته منذ زمن بعيد، فصار يعيش حياة الرجل الأعزب. أما الثروة التي خلَّفها له والده، الذي قام بإدارة أعماله بعده، فكانت ثروة هائلة، إلا إنه شاع بين

الناس أنه يستنزفها. فكان يرتاد "النادي" في أغلب الأحيان، أو يذهب إلى قبو مجلس الشيوخ ليتناول فطوره، وكان يُشاهَد في الساعة الرابعة صباح كل يوم في شارع ما، كما كان كثيرًا ما يقوم برحلات عمل إلى هامبورج. إلا أنه كان، في المقام الأول، أحد المهووسين بالمسرح، لا يفوته أي عرض، وكان يبدي اهتمامًا خاصًا بفرق التمثيل. أما الآنسة مايير دى لاجرانج، فكانت آخر الفنانات الشابات التي أهداها قطعًا من الماس، في السنوات الأخيرة.

فقد بدت السيدة الشابة بالبروش الماس رائعة الجمال أثناء تأديتها دور "ڤالتر بل"، وقد أدت الدور على نحو مؤثر جعل عينَي التلميذ بودنبروك تغرورقان بالدمع من فرط التأثر، بل إن ذلك دفعه إلى القيام بشيء لا يقدم عليه إلا مَن تملكته مشاعر جامحة، فكان أن مضى أثناء وقت الراحة إلى محل لبيع الزهور أمام المسرح ليبتاع هناك باقة كلفته ماركًا وثمانية شلنات ونصف، فحملها الصغير البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، ذو الأنف الضخم والعينين الصغيرتين الغائرتين، ليشق طريقه نحو الكواليس. ولما لم يكن أحدٌ أمام باب غرفة ملابس الآنسة مايير دي لاجرانج يمنعه من الدخول، فإنه اقتحم الغرفة فيما كانت الآنسة تجاذب القنصل بيتر دولمان أطراف الحديث. فكاد القنصل يسقط من الضحك تجاه جدار الغرفة عندما رأى كريستيان يدخل بالباقة، إلا أن المتحرر الجديد أعرب جادًا عن خالص إعجابه أمام ڤالتر بل، مهديًا لها الزهور وهز رأسه ببطء، وقال بنبرة تكاد من فرط صدقه تقطر شجنًا: "آنستي، كم كان أداؤك جميلاً!"

"والآن، فلننظر ما جاء به هذا الكريستان بودنبروك"؛ هكذا صاح القنصل دولمان بلغته الاستعراضية، بينما كانت الآنسة مايير دي لاجرانج

الحسناء ترفع حاجبيها لتتساءل: "ابن القنصل بودنبروك؟" ثم ربتت بيدها بعفويةٍ شديدة على وجنتي معجبها الجديد.

وكانت هذه هي الفعلة التي أتاها بيتر دولمان في المساء نفسه حين قص الواقعة بكل تفاصيلها في "النادي"، وهو ما شاع في أرجاء المدينة بسرعة هائلة حتى وصل إلى مسامع مدير المدرسة، وصار موضوع اللقاء بينه وبين القنصل بودنبروك. فكيف استوعب الأخير هذا الأمر؟ فلم يشعر بالغضب بقدر ما أحس بالقهر والانكسار.. وقد جلس كسيرًا إلى حدٍّ ما بغرفة المنظر الطبيعي بعدما أبلغ القنصلة بذلك: "هذا هو حال ابننا وها هو يشب على هذا الخلق".

"جان، يا ربي، كان مثل ذلك سيثير ضحك والدك.. ولتقص ذلك على والدَي يوم الخميس، فيجد والدي في ذلك مزحة كبيرة". وهنا تملك الغيظ القنصل "ها، حقًا! وأنا مؤمن بأنه سيجد في ذلك مزحة، بيتسي، بل سوف يسعد بأن دمه المبتذل وميوله الآثمة لم تجرِ في عروق يوستوس.. المتحرر فحسب، بل امتد كذلك بجلاء إلى أحد أحفاده.. أعوذ بالرب، فقد أجبرتني على هذا القول! لقد مضى إلى هذه الدمية! لينفق مصروف جيبه على هذه الغانية- وهو لا يدري ما يفعل، كلاَّ، إن الميول قد بدأت تطل برأسها.. ها هي الميول قد بدأت تطل برأسها!".

كانت هذه حقًا حادثةَ سوء، وكان القنصل أكثر استياءً من مسلك أنطونيا الذي لم يكن على خير وجه، كما قيل؛ فبرغم أنها بمرور السنين قد استغنت عن مراقصة الرجل الأغبر، وعن ارتياد مسرح العرائس، إلا أنها تبدي مسلكًا يزداد جرأةً، خاصة بعد قضائها الصيف خارج المدينة لدى

جدَّيها، وهو مسلكٌ سيء يتسم بالغطرسة والاستعلاء.

وذات يوم فاجأها القنصل مذهولاً وهي تقرأ مع الآنسة يونجمان قصة "ميميلّي" لكلوران، فأخذ الكتيب وراح يتصفحه، ثم أغلقه للأبد. إلا أنه سرعان ما اكتشف بعد ذلك بقليل أن أنطونيا- أنطوانيت بودنبروك- كانت تتنزه أمام البوابة وحدها مع تلميذ بالمدرسة الثانوية، أحد أصدقاء أخيها. وقد رأتهما فراو شتوت، وهي نفسها التي كانت تخالط الطبقات الراقية، وكانت تبتاع بعض الملابس لدى عائلة مولندورف، فذكرت هذا الأمر على نحوٍ ما بأن الآنسة بودنبروك قد أدركت سن البلوغ، حقًّا.. وكان أن قامت السيناتورة بإبلاغ القنصل بذلك بنبرة مبتهجة. وتم منعها من مثل تلك النزهات.

إلا أنه ثبت بعد ذلك أن الآنسة أنطونيا كانت تمضي إلى الأشجار الجوفاء أمام البوابة، التي كانت قد مُلئت بملاط على نحو غير مكتمل، لتأخذ أو تدس رسائل هناك، كانت تأتيها من تلميذ الثانوية نفسه، أو ترسلها هي إليه. وعندما انكشف أمرها، استدعى الحال أن توضع أنطونيا ابنة الخامسة عشرة تحت إشراف أكثر حزمًا، فتم إرسالها إلى مدرسة الآنسة فايشبروت بشارع مولنبرينك رقم 7.

الفصل السَّابع

كانت تريزه فايشبروت حدباء، حدباء إلى حد أن قامتها لم تكن لترتفع أعلى من المنضدة. وكانت قد بلغت الحادية والأربعين من العمر، ولما كانت لا تعير المظهر الخارجي اهتمامًا، فقد كانت ترتدي ثيابًا تليق بمن هن في الستين أو السبعين، فتغطي خصلات شعرها الأبيض المتهدلة على أذنيها بقبعةٍ بشرائط خضراء تتدلى فوق كتفيها اللذين يشبهان أكتاف الأطفال الضيقة، ولم يكن ثوبها الأسود الرخيص قد عرف يومًا شيئًا من التزين.. عدا "بروش" بيضوي كبير، حفرت فيه صورة لوالدتها من الخزف اللامع.

وكانت الآنسة القصيرة فايشبروت تملك عينين سمراوين يشع منهما الذكاء والحدة، ولها أنفٌ معقوف بعض الشيء، وشفتان رقيقتان، كانت تزمهما إلى حد الصرامة.. وكان يملأ كيانها الصغير كله وكافة حركاتها تصميمٌ يبدو مضحكًا، إلا أنه يبعث على الاحترام، وساهم في ذلك لغتها الرفيعة المتقنة التي لا تشوبها اللكنة المحلية.

فكانت تتكلم بحيويةٍ دافعةً بفكها الأسفل إلى الأمام وهي تهز رأسها هزًا

سريعًا متلاحقًا، حريصةً على النطق السليم لكل حرف من الحروف الساكنة، إلا أنها كانت تبالغ في نطق الحروف المتحركة، فكانت تنادي مثلاً كلبها، الذي لا يكف عن النباح بـ "بابي" بدلاً عن "بوبي".

وعندما كانت تقول لإحدى التلميذات "بنيتي، كُفي عن هذا الغباء المفرط"، كانت تقوس سبابتها وتدق على المنضدة دقتين قصيرتين للغاية، لأن هذا كان يعطي انطباعًا بثقتها بما تقول. وإذا بالغت الآنسة بوبينيه، الفرنسية، في إضافة السكر إلى القهوة، كانت الآنسة فايشبروت تتبع أسلوبًا خاصًا بأن تنظر إلى سقف الغرفة، وتمثل أنها تعزف على البيانو بيدٍ واحدة على غطاء المنضدة، لتقول: "ولسوف أستولي على السكرية كلها"، ليتورد وجه بيبونيه من شدة الخجل.

وعندما كانت طفلةً- يا إلهي- كم كان قصر قامتها عندما كانت طفلة. كانت تريزه فايشبروت هي التي أطلقت على نفسها اسم "سيسيمي". وقد احتفظت بهذا الاسم، وكانت تسمح للتلميذات الأكثر اجتهادًا ومهارة من القسم الداخلي والخارجي أن يدعونها به.

"بنيتي، نادني بـ(سيسيمي)".. هكذا قالت لطوني بودنبروك عندما استقبلتها في اليوم الأول، وهي تطبع على جبهتها قبلةً خاطفة سُمع لها صوت الدوي، ثم أردفت: "إنه اسم يبعث سماعي له السرور في نفسي". أما أختها الأكبر مدام كيتلسن فكانت تُدعى نيللي.

كانت السيدة كيتلسن، التي تبلغ الثامنة والأربعين سنة تقريبًا، قد مات عنها زوجها دون أن يترك لها ما تواجه به ضرورات الحياة، فسكنت حجرةً صغيرة لدى أختها بالطابق الأعلى، وكانت تتناول طعامها على المائدة العامة.

أما ملابسها فكانت تماثل ثياب سيسيمي، إلا أنها كانت على النقيض منها، فقد تمتعت بطولٍ فارع على نحو غريب، وكانت تضع على معصمها الضامر مُدفئًا للدم من الصوف. ولكنها لم تمتهن التدريس، ولم تعرف شيئًا عن الصرامة، فكانت تتمتعبروحٍ بريئة فرحة. فإن مازحتها إحدى تلميذات الآنسة فايشبروت كانت تضحك لذلك من أعماقها بنفسٍ راضية، حتى ليبدو ضحكها كأنه نحيب، وحتى تدق سيسيمي على الطاولة صائحةً بحزم "نيللي!"، وقد نطقتها "نالي"، لتلوذ هذه بالصمت من الرهبة.

وكانت السيدة كيتسلن تلتزم الطاعة إزاء أختها الصغرى، وتتقبل تقريعها مثل الأطفال، إلا أن سيسيمي كانت تمقتها من أعماقها. وقد كانت تيريزه فايشبروت فتاةً مثقفة تكاد تصل إلى مصاف العلماء، واستعاضت بإيمانها البريء وتدينها الإيجابي وثقتها بنفسها عن حياتها الشاقة الجافة التي عاشتها ذات يوم. وقد تحتم عليها الحفاظ على ذلك بخوض معارك صغيرة جادة. وعلى النقيض من ذلك، كانت السيدة كيتلسن غير متعلمة، بريئة وساذجة. وكانت سيسيمى تقول عنها "نيللي الطيبة، يا ربي، إنها طفلة، ولم تجرب الشك مرةً واحدة، ولم تنتصر في صراعٍ قط، إنها سعيدة..". كانت مثل هذه الكلمات تنطوي على الاحتقار بقدر ما تحويه من حسد. وكان ذلك أحد نقاط الضعف بشخصية سيسيمي التي يمكن التغاضي عنها.

كانت فصول الدراسة وقاعة الطعام تحتل الطابق الأرضي المرتفع بالدار الصغيرة بضاحية المدينة المشيدة بالقرميد الأحمر، والمحاطة ببستانٍ لطيف صغير، بينما خُصص لغرف النوم الطابق العلوي، وكذلك الطابق الأرضي. ولم يكن عدد تلميذات الآنسة فايشبروت كبيرًا، فلم تكن المدرسة

الداخلية تقبل سوى الفتيات الأكبر سنًا، وأعدت فقط الثلاثة فصول الأولى للمنتسبات. كما كانت سيسيمي تلتزم بحزم بألا تقبل في دارها سوى بنات العائلات العريقة فقط. وقد استقبلت أنطونيا بودنبروك بحفاوةٍ، وهو ما سبق ذكره، حتى إن تيريزه أعدت للعشاء مشروب "الأسقف"، وهو نوع من "البونش" الأحمر الحلو، يُشرب باردًا، وكانت تتقن إعداده ببراعة. وكانت تسأل بهزة رأسٍ تنم عن الكرم، وبنبرة تثير شهيةً لا سبيل لمقاومتها: "ألا تردن مزيدًا من الأسقاااف" كعادتها في النطق. وقد جلست الآنسة فايشبروت فوق زوج من الوسائد الصغيرة على الأريكة عند رأس المائدة، مبديةً سيطرة تامة على توزيع الوجبات بهمةٍ عالية ويقظة تامة. انتصبت قامتها القصيرة في اعتدالٍ حاد، لتدق بانتباه على الطاولة منادية "نالي!" و"بابي!"، موجهة نظرة مهينة إلى "ملله بوبينه"، إذ أوشكت على الاستحواذ على كل زَبَد اللحم الضأن المشوي البارد.

أما أنطونيا فقد حصلت على مكان بين تلميذتين أخريين. كانت إحداهما ارمجارد فون شيلينج، وهي فتاةٌ شقراء، ابنة أحد ملاك الأراضي في مكلنبورج، والأخرى كانت جيردا أرنولدسن القادمة من أمستردام، وكانت ذات مظهرٍ غريب بشعر غزير ذي لون أحمر قانٍ وعينين متقاربتين سمراوين ووجه حسن أبيض، يحمل شيئًا من علامات الاستعلاء. أما في مواجهتها فكانت الفرنسية التي بدت كأنها زنجية تثرثر، وقد ازدانت أذناها بقرطين هائلين من الذهب. وعلى الطرف الآخر من المائدة، جلست ميس براون الإنجليزية الضامرة، وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة حانقة، وكانت هي أيضًا من نزيلات الدار.

وانعقدت أواصر صداقة بسرعة، وهو ما ساهم فيه "الأسقف"، مشروب سيسيمي. وكانت مليه بيبونيه، الفرنسية، قد عانت بالليلة الأخيرة من كوابيس، على حد قولها.. آه، رعب أليم، وكانت معتادةً على الصياح طالبةً النجدة، لكنها كانت تنطقها "النكدة، النكدة، لصوص، لصوصا"، وقد تناثر كل ما في الفراش. كما اكتشفت كذلك أن جيردا أرنولدسن لا تعزف على البيانو مثل الآخرين، بل تعزف على الكمان، وأن والدها وعدها بآلة من "الستراديفاري" الأصلي، أما أمها فلم تعد على قيد الحياة. ولم تكن أنطونيا- مثل معظم آل بودنبروك وكروجر- من عشاق الموسيقى. بل إنها لم يكن بوسعها تمييز ترانيم كنيسة سانت ماريا.. أوه إن أرغن الكنيسة الجديدة بأمستردام يصدح بصوت بشري بنغمٍ فخم!

كما كانت ارمجارد فون شيلينج قد قصت حكاياتٍ عن البقر ببلادها.

وكانت امجارد هذه قد تركت أعظم انطباع في نفس أنطونيا منذ اللحظة الأولى، لكونها أول فتاة أرستقراطية تعاملت معها. وكم كانت ستكون سعادتها لو كان لقبها "فون شيلينج"! فلدى والديها أجمل دار بالمدينة، كما كان جداها من النبلاء، إلا أنهم كانوا يحملون ببساطة شديدة لقبي "بودنبروك" و"كروجر"، فيا لها من خسارة فادحة.

كانت حفيدة لبرشت كروجر النبيل تتحرق إعجابًا بعراقة ارمجارد، وكانت أحيانًا تراودها فكرة أن لفظ "فون" الفخم كان سيناسبها أكثر من ارمجارد، هي التي، يا ربي، لا تدرك مدى حسن حظها، فتمضي هنا وهناك بخصلة شعرها الجزلة وعينيها الزرقاوين المفعمتين بالطيبة، متحدثةً بلكنة أهل مكلنبورج الفياضة، ولم يخطر ببالها أن مسلكها لا يتفق مع أصلها

النبيل؛ فهي لا تولي ذلك أدنى اهتمام، ولم تمتلك أي حس نبيل. وقد كان لفظ "النبل" قد استقر راسخًا على نحوٍ مدهش في وجدان أنطونيا، فطبقت مغزاه على جيردا ارنولدسن بشكل واضح. فقد كانت جيردا متحفظة بعض الشيء، وكانت تسلك سلوكًا غريبًا أجنبيًا، وكانت تؤثر تصفيف شعرها الأحمر الجزل على نحوٍ لافت للنظر برغم اعتراض سيسيمي، كما كانت الكثيرات يجدن عزفها على الكمان أمرًا سخيفًا، مع ملاحظة أن لفظ "سخيف" يعني تعبيرًا قاسيًا عن الإدانة. إلا أن المرء لا يسعه سوى الموافقة على رأي أنطونيا بأن جيردا ارنولدسن كانت فتاة أرستقراطية. فقد كان مظهرها الناضج بالمقارنة بسنها، وعاداتها والأشياء التي تمتلكها، كل شيء كان أرستقراطيًّا: على سبيل المثال، فأدوات التجميل العاجية الباريسية، التي تعرف أنطونيا قدرها على نحوٍ خاص، كانت متوافرةً بكل أنواعها بدار أسرتها، وكان والداها أو جداها قد أحضروها معهم من باريس، وكانت غالية للغاية. وهكذا انعقدت أواصر صداقة بسرعة بين الفتيات الثلاث، فقد كن زميلات فصل دراسي واحد، ويسكُن معًا أكبر غرف النوم بالطابق الأعلى. كما كن يستمتعن بالتسرية والراحة لساعات حين يحين وقت الراحة في الساعة العاشرة، فينطلقن أثناء خلع ملابسهن في الثرثرة بصوت خافت، فقد بدأت زميلتهن "ملله بيونيه" تحلم باللصوص بالغرفة المجاورة التي كانت تتقاسمها مع إيڤا إيفرز القصيرة، وهي من هامبورج، وكان والدها الذي ارتحل إلى ميونيخ من عشاق الفن وجامعي التحف.

كانت الستارة ذات الخطوط البنية مسدلة، فيما كان المصباح المغلف بغلاف أحمر مضاءً على المنضدة، وقد عبق بالغرفة شيءٌ من عبير زهرة

البنفسج ورائحة الملابس المغسولة حديثًا، وخيم عليها جوٌ من راحة قليلة من التعب وراحة البال والشاعرية.

كانت ارمجارد قد تخففت من بعض ملابسها، وجلست على طرف سريرها، وقالت: "يا إلهي! كم كان حديث الدكتور نيومان حميمًا! وقد دخل الفصل ليقف عند الطاولة ليتكلم عن (راسين)". "إن له جبهةً جميلة عالية" قالت جيردا، وهي تصفف شعرها أمام مرآةٍ بين النافذتين على ضوء شمعتين. لتبادر ارمجارد على عجل "حقًّا".

"وأنتِ لم تشرعي في الحديث عنه، ارمجارد، إلا لتسمعي هذا، فأنت تتطلعين إليه دومًا بعينيك الزرقاوين، كما لو.."

فتساءلت طوني: "أتحبينه؟ أنا لا أستطيع حل رباط حذائي بسهولة، معذرةً جيردا.. إذن، حسنًا! هل تحبينه، ارمجارد؟ إذن فلتتزوجيه، سيكون ذلك ثنائيًا طيبًا للغاية، فهو سيصبح أستاذًا بالتعليم الثانوي".

"يا ربي! إنكما تثيران اشمئزازي. فانا لا أحبه على الإطلاق، ولن أتزوج يقينًا مدرسًا، بل رجلاً من أهل الريف".

"رجلاً نبيلاً؟" قالت أنطونيا وهي تدع جوربها يسقط من يدها، وقد أخذت تتطلع إلى وجه ارمجارد متأملةً.

"لست أدري، على أن يمتلك مساحة شاسعة من الأراضي.. آه، كم ستكون سعادتي بهذا يا بنات! ولسوف أستيقظ في الخامسة لأبدأ العمل". ثم سحبت الغطاء فوقها وهى تنظر إلى السقف حالمةً.

أما جيردا فصارت تتأمل صديقتها من خلال المرآة، وهي تقول: "إنها تحلم الآن بخمسمائة بقرة".

لم تكن أنطونيا قد فرغت بعد من خلع ملابسها عندما تركت رأسها أولاً تهوي فوق الوسادة، ثم عقدت يديها خلف عنقها لتتأمل بدورها سقف الغرفة شاردةً. ثم قالت: "أما أنا فسوف أتزوج بالطبع تاجرًا يملك مالاً كثيرًا، حتى نستطيع تأثيث بيت أرستقراطي، وهو ما أدين به نحو عائلتي وشركتنا". ثم أضافت بجدية: "نعم، وسوف تريان أني فاعلةٌ ذلك".

انتهت جيردا من إعداد شعرها للنوم، ثم نظفت أسنانها البيضاء العريضة، مستخدمةً في ذلك مرآة يدها المصنوعة من العاج.

"أما أنا فلن أتزوج على الإطلاق"، قالت ذلك بشيء من الصعوبة، فقد كان مسحوق النعناع يعيقها، ثم أضافت: "وأنا لا أفهم سر هذا، فليست لدي أدنى رغبة في ذلك. وسوف أعود إلى أمستردام لأقوم بالعزف الثنائي مع والدي، وأعيش بعد ذلك مع أختي المتزوجة".

فصاحت أنطونيا بحيوية: "وا أسفاه! كلاً، جيردا، إنه أمرٌ مؤسف! فعليك بالزواج هنا والبقاء دائمًا هنا، اسمعي، لابد أن تتزوجي، على سبيل المثال، بواحدٍ من أخوَيّ".

"بهذا، ذي الأنف الضخم؟" تساءلت جيردا، وتثاءبت زافرةً تنهيدة قصيرة رقيقة متراخية، وهي تحتفظ بالمرآة أمام فمها.

"أو الآخر، هذا سيان، يا ربي، كم ستسعدان بتأثيث منزلكما! يجب أن يقوم ياكوب بهذه المهمة، إنه ياكوب متعهد التصميمات بشارع فيش شتراسه، فهو يتمتع بذوق رفيع. ولسوف أزوركما كل يوم".

"آه، هيا إلى الفراش، سيداتي، فلن تستطيعا الزواج هذا المساء!".

إلا أن أنطونيا كانت تقضي أيام الأحد والعطلة في منجشتراسه، أو عند

جديها بضاحية المدينة. ويا لها من سعادة عندما يواتي عيد الفصح جوٌّ صحو، فيكون بوسعها البحث عن البيض وحلوى الأرانب في بستان آل كروجر الشاسع! ويا لها من عطلة صيف تقضيها على شاطئ البحر حيث تقيم هناك في المنتجع، وتتناول طعامها على مائدة "تابل دي هوت"، حيث تستمتع بالسباحة وركوب الحمير! وكانت- في بعض السنوات- تقوم برحلاتٍ خارجية عندما يكون القنصل قد أنجز بعض الصفقات الرابحة.

فما بالكم بعيد الميلاد المجيد، ذلك تحديدًا الذي يُحتفل به ثلاث مرات: في البيت، ولدى الجدين، وعند سيسيمي، حيث يسيل شراب "الأسقف" أنهارًا في هذا المساء.. إلا أن أفضل أعياد الميلاد كانت تلك التي تقام بالبيت، فقد كان القنصل يصر على أن يضفي على عيد المسيح المجيد القدسية والتألق والجو الأسري السعيد. فلما يلتئم الشمل بغرفة المنظر الطبيعي ليصل الحفل أوجه، بينما يغص بهو الأعمدة بالخدم وكافة صنوف الناس من الفقراء وكبار السن، الذين يصافح القنصل أيديهم المكتسية باللون الأحمر والأزرق، يرتفع هناك بالخارج غناء رباعي تترنم به جوقة فتيان كنيسة سانت ماريا، فإذا بالقلوب تخفق. هكذا كان الاحتفاء بالعيد.

ثم يعقب ذلك أن تقوم القنصلة، أثناء انسياب عبير الصنوبر من فرجة مصراعي الباب الأبيض العالي بأناة، بتلاوة آيات الميلاد المجيد من إنجيل العائلة القديم بحروف كلماته الهائلة، كما يأتي نغم الغناء ليتوحد الجميع في ترنيم "أيا شجرة الصنوبر"، بينما يخترق موكب الاحتفال بهو الأعمدة ليصل إلى البهو الرحب، حيث يزدان ورق الحائط بالتماثيل، وحيث تتوهج الشجرة، المزينة بزهور الزنبق البيضاء، مضيئةً فواحة، مرتفعة إلى السقف، فيما تمتد

طاولة الهدايا من النوافذ لتصل إلى الباب.

أما في الخارج، وعلى الجليد المتجمد بالطرق، فيقوم عازفون إيطاليون بإدارة البيانولا. كما يتنامى إلى الأسماع صخب سوق عيد الميلاد من ميدان السوق. وفيما عدا الصغيرة كلارا، كان الأطفال أيضًا يشاركون في العشاء المتأخر بقاعة الطعام، حيث تتوافر كميات هائلة من سمك الشبوط وديوك الرومي المحشوة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن أنطونيا قامت- أثناء هذه السنوات- بزيارة مزرعتين من مزارع مكلنبورج. فقضت عدة أسابيع من عطلة الصيف مع صديقتها ارمجارد في مزارع السيد فون شيلينج الواقعة على ساحل الجهة الأخرى من الخليج، حيث مصب بحيرة ترافه. كما سافرت مرةً أخرى مع ابنة عمتها تيلده لزيارة السيد برنارد بودنبروك، الذي كان يعمل هناك مفتشًا للأراضي. وكانت هذه المزرعة تسمى "اونجناده"، أي "النقمة"، فلم تدر مليمًا واحدًا، لكنها لم تكن كذلك كموقع لقضاء الإجازة.

وهكذا مرت السنوات، وكانت في مجملها فترة صبا مفعمة بالسعادة عاشتها طوني.

الجـــزء الثَّـــالث

الفصـل الأوَّل

بعد الساعة الخامسة بقليل، ذات عصر يومٍ من شهر يوليو، كانت العائلة قد انتهت من احتساء القهوة هناك بالبستان أمام البوابة، وكانوا قد جلسوا علي أثاثٍ أخرجوه من كشك البستان الأبيض، الذي كان يضم مرآة حائطٍ عالية، رُسمت على سطحها طيورٌ ترفرف بأجنحتها، وكان له بابان بمصراعين في الخلف، مطليين أيضًا، لكن إذا تأملهما المرء علي نحوٍ دقيق عرف أنهما ليسا بابين، بل رسمًا على الجدران أضيف إليه مقبضان. وكانت العائلة قد تحلقت على هيئه شبه دائرة حول المائدة المستديرة المجهزة، التي تلتمع فوقها الأواني اللازمة للقهوة.

جلس هناك كلٌّ من القنصل وقرينته وطوني وتوم وكلوتيلده، بينما كان كريستيان قد انتحى جانبًا يراجع بوجهٍ عابس خطبة "شيشرون الثانية في مواجهة كاتيلينا"، فيما كان القنصل منشغلاً بسيجاره ومطالعة "الصحف"، أما القنصلة فقد طرحت غزلها للحرير جانبًا وهي تنظر مبتسمةً إلى كلارا، التى أخذت- مع إيدا يونجمان- في البحث عن زهور البنفسج التي كانت تنمو أحيانًا هناك فوق العشب الأخضر. أما طوني فوضعت رأسها بين

راحتيها مطالعةً رواية "الإخوة سيرابيون" لهوفمان، وتوم يداعب عنقها بحذر بالغ بعود من العشب، فتعمدت، بذكاءٍ، أن تتجاهل ذلك تمامًا. وجلست كلوتيلده، مرتديةً ثوبًا مُزهرًا من القطن، تطالع إحدى الروايات، بعنوان "أعمى، أصم، أبكم، رغم ذلك سعيد"، وكانت من حينٍ لآخر تجمع بقايا البسكويت المتناثرة على غطاء المائدة، ثم تمسك هذه الحفنة الصغيرة بأصابعها الخمسة لتلتهما بحرص.

كانت بعض الغيوم البيضاء الساكنة قد بدأت تتجمع في السماء ليبدأ لونها في الشحوب شيئًا فشيئًا. أما حديقة المدينة الصغيرة بممراتها وأحواضها المتناسقة، فكانت تمتد تحت أشعة شمس هذا العصر زاهيةً بألوانها ونظافتها، فيما كان عبق شجيرات البليخاء المحيطة بالأحواض ينسل من حين لآخر بين الأثير.

قال القنصل منشرحًا، بعد أن أقصى سيجاره عن فمه: "ها، توم، إن مسألة الحنطة السوداء، التي ذكرتها لك من قبل، قد تم تسويتها مع شركة (فان هنكدوم وشركاه)".

فتساءل توماس باهتمام، بعد أن توقف عن إزعاج أنطونيا: "وما هو المقابل الذي سيدفعونه؟"

"ستين ريالاً لكل ألف كيلو جرام.. ليست سيئة، أليس كذلك؟"

"إنه ممتاز"،هكذا قال توماس لأنه كان يعرف أن هذا السعر صفقةٌ جيدة للغاية.

لفتت القنصلة نظر طوني: "إن جلوسك على هذا النحو غير ملائم"، فقامت طوني بسحب رسغها من فوق المائدة، دون أن ترفع عينيها عن

كتابها. فقال توم: "هذا لن يضيرها شيئًا، فبوسعها الجلوس كيفما شاءت وسوف تظل دائمًا طوني بودونبروك، فهي وتيلده يعتبران أجمل فتيات العائلة بلا منازع".

فاعترت تيلده دهشةٌ عارمة لتقول: "يا ربي! توم!"، ولم يكن بوسع أحدٍ إدراك قدرة تيلده علي مط هذا المقطع القصير. أما طوني فقد تحملت تعليق أخيها صامتةً؛ لأن توم كان يتفوق عليها في هذا المجال، فلم يكن الرد ليفيدها لأنه كان سيجد إجابةً أخرى ينتزع بها ضحك من حوله، فكان أن استنشقت الهواء بعمق ورفعت كتفيها إلى أعلى. إلا أنه عندما بدأت القنصلة في ذكر الحفل الذي ينظمه القنصل هونيوس، وذكرت كذلك شيئًا عن الأحذية اللامعة، سحبت طوني رسغها من المائدة وقد بدا عليها الاهتمام.

أما كريستيان فقد صاح شاكيًا: "إنكم تتحدثون وتتحدثون، وهذا أمرٌ صعب رهيب، فليتني كنت أنا أيضًا تاجرًا!".

فقال توم: "أنت تريد كل يوم أن تصير شيئًا آخر".

وهنا جاء أنطون عبر الفناء حاملاً بطاقة فوق صحيفة الشاي، فنظروا إليه بفضول. فقرأ القنصل: "جريونليش، وكيل أعمال، من هامبورج، رجلٌ لطيف لاغبار عليه، وهو ابنُ قسٍ. ولقد عقدنا معه بعض الصفقات. أما أنت، أنطون، فامض إلى السيد وقل له إن بوسعه التفضل إلى هنا، أيناسبِك هذا، بيتسي"؟

جاء الرجل عبر البستان ممسكًا بيده القبعة والعصا، وهو يقطع خطى قصيرة برأسٍ منتصبة إلي حدٍّ ما. بدا رجلاً متوسط القامة، يبلغ من العمر

اثنين وثلاثين عامًا تقريبًا، وقد ارتدى حلةً من الصوف خضراء ضاربة إلى الاصفرار، طويلةً، وكذلك قفازين مغزولين، أما شعر رأسه فكان أشقر رائقًا خفيفًا، بينما كان وجهه متوردًا باسمًا، كما كانت هناك شامةٌ علي أحد جانبي أنفه تسترعي الانتباه، وكان حليق الذقن والشارب إلا أنه أطلق لحيته الطويلة علي جانبي وجهه مسايرًا آخر صيحة إنجليزية، وكانت تتميز بلونها الأصفر الذهبي. كانت هيئته بقبعته الكبيرة ذات اللون الرمادي الفاتح، تعطي انطباعًا باتسامه بالورع.

وتقدم في النهاية بخطوةٍ أخيرة واسعة للغاية، وقد أحنى جذعه على هيئة شبه دائرة، وانحنى محييًا الجميع.

"يبدو أني أثير إزعاجًا، فقد سببت إزعاجًا لجلسةٍ عائلية حميمة". هكذا قال بنبرةٍ ناعمة مبديًا تحفظًا راقيًا، ثم أردف: "فها أنتم تطالعون كتبًا قيمة وتتجاذبون أطراف الحديث.. فأرجو المعذرة".

"أهلاً بك، عزيزي السيد جريونليش"، قال القنصل وهو ينهض، وكذلك ابناه، ليصافح الضيف، ثم أضاف: "إنه من دواعي سروري أن أرحب بك خارج مجال العمل، وبين أفراد أسرتي. بيتسي! إنه السيد جريونليش، زميلُ عملٍ فاضل.. ابنتي أنطوني، ابنة أخي كلوتيلده.. أما توماس فقد تعرفت إليه من قبل، وهذا هو ابني الثاني، كريستيان، تلميذٌ بالصف الثانوي". ورد السيد جرونليش بانحناءةٍ لدى ذكر كل اسم. ثم استأنف حديثه: "كما قلت، فليست لدي نية لعب دور مفرق الجماعات.. وسأدخل إلى الموضوع، فهل تأذن سيدي القنصل أن نقوم بجولةٍ في البستان".

"أنت تسبغ علينا شرفًا إن أرجأتَ حديثك مع زوجي في مسألةٍ خاصة

وتفضلتَ بالبقاء معنا للحظات، تفضل بالجلوس".

فقال السيد جريونليش متأثرًا: "ألف شكر"؛ ثم جلس معتدلاً على حافة المقعد، واضعًا العصا والقبعة فوق ركبتيه، وأخذ يمسح بيده على أحد جانبي لحيته، وسعل سعالاً مقلدًا ما يشبه الهمهمة، معطيًا من خلال ذلك انطباعًا بالإقبال على قول شيء ما، مثل: "كانت هذه هي الدعوة، فماذا عن الجزء الرئيس من الحديث".

قالت القنصلة: "هل تقيم بهامبورج؟" هكذا تساءلت، وقد مالت برأسها جانبًا، طارحةً عملها اليدوي في حجرها. فقابل السيد جريونليش ذلك بانحناءةٍ جديدة، وقال: "حقًّا، سيدتي القنصلة، فمحل إقامتي في هامبورج، إلا أنني كثير الترحال، وهو ما يشغل وقتي، فأعمالي لا تعرف الراحة، همم، حقًّا، هذا ما أستطيع قوله". فرفعت القنصلة حاجبيها مع حركةٍ من شفتيها كأنها تقول بأدبٍ: "هكذا، إذن"؟

"إن العمل بلا راحةٍ لهو من ضروريات الحياة". هكذا أضاف ملتفتًا التفاتة غير كاملة نحو القنصل، ثم سعل مرةً أخرى عندما لحظ استقرار نظرة الآنسه طوني عليه، تلك النظرة الجامدة، المتفردة، المتفحصة التي كانت فتاةٌ شابة تعاين بها شابًّا غريبًا، وقد بدا على وجهها تعبيرٌ يتأهب للانتقال في أية لحظةٍ إلى الاحتقار.

"لدينا أقارب في هامبورج"، هكذا قالت أنطونيا حتى تكون قد شاركت في الحوار. ففصَّل القنصل قولها: "إنهم آل دوشامب، عائلة والدتي الراحلة".

"ها، قد اكتملت الصورة لدَي". هكذا أسرع السيد جريونليش بالرد، ثم أردف: "إنه شرفٌ لي أن أتعرف قليلاً بكم أيها السادة، فأنتم جميعًا أناسٌ

ممتازون، تتمتعون بالروح والعقل- همم. وفي الواقع، لو أن مثل هذه الروح قد سادت كل العائلات لصارت الدنيا أفضل حالاً، فنرى إيمانًا بالرب، وقلوبًا رحيمة، وورعًا حقيقيًا، بإيجاز: المسيحية الحقيقية التي هي مثلي الأعلى، وبهذا تقوم بينكم أيها السادة رابطةٌ حميمة، وتحفظون العراقة، وتتمتعون بأناقةٍ تخطف الأبصار، وهو ما تتمتع به سيدتي القنصلة، وهو ما أبهرني أنا شخصيًّا".

أما طوني فقالت لنفسها: "كيف عرف السبيل إلى قلب والدَي؟ فهو يقول كل ما يودان سماعه". إلا أن القنصل تحدث مستحسنًا: "إن هذه النزعة المزدوجة للذوق لتسبغ على الناس أفضل الصفات".

أما القنصلة فلم تتمالك إلا أن تُسمع الضيف وسوسة حليها الهامسة وهي تمد يدها نحوه، وتقلب ظاهر كفها على نحوٍ رائع، لتقول: "إنك تخاطب سريرتي، عزيزي السيد جريونليش".

فانحنى السيد جريونليش واعتدل في جلسته، ومر بيده علي لحيته وسعل، كأنه يقول: "فلنستأنف الحديث".

توجهت القنصلة ببضع كلماتٍ عن موطن السيد جريونليش، متذكرةً أحداث مايو الرهيبة التي وقعت هناك عام 1842، فذكر السيد جريونليش ذلك بأن "هذا الحريق كان فجيعةً ثقيلة، وكارثةً مؤسفة، وقد سبب خسائر بلغت قيمتها 135 مليونًا، حقًّا، وهو ما تم تقديره بدقة، وأنا مدينٌ، من جانبي، بالعرفان التام للعناية الإلهية.. فلم يصبني شيءٌ من هذا على الإطلاق.. فقد اندلعت النيران بالأساس في المنطقة المحيطة بكنيستي سانت بتري ونيكولاي". ثم أمسك عن الكلام ليقول: "يا لَه من بستانٍ

خلاب". وكان أثناء ذلك قد أعرب عن امتنانه لسيجار قدمه له القنصل، ثم أردف: "إنه أكبر من حديقة المدينة علي نحوٍ عجيب، فيا لها من باقات زهور زاهية.. يا إلهي، إنني لأقر بضعفي نحو زهور الخشخاش هذه، تلك التي تبدو هناك على نحوٍ يفوق الوصف".

وأثنى السيد جريونليش على منظر الدار كذلك، كما امتدح المدينة التي يقيم بها القنصل، وكان يجد لكل شخصٍ كلمةً يمدحه به. ثم تساءل مبتسمًا: "هل أجرؤ على الاستفسار عما تطالعينه، يا آنسة أنطوني؟"

فقطبت طوني حاجبيها فجأةً، دون سببٍ ظاهر، وأجابت السيد جريونليش دون أن تنظر إليه: "إنها راوية الإخوة سيرابيون، لهوفمان".

فقال: "حقًّا، إن لهذا الكاتب إنجازاتٍ رائعة، لكن عفوًا، لقد نسيت اسم ابنكم الثاني، سيدي القنصل".

"كريستيان".

"اسمٌ جميل، وأحب أن تنطق شفتاي بهذا الاسم".

ثم التفت السيد جريونليش ثانيةً إلى رب البيت ليقول: "إنها هي تلك الأسماء التي تدل بذاتها على أن حاملها مسيحي، وكما عرفت، فإن عائلتكم تتوارث اسم يوهان.. فمَن لا يتذكر أثناء النطق به أقرب تلاميذ المسيح إلى قلبه. فأنا علي سبيل المثال- إن أذنتم لي بإبداء هذه الملاحظة-(هكذا استأنف حديثه بطلاقة)، فأنا أُدعى مثل معظم أجدادي (بندكس) وهو اسمٌ لا يمكن اعتباره إلا اختصارًا لـ(بيديكيت)، تتداوله الألسنة. وأنت تقرأ، أيها السيد بودنبروك، آه، شيشرون! إنها نصوصٌ صعبة، أعمال الخطيب الروماني العظيم تلك". ثم قال باللاتينية: "Du asque tau dem

"Catilina".. همم، أجل إنني أيضًا لم أنس كل ما تعلمته باللاتينية".

فقال القنصل: "أما أنا، فعلى النقيض من والدي، فقد كنت أعترض دائمًا علي حشو رؤوس الصغار دائمًا باليونانية واللاتينية، فهناك الكثير من الأمور الجادة والمهمة التي يعوزها الإعداد للحياة العملية".

فأسرع السيد جريونليش للرد: "أنت تعبر عن رأيي، سيدي القنصل، قبل أن أنطق به. وأحب أن أضيف قبل أن أنسى أنها نصوصٌ صعبة وليست فوق النقد. وبغض النظر عن كل شيء، فإنني أتذكر بعض المواضع التي تُعد إساءةً مباشرة في هذه الخطبة".. وبعد فترة من الهدوء خطر ببال طوني: "لقد حان دوري الآن"، وذلك بعد أن لاحظت استقرار نظرات السيد جريونليش عليها. وبالفعل فقد نهض السيد جريونليش فجأةً من مكانه مؤديًا بيده حركة عصبية سريعة ومهذبة في آنٍ واحد تجاه القنصلة، ليهمس بحدة: "أرجوكِ سيدتي القنصلة، ألا رأيتِ؟- أستحلفك بالرب، يا آنستي" هكذا استدرك بصوت عالٍ لتعرف طوني أنها المقصودة بذلك "فلتبقي لحظةً علي وضعك هذا..!".

ثم استطرد هامسًا: "انظري، كيف تداعب الشمس شعر الآنسة ابنتك؟ إنني لم أرَ قط أجمل من هذا الشعر!".

هكذا تحدث بلهجةٍ استعراضية فجأةً، وقد أخذه الطرب، كأنه يخاطب الرب أو يخاطب قلبه. فابتسمت القنصلة راضيةً، أما القنصل فقال: "لا تملأ رأس الغريرة بالغرور". فقطبت طوني حاجبيها مرةً أخرى ملتزمةً الصمت. وبعد بضع دقائق، نهض السيد جريونليش وقال: "لكني لن أزعجكم أكثر من هذا، كلاَّ، بربي سيدتي القنصلة، لن أزعجكم أكثر من هذا! فقد جئتُ

لإنجاز بعض الأعمال.. لكن مَن يستطيع مقاومة هذا.. لكن الواجب يناديني الآن! فهل يسمح سيدي القنصل".

فقالت القنصلة: "أنا لستُ بحاجةٍ إلي أن أؤكد لك، أنه سيكون من دواعي سروري أن تخص دارنا بالزيارة أثناء إقامتك هنا".

فكان أن التزم السيد جريونليش الصمت للإعراب عن العرفان، ثم قال بنبرةٍ مؤثرة: "لقد ارتبطتُ بكم من أعماق قلبي، لكني لن أسمح لنفسي باستغلال كرمكم الفياض. فأناأقيم بجناحٍ في فندق بهامبورج".

"جناح!" هكذا فكرت القنصلة، وكان هذا هو ما سعى إليه السيد جريونليش، وقالت بلهجة إقرارٍ وهي تمد نحوه يدها مرةً أخرى بحرارة: "على كل حالٍ، آمل ألا تكون هذه هي آخر مرة نراك فيها".

فطبع السيد جريونليش قبلةً علي يد القنصلة، وانتظر أن تمد أنطوني يدها إليه كذلك، إلا أنها لم تفعل، فما كان منه إلا أن رسم نصف دائرة بجذعه لينحني ثانيةً، وطرح رأسه للخلف بحيويةٍ ليضع فوقها قبعته الرمادية ويغادر المكان بصحبة القنصل.

"إنه رجلٌ لطيف" هكذا قال الأخير عندما عاد ثانيةً إلي عائلته ليأخذ مكانه بينها. إلا أن طوني تجاسرت فقالت مؤكدةً: "أما أنا فأراه رجلاً أحمق".

فصاحت القنصلة مغاضبةً إلى حدٍّ ما: "طوني، يا إلهي! يا لهذا من حكم!" فتابعها القنصل: "مثل هذا الرجل المهذب صاحب التجربة العميقة، أنت تخرفين بما لا تعرفين". فقد كان يحدث أحيانًا أن يقوم الوالدان بتغيير دفة الحديث علي هذا النحو من الاحترام، لأنهما كانا على يقينٍ من اتفاق رأيهما. أما كريستيان فقد قطب أنفه ليقول: "ويا لأهمية ما قال.. نحن

نتجاذب أطراف الحديث.. بينما لم نتكلم نحن على الإطلاق (كم هي زاهية زهور الخشخاش هذه!).. وكان يتحدث أحيانًا كأنه يخاطب نفسه بصوت عال (إنني أزعجكم- إنني أطلب المعذرة- لم أر قط أجمل من هذا الشعر!).."

وقام كريستيان بتقليد السيد جريونليش على نحوٍ دقيق اضطر معه القنصل إلى الضحك، فعاودت طوني لتبادر: "إنه يفرط في إظهار أهمية شخصه، فهو لم يكف قط عن الحديث عن نفسه، فـ"هو" صاحب الأعمال الرائجة، و"هو" يحب الطبيعة، و"هو" يؤثر هذه أو تلك الأسماء، و"هو" يُدعى بندكس.. فما شأننا نحن بهذا، أريد أن أعرف"، ثم أردفت فجأةً وقد اشتد غضبها: "إنه لم يقل كل هذا إلا لتزكية شخصه. وقد خاطبك يا أمي، وخاطبك يا أبي بما تحبان سماعه، منافقًا لكما". فقال القنصل بحسمٍ: "هذا لا يُعد اتهامًا، فقد شاء إبراز أفضل ما لديه، متوخيًا المجاملة".

"إنني أراه إنسانًا طيبًا"، هكذا علقت كلوتيلده بهدوءٍ ونبرة ممطوطة، برغم أنها كانت الوحيدة التي لم يُبد السيد جريونليش أدني اهتمام بها. أما توماس فقد امتنع عن التعليق. وحسم القنصل الأمر: "كفى، إنه رجلٌ مسيحي، ماهر، نشط، وعلى درجةٍ رفيعة من الثقافة، أما أنت، طوني، أيتها الفتاة الكبيرة ذات الثامنة عشرة، وستبلغين قريبًا التاسعة عشرة، فكان مسلكه نحوك لبقًا مجاملاً، وعليك ترويض إدمانك للنقد، فنحن جميعًا بشرٌ ضعفاء، وأنتِ، معذرةً، حقًا، آخر من يرجمه بحجر.. توم، إلى العمل!".

أما طوني فأخذت تغمغم: "رجلٌ بلحية صفراء كالذهب!" وكانت أثناء ذلك قد قطبت حاجبيها، مثلما فعلت عدة مرات قبل ذلك.

الفصل الثَّـاني

وبعد عدة أيام، عندما كانت طوني عائدةً من زيارة لها خارج البيت، إذا بها تلتقي عند ناصية شارع برايتن شتراسه ومنجشتراسه بالسيد جريونليش الذي قال لها: "كم أحزنني حقًّا أني افتقدتك، فقد سمحت لنفسي بزيارة السيدة والدتك، وأحزنني غيابك، فيا لسعادتي بلقائك!"

أما الآنسة بودنبروك فكانت قد توقفت عندما بدأ السيد جريونليش الحديث. أما عيناها، اللتان كادتا أن تغمضاهما، واللتان صارتا فجأةً قاتمتين، فلم ترفعهما أعلى من مستوى صدر السيد جريونليش. وقد ارتسمت حول فمها الابتسامة الساخرة المفعمة بالقسوة، التي تعاين بها فتاةٌ صغيرة رجلاً ما، رافضةً إياه.. أما شفتاها فكانتا تتحركان بحثًا عن إجابة؟ ها! لابد من كلمة تقهر بها بندكس جريونليش هذا للأبد، تقضي عليه، على أن تكون كلمةً لائقة فكهة، موجعة، تسبب له جرحًا غائرًا أو تجبره على احترامها في آنٍ واحد.

"إنني لا أبادلك الشعور نفسه!".

هكذا ردت بينما كانت نظرتها ما تزال مستقرةً عند صدره. وبعد أن رمته بهذا السهم المغموس بعسلٍ سام، تركته واقفًا هناك، بعد أن طرحت رأسها للخلف ومضت عائدةً إلى بيتها، وقد اكتسى وجهها بحمرة الفخر بأسلوب ردها السافر، حيث علمت هناك أنه قد أُتفق على دعوة السيد جريونليش إلى حفل شواء للحم عجل يوم الأحد القادم.

جاء في حلّةٍ رسمية، غير مسايرة لأحدث صيحات الأناقة، إلا أنها كانت رقيقةً بهيجة تتخللها الثنايا، فأسبغت عليه مسحةً من الجدية والرزانة، كما كان وجهه متورّدًا مبتسمًا وقد صفف شعره الخفيف بعناية إلى جانب رأسه، وكذلك سالفيه المعطرين. وتناول من ألوان الطعام خليط المحار الحريف، وحساء يوليان ولسان بحر مخبوز ولحم العجل المشوي، مع قشدة بطاطس والقرنبيط، وبودينج مارا اسكونيو، وجبن الروكفور مع شرائح الخبز الأسمر. وكان يجد لكل لون كلمة إطراءٍ جديدة تتناسب مع هذا الطعام الشهي. فقد رفع، على سبيل المثال، شوكة الحلوى، ناظرًا أحد تماثيل كساء الحائط محادثًا نفسه بنبرة صوت مرتفعة: "فلتغفر لي يا إلهي، فلم يعد بوسعي التراجع، فلقد أكلت قطعةً كبيرة، إلا أن هذا البودنج قد سُوّي بيدٍ تفوق مهارتها الوصف، ولذا ألتمس من ربة الدار الكريمة أن تمنحني قطعةً أخرى". ثم نظر إلى القنصلة وهو يرف بعينيه مداعبًا.

وقد تحدث مع القنصل عن الأعمال والسياسة، بينما كان يعرب عن مبادئ جادة وعملية، وتحدث مع القنصلة عن المسرح والمجتمع ومواد التجميل، كما جامل أيضًا كلاً من توم وكريستيان وكلوتيلده المسكينة، بل كذلك كلارا والآنسة يونجمان.. أما طوني فقد تمسكت بالصمت، كما لم

يحاول هو من جانبه التقرب إليها، بل راح يتأملها من حينٍ لآخر، وهو يميل برأسه نحوها بنظرةٍ تحمل مشاعر الحسرة والتشجيع. وعندما غادر السيد جريونليش العائلة كان الانطباع قد تأكد، فقد قالت القنصلة: "إنه رجلٌ مهذب". وقال القنصل: "إنه رجلٌ مسيحي جديرٌ بالاحترام".

أما كريستيان، فقد أصبح الآن أكثر إتقانًا لتقليد حركته ولغته، وأما أنطونيا، فقد تمنت للجميع ليلةً طيبة بعد أن قطبت حاجبيها عابسةً؛ إذ داهمها شعورٌ غامض بأنها لن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها هذا الرجل الذي استطاع السيطرة على قلب والديها بهذه السرعة الغريبة. وهو ما حدث في الواقع، فعندما عادت ذات عصرٍ من زيارة لإحدى اجتماعات الفتيات، إذا بها تجد السيد جريونليش قد عشش في غرفة المنظر الطبيعي وهو يتلو بنفسه علي القنصلة مقطعًا من رواية "وفرلي" لوالتر سكوت، تلاوةً نموذجية، فقد قادته رحلات أعماله التجارية الرائجة أيضًا إلى إنجلترا، على حد قوله. فكان أن انتحت طوني جانبًا بكتابٍ آخر، فسألها السيد جريونليش بنبرةٍ عذبة: "ألا يتناسب ما أقرأه مع ذوقك يا آنستي؟" وهو ما أجابت عليه بأن طرحت رأسها للوراء وردت ردًا ساخرًا حقيقيًا، مثل: "لا يناسبني على الإطلاق"، إلا أنه لم يتأثر بذلك، فقد راح يحكي عن والديه اللذين توفيا قبل الأوان، ويروي عن أبيه، الذي كان واعظًا، وقسًا، وبلغ أعلى درجات الإيمان وأعلى درجات التمتع بالحياة الدنيا في آنٍ واحد.

إلا أن الرجل رحل إلى هامبورج دون أن تحضر طوني حفل وداعه.

"إيدا" هكذا قالت طوني للآنسة يونجمان، صديقتها المخلصة، ثم أردفت: "لقد رحل الشخص!". إلا أن إيدا يونجمان ردت: "سوف نرى يا بنيتي.."

ووقع حدثٌ ما بعد ثمانية أيام في غرفة الإفطار، حيث جاءت طوني في الساعة التاسعة، ودهشت لرؤية والدها بجوار القنصلة جالسين إلى المائدة لتناول القهوة. وبعد أن طبعا قبلةً علي جبهتها جلست بمكانها متحمسةً جائعة، وقد احمرت عيناها من أثر النوم. وتناولت السكر والزبد وكذلك جبن الأعشاب الأخضر.

"كم هو رائع أن أراك يا والدي!"؛ قالت هذا وهي تمسك بمنديلٍ بيضةً ساخنة وتكسر قشرتها بملعقة الشاي.

"لقد انتظرتُ ابنتي التي ألفت الاستغراق في النوم" هكذا قال القنصل وهو يدخن السيجار ويضرب بدأب بصحيفته المطوية سطح المائدة ضربًا خفيفًا. أما القنصلة فقد انتهت من فطورها على مهل وبحركة رشيقة، ثم أراحت ظهرها على الأريكة. واستطرد القنصل موحيًا بأهمية ما يقول: "إن تيلده تقوم بعملها الآن في المطبخ، ولو لم يكن لدينا أنا ووالدتك من أمر جاد لنناقشه مع ابنتنا الصغيرة لكنت أنا أيضًا بمكتبي".

بفم ممتلئ بالزبد نظرت طوني إلى وجه أبيها وأمها نظرةً تراوح بين الفضول والذهول، فقالت القنصلة: "فلتنتهي أولاً من طعامك، يا بنيتي".

وبرغم أن طوني طرحت سكينها جانبًا لتصيح: "أخبرني في الحال بهذا الأمر، يا والدي، أرجوك". إلا أن القنصل، الذي لم يكن قد توقف عن اللعب بالصحيفة، ردد مكررًا: "فلتأكلي أولاً".

وبينما كانت طوني تحتسى قهوتها صامتةً بلا شهية، وتأكل بيضتها والخبز بالجبن الأخضر، بدأت تدرك سر المسألة. ففارقت وجهها طلاوةُ الصباح، وشحب لونها بعض الشيء، وامتدحت العسل قبل أن تعلن هامسةً

انتهاءها من الفطور. وبعد لحظةٍ من صمت، قال القنصل: "بنيتي العزيزة، إن المسألة التي نريد الحوار معك بشأنها يحتويها هذا الخطاب". وبدلاً من الصحيفة صار يدق على المائدة في هذه اللحظة بمظروف كبير أزرق اللون، ليردف: "موجز القول، فإن السيد بندكس جريونليش، الذي عرفناه جميعًا رجلاً طيبًا كريمًا، قد كتب لي أنه شعر أثناء إقامته بيننا بميلٍ عميق نحو ابنتنا، وهو يطلب رسميًّا يدها. فما رأي ابنتنا الطيبة في ذلك؟"

تراجعت طوني إلى الخلف منكسةً رأسها وهي تدير ببطء حلقة منديل المائدة الفضية بيدها اليمنى. إلا أنها- فجأةً- فتحت عينيها اللتين تلبدتا بالغيوم، فاغرورقتا بالدمع لتصيح بنبرة مهمومة: "ماذا يريد هذا الشخص مني! ماذا جنيت عليه؟!" لتنفجر إثر ذلك في البكاء. فألقى القنصل نظرةً على زوجته، ثم أخذ يتأمل لبعض الوقت قدحه الفارغ. أما القنصلة فقالت بنبرةٍ حانية: "حبيبتي طوني، لماذا كل هذا الحزن، وأنتِ بوسعك أن توقني حقًّا أن والديك لا يسعيان إلا إلى ما فيه كل الخير لك. ولا يمكن أن نشير عليك بما يهدد مستقبلك. انظري، إنني أفترض أنك لم تحسمي مشاعرك بعد نحو السيد جريونليش، وهو ما أؤكده لك، بأنه سوف يحدث بمرور الوقت. ففتاةٌ حديثة السن مثلك لا تستطيع إدراك حقيقة ما تريد، والحيرة تغشى العقل مثلما تضطرم في القلب، فلابد من إتاحة الفرصة أمام القلب وعدم إغلاق العقل أمام مَن خبروا الحياة، والذين يسعون بخطى محسوبة لتحقيق سعادتنا".

"أنا لا أعرف شيئًا عنه" هكذا أجابت طوني، وهي في حال يُرثي لها، وقد غطت عينيها بمنديل المائدة الباتيستا الأبيض الصغير، العالق به بعضُ آثار البيض. ثم أضافت: "وما أعرفه فقط هو أن له لحيةً صفراء كالذهب وأنه

صاحب تجارة رائجة". أما شفتها العليا، التي كانت ترتعش أثناء بكائها، فقد أعطت انطباعًا مؤثرًا يفوق الوصف.

فاقترب القنصل منها بمقعده بحركةٍ حانية مفاجئة، وأخذ يمسح براحة كفه على شعرها، وقال: "بنيتي الصغيرة طوني، وماذا ستعرفين عنه؟ فأنت ما تزالين طفلةً، فانظري، فلن تعرفي المزيد عنه حتى لو أقام بيننا أربعة أسابيع، بل عامًا كاملاً. وأنت ما تزالين فتاة صغيرة، لم تتفتح عيناها بعد على الحياة. ولابد لها أن تعتمد على عيون آخرين يتمنون لها الخير".

"أنا لا أفهم ذلك.. أنا لا أفهم ذلك". هكذا انفجرت طوني في النحيب، وألصقت رأسها كقطة صغيرة باليد التي كانت تربت عليها، وقالت: "لقد جاء إلينا.. وقال كلامًا مجاملاً للجميع.. ثم رحل ثانيةً.. ليكتب أنه يريدني.. أنا لا أفهم ذلك، كيف يتسنى له ذلك.. وماذا فعلتُ به؟!" فابتسم القنصل ثانيةً وقال: "لقد قلتِ هذا قبل ذلك، طوني، وهو ما يكشف حيرتك الطفولية. ولابد أن تؤمن بنيتي الصغيرة بأنني لا أريد إكراهها على ذلك أو تعذيبها به.. وكل هذا يمكن تدبره بترويٍ، بل لا بد من تدبره بروية، فهو أمرٌ جاد. وهذا ما سوف أرد به على السيد جريونليش مؤقتًا، فلن أرفض طلبه ولن أقبله.. فهناك أمورٌ كثيرة يجب تدبرها.. إذن.. هذا هو رأينا.. اتفقنا! والآن سيذهب والدك إلى عمله.. وداعًا، بيتسي".

"إلى اللقاء، عزيزي جان".

"ينبغي عليكِ تناول بعض العسل، طوني، فلا بد أن تأخذي كفايتك من الطعام". قالت القنصلة ذلك بعد أن أصبحت وحيدةً مع ابنتها التي ظلت بمكانها، منكسة الرأس، لا تحرك ساكنًا.

كانت دموع طوني قد أخذت تجف شيئًا فشيئًا. بينما كانت الأفكار تداهم رأسها الساخنة.. يا إلهي! يا له من أمرٍ شاق! لقد كانت تعرف أنها سوف تصير يومًا ما زوجةً لأحد التجار، ولسوف يكون زوجًا طيبًا ومفيدًا بما يوافق مركز العائلة والشركة.. ولكن ها هو ما يجري لها فجأةً، ولأول مرة أن يريد أحدهم حقًّا الاقتران بها بإصرارٍ تام! فما عساها فاعلة إزاء ذلك. فهكذا أصبحت هي، طوني بودنبروك، فجأةً في مواجهة كل هذه المفاهيم العسيرة الرهيبة، التي لم تكن قد عرفتها حتى الآن إلا من خلال ما قرأته، مثل: "قبولها" و"طلب يدها" و"مدى الحياة".. يا إلهي، يا لهذا الوضع الجديد تمامًا! فقالت: "وأنتِ، يا أمي؟ أنت تنصحين كذلك بإبداء موافقتي؟" وكانت قد ترددت قليلاً قبل ذكر كلمة "الموافقة"، بعد أن بدت لها لفظًا أجوف رنانًا. إلا أنها نطقتها بعد ذلك بوقارٍ لأول مرة في حياتها. ثم بدأت شيئًا فشيئًا تستحي من فقدانها السيطرة على نفسها. وبرغم أنها كانت ما تزال تعتبر زواجها من السيد جريونليش لا يقل عبثًا عما فهمته قبل عشر دقائق، إلا أن شعورها بأهمية مكانتها بدأ يملأ كيانها بالرضا.

قالت القنصلة: "إنه ليس سوى تقديم النصح يا ابنتي، ألم يقدم لك والدك النصح؟ إلا أنه لم يفعل النقيض، هذا كل ما في الأمر، ولو أننا لم نفعل ذلك لاعتبرنا، أنا وهو، هذا تخليًا عن المسؤولية. إن الارتباط الذي عُرض عليك لهوَ ما يُسمى بالزيجة الطيبة، يا عزيزتي طوني.. فلسوف تذهبين إلى هامبورج لتعيشي هناك في أفضل الظروف، وتنعمي بحياةٍ رغدة".

أما طوني فظلت ساكنة، وتراءى لها فجأةً ما يشبه تلك الستائر الحريرية المسدلة بصالون جديها.. فهل ستحتسي، بوصفها السيدة جريونليش، هذه

الشوكولاته صباحًا؟ لا يليق أن تطرح مثل هذا السؤال. وأضافت القنصلة: "مثلما قال والدك لك، أمامك وقتٌ للتفكير، إلا أن مثل هذه الفرصة، التي تمنحك السعادة، لا تواتيك كل يوم، وهذا الزواج لهو ما كتبه عليك القدر وتحمل المسؤولية. حقًا، بنيتي، هذا ما كان عليَّ أن أوضحه لك. فالسبيل الذي انفتح أمامك اليوم هو ما قُدر لك، وأنتِ نفسك تعرفين هذا حقًّا".

فقالت طوني شاردةً: "نعم، يقينًا"، فقد كانت تعرف مسؤولياتها نحو العائلة والشركة. فهي، أنطوني بودنبروك، التي تمضي بطرق المدينة مثل ملكة صغيرة، قد رسخ في أعماقها تاريخ عائلتها. وقد كان "خياط روستوك" هو الذي نجح في تأسيس ذلك، ومنذ ذلك الحين ونجم العائلة في صعود دائم. وقد أصبحت مهمتها، كما تراها هي، تكمن في الارتقاء بمجد عائلة وشركة يوهان بودنبروك، بأن تتزوج من عائلة ثرية نبيلة.. وهو ما يقوم به أخوها توم بالمكتب.. نعم، إن نوع هذا الارتباط لهو الصحيح. لكن ألم يكن هناك غير السيد جريونليش.. ها هي تراه ماثلاً أمامها بسالفيه المصفرين كالذهب، ووجهه المتورد المبتسم بتلك الشامة على جانب أنفه، وخطاه القصيرة، فداهمها شعور أنها تحس بحلته الصوفية وأنها تسمع صوته الناعم. وقالت القنصلة: "كنت أدرك أننا نسير في منهج التفكير الهادئ.. فهل اتخذنا قرارًا؟"

فصاحت طوني: "أوه، ألا لا حكم الرب بذلك". وضغطت بأسنانها على لفظ "أوه" بغضبٍ مفاجئ، لتضيف: "إنه هراء أن أتزوج جريونليش، وقد سخرت منه دائمًا بكلام موجع، ولا أدري أبدًا كيف سيكون بوسعه أن يطيقني. فلابد أنه ما يزال يحتفظ بشيءٍ ما من اعتزازه بنفسه". وبهذا كانت قد شرعت في سكب قطرات من العسل علي شريحةٍ من الخبز الريفي.

الفصل الثَّالث

في هذا العام، لم تقم عائلة بودنبروك بأية رحلة، حتى أثناء عطلة دراسة كريستيان وكلارا. وقد أعلن القنصل انشغاله التام بعمله. كما ساهمت مسألة أنطوني المعلقة في البقاء في منجشتراسه، انتظارًا للحسم. وكان القنصل قد كتب خطابًا دبلوماسيًّا للغاية إلى السيد جريونليش، إلا أن تطور الأمور قد تعثر بعناد أنطونيا الذي كانت تبديه بصورةٍ صبيانية، فكانت تردد: "ألا لا قضى الرب بذلك، يا أمي! فأنا لا أطيقه!" بينما كانت تضغط بأسنانها علي المقطع الأخير من الكلمة لتنطق حروفها مدغمةً، على سبيل الاستثناء. وعلى الرغم من أن طوني قد اعتادت مناداة أبيها بـ"بابا" إلا أنها كانت تقول له محتفيةً: "أبي، إنني لن أمنحه أبدًا موافقتي".

وكانت هذه المسألة ستتوقف عند هذا الحد لفترة طويلة، لو لم يقع الحدث التالي بعد عشرة أيام تقريبًا من الحوار الذي دار أثناء الفطور. وقد جرى هذا في منتصف شهر يوليو.

كان وقت العصر، كان الجو دافئًا وصحوًا، وكانت القنصلة قد غادرت

البيت فيما تجلس طوني وحيدةً بغرفة المنظر الطبيعي، تطالع إحدى الروايات بجوار النافذة، عندما دخل عليها أنطون حاملاً إليها بطاقة زيارة، وقبل أن تقرأ الاسم كان قد دخل إلى الغرفة رجلٌ مرتديًا حلة رسمية بهيجة وسروالاً بلون البازلاء، وقد كان- كما يُفهم- هو السيد جريونليش، وقد ارتسمت على وجهه أمارات رقةٍ متبتلة. فنهضت طوني عن مقعدها وجلةً وأتت بحركة كأنها شاءت الفرار إلي قاعة الطعام، فكيف يتسنى لها مخاطبة رجل تقدم لطلب يدها. وكان وجيب خفقات قلبها قد تصاعد إلى عنقها، وشحب لون وجهها للغاية. وقد كانت تتسلى بالمفاوضات الجادة مع والديها سعيدةً بالظهور المفاجئ لأهمية شخصها وقرارها، وطالما كان السيد جريونليش بعيدًا عنها. ولكن ها هو قد عاد الآن ثانيةً! وقد مَثل أمامها، فما عساها فاعلة؟

ها هي تشعر مرةً أخرى بالرغبة في البكاء.

بخطى سريعة، فاردًا ذراعيه، مائلاً برأسه جانبًا، متخذًا هيئة رجل يريد أن يقول: "ها أنا، فاقتليني إن شئتِ" هكذا تقدم السيد جريونليش نحوها ليصيح: "يا لتصاريف القدر! فها قد عثرت عليك، أنطوني!" هكذا قالها ببساطة: "أنطوني". أما طوني فقد انتصبت واقفةً أمام مقعدها، ممسكةً بروايتها بيمناها، وقد مطت شفتيها، وفيما كانت تهز رأسها من أسفل إلى أعلى مع كل كلمة، معبرةً عن استيائها العميق لدى كل كلمة فقد صاحت: "ما الذي صوره لك خيالك؟"

وبرغم ذلك كانت الدموع ما تزال مختنقة في حلقها. وكانت حركة السيد جريونليش أكبر بكثير من أن يأبه لهذا الاعتراض، فسألها مُلحًا: "هل كان

بوسعي الانتظار لفترةٍ أطول.. ألم يكن عليَّ العودة ثانيةً إلى هنا؟ وقد تسلمت منذ أسبوع من والدك العزيز هذا الخطاب الذي أحيا آمالي، فهل كان لي أن أنتظر بين شكٍ ويقين، آنسة طوني؟ لكني لم أحتمل أكثر من ذلك، فألقيت بنفسي في عربة مسرعًا إلى هنا.. وقد حجزتُ جناحًا بفندق هامبورج.. وها أنا ذا، أنطوني، لاستقبال الكلمة الأخيرة الحاسمة من شفتيك لأشعر بسعادة تفوق الوصف!" فكان أن تسمرت أنطونيا في مكانها من الذهول.

كان هذا هو رد الفعل على خطاب والدها الحذر، الذي أرجأ الحسم إلى أجلٍ غير مسمى، فتمتمت ثلاث أو أربع مرات: "أنت مخطئ، أنت مخطئ.." فسحب السيد جريونليش مقعد وثيرًا نحو النافذة ليجلس هناك ملاصقًا لمقعدها، واضطرها إلى الجلوس ثانية، ثم أمسك بيدها، الفاترة من فرط حيرتها، ثم انحنى إلى الأمام ليقول لها بصوت متهدج: "آنسة أنطوني.. منذ اللحظة الأولى منذ ذلك العصر، هل تذكرين وقت العصر ذاك؟ عندما رأيتك لأول مرة بين أفراد عائلتك؟ لقد رأيت فتاةً نبيلة للغاية، رقيقة كالطيف، حينئذ طُبع اسمك في قلبي بحروفٍ لا يمحوها الزمان"، (ثم صحح "طُبع" إلى "نُقِش")، منذ ذلك اليوم، آنسه طوني، صارت أمنيتي الوحيدة الحارة، هي أن أكسب يديك الجميلة مدى الحياة. وإذا لم يكن خطاب والدك العزيز قد منحني الأمل فحسب، فإنكِ سوف تجعلين ذلك حقيقةً الآن، حقيقة مفعمة بالسعادة.. أليس كذلك؟ وأنا أسمح لنفسي بتوقع، بل بالاطمئنان إلى موافقتك!".

أثناء ذلك كان قد أمسك بيدها الأخرى وهو يسدد نظرة عميقة إلى

عينيها المتسعتين من الرهبة. لم يكن يرتدي اليوم تلك القفازات المغزولة، فبدت يداه طويلتين، بيضاوين، وقد نفرت فيهما عروقٌ زرقاء. حملقت طوني في وجهه المتورد، والشامة بجانب أنفه، وعينيه الزرقاوين كعيني الأوز، ثم صاحت بسرعةٍ وخوف: "كلا، كلا" ثم أردفت: "لن أمنحك موافقتي".

وقد حاولت التماسك، إلا أنها انخرطت في البكاء. فسألها هو بصوتٍ هامس تكاد نبرتهُ تحمل لومًا ما: "ماذا جنيتُ حتى أواجه بهذا الشك والتردد من جانبك، وأنتِ الفتاة المُدللة التي نعمت بالرعاية والأمان.. لكني أعدك بشرفي أن أحملكِ فوق كفَّي الراحة وألا ينقصك شيءٌ كزوجة وأنكِ سوف تعيشين في هامبورج حياةً تليق بك".

فهبت طوني واقفةً، محررةً يديها، وبينما كانت دموعها تنهمر، صاحت بيأسٍ تام: "كلا، كلا، لقد قُلتُ لا! لقد رددت عليك طلبك، ألا تفهم ذلك، يا رب السماء؟!".

نهض السيد جريونليش وحده متراجعًا خطوةً ليفرد ذراعيه، رافعًا كفيه نحوها ليخاطبها بجدية الرجال بشرفٍ وحزم: "أتعلمين؟ يا آنسة بودنبروك، أنني لا أسمح بإهانتي علي هذا النحو؟"

"لكني لم أوجه إليك أية إهانة، سيد جريونليش". هكذا قالت طوني، بعد أن أسفت لاندفاعها بهذه الحدة.. يا إلهي، أيحدث لها، هي تحديدًا، مثل هذا المشهد. فلقد ظنت أنه يكفيها القول: "إن طلبك لشرفٌ لي، لكني لا أستطيع قبولهُ". وهكذا ينتهي الأمر.. فقالت بما وسعها من هدوء "إن طلبك ليشرفني، لكني لا أستطيع قبوله.. هكذا، ولابد أن أغادرك الآن، معذرةً، فلم يعد لدَيَّ وقت".

إلا أن السيد جريونليش اعترض سبيلها ليسألها ببرود: "أترفضينني؟" فقالت طوني: "أجل"، ثم أضافت بدافع الحرص: "للأسف". فتنفس السيد جرينليش نفسًا عميقًا وتراجع خطوتين للوراء، ومال بجذعه جانبًا مشيرًا بسبابته نحو البساط، هاتفًا بصوتٍ مروعٍ: "أنطوني!".

هكذا وقفا للحظةٍ متواجهين، وقد اتخذ هو هيئة الرجل الغضوب، بينما كانت طوني ممتقعة الوجه، باكيةً، مرتجفةً، وقد غطت فمها بمنديلها المبتل. وفي النهاية استدار عاقدًا يديه خلف ظهره ليقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا كأنه رب الدار. ثم وقف عند النافذة لينظر من خلال زجاجها إلى الغسق الذي بدأ يغشى المكان. فمضت طوني ببطءٍ نحو الباب الزجاجي متوخيةً بعض الحذر، إلا أنها وجدت نفسها بوسط الغرفة عندما لحق بها السيد جريونليش من جديد، ليقول بهمسٍ خفيض: "طوني!" وقد أمسك بيدها برقة، وجثا، جثا ببطءٍ على ركبتيه أمامها وقد أراح جانبي لحيته الصفراء كالذهب علي يديها ثم أعاد: "طوني.. انظري إليَّ هنا.. لقد أوصلتني إلى هذه الحال، ألديك قلبٌ، قلبٌ يشعر بي؟ أصغي إليّ، ها أنتِ ترين أمامك رجلاً قُضي عليه، انتهي أمره وإذا.. فإنه حقًّا سوف يموت كمدًا". ثم استدرك بسرعة: "إذا تجاهلت حبه! ها أنا أرقد هنا، فهل يطاوعك قلبك أن تقولي: إني أنفر منك؟" فقالت طوني فجأةً بنبرةٍ مواسية: "كلا، كلا". وكانت دموعها قد جفت وتملكها شعورٌ بالتأثر والشفقة. يا إلهي، إلى هذا الحد شغف بها حتى أتى أمامها بمثل هذه الأفعال التي كانت غريبةً تمامًا عن مشاعرها فلم تأبه لها. أكان ممكنًا أن تشهد ذلك؟ لقد قرأت شيئًا من هذا القبيل في الروايات، وها هي في واقع حياتها ترى رجلاً بحلةٍ رسمية يركع أمامها متضرعًا.. وكانت

تعتقد أن زواجها ببساطة هراء، فقد رأت أن السيد جريونليش رجلٌ أحمق. لكن، بربك، لم يكن الرجل في هذه اللحظه أحمق على الإطلاق! فقد تبدى في نبرات صوته وعلى ملامح وجهه خوفٌ صادق ورضاءٌ حقيقيٌ يائس..

"كلا، كلا". قالت ذلك، وقد بلغ بها التأثر مداهُ فمالت عليه لتقول: "أنا لا أنفر منك، سيد جريونليش، كيف تقول مثل هذا!.. لكن، لتنهض الآن.. من فضلك".

فعاود هو السؤال: "إنك لا تبغين قتلي؟"

فقالت هي مرةً أخرى بنبرة مواساةٍ تكاد تكون أمومية: "كلا، كلا".

"إنها إذن كلمتك لي!"، صاح السيد جريونليش، ثم قفز واقفًا على قدميه. إلا أنه، ما إن رأى ما ألم بطوني من ذعرٍ، حتي خرَّ ثانيةً جاثيًا ليقول مهدئًا روعها: "حسنًا، حسنًا، لا تقولي أكثر من هذا الآن، أنطوني! هذا يكفي هذه المرة.. أرجوكِ.. فهذا يكفي هذه المرة.. فسوف نواصل حديثنا.. في المرة القادمة.. وداعًا اليوم.. وداعًا.. سوف أعود.. وداعًا!".

وكان قد نهض بسرعة واختطف قبعته الرمادية من فوق المائدة، وقبل يدها ليخرج من خلال الباب الزجاجي. وقد رأته طوني وهو يمسك بعصاه في بهو الأعمده ليتلاشى أثره في الممر. ووقفت هناك بوسط الغرفه ممسكةً بالمنديل المبتل بإحدى يديها المرسلتين.

الفصـل الرَّابـــع

قال القنصل بودنبروك لزوجته: "لو كان بوسعي تصور أن لدى طوني دافعًا قويًّا يحول بينها وبين حسم أمر هذا الارتباط، إلا أنها ما تزال طفلة، بيتسي، مغرمة باللهو؛ فهي ترقص في الحفلات، وتستمتع بمغازلة الشبان لها، بل تسر لذلك؛ لأنها تدرك أنها جميلةٌ وتنتسب لعائلةٍ كبيرة.. ولعلها تبحث عمن تحب سرًّا وبلا وعيٍ منها.. لكني أعرفها، فهي، كما يقال، لم تكتشف مشاعرها الحقيقية بعد.. فإن سُئلت عن هذا فإنها تدير رأسها هنا وهناك شاردة الفكر.. إلا أنها لم تجد أحدًا.. فهي ما تزال طفلةً، عصفورًا صغيرًا نشط الحركة، فإن قالت نعم تكون قد عثرت على ضالتها، وسيكون بوسعها العمل على الاستقرار مع من هفت إليه نفسها. وسوف تحب زوجها بعد أيام قليلة.. إنه ليس وسيمًا، كلاَّ، فهو ليس وسيمًا، إلا أنه يتمتع- إلى حدٍّ ما- بأعلى درجة من القبول، ولكن الأمنيات لا تتحق دائمًا، إذا جاز لى إيثار هذا التعبير العملي.. أما إن شاءت الانتظار حتي يأتيها الفتى الجميل، ويكون زواجه بها ناجحًا.. إذن فلتنتظر مشيئة الرب. ولسوف تعثر طوني بودنبروك على رجلٍ ما، لكن هذا الأمر يحمل في جانبه الآخر مغامرةً؛ ولأقل

ما يقوله التجار ثانيًا: عصفورٌ في اليد خيرٌ من عشرة على الشجرة. وقد كان لي حديثٌ طويل بضحى الأمسِ مع جريونليش الذي لا يكل عن تقديم نفسه بجرأة.. فرأيت دفاتره.. لقد أطلعني عليها.. إنها دفاتر تدعو للفخر، بيتسي! وقد أعربتُ له عن إعجابي العظيم بذلك.. فمركزه المالي برغم حداثة نشاطه التجاري يُعد جيدًا، بحق.. جيدًا. فثروته تبلغ حوال 120 ألف ريال، وهي ركيزته الحالية، كما يبدو، فهو يحصد أرباحًا كبيرة كل عام.. وقد سألت عنه عائلة دوشامب فلم يذكروه بسوء، فهو يعيش حياة رجل "جنتلمان"، ويتمتع بعلاقات مع أرقي طبقات المجتمع، ونشاطه التجاري معروف ومتعدد. وقد عرفتُ من بعض معارفي الآخرين في هامبورج، مثل المصرفي كسلماير، ما حاز أيضًا رضائي التام. وبإيجاز، فأنتِ تعرفين، بيتسي، أنه ليس بوسعي إلا أن أضع آمالي الكبيرة على هذه الزيجة التي ستعود بالنفع علي الأسرة والشركة. وأنه يؤسفني، أقسم بالرب، أن نضع هذه الطفلة في هذا الموقف الحرج، ونحاصرها من جميع الجهات، فتحمل على كاهلها مثل هذه الهموم ولا تستطيع الاعتراض. وأنا لا أستطيع ببساطة اتخاذ قرار برفض طلب جريونليش.. كما أن هناك أمرًا آخر، بيتسي، لا أستطيع تكراره، وهو أننا في السنوات الأخيرة، أقسم بالرب، لم نحصد أرباحًا كبيرة، كأن بركة الرب لم تحل بنا، حاشا للرب، فالرب لا يضيع حق المجدين. إلا أن العمل يسير ببطء.. آه، ببطءٍ تام، وحتي هذا لم يحدث إلا لأنني أتوخى الحذر الشديد في العمل. فنحن لم نتقدم علي نحوٍ ملموس منذ وفاة والدي. والوقت الآن ليس في صالحي، عن حق.. وبإيجاز، فليس هناك الكثير من دواعي السرور. وابنتنا أصبحت الآن مؤهلة للزواج وبإمكانها الارتباط بزيجة يراها

الجميع مفيدة ومدعاة للفخر، وهو ما ينبغي عليها أن تفعله. فالانتظار ليس في صالحنا، ليس في صالحنا، بيتسي، ففاتحيها مرةً أخرى، وقد حاولتُ عصر اليوم إقناعها بكل قواي".

كانت طوني في وضع حرج، وكان القنصل محقًا في ذلك. وهي لم تعد تقول لا، لكنها لا تقوى أيضًا علي النطق بكلمة "نعم"؛ فليكن الرب في عونها! وهي نفسها لم تدرك بحق سر عجزها عن الموافقة. وأثناء ذلك كان والدها ينتحي بها جانبًا ليلقي إليها ببعض الكلمات الجادة، بينما كانت أمها تجلس إليها لتطلب منها اتخاذ قرارها الأخير.. ولم يشترك العم جوتهولد وأسرته في هذا الأمر؛ لأنهم كانوا دائمًا ما يسخرون من أهل شارع منجشتراسه. حتي سيسيمي فايشبروت علمت بهذا الأمر وتناولته بلغةٍ سليمة، حتى إن الآنسة يونجمان قالت لها: "صغيرتي طوني، بنيتي، لا تحملي همًّا، فستظلين بين الطبقات الراقية". ولم تزُر طوني الصالون الحريري، بالضاحية، أمام بورجتور، إلا وبادرتها العجوز السيدة كروجر بقولها: "لقد سمعت عن أمرٍ أرجو أن تحسني تدبيره، يا بنيتي".

وذات يوم أحدٍ، عندما كانت تجلس هي ووالداها وإخوتها بكنيسة سانت ماريا، كان القس كولنج يتحدث بكلماتٍ مؤثرة عن نصوصٍ تذكر المرأة التي يجب أن تهجر أباها وأمها لتتبع زوجها، وقد أغلظ القول فجأةً فصوبت طوني نحوهُ نظرةً حادة جزعة لتعرف إن كان ينظر إليها.. كلا، شكرًا للرب فقد كان قد وجَّه رأسه الضخمة إلي جانبٍ آخر، مستأنفًا عظته العامة إلى جمع المستمعين إلا أنها تبينت بوضوحٍ تام أن ذلك بمثابة هجوم جديد عليها، وكانت هي المعنية بكل كلمة، فقد قال: "فالمرأة الشابة، المرأة التي ما

تزال طفلة، التي لم تمتلك إرادتها بعد، أو رؤيتها الشخصية، ثم تعارض نصائح والديها المحبين لها، لهي امرأةٌ تستحق العقاب، ولسوف يلفظها الرب". وعند تلك العبارة التي يهيم بها القس فصاح بها طربًا، إذا به يوجه نظرةً نافذة صوب طوني مصحوبةً بحركةٍ رهيبة من يده كمن يقول: "كفى! ليس بهذه الحدة".

ولم يكن ثمة شكٌ فى أن القس كولينج قد تفاهم مع أبيها أو أمها فى هذا الشأن، لتجلس هي في مكانها منحنيةً وقد شابت وجهها الحمرة، وهي تشعر أن جميع الأنظار تستقر عليها. وفي يوم الأحد التالي، امتنعت بإصرار عن الذهاب إلى الكنيسة. وقد أصبحت تتنقل في صمت، ولم تعد تضحك بما يكفي، كما كادت تفقد شهيتها للطعام، وكانت تتنهد أحيانًا تنهدًا يكسر القلب، كأنها في معركة مع القرار، ناظرةً بأسى إلى ذويها الذين أصبحوا ينظرون إليها بعين الشفقة. فقد أصاب جسدها هزالٌ بيّن، وفقدت نضارتها؛ مما اضطر القنصل في نهاية المطاف إلى أن يقول: "لن يستمر الأمر على هذا الحال، بيتسي، فلا ينبغي علينا أن نعذب هذه الطفلة. ولابد أن تخرج قليلاً، ويهدأ روعها، لتراجع نفسها. ولسوف ترين أنها سوف تسترد صوابها. أما أنا فلا أستطيع تجاهل واجباتي بعد أن شارفت العطلة على نهايتها.. ولكننا بوسعنا جميعًا الاستمتاع بالبقاء بالبيت. وقد كان العجوز شفارتسكوبف من ترافيمنده هنا بمحض المصادفة، إنه ديتريش شفارتسكوبف، القبطان، وقد حادثته في هذا الشأن فأبدى ترحيبه باستضافة الفتاة لبعض الوقت.. وسأدفع له شيئًا تعويضًا عن ذلك.. فهناك ستتوفر لها إقامةٌ مريحة، فتستطيع السباحة في هواءٍ طلق لتعود إلى نفسها.

ولسوف يسافر توم معها ليكون كل شيء على ما يرام. وإن حدث ذلك غدًا لكان أفضل".

أعلنت أنطونيا بسعادةٍ عن موافقتها على هذه الفكرة. وبرغم أنها لم تكن بالكاد تقابل السيد جريونليش، إلا أنها كانت تعلم بوجوده بالمدينة ليتفاوض مع والديها وينتظر.. يا إلهي، فقد كان بوسعه أن يقف كل يوم أمامها صارخًا متوسلاً! ولكن في ترافيمنده، في بيتٍ غريب، ستكون أكثر أمانًا؛ فكان أن حزمت متاعها بسرعةٍ مبتهجة، ثم، في أحد الأيام الأخيرة من شهر يوليو، صعدت مع توم، المرافق لها، إلى عربة "كروجر" الفاخرة لتودع جديها في بورجتور، متنفسةً الصعداء وهي في أسعد حال.

الفصل الخامس

كان عليها أن تقطع طريقًا إلى نهايته، على استقامته، إلى ترافيمنده، ثم تعبر الماء بالعبَّارة، لتعود إلى الطريق المستقيم. وقد كان كلاهما يعرف الطريق. هذا الطريق الأغبر الذي ينزلق تحت الوقع المنتظم لسنابك مجوفة لخيول لبرشت كروجر من مكلنبورج، تلك الجياد القوية بنية البشرة، رغم لهيب الشمس والغبار اللذين غشيا المنظر الباهت.

وكان طعام الغداء قد قُدم، على سبيل الاستثاء، في الساعة الواحدة، لتغادر أنطونيا وأخوها في تمام الثانية، مما يعني أنهما سيصلان قبل الرابعة بقليل. فإذا كانت العربات الأخرى بحاجة لثلاث ساعات، فإن المسافرين كانا يطمحان أن تقطع خيول كروجر الطريق نفسه في ساعتين. أما أنطونيا، فقد أخذت رأسها تهتز بأثر شبه نعاسٍ حالم أسفل قبعتها الخوص الكبيرة المنبسطة ومظلتها، المشغولة بدانتيل بلون الزُبد، ذات اللون الرمادي كلون ثوبها البسيط الأنيق، التي أسندتها إلى الغطاء الخلفي للعربة. وكانت قد أراحت قدمًا فوق الأخرى فبدت جواربها البيضاء في حذائها برباطه

المتقاطع. وأسندت ظهرها للخلف متخذةً وضعًا مريحًا كما يليق بالعربة الفاخرة.

أما توم، ذو العشرين عامًا، فكان قد ارتدى حلةً رمادية يشوبها اللون الأزرق، وقد أزاح قبعته الخوص إلى الخلف، مدخنًا سجائره الروسية. ولم تكن قامته فارهة الطول، إلا أن شاربه قد أخذ في النمو وفاق لونه الداكن لون شعر رأسه ورموشه. وكان، كعادته، قد رفع أحد حاجبيه قليلاً، ناظرًا إلى سحب الغبار وأشجارٍ كانت تزين الطريق.

قالت طوني: "أنا لم أشعر بمثل هذه السعادة قط، مثلما أشعر الآن، ونحن في طريقنا إلى ترافيمنده.. أولاً لأسبابٍ عديدة، توم، لكنك لست بحاجة لتسخر مني بعد أن تركت خلفي رجلاً بلحية صفراء كالذهب.. لأستقبل ترافيمنده جديدة تمامًا، حيث سأقيم هناك بالصف الأمامى لدى شفارتسكوبف. ولن أبالي بجمع الباحثين عن النقاهة هناك، فأنا أعرف عنهم ما يكفي، كما أنني لست مهيأةً لذلك، وفوق ذلك، فإن ذاك الرجل يمكن أن يقوم بأي شيء، فهو عديم الحياء، ولتنتبه فقد يظهر ذات يوم هنا بجانبى".

فألقى توم بالسيجارة ليأخذ أخرى من صندوقه، الذي كان هديةً للقنصل من أحد عملائه الروس، وقد نُقش فوق غطائه، على نحوٍ بديع، عربةٌ بثلاثة خيولٍ تهاجمها مجموعةٌ من الذئاب. وكان توماس مولعًا بتلك السجائر الروسية الصغيرة الحادة، وكذلك بالمبسم الأصفر. وكان يدخنها بشراهة، كما كانت لديه عادةٌ رديئة، أن يسحب دخانها بعمق إلى رئتيه ليخرجه ثانيةً ببطءٍ أثناء حديثه. ثم عقّب: "أجل، وفيما يتعلق بهذا الأمر،

فإن بستان المنتجع يغص بأهل هامبورج، مثل قنصل فريتشه الذي اشترى كل شيء، وهو يحقق أرباحًا هائلة الآن، على حد قول أبي. وعمومًا، فإن كنتِ تريدين مشاركة هؤلاء بعض الأمور فعليك تجاهل بعض الأمور؛ فبالطبع سيكون هناك بيتر دولمان الذي لا يتواجد بالمدينة في مثل هذا الوقت؛ فأعماله تجري وحدها كالرهوان.. يا لَلعجب! على أية حال.. فسوف يأتي الخال يوستوس أيام الآحاد ليلعب الروليت. وأظن أنه ستكون هنا أيضًا عائلتا مولندورف وكيستنماكر، بكامل عددهما، وكذلك عائلة هاجنشتروم".

"ها- بالطبع! وهل يمكن الاستغناء عن سارة سملينجر".

"إلا أنها تُدعى الآن لاورا، يا بنيتي، إن شئنا الدقة".

"وأيضًا بالطبع يولشن.. وقد تُخطب إلى أوجوست مولندورف هذا الصيف، وسوف تفعل يولشن ذلك! لينضم هؤلاء إليهم انضمامًا نهائيًا! أتعرف، توم، إنه أمرٌ مثير للأسى، هذه الأسرة المتصيدة".

"حقًّا، يا إلهي!.. فالمهم أن تستفيد شركة شترونك وهاجنشتروم من ذلك ماديًّا".

"أمرٌ بديهي! ونعرف كيف يدبرون ذلك.. إنهم يتدافعون بالمناكب.. دون اعتبارٍ لكرامة أو ترفع، أتعلم ذلك، وقد قال جدي عن هاينريش هاجنشتروم: "من عجلٍ لثور"، هكذا وصَفَه".

"نعم، نعم، نعم، إلا أنهم لا يكترثون لذلك، فالأرباح تأتي في المقام الأول. أما هذه الخطوبة فهي صفقة خالصة تمامًا. وستنضم يولشن إلى عائلة مولندورف ليحصل أوجوست على مكانةٍ رفيعة".

"آه.. أنت تقصد إثارة غضبي، توم، فلنكف عن هذا.. فأنا أحتقر هؤلاء".

فأخذ توم في الضحك، وهو يقول: "يا إلهي.. ولسوف يتعين علينا أن نسوي أمورنا معهم، فهل تعرفين ذلك؟ وقد قال أبي مؤخرًا: إن نجمهم في صعودٍ، بينما آل مولندورف.. إلا أننا لا نستطيع إنكار براعة آل هاجنشتروم. فها قد صار هرمان مفيدًا جدًّا لأعمالهم، كما تخرَّج موريتس في المدرسة بنجاحٍ مبهر برغم ما يعانيه من آلام بصدره. ويُشاع أنه ذكيٌّ للغاية، وسوف يدرس الحقوق".

"جميل.. إلا أن ما يسعدني على الأقل، توم، أن هناك عائلات ليست بحاجةٍ للانحناء لهم، على سبيل المثال، نحن عائلة بودنبروك، يقينًا".

فقال توم: "هكذا إذن، فلنكف الآن عن التفاخر، فلكل عائلةٍ سوءاتُها". ثم استطرد بنبرةٍ أقل حدةً متأملاً ظهر يوخن العريض: "مثلما الحال بشأن خالنا يوستوس، يعلم الرب. فدائمًا ما يهز أبي رأسه عندما يذكره. وقد أمده جدنا كروجر، على حد علمي، بمبالغ ضخمة لعدة مرات.. وكذلك ابنا الخال، فحالهما ليس على ما يرام. فيورجن الذي يريد الالتحاق بالجامعة لم ينجز بعد الامتحان النهائي.. أما ياكوب، الموظف لدى "دالبك وشركاه" بهامبورج، فحاله غير مُرضٍ، فهو بحاجةٍ دائمة إلى المال، برغم الدعم الذي يحصل عليه، وما يمنعه الخال يوستوس عنه ترسله إليه العمة روزالي.. كلاَّ، فأنا أرى ألا نرجم الآخرين بحجَر. فإذا شئتِ إعادة التوازن مع آل هاجنشتروم فعليك بالزواج من جريونليش!".

"هل صعدنا إلى هذه العربة لنتكلم عن هذا؟ نعم، نعم! فقد يتعين عليَّ فعل ذلك، ربما! لكنني لا أريد التفكير في ذلك الآن. أريد نسيانه ببساطة، فالآن نحن في طريقنا إلى عائلة شفارتسكوبف. فأنا، كما هو معلوم، لم أرهم

قط.. لكنهم أناسٌ يتمتعون بالظُرف".

وقام توم بتقليد أسلوب كلام شفارتسكوبف، فقال: "أوه، ديتريش شفارتسكوبف، إنه ولد.. وهذا لا يعني أنه يتحدث هكذا دائمًا وإنما يفعل ذلك بعد أن يكون قد احتسى خمس كؤوسٍ من الـ"جروج". وذات مرة عندما كان بالمكتب، ذهبنا معًا إلى شركة الملاحة.. فأفرط هناك في الشراب. وكان أبوه قد وُلد فوق متن سفينةٍ نرويجية، ثم صار قبطانًا لهذا الخط الملاحي. وكان ديتريش قد قطع شوطًا كبيرًا في التعليم. فقيادة الملاحين منصبٌ يتحمل صاحبه مسؤولية مقابل أجرٍ طيب للغاية، وهو ملاح بحري قديم، ولكنه يتعامل مع النساء بلباقة، فانتبهي لأنه سوف يغازلك".

"ها!- وزوجته؟"

"أنا لم أتعرف حتى الآن إلى زوجته. لابد أنها امرأةٌ طيبة. لكنه لديه ابنٌ، كان يدرس معي بالفرقة الأولى أو الثانية، وهو يدرس بالجامعة الآن.. انظري، ها هو البحر، لم يعد أمامنا سوى أقل من ربع الساعة".

كانوا قد شقوا طريقًا عريضًا محاطًا بشجيرات الزان، بحذاء البحر بمياهه الزرقاء، والذي ينعم بسلام أضفته عليه أشعة الشمس. وها قد برز الفنار المستدير الأصفر، كما بدا لهما للحظةٍ الخليج والحصن والأسطح الحمراء للمدينة الصغيرة والمرفأ الصغير والمراكب الشراعية وحبالها. ثم مرقا بين المنازل الأولى، ومروا بالكنيسة، ومضوا بحذاء الصف الأمامى الممتد على ضفة النهر، حتى وصلوا إلى منزلٍ جميل به شرفة غطتها أوراق العنب.

كان القبطان واقفًا أمام باب منزله، وما إن دنت العربة حتى رفع قبعته البحرية. كان رجلاً متين البنيان، عريضًا، ذا وجهٍ متورد وعينين بلون الماء

الأزرق، ولحيةٍ رمادية بشعرٍ كالشوك، تمتد من الأذن للأذن، على هيئة مروحة. أما فمه، الذي زمَّه إلى أسفل وتدلى منه غليون خشبي، وكذلك شفته العليا الحليقة الغليظة الحمراء المقببة، فقد أعطيا الانطباع بالنبل والاستقامة. وقد لمعت صدريته البيضاء تحت حلته المفتوحة ذات الإطار المُذهَب. وقد وقف هناك ببطنٍ بارزة مباعدًا بين ساقيه.

"حقًّا، إنه شرفٌ لي، آنستي، ويا لَه من فضلٍ أن تتكرمي بالإقامة لدينا"، ثم أنزل أنطونيا بحرصٍ من العربة.

"تحياتي، سيدي بودنبروك! عسى أن يكون السيد الوالد والقنصلة بخير؟ إن سعادتي لعظيمة.. ألا تفضل السادة بالدخول! فقد أعدت زوجتي بعض الطعام". ثم قال للحوذي الذي كان قد حمل المتاع إلى الداخل: "فلتذهب إلى فندق بيدرسن، فقد أُعد هناك مكانٌ طيبٌ للخيل.. ولسوف تبيت لدينا سيدي بودنبروك؟ حقًّا، لِمَ لا، ولابد أن تلتقط الجياد أنفاسها، كما أنه لن يمكنك الذهاب إلى المدينة قبل حلول الظلام".

"أتعلم، إن الإقامة هنا لا تقل عن الإقامة بالمنتجع"، هكذا قالت أنطونيا بعد مضي ربع الساعة، عندما جلست بالشرفة لتناول القهوة، ثم أضافت: "يا لهذا الهواء الرائع، فرائحة عشب البحر تصل إلى هنا، وأنا أشعر بسعادةٍ غامرة لعودتي إلى ترافيمنده".

من خلال أعمدة الشرفة المغطاة بالنبات الأخضر، كان يمكن رؤية النهر الرحيب المتلألئ بنور الشمس، وكذلك أرصفة المراسي، ومرسى العبَّارة على الناحية الأخرى من الـ"بريفال" من جزيرة مكلنبورج الناتئة.

كانت أقداح القهوة المستديرة، العميقة بحوافها الزرقاء، تبدو خشنة

المظهر مقارنةً بتلك الأقداح الخزفية العتيقة الرقيقة بدار الأهل. لكن الطاولة التي وُضع فوقها، أمام طوني، باقةٌ من الزهور البرية، كانت تثير الشهية، خاصةً أن الرحلة جعلتها تشعر بالجوع.

وقالت ربة المنزل: "نعم، فلسوف ترى الآنسة أنها ستسترد نضارتها، وقد أجرؤ على القول إنها تبدو مرهقةً بعض الشيء، وهذا بسبب هواء المدينة، أما هنا فلدينا الكثير مما نحتفى به".

كانت السيدة شفارتسكوبف تبدو في الخمسين من عمرها، وهي ابنة قسٍ من شلوتوب. كانت نحيفةً بعض الشيء، وقامتها أقصر من قامة أنطونيا بمقدار كف اليد. وكان شعرها الأسود الناعم، المصفف بعناية، قد غُطي بما يشبه الشبكة واسعة الثقوب. وترتدي ثوبًا بلونٍ بني داكن بياقةٍ صغيرة من الكروشيه الأبيض، وكذلك كانت أساور الكمَّين. وكانت تبدو نظيفةً هادئة ودودًا، وتشير بحماسٍ إلى خبز الكورينث المحاط بالقشدة والسكر والزبد والعسل، وهو الذي خبزته بنفسها، ووضعته بسلةٍ تشبه القارب. كانت السلة محلاةً بشريط مطرز بالخرز، من صنع الصغيرة "ميتا"، الفتاة ذات الأعوام الثمانية التي وقفت بجوار أمها مرتديةً ثوبًا اسكتلنديًا، مصففةً شعرها في جديلةٍ صغيرة قوية مرتفعة، شقراء بلون نبات الكتان.

واعتذرت السيدة شفارتسكوبف عن استخدامها لغرفة نوم أنطونيا في تزيين نفسها قليلاً. هكذا كان الأمر بسيطًا.

"إنها رائعة، فهي تطل على البحر، وهذا هو المهم"، قالت أنطونيا ذلك، وهي تغمس الشريحة الرابعة من خبز الكورينث في القهوة. بينما كان توم يتحدث مع العجوز عن السفينة "فولنفيفر" التي كانت تجري صيانتها

بالمدينة. وفجأةً دخل الشرفة فتى في العشرين من عمره وبيده كتابٌ، رفع قبعته الرمادية المصنوعة من اللباد، وقد تورد وجهه خجلاً فانحنى مرتبكًا. ليقول القبطان: "ها، يا بني، لقد جئت متأخرًا".

ثم قدمه: "هذا هو ابني (ذاكرًا اسمه الأول الذي لم تفهمه أنطونيا)، يحضِّر للدكتوراه.. وجاء ليقضي عطلته معنا".

"لطيف للغاية" قالت طوني، مثلما تعلمت قوله في هذه الحال. أما توم فنهض واقفًا مصافحًا إياه. انحني الشاب شفارتسكوبف ثانيةً، ثم طرح كتابه جانبًا، واتخذ مجلسه إلى الطاولة، وقد اكتسى وجهه بحمرة الخجل من جديد. كان متوسط القامة ونحيفًا للغاية، وأشقر إلى أقصى حد، ولم يكد يُرى شعر شاربه الذي بدأ في النمو، وكان عديم اللون كشعر رأسه القصير الذي يغطي رأسه الطويلة. كما كانت تتسق مع وجهه الأشقر- على نحوٍ غريب- بشرةٌ كالخزف متسع المسام، تكتسي باللون الأحمر لأقل سببٍ، وكانت عيناه على شيء من لون أزرق أكثر دكنةً من عيني أبيه، ولهما النظرة نفسها الفاحصة الطيبة التي لا تتمتع بحيوية كبيرة. كانت ملامح وجهه متناسقة لطيفة إلى حدٍّ ما. وعندما راح يأكل بانت أسنانه حسنة التكوين متلاصقة لامعةً كمرآة، كأنها عاجٌ مصقول، غير أنه كان يرتدي سترةً مقفلةً بقلابات فوق جيوبها وشريطٍ مطاطي في ظهرها.

ثم قال: "نعم، أرجو المعذرة لوصولي متأخرًا"، فبدا كلامه متثاقلاً ذا صرير، ثم استطرد: "لقد كنت بالأمس أقرأ قليلاً على الشاطئ، ولم أنظر إلى الساعة في وقتٍ مبكر". ثم أخذ يمضغ طعامه في صمت، متفحصًا توم وطوني من أسفل لأعلى بين حينٍ وآخر. وفيما بعد، عندما ألحت ربة البيت

على أنطونيا لتناول المزيد من الطعام، إذا به يقول: "فلتطمئني إلى أقراص العسل، آنسة بودنبروك.. فهو منتجٌ طبيعي خالص.. فلا بد أن نعرف ما نأكله.. وينبغي عليك أن تأكلي قدر طاقتك. أتعرفين، فالهواء هنا يساعد على الهضم والتمثيل الغذائي، فإن لم تأكلي بما فيه الكفاية فسوف تعانين من نقصٍ في الوزن".

وكان له مسلكٌ ساذج لطيف، فكان ينحني إلى الأمام أحيانًا عند الكلام متجهًا إلى شخصٍ آخر غير مَن يقصده بحديثه. وكانت أمه تصغي إليه حانيةً مفتشةً في وجه أنطونيا عن أثر لكلامه. إلا أن شفارتسكوبف الكبير قال: "لا تتحدث كثيرًا عن الهضم والتمثيل الغذائي، يا دكتور، فنحن لا نريد معرفة شيء من هذا".

فضحك الشاب لذلك، ثم نظر ثانيةً إلى صحن أنطونيا، وقد شابت الحمرة وجهه. وكرر القبطان اسم ابنه عدة مراتٍ إلا أن أنطونيا لم تستطع فهمه على الإطلاق. فقد كان شيئًا مثل موور أو مورد.. محال.. إدراك ذلك من لهجة الرجل العجوز العامية الاستعراضية.

وعندما انتهى تناول الطعام، وأصبح ديتريش شفارتسكوبف يرِف بعينيه من أثر الشمس، وقد جلس مرتاحًا بعد أن أزاح سترته بعيدًا عن صدريته البيضاء، بدأ هو وابنه في تدخين غليونيهما الخشبيين القصيرين، وانشغل توم ثانيةً بسجائره؛ كان الشابان قد انخرطا في حديث حيوي عن حكاياتٍ قديمة من أيام الدراسة، وشاركت فيه أنطونيا بحماسٍ. وقد تردد اقتباس عبارة السيد شتنجل: "كان ينبغي أن ترسم خطًا، فماذا فعلت؟ لقد رسمت سطرًا" ويا لها من خسارة أن كريستيان لم يكن موجودًا، فهو

يستطيع أداء ذلك على نحوٍ أفضل بكثير. وقال توم لأخته وهو يشير إلى الزهور أمامها: "كان السيد جريونليش سيقول إنها تلمع على نحوٍ غريب تمامًا!" فاكتسى وجه أنطونيا بالحمرة غضبًا، ولكزته في جانبه مسددةً نظرةً خجلة نحو الشاب شفارتسكوبف.

في هذا اليوم أفرط الجميع في البقاء طويلاً أثناء تناول القهوة، وكانت الساعة قد أشارت إلى السادسة والنصف عندما بدأ الغسق هناك فوق الـ"بريفال" يميل للغروب، لينهض القبطان ويقول: "معذرةً، سادتي، فلديَّ عملٌ هناك في مبنى الإرشاد.. ولسوف نتناول الطعام في الثامنة، إن كان ذلك يناسبكما، أو نؤجل ذلك اليوم قليلاً، أليس كذلك يا "ميتا"؟ وأنت- (ذاكرًا اسم ابنه ثانيةً) فلتبق هنا ولا تتسكع هنا وهناك. والآن فلتذهب لتمنح جسدك قسطًا من الراحة.. وسوف تقوم الآنسة بودنبروك بترتيب متاعها.. وإذا شاء السيدان الذهاب إلى الشاطئ.. فلتفعلا ذلك على الرحب والسعة!".

فتساءلت السيدة شفارتسكوبف بودٍ لائمةً: "ديتريش، يا إلهي، لماذا يبقى هنا؟ فإن ذهب السيدان إلى الشاطئ، فلِمَ لا يصحبهما. فهو في إجازة، ديتريش، أفلا يستمتع بشيء مع زائرينا!".

الفصل السادس

في صباح اليوم التالي استيقظت أنطونيا بغرفتها الصغيرة النظيفة ذات الأثاث المكسو بغطاء من قطنٍ مزدان بزهرٍ فاتح اللون. وقد غمرها شعورٌ مفعم بالإثارة والفرح، شعور من يفتح عينيه على حياة جديدة.

اعتدلت في فراشها، وأحاطت ركبتيها بذراعيها، وارتدت برأسها وشعرها الأشعث، ورفَّت بعينيها في خيط شعاع النهار المنسل إلى داخل الغرفة من بين خصاص النافذة المغلقة، وأخذت تنبش على راحتها في ما عايشته مساء الأمس. وكادت تنسى شخص السيد جريونليش. كما أن ذكرى المدينة قد تراجعت بعيدًا، وأيضًا المشهد المروع بغرفة المنظر الطبيعي، وتحذيرات أهلها والقس كولنج.

أما هنا، فسوف تصحو كل يوم بقلبٍ خال من الهموم.. أما آل شفارتسكوبف هؤلاء، فكانوا أناسًا كرماء. فقد قدموا بالأمس عصير البرتقال ليشربوا نخب حياة مشتركة هانئة، وقد غمرت السعادة الجميع. وروى شفارتسكوبف الكبير أمتع مغامرات البحر، أما الشاب فقد حكى عن جوتينجن، تلك المدينة التي يدرس بها.. ولكن من الغريب أنها ما

تزال لا تعرف اسمه، وقد تطلعت إلى ذلك بلهفة، إلا أن أحدًا لم يذكر اسمه أثناء العشاء. ولم يكن من اللائق أن تسأل هي عن ذلك. وقد بذلت ما في وسعها لتتذكر اسمه.. يا إلهي، ماذا يُدعى هذا الشاب! موور.. مورد..؟ إلا أنها شعرت بإعجابٍ نحو موور أو مورد هذا، فهو يضحك ضحكةً مراوغة بريئة إذا طلب الماء، وبدلاً من ذلك كان يذكر بعض الأرقام فيغضب أبوه لذلك غضبًا شديدًا. ولم تكن الأرقام سوى الصيغة العلمية للماء.. إلا أنها لا تنطبق على هذا الماء؛ لأن صيغة ماء ترافيمنده أكثر تعقيدًا بكثير.

ففي كل لحظة كان يمكن اكتشاف نبع ما.. أما السلطات العليا، فلديها مصطلحها الخاص عن الماء العذب.. وكان أبوه ينهره عند ذكر ذلك؛ لأنه كان يذكر السلطات العليا باستهجان. أما السيدة شفارتسكوبف، فكانت تفتش في وجه أنطونيا عن أمارات إعجاب، وللحق فإن حديثه كان شائقًا ومرحًا ومثقفًا في آنٍ واحد.. وقد بذل مجهودًا كبيرًا في الاهتمام بها، هذا الشاب.

فقد اشتكت من أنها تعاني من سخونة بالرأس أثناء تناول الطعام، واعتقدت أن ذلك من أثر سيولة الدم.. فماذا كان رده؟ لقد تفرسها ثم قال: أجل، إن أوردة الفودين ممتلئة، لكن هذا لا يستبعد الافتقار للدم الكافي أو نقص كرات الدم الحمراء بالرأس.. وقد تعانين من فقر الدم.

وصاح ديك ساعة الحائط المحفور من خشب صياحًا متكررًا واضحًا وأجوف. "سبعة، ثمانية، تسعة، هلم انهضي"، هكذا رددت أنطونيا مغادرةً الفراش لتفتح النافذة. وبرغم أن السماء كانت ملبدةً بالغيوم، إلا أن الشمس كانت مشرقةً.

رأت محيط الفنار وأمواج البحر الذي يحده من اليمين قوس ساحل

مكلنبورج، ليمتد بأمواجه الخضراء والزرقاء حتى يلتحم بالأفق الغائم. ففكرت أنطونيا أن تذهب فيما بعد للسباحة، ولكن: عليَّ أولاً أن أهتم بالفطور حتى لا أستنفد التمثيل الغذائي.. ابتسمت من ذلك لتمضي مسرعةً فرحةً لتغتسل وترتدي ملابسها.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف بقليل عندما غادرت الغرفة. وجدت باب غرفة توم مفتوحًا، فقد استيقظ مبكرًا للغاية ليعود إلى المدينة. وقد نفذت رائحة القهوة حتى الطابق العلوي، حيث لا توجد سوى غرف النوم، وبدت هذه رائحةً مميزة للبيت الصغير، واشتدت الرائحة عندما هبطت أنطونيا السلم ذا السياج الخشبي، لتمضي بعدها خلال الممر متجاوزة غرفة الطعام والمعيشة ومكتب القبطان، لتدخل الشرفة منتعشةً وعلى أفضل حال، ترفل في ثوبها البيكيه الأبيض.

هناك كانت السيدة شفارتسكوبف تجلس وحيدةً مع ابنها إلى المائدة التي كانت قد رُفع عنها بعض أواني الطعام. كانت ترتدي مئزر المطبخِ ذا الخطوط المتقاطعة فوق ثوبها البني، وأمامها حلقة مفاتيح.

ثم نهضت لتقول: "أتقدم إليكِ بألف اعتذار لأننا لم ننتظرِك، آنسة بودنبروك، فقد استيقظنا باكرًا، فهذا حال البسطاء أمثالنا. فلدينا جبالٌ مما يجب إنجازه.. وشفارتسكوبف موجودٌ بمكتبه.. إن الآنسة ليست غاضبةً.. أليس كذلك؟"

وقد اعتذرت أنطونيا أيضًا: "لا تظني أنني أنام إلى هذا الحين دائمًا. كما أن ضميري يؤنبني بشدة. ولكن شراب الأمس.."

هنا أخذ الشاب في الضحك. وقد نهض خلف المائدة ممسكًا بغليونه

الخشبي القصير. بينما كانت الجريدة هناك أمامه.

"حقًّا، سإن الذنب ذنبك، طاب صباحكما! فقد كنت تقارعينني الكؤوس دائمًا.. ليكون عقابي هو القهوة الباردة. على أنني كنت في هذا الوقت سأكون قد انتهيت من الفطور والسباحة".

"كلا، إن مثل هذه الأمور تُعد مبكرةً للغاية لهانم شابة! فماء القهوة كان باردًا في الساعة السابعة، أتعرفين ذلك، كانت درجة حرارته إحدى عشر.. وهو ما لا يعد مناسبًا بعد فراش نوم دافئ".

جلست أنطونيا إلى المائدة بعد أن قالت: "مِن أين عرفت أنني أريد السباحة في مياه فاترة، يا سيد؟ لقد حافظت لي على دفء القهوة، سيدة شفارتسكوبف!.. لكنني سأصبها بنفسي.. شكرًا جزيلاً!".

راحت ربة الدار تنظر إلى ضيفتها وهي تتناول أول كسرة من طعامها.

"فهل استمتعت الآنسة بنوم ليلتها الأولى؟ أجل، يا إلهي، إن فراشنا محشو بأعشاب البحر.. فنحن من البسطاء.. إلا أنني أتمنى لك فطورًا شهيًا ونهارًا سعيدًا. وسوف تلتقي الآنسة ببعض المعارف على الشاطئ.. إن كان يوافقك، فابني سيرافقك إلى هناك. وأرجو المعذرة بأنني لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك، فعليَّ أن أتأهب لإعداد الطعام. وسوف أجهز شرائح مشوية.. وأنا أبذل في سبيل ذلك قدر جهدي".

فلما صار الاثنان وحدهما قالت طوني: "سأتمسك بتناول عسل الشمع، أتدري، فعلى المرء أن يعرف ما يأكل".

فنهض شفارتسكوبف الصغير ليضع غليونه على سور الشرفة.

"فلتدخن كما تشاء! إن هذا لا يزعجني على الإطلاق. ففي بيتنا عندما

أذهب للفطور أشعر دائما بدخان سيجار أبي في الغرفة.. ولكن، فلتقل لي، (هكذا سألته فجأةً) أصحيحٌ أن بيضةً واحدة تماثل القيمة الغذائية لربع رطلٍ من اللحم؟"

شابت الحمرة وجهه كله وهو يسألها على نحوٍ جمع بين الضحك والغضب: "هل تنوين توريطي، آنسة بودنبروك؟ فلقد نلت توبيخًا من أبي مساء أمس على ما أبديته من حذلقة علمية وحب إظهار الذات، على حد قوله".

"لكن سؤالي كان بريئًا تمامًا"، وكانت أنطونيا قد توقفت عن تناول الطعام جزعة: "حب إظهار الذات! كيف يمكن أن يقال مثل ذلك!.. فلم أشأ إلا معرفة شيء بسيط.. يا إلهي، إنني جاهلة، ألا ترى ذلك! وقد كنت لدى سيسيمي فايشبروت دائمًا واحدةً من أكثر التلميذات كسلاً، وكانت هناك كثيرات مثلي، حسبما أظن".

وخطر ببالها: حب إظهار الذات؟ إنني في مجتمعٍ غريب، لا يُبدي سوى أفضل ما لديه، ويبحث عن رضا الغير بكلام منمق.. إنه أمرٌ واضح..

"حسنًا، هما متساويان على نحوٍ ما" ثم أردف مختالاً: "فيما يخص قيمةً غذائية بعينها".

عقب ذلك، أثناء تناول أنطونيا لفطورها واستئناف شفارتسكوبف تدخين الغليون، دار الحديث عن سيسيمي فايشبروت، وعن أيام إقامة أنطونيا بالمدرسة الداخلية، وعن صديقاتها، مثل جيردا أرنولدسن التي عادت إلى أمستردام، وأرمجارد فون شيلينج التي يمكن رؤية منزلها الأبيض من الشاطئ، على الأقل، عندما يكون الجو صافيًا.

فيما بعد، عندما انتهت من فطورها ومسحت فمها بمنديل، تساءلت

أنطونيا وهى تشير إلى الجريدة: "هل هناك من جديد؟"

"آه، لاشيء، فماذا يمكن أن يُنشر هنا؟.. أتعرفين، أن هذه الصحف المحلية هي أوراق بائسة!"

" لكن أبي وأمي يطالعانها دائمًا".

فقال بعد أن تورد وجهه: "أجل، حسنًا، فأنا أيضًا أقرأها كما ترين، فليس أمامي غيرها. لكن أن يُنشر أن تاجر الجملة القنصل فلان ابن فلان يفكر في إقامة حفلٍ بمناسبة اليوبيل الفضى لزفافه لهو أمرٌ لا يثير الفضول.. نعم.. نعم! أنتِ تضحكين.. لكن إذا قرأت صحفًا أخرى مثل "كوينجسبرجر هارتونج تسايتونج".. أو "راينيشه تسايتونج".. فسوف تجدين فيها أشياءً مختلفة! وكذلك أيضًا ما يقوله ملك بروسيا".

"فماذا يقول إذن؟"

"حقًّا.. كلاًّ، لا أستطيع ترديد ذلك في حضرة سيدة"، ثم تورد وجهه وقال: "لقد أعرب عن رأيه القاسي في هذه الصحف". واستأنف حديثه بابتسامةٍ اتسمت بسخرية حادة؛ مما أصاب أنطونيا ببعض الخجل: "إنها تحمل على الحكومة والنبلاء وهؤلاء القسس وأبناء الذوات.. وهي تعرف جيدًا كيف تلتف على الرقابة".

"حسنًا، وأنت، ألا تحمل أيضًا على النبلاء؟"

"أنا؟" تساءل بعد أن داهمته الحيرة.. بينما كانت أنطونيا قد نهضت.

"فلندع ذلك، فلسوف نتحدث عنه مرةً أخرى. وماذا لو أنني ذهبت الآن إلى الشاطئ؟ انظر لقد كادت السماء أن تصبح زرقاء تمامًا. ولن تمطر اليوم، وقد انتابتنى رغبةٌ عارمة لأن أقفز ثانيةً في البحر. ألا تريد مرافقتي؟"

الفصـل السَّـابع

لما كانت درجة حرارة الجو قد ارتفعت، وصاحبهاهبوب رياحٍ من البحر، فإنها غطت رأسها بقبعةٍ من الخوص واحتمت بمظلتها، أما الشاب شفارتسكوبف فوضع على رأسه قبعته اللباد الرمادية، وأمسك كتابه بيده، ومضى بجوارها وهو يتأملها من حينٍ لآخر، بطرف عينه. هكذا مضيا بحذاء الصف الأمامي، ليتجولا ببستان المنتجع المشمس الغارق في السكون، الذي امتدت فيه طرق الحصى، واكتنفته أحواض الزهور، وكانت أشجار التنوب قد لفت كشك الموسيقى الهادئ المواجه للمنتجع ومحل الحلويات والمنزلين السويسريين.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف حين شق الاثنان طريقهما خلال ملعب الأطفال، الذي احتوى صفوفًا من المقاعد، وكذلك الأرجوحة الكبيرة، ثم مرا بالحمَّام الساخن وتلكآ في سيرهما على العشب، فيما كانت رائحة العشب والبرسيم النفاذة تعبق المكان، كما أخذ الذباب يحوم فوقهما وحولهما وهو يطن، وتواتر صوت موج البحر عميقًا، ومن حينٍ لآخر كانت جُزر الزَّبَد تتناثر فوق سطحه.

وتساءلت طوني: "بالحق، ماذا تقرأ؟"

أمسك الشاب كتابه بكلتا يديه مستعرضًا صفحاته، ليقول: "آه، إنه موضوعٌ لا يهمك، آنسة بودنبروك، فليس به سوى الدم والأمعاء والبؤس.. ها هي، فالموضع هنا يتناول مسألة التنفس وأزمات التنفس، حين يطغى الماء على الرئة.. وهي حالةٌ خطيرة للغاية تنتج عن التهاب الرئة، ويؤدي ترديها إلى الاختناق فالوفاة، وهذا كله يتم التعامل معه ببساطة من أسفل إلى أعلى".

فقالت: "يا لَه من أمرٍ مروع! لكن عندما تصبح طبيبًا، فسوف أعمل على أن تكون طبيب عائلتنا بعد تقاعد دكتور جرابو، فلا تنس ذلك!"

أما هو فقال: "ها.. فماذا تقرئين أنتِ إذن، آنسة بودنبروك؟"

فسألته طونى: "هل تعرف هوفمان؟"

قال: "أهو مؤلف "قائد الفرقة" و"الإناء الذهبي"؟ نعم، إنه كاتب بارع.. لكن، أظن أنك تعرفين أنه يهتم بالكتابة للنساء أكثر من الرجال، فالرجال يقرأون الآن مواضيع أخرى".

فمضت أنطونيا بضع خطى متأملةً لتقول: "لقد حان وقت أن أسألك عن اسمك، فأنا لم أستطع ملاحظته لأول وهلة.. وهو أمر أزعجني! حتى إنني قد اعتصرت ذهني كي أتذكره".

"اعتصرتِ ذهنك؟"

"أجل، فلا تُصعب عليَّ هذا الأمر، فأنا أستحي من تكرار السؤال، لكن الفضول طبيعةٌ تلازمني، غير أنني لن أحفظه طوال حياتي".

فتورد وجهه على نحوٍ لم يعهده من قبل، وقال: "إذن، فاسمى هو مورتن".

"مورتن! إنه اسمٌ جميل".

"ربما كان كذلك".

فقالت: "على أية حال، فهو أفضل من هانز أو كونتس، إنه ينطوي على ميزةٍ ما، فقد يبدو أجنبيًا".

فقال: "أنتِ حالمة، آنسة بودنبروك، وقد أفرطتِ في قراءة أعمال هوفمان، لكن الأمر ببساطةٍ شديدة هو أن جدي كان نصف نرويجي وكان يُدعى مورتن، وهكذا جاء تعميدي باسمه، هذا كل ما في الأمر".

ومضت أنطونيا لتصعد بحرصٍ بين العشب وأعواد البوص الكبيرة الحادة التي نمت على حافة الشاطئ القاحل، ورأت من هناك صف الكبائن الخشبية ذات الأسطح المقببة، تليها مخافر الشاطئ القريبة من البحر، وقد افترشت العائلات الرمال الساخنة هناك، ورأت بعض النسوة وقد وضعن على أعينهن نظاراتٍ زرقاء اتقاءً للضوء، وهن يقرأن كتبًا استعرنها من المكتبة، كما كان هناك رجالٌ في حُللٍ زاهية، لم يشغلهم سوى ضرب الرمال بعصيهم، أو رسم بعض الأشكال فوقها، ورأت كذلك بعض الصبية، الذين لفحتهم حرارة الشمس وقد غطوا رؤوسهم بقبعاتٍ كبيرة من الخوص، وأخذوا ينزحون الرمال ويتقلبون فوقها أو يحفرونها، سعيًا للوصول إلى الماء. وبينما كان البعض يسوي فطائر في أوانٍ من الخشب، كان آخرون يحفرون أنفاقًا أو يغوصون بسيقانهم العارية في ماء الموج المتهادي، أو يدفعون إلى البحر ببعض الزوارق.. أما الحمَّام الخشبي فكان يقع إلى اليمين داخل البحر.

وقالت طونى: "فلنذهب مباشرةً إلى كابينة مولندورف، لنمكث هناك بعض الوقت!".

فقال مورتن: "لكِ ما تشائين.. لكنك سوف تلحقين بهؤلاء السادة

بالتأكيد.. إذن فلأجلس أنا على الصخر".

"ألحق بهم؟.. كلاَّ، إنني سأحييهم فقط برغم أني لا أحب ذلك، وعليك أن تدرك أنني ما جئت هنا إلا سعيًا وراء راحة البال".

فقال: "راحة البال ممن؟"

قالت: "حقًّا ممن؟"

أما هو فقال: "فلتصغي إليَّ، آنسة بودنبروك، فلديَّ أنا كذلك سؤال.. سأطرحه عليك في أوانه، فيما بعد، حين يكون لديك متسعٌ من الوقت، أما الآن، فاسمحي لى أن أودعك لأجلس هناك على الأحجار".

فسألته جادة: "هلا عرَّفتك بالآخرين، سيد شفارتسكوبف!"

فرد هو بسرعة: "لا، كلاَّ، لكِ جزيل الشكر، فأنا لا أنتسب إلى هذا المجتمع، وسوف أجلس على الأحجار".

وبينما توجهت أنطونيا إلى الجمع الغفير، كان مورتن شفارتسكوبف يشق طريقه يمينًا نحو صخرةٍ كبيرة بجوار الحمَّام، كان البحر يغدق عليها بمائه. أما الجمع- أمام كابينة مولندورف- فكان من أفراد عائلات مولندورف وهاجنشتروم وكيستنماكر وفريتشه. إلا أنه لم يكن هناك سوى النسوة والأطفال والقنصل فريتشه من هامبورج، المالك لكل شيء، وكذلك بيتر دولمان الماجن، فقد كان اليوم يوم عمل يمارس فيه أغلب الرجال نشاطهم بالمدينة.

كان القنصل فريتشه نبيلاً عجوزًا ذا وجهٍ ناعم وذقنٍ حليقة، وقد وقف هناك بالكشك المكشوف، مسلطًا التليسكوب على سفينةٍ شراعية بدت في الأفق. أما بيتر دولمان فكان قد غطى رأسه بقبعةٍ عريضة من الخوص، وبدت

لحيته المشذبة المستديرة شبيهةً بلحى الملاحين، وكان قد وقف مناجيًا نساءً افترش بعضهن الرمل، بينما جلس بعضهن على مقاعد صغيرة من قلاع المراكب، وكانت هناك السيدة قرينة السيناتور مولندورف، سليلة آل لانجهالس، ذات الشعر الأشيب المنفوش، وقد أخذت تعالج منظارًا صغيرًا بحامل طويل، والسيدة هاجنشتروم وإلى جوارها يوليا التي تُعتبر إلى حدٍّ ما حديثة السن، وقد ازدانت أذناها، مثل أمها، بقرطٍ من ماس، والسيدة قرينة القنصل كيستنماكر وبناتها، وقرينة القنصل فريتشه قصيرة القامة، مجعدة البشرة، التي كانت تغطي رأسها بقبعة، وكان منوطًا بها إدارة بعض شؤون الحمَّام، وكان وجهها تشوبه حمرة من الإرهاق، ولم تنشغل إلا باللقاءات والمراقص وملاعب الأطفال واليانصيب والرحلات البحرية.. وقد جلست من عُهد إليها بالقراءة لها بعيدةً عنها، بينما كان الأطفال يلهون في الماء.

أما "كيستنماكر وولده" فكان الاسم التجاري لشركة النبيذ المزدهرة، وكان ولداه إدوارد وستيفان يعملان بشركة أبيهما، التي طاردت في الأعوام الأخيرة شركة "س. ف. كوبن" في السوق. أما القنصل دولمان فكان يفتقر إلى ما يمتاز به يوستوس كروجر من آداب اللياقة الرفيعة، فقد كان ماجنًا يؤثر التعامل الفج، ويستبيح خرق تقاليد المجتمع على نحوٍ لا مثيل له من خلال مسلكه المرفه السافر.

"لقد نفد صبري، حضرة القنصلة!" هكذا كان قد رفع عقيرته بنبرة مدوية عبر طاولة الطعام ذات مرةٍ، عندما تأخر تقديم أحد ألوان الطعام أثناء وليمةٍ أقامها آل بودنبروك. أما الآن، فقد صار يروي بصوتٍ أجش مجلجل نتفًا من نوادر، مضيفًا إليها بعض المحسنات من لغته العامية، مما

جعل زوجة السيناتور تتصايح بعد نوبات ضحكٍ قصيرة: "يا إلهي! فلتمسك عن هذا، بربك، حضرة القنصل".

بينما لم يلق ظهور أنطونيا اهتمامًا كافيًا من آل هاجنشتروم، كان الآخرون قد أبدوا حفاوة بالغة بقدومها إلى حد أن هرول القنصل فريتشه فوق سُلم الكشك، لأنه كان ينتظر أن يسهم آل بودنبروك في رفع دخل الحمَّام في العام التالي.

وقال القنصل دولمان: "خادمك، أيتها الآنسة" واجتهد في التعبير عن ذلك لأنه كان يعرف أن الآنسة بودنبروك تستهجن مسلكه.

"آنسة بودنبروك!"

"أنت هنا!"

"ما أروعك!"

"منذ متى؟"

"وما أروع مظهرك"

"أين تقيمين؟"

"لدى آل شفارتسكوبف؟"

"لدى القبطان".

"يا لها من فكرةٍ رائعة".

"كذلك أراها رائعة للغاية".

"أتقيمين بالمدينة؟" هكذا أعاد القنصل فريتشه، صاحب المنتجع، السؤال دون أن يلحظ أحد أنه تأثر بذلك واستاء منه.

وسألتها زوجته: "هل نسعد بأن تشاركينا لقاءنا القادم؟"

لتقول إحداهن: "أوه، هل تقضين في ترافيمنده عطلةً قصيرة؟"

أما السيدة هاجنشتروم فمالت على قرينة السيناتور مولندورف لتهمس إليها: "ألا ترين، عزيزتي، أن آل بودنبروك قد آثروا العزلة إلى حدٍّ ما؟"

وتساءلت أخرى: "ألم تسبحي بعد؟ فمَن من البنات لم تسبح اليوم بعد؟ ماري، يوليا، لويزه، ها هن رفيقاتك سيسعدن باصطحابك، آنسة أنطوني".

فتركت بعض الفتيات الجمع ليسبحن مع طوني، أما بيتر دولمان فلم يدع فرصةً لأحد لاصطحاب السيدات على الشاطئ.

وسألت أنطونيا يوليا هاجنشتروم: "يا إلهي، أما زلت تذكرين ذهابنا وإيابنا أيام الدراسة؟"

فابتسمت يوليا مشفقةً، وقالت: "نعم، وكنتِ تفضلين دائمًا لعب بدور الشريرة!"

ومضت الفتيات على الشاطئ في طريقهن إلى الحمَّام عبر جسر من ألواح الخشب، فلما اقتربن من الصخور، حيث كان يجلس مورتن شفارتسكوبف وبيده كتابه، أومأت أنطونيا برأسها عدة مرات متوالية، لتسألها إحداهن: "إلى من ألقيت بالتحية، طوني؟"

فردت طوني: "إنه الشاب شفارتسكوبف، الذي اصطحبنى إلى الشاطئ".

فسألتها يوليا هاجنشتروم: "أهو ابن القبطان؟"

ثم نظرت إلى مورتن ذي العينين السوداوين المتألقتين، أما هو فراح يتابع جمع الفتيات بعينين مفعمتين ببعض المرارة، إلا أن أنطونيا صاحت بصوت عالٍ: "إن ما آسف له هو أن أوجوست مولندروف ومن مثله ليس هنا، فهكذا يكون المصيف هذه الأيام بالغ الملل".

الفصـل الثّـــامن

هكذا بدأت أنطونيا بودنبروك أسابيع صيفٍ جميلة، كانت أكثر راحةً ومتعة من أي وقت عاشته من قبل في ترافيمنده، فتفتحت كزهرةٍ بعدما تخلصت من أعبائها، واسترد قولها وفعلها الجرأة واللامبالاة. وقد كان القنصل يتأملها برضًا عندما كان يجيء أيام الأحد مع توم وكريستيان إلى ترافيمنده. هناك كانوا يتناولون الطعام على "تابل دي هوت"، ويحتسون القهوة تحت مظلة محل الحلوى، ناظرًا إلى داخل صالة الروليت ليرى الناس وهم في لهوهم يتزاحمون مثل يوستوس كروجر وبيتر دولمان، أما القنصل فلم يشاركهم قط هذا اللعب.

وكانت أنطونيا تستمتع بحمّام الشمس والسباحة، وتأكل الشرائح المشوية بحساء الزنجبيل، وتقطع مع مورتن مسافاتٍ طويلة سيرًا على الأقدام: على طريق السد إلى القرية المجاورة، وبحذاء الشاطئ إلى معبد البحر بموقعه المرتفع، حيث تمتد الرؤية هناك إلى البحر واليابسة، أو الصعود إلى الغابة الصغيرة الواقعة خلف المنتجع التي يتدلى من قمتها الجرس الكبير لطاولة "تابل دي هوت"، أو كانا يجدفان فوق سطح ترافه حتى الـ"بريفال"، حيث

توجد أحجار الكهرمان.

كان مورتن رفيقًا ممتعًا برغم آرائه المتطرفة والصادمة بعض الشيء. فقد كان يصدر بحسم أحكامًا صارمة وعادلة على كل الأمور، برغم حُمرة الخجل التي كانت تكسو وجهه أثناء ذلك، وكانت أنطونيا تغضب وتوبِّخه عندما كان يصف بإشاراتٍ حانقة رعناء كل النبلاء بالحماقة والبؤس، إلا أنها كانت فخورةً بأنه آثرها هي بآرائه الصريحة التي كان لا يبوح بها لوالديه. وذات مرةٍ قال: "لابد أن أطلعك على هذا الأمر: فقد كان لدَيَّ في حجرتي في جوتنجن هيكلٌ عظمي كامل.. أتدرين أن مثل هذا الهيكل لابد من ربط أوصاله بالأسلاك. وقد ألبسته ذات مرة زيًا قديمًا للشرطة.. ها! ألا تجدين هذا أمرًا رائعًا؟ ولكن بربك لا تخبري أبي بذلك!".

لم يكن يفوت أنطونيا أن تجتمع غالبًا مع معارفها من المدينة على الشاطئ أو في بستان المنتجع، أو تشاركهم في رحلة إلى الأطلال، أو بالقارب الشراعي؛ وعندئذ كان مورتن "يجلس على الأحجار"، وقد أصبح تعبير "الجلوس على الأحجار" مصطلحًا مستعملاً بين الاثنين منذ اليوم الأول، وهو ما يعني: "الوحدة والملل". فإذا أمطرت السماء يومًا لتغلف البحر- على مدى الرؤية- بحجابٍ رمادي، ليندمج البحر تمامًا مع السماء عميقة الزرقة، ويغرقا الطرقات ويبللا الشاطئ، فإن أنطونيا كانت تقول سوف يُضطر كلانا اليوم للجلوس على الأحجار، وكان هذا يعني الإقامة في الشرفة أو بحجرة المعيشة. ولم يبق أمامي سوى أن تنشد لي، مورتن، أغاني الطلاب، برغم أن هذا يصيبني بملل فظيع. فيقول مورتن: "أجل، فلنجلس.. لكن أتدرين عندما تكونين معي، لا تكون هناك أحجارا" إلا أنه كان لا يقول

ذلك أمام أبيه، لكنه كان يقوله في حضرة أمه.

"إلى أين؟" تساءل القبطان عندما فرغ أنطونيا ومورتن من تناول طعام الغداء، ونهضا معًا عازمين على الخروج، ثم أضاف: "إلى أين يشاء السادة الشباب؟"

"سوف أرافق الآنسة أنطوني إلى معبد البحيرة بعض الوقت".

"أيجوز لك ذلك؟ قل لي يا بني "فيليوس"، أليس من الأفضل أن تجلس بغرفتك، لتراجع ما عليك، فستكون قد نسيت كل شيء عند عودتك إلى جوتنجن".

لكن السيدة شفارتسكوبف قالت بهدوء: "يا إلهي! لماذا ينبغي ألاَّ يذهبا؟ دعه يذهب معها! إنه في عطلة، وليكن له نصيب من هذه الزيارة".

وهكذا ذهبا.

فسارا بحذاء الشاطئ بالقرب من الماء، الذي بلل الرمال ومهدها فصارت جامدةً صالحة للسير بلا مشقة، حيث تناثر المحار الصغير المألوف بلونه الأبيض وغيره من الحجم الكبير الطويل المتحجر؛ وبين هذا وذاك كان هناك عشب البحر المبتل الأخضر المائل إلى اللون الأصفر، بثماره المستديرة المنتفخة، التي تحدث دويًا إذا وطأها المرء، وكذلك قنديل البحر، البسيط بلون الماء، والأحمر السام الذي يحرق البشرة إذا مسته الساق أثناء السباحة.

"أتريد أن تعرف كم كنت غبيةً من قبل؟" هكذا قالت أنطونيا، ثم أردفت: "فقد أردتُ استخراج النجوم الملونة من قناديل البحر. فجمعت الكثير من قناديل البحر في منديل، ووضعتها بعناية على الشرفة في الشمس حتى تتبخر.. لتبقى النجوم! حسنًا.. لكني عندما رأيتها لم أجد هناك سوى

بقعة كبيرة رطبة تفوح منها رائحة العشب البحري التالف".

كانا يمضيان بجوار إيقاع الموج الممتد على مدى الرؤية، تُصافح وجهيهما ريحٌ مالحة طازجة منطلقةً حرة دون عائق، تطن في الآذان لتصيب المرء بدوار لطيف، مخدرةً الأعصاب على نحوٍ غير ظاهر.. هكذا سارا في ظل هذه السكينة الممتدة بهديرها الخافت، التي تجعل من كل دبةٍ بسيطة، قريبة كانت أم بعيدة، كائنًا ذا أهمية غامضة.

وإلى اليسار كانت المنحدرات الخشنة التي يغطيها الحصى والطمي الأصفر، وقد اتخذت شكلاً واحدًا، وكانت غالبًا ما تبرز أركانها لتحجب منعطفات الساحل.

وهناك، في موضعٍ ما، حيث بدا الشاطئ صخريًّا تمامًا، كانا قد أخذا في التسلق ليستأنفا من هناك طريقهما إلى معبد البحر، من خلال الدغل. ولم يكن المعبد سوى كُشك شُيد من جذوع شجر وألواح خشب غطتها كتابات وحروف أولى من الأسماء، وقلوب وأشعار.

وجلست أنطونيا ومورتن على أريكة بسيطة بنهاية إحدى الغرف المنفصلة المواجهة للبحر، التي تفوح منها رائحة الخشب، كتلك المنبعثة من كبائن الحمَّام.

كان الهدوء والسكينة يسودان المكان في هذه الساعة من أصيل هذا اليوم. وقد ارتفعت زقزقة عصافير، وامتزج حفيف أوراق الشجر الخافت بصوت موج البحر الذي كان يمتد أسفل الكُشك، وبدا في أفقه طيف إحدى السفن. وبعد أن وقاهما المكان دوي الريح في آذانهما إذا بهما فجأة يشعران بصمت يشحذ الفكر.

وسألت أنطونيا عما إذا كانت السفينة مبحرة، أم أنها تدخل الميناء؟

"ماذا" هكذا تساءل مورتن كمن أفاق من غيبوبةٍ ما ليستطرد بسرعة: "إنها مبحرة! إنها سفينة "برجرمايستر شتينبوك" المسافرة إلى روسيا". ثم قال بعد قليل: "إلا أنني لا أود الرحيل إلى هناك، فالأحوال هناك أكثر سوءًا من هنا!".

فقالت أنطونيا: "هكذا! ها أنت تحمل ثانيةً على النبلاء، مورتن، وهو ما أراه على سيماء وجهك، وهو ما أنكره عليك، فهل تعرفت إلى أحدهم ذات يوم؟"

"كلاَّ! بحمد الرب". هكذا هتف مورتن جزعًا.

"أجل، أجل، أما أنا فقد تعرفت إلى إحداهن، إنها ارمجارد فون شيلينج التي حكيتُ لك عنها. حسنًا، فقد كانت أرق منك ومني، وهي ما كانت بالكاد تعرف أنها تحمل لقب "فون"، وكانت تأكل الخبز العادي وتتحدث عن أبقارها".

فرد مورتن بحماسٍ: "هناك يقينًا استثناءات، آنسة طوني، لكن أصغي إليَّ.. فأنت سيدةٌ شابة وترين الأمور من منظورٍ شخصي. فإذا ما عرفتِ نبيلاً قلتِ إنه إنسانٌ طيب.. لكننا لسنا بحاجةٍ لمعرفة أحدهم لكي ندينهم جميعًا، فالأمر هنا يتعلق بالمبدأ؛ أتعرفين، يتعلق بالتوجه! نعم، وهذا هو ما تسكتين عنه.. وهؤلاء وُلدوا وبفمهم ملعقةٌ من ذهب لينظروا باحتقارٍ من أعلى إلينا نحن الآخرين الذين مهما اجتهدوا فلن نصل إلى مستواهم".

هكذا تحدث مورتن بغضب ساذج ونية طيبة، كما حاول أن يتبع ذلك بحركة من يديه، لكنه تخلى عن ذلك بعد أن أدرك بنفسه عدم إتقانه لذلك.

لكنه واصل حديثه بحماس . فجلس مائلاً للأمام واضعًا إبهامه بين أزرار سترته، وقد رسم في عينيه الطيبتين علامات التحدى.

"ونحن، أبناء البرجوازية، الطبقة الثالثة، كما نُصنَّف حتى الآن، نريد رؤية واحد فقط من النبلاء يستحق هذا اللقب، فلم نعد نعترف بنبيل كسول، كما ننكر تصنيف الطبقات الحالي، ونسعى إلى أن ينعم كل الناس بالحرية والمساواة، وألاَّ يخضع إنسان لإنسان، وإنما يخضع الجميع للقانون، وينبغى ألاَّ توجد مزايا ولا تعسف!.. بل يكون الجميع أبناءً متتساوين للدولة، وألاَّ توجد وساطة بين الإنسان وربه، وكذلك تكون علاقة المواطن بالدولة علاقةً مباشرة.. نحن ننشد الحرية للصحافة والصناعة والتجارة.. نريد أن يتنافس الناس جميعًا دون امتيازات مسبقة، وأن يكون لكل مجتهدٍ نصيبه.. لكننا مستعبدون مكممو الأفواه.. ماذا أعني بذلك؟ أجل، انتبهي: لقد تم قبل أربع سنوات تحديث قوانين الجامعة والصحافة.. قوانين رائعة! فقد نصت على عدم كتابة أو تدريس حقائق لا تتفق مع النظام القائم.. أفهمتِ؟ فتم سحق الحقائق لكي لا يتم التعبير عنها.. ولماذا؟ من أجل علاقةٍ حمقاء شائخة عفا عليها الزمن، يعلم الجميع أنها إلى زوالٍ عاجلاً أم آجلاً.. أعتقد أنك لا تفهمين هذه الخدعة! إن السلطة، الغبية، الخشنة، والبوليسية حتى هذه اللحظة لا تبدي تفهمًا للعقل والحداثة. لكن بغض النظر عن كل شيء فأنا أريد قول شيءٍ واحد؛ فقد اقترف ملك بروسيا انتهاكًا كبيرًا! فحينذاك، في عام 1813، عندما كان الفرنسيون ما يزالون يحتلون البلاد، استدعانا هو، ووعدنا بالدستور.. فلبينا نداءه وحررنا ألمانيا".

أما أنطونيا فقد اعتمدت بذقنها على يدها، لتنظر إليه بطرف عينيها بعد

أن فكرت للحظة إن كان هو نفسه قد شارك بالفعل في طرد نابليون.

"لكن أتظنين أنه وفَّى بوعده؟ آه، كلَّا!- فالملك الحالي لا يحسن سوى الكلام؛ إنه حالمٌ، رومانسي، مثلك آنسة طوني.. لكن هناك أمرًا عليك الانتباه إليه، وهو: ما إن يهجر الشعراء والفلاسفة حقيقةً ونظريةً ومبدأً، ويصرفون النظر عنها، إذا بالملك يدرك ذلك فيما بعد، وإذا به يظن أن ذلك تحديداً هو الأفضل والأحدث، ويظن أن عليه اتباع ذلك.. أجل، إن هذا هو حال الملكية! فالملوك ليسوا بشرًا فحسب، بل هم في أفضل أحوالهم أناسٌ متوسطو الذكاء.. وهم دوماً متخلفون ببضعة أميال زمنية.. آه لقد جرى على ألمانيا ما جرى على اتحاد الطلاب الذى كان يتمتع أثناء حروب الحرية بعنفوان الشباب الباسل، فأصبح الآن جاهلاً بائسًا".

فقالت أنطونيا: "أجل، أجل.. كل شيء على ما يرام، ولكن دعني أطرح عليك سؤالاً.. ما هي علاقتك بذلك؟ فأنت لست بروسيًّا".

"آه، كلنا سواء في الهم، آنسة بودنبروك، وأنا أدعوك بلقب عائلتك متعمدًا، بل يتعين علي دعوتك بـ"الآنسة بودنبروك" حتى تكوني راضيةً تمامًا عن ذلك! فهل الناس عندنا يتمتعون بحريةٍ ومساواة وإخاء أكثر مما هو عليه الحال في بروسيا؟ لكن الحواجز، والفوارق الطبقية، والنبلاء هنا مثل هناك!"

"إنك تتعاطفين مع النبلاء.. فهل أقول لكِ لماذا، لأنكِ واحدةٌ منهم، فوالدك سيد عظيم، وأنتِ أميرة. فثمة هوة تفصل بيننا، نحن الآخرين، الذين لا ينتمون إلى طبقاتكم من العائلات الحاكمة. فمن الممكن أن تقضي معنا بعض الوقت في نزهة على شاطئ البحيرة، فإن عدتِ إلى أهل طبقتك من

الصفوة المختارة، جلسنا نحن على الأحجار".. كانت نبرة صوته مستثارة على نحو غريب.

فقالت أنطونيا بأسى: "إذن، غضبت لجلوسك على الأحجار! لكني عرضت تقديمك للآخرين".

"إنك تعتبرين المسألة أمرًا شخصيًا، آنسة أنطونيا، بينما أتكلم عن المبدأ.. فأنا أقول إن مبدأ الإخاء الإنساني ليس سائدًا عندنا وفي بروسيا أيضًا". ثم استطرد بعد استراحة قصيرة بنبرةٍ أكثر خفوتًا، لم يختف منها الانفعال العميق: "فأنا لا أعني الحاضر، لكن بالأحرى ربما المستقبل.. فعندما تغيبين للأبد كزوجة فلان بين طيات طبقتك النبيلة.. فسوف نجلس حينئذٍ على الأحجار طوال حياتنا".

ولاذ بالصمت، كما صمتت أنطونيا أيضًا. لم تعد تنظر إليه وإنما إلى الطرف الآخر، إلى جدار الألواح بجوارها. ليسود لفترة طويلة سكونٌ مقبض.

وبدأ مورتن الحديث ثانيةً، فقال: "هل تتذكرين أنني قلت لكِ ذات مرة إنني لديَّ سؤال أود طرحه عليك؟ وهو يشغلني منذ لقائنا الأول عصرًا، عندما وصلتِ إلى هنا، لابد أنكِ تعرفين هذا.. لا تخمني! فمن المحال أن تدركي ما أعني. وسوف أطرحه عليك في فرصة أخرى، فلسنا في عجلة من الأمر، فلا علاقة لي بهذا الأمر أساسًا، إنه مجرد فضول.. كلاَّ، فاليوم أريد أن أبوح لكِ بشيءٍ آخر.. انظري".

أثناء ذلك كان مورتن قد سحب من جيب سترته طرفَ شارةٍ دقيقة ملونة، لينظر في عيني أنطونيا بمزيجٍ من الترقب والنصر.

فقالت غير متفهمة: "جميل، ما هذا؟"

لكن مورتن قال بحماس: "هذا يعني أنني عضو ائتلاف شباب في جوتينجن- ها أنتِ الآن تعرفين ذلك! ولديَّ قبعة بمثل هذه الألوان، لكني أثناء وقت الإجازة أضعها على رأس الهيكل العظمي بزيه الشُّرطي.. فلا يجوز أن يراني أحدٌ بها، أفهمتِ.. ويمكنني أن أتوقع أنك لن تبوحي بهذا؟ فلو أن أبي علم بذك ستقع كارثة".

"لن أبوح بكلمةٍ واحدة، مورتن، بوسعك أن تضع ثقتك فيَّ!.. لكني لا أدري عن ذلك شيئًا على الإطلاق.. إنكم تتآمرون جميعًا ضد طبقة النبلاء؟ فماذا تريدون؟"

فقال مورتن: "كلنا نسعى إلى الحرية".

فتساءلت: "الحرية؟"

"حسنًا، الحرية، أتعرفين، الحرية..!"

قال هو مكررًا، وهو يحرك ذراعه حركةً غامضة، إلى اليسار قليلاً، لكنها تنم عن الرضا، نحو البحر، ولم يوجهها نحو الجهة التي يحاصر فيها ساحل مكلنبورج الخليج، وإنما إلى ناحية البحر المفتوح، حيث الأطياف الخضراء الزرقاء الصفراء تتجعد بخفة لتلاقي الأفق الغائم وهو يتلاشى.

فتابعت أنطونيا بنظرها وجهة يده، وبرغم أنه لم يكن هناك الكثير، كانت الأيدي الراقدة بجوار بعضها البعض على الأريكة الخشبية الخشنة قد تشابكت، لينظرا معًا إلى اتجاه واحد، ويخيم الصمت عليهما طويلاً، بينما كان البحر يتهادى نحوهما متثاقلاً.. فاعتقدت أنطونيا فجأة أنها تتفق مع مورتن على فهم واسع، غير محدود، ومتشوق ومدركٍ تمامًا لمعنى الحرية.

الفصل التَّاسع

"إنه أمرٌ غريب ألا يصاب المرء بالملل على شاطئ البحر، مورتن، وهذا لا يحدث لو أنك رقدت على ظهرك بمكان آخر لثلاث أو أربع ساعات، دون أن تفعل شيئًا، ودون أن تنشغل بأية فكرة".

"نعم، نعم.. إلا أنني لابد أن أقر بأن الملل أصابني أحيانًا فيما سبق، آنسة طوني، لكن كان ذلك من بضع أسابيع مضت".

لكن ها هو الخريف قد أقبل مُطلقًا أولى رياحه القوية، وها هي الغيوم الرمادية الرقيقة المتناثرة ترفرف مسرعة في السماء. أما البحيرة العكرة الهائجة فقد غطاها الزبَد في كل مكان.

وتدحرجت أمواج قوية عريضة بهدوءٍ عنيد رهيب، لتنقلب بجلالٍ مكونةً دائرة خضراء قانية فضية لتهجم صاخبة على الرمال.

كان موسم الاصطياف قد انتهى تمامًا. وها هو نفس المكان من الشاطئ الذي كان يكتظ بالمصطافين وقد خلا من بعض الكبائن، ولم يعد به سوى بعض المقاعد القليلة، فبدا شبه مهجور.

لكن أنطونيا ومورتن كانا يقيمان عصر هذا اليوم في مكانٍ بعيد: هناك

حيث تبدأ الجدران الطينية الصفراء، وحيث كان رذاذ الأمواج يرتطم بصخرة "مفنشتاين".

كان مورتن قد صنع لها تلاً من رمل متماسك القوام: أسندت ظهرها عليه، ووضعت قدمًا فوق الأخرى، في حذاء ذي رباط مجدول وجوارب بيضاء، وقد ارتدت سترة خريفية ناعمة رمادية، بأزرار كبيرة.

بينما رقد مورتن على جانبه مواجهًا لها، معتمدًا بذقنه على يده. وكان أحد طيور النورس ينطلق من حينٍ لآخر فوق البحيرة، مُطلقًا صيحات الطيور الجارحة. أخذا يشاهدان جبال الأمواج الخضراء المحملة بعشب البحر، المنذرة بالهجوم، لكنها تتبدد على كتلة الصخر الواقف في طريقها.. في ظل هذا الهدير المجنون السرمدي الذي يصم الآذان، ويخرس الألسنة، ويقتل الشعور بالزمن.

أخيرًا، أتى مورتن بحركةٍ كمن يوقظ نفسه، ليتساءل: "والآن سوف ترحلين قريبًا، آنسة طوني؟"

"كلاً.. لماذا؟" تساءلت أنطونيا دون وعي، ودون استيعاب لما قيل.

"نعم، أعني، نحن الآن في العاشر من سبتمبر، وسوف تنتهي إجازتي قريبًا.. مهما طال أمدها! فهل تشتاقين إلى حياة المدينة..؟ قولي لي: هناك رجال يتمتعون بالجاذبية ترقصين معهم.. لا، ما كنت أريد السؤال عن هذا الأمر أيضًا! لكن عليكِ الآن الإجابة على سؤال" (قال ذلك بإصرارٍ مفاجئ، وهو يضع ذقنه في راحة يده ناظرًا إليها)، ثم أضاف: "إنه سؤالٌ أرجأته طويلاً.. حسنًا، من يكون السيد جريونليش؟"

جفلت أنطونيا، ونظرت بسرعة في وجهه، وأطلقت العنان لعينيها كمن

يتذكر حلمًا بعيدًا. أثناء ذلك، كانت قد استعادت شعورها الذي أحست به بعد طلب السيد جريونليش ليدها، شعورها بأهمية شخصها.

فسألته جادةً: "أتريد أن تعرف ذلك، مورتن؟ حسنًا، سأخبرك. لقد كان أمرًا محرجًا للغاية، أتعي ذلك، حينما ذكر توماس اسمه عصر اليوم الأول، لكن طالما أنك سمعته، فيكفي هذا: السيد جريونليش، بندكس جريونليش، هو زميل عمل لوالدي، تاجرٌ ميسور من هامبورج، وقد طلب يدي بالمدينة.. لكن، لا! (ردت بسرعة على حركة من مورتن) إنني رفضته، فلم يكن بوسعي منحه موافقتي لأعيش معه طيلة حياتى".

"ولِمَ لا.. إن أذنتِ لى بالسؤال؟" هكذا تساءل مورتن دون تفكير.

فصاحت وهي تحس بسخطٍ ما: "لماذا؟ يا إلهي، لأنني لا أطيقه! كان عليك أن تتعرف عليه، كيف يبدو مظهره ومسلكه! ومن ضمن ذلك أن له فودين أصفرين كالذهب.. ليسا طبيعيين على الإطلاق! إنني مؤمنةٌ بذلك، إنه يصبغهما بالمسحوق الذي نطلي به ثمار البندق في أعياد الميلاد، بالإضافة إلى أنه كان غير صادق. إنه يداهن والدَيَّ ويردد بدون خجل ما يريدان سماعه".

فقاطعها مورتن: "لكن ما معنى.. لابد أن تخبريني بأمر.. ما معنى: إنه يلمع على نحوٍ غريب؟"

فغرقت أنطونيا في نوبة ضحك عصبية مقهقةً.

"نعم.. هكذا يتحدث هو، مورتن! فهو لا يقول (إن هذا يبدو جميلاً)، أو: (إن هذا يزين الغرفة) بل يقول: (إنه يلمع على نحوٍ غريب) هكذا هو أخرق، وهو ما أؤكده لك! وهو في ذلك يتمتع بأقصى درجات الإلحاح، فكان يلاحقني، برغم أنني لم أعامله إلا بسخرية، وذات مرة افتعل مشهدًا كاد

يبكي أثناءه، أتعقل ذلك: رجل يبكي".

فهمس مورتن قائلاً: "لا بد أنه كان يهيم بك".

"فما شأني أنا بهذا؟" صاحت متعجبةً، وهي تستدير بجانبها نحو تلها الرملي.

"أنت قاسية، آنسة طوني.. هل أنت قاسية دائمًا؟ قولي لي.. لم يكن بوسعك أن تطيقي السيد جريونليش هذا، فهل كان بوسعك أن تطيقي غيره ذات مرة. فأحيانًا أفكر: هل لكِ قلب؟ وهناك شيء أريد أن أقوله لك.. وهو حقيقة، أقسم لك: ليس هناك رجل أخرق لأنه بكى لأنك ترفضينه.. هذه هي الحقيقة. وأنا لست متأكدًا، لست متأكدًا على الإطلاق، إن كنت سأفعل ذلك أيضًا.. أترين، إنك مخلوق أرستقراطي مدلل.. تسخرين دائمًا من أناسٍ يرتمون تحت قدميك؟ فهل لديك حقًّا قلب".

بعد استمتاعها بوقتٍ ساده المرح، بدأت شفة أنطونيا العليا فجأةً في الارتعاش. أخذت تنظر إليه بعينين متسعتين مكدرتين، استحال لونهما شيئًا فشيئًا إلى لون فضي، بعد أن اغرورقتا بالدمع. فقالت هامسة: "كلا، مورتن، أتصدق ذلك عني؟.. لا تصدق ذلك عني".

"وأنا أيضًا لا أصدق هذا!" صاح مورتن وهو يضحك، محاولاً بكل جهده مدارة فرحه وتأثره. وأخذ يتدحرج حتى صار يرقد على بطنه بجوارها، وارتكز على رسغيه ليمسك بيديه يدها محدقًا في وجهها فرحًا سعيدًا بعينيه الحانيتين الزرقاوين كالفولاذ.

"وأنتِ.. لن تسخري مني إن قلتُ لكِ أن.."

"أنا أعرف، مورتن" قاطعته هامسةً، بينما كانت تنظر إلى يدها الطليقة

التي كانت قد تركت الرمل الناعم الأبيض ينساب من بين أصابعها.

"تعرفين..! وأنت.. أنت، آنسة أنطونيا".

"نعم، مورتن. أنا أضع آمالاً كبيرة عليك. أنا أحمل لك ودًا كبيرًا. وأعتز بك أكثر من كل من أعرفهم".

فاعتدل، وحرَّك ذراعيه، ولم يدر ماذا يفعل. ثم هب واقفًا على قدميه ليرتمي ثانيةً في الحال إلى جانبها، وصاح بصوتٍ متلعثم متأرجح مضطرب، ليعود متناغمًا من السعادة: "آه، أشكرك، أشكرك! أترين، إنني الآن سعيد للغاية سعادة لم أعرفها طوال حياتي!" ثم أخذ يقبل يديها.

وفجأةً قال هامسًا: "سوف ترحلين قريبًا إلى المدينة، طوني، وإجازتي ستنتهي بعد أربعة عشر يومًا ليكون عليَّ العودة إلى جوتينجن. ولكن هل تعدينني بألاَّ تنسي عصر هذا اليوم هنا على الشاطئ، حتى أعود.. وقد أصبحت (دكتور).. لأتقدم إلى والدك، مهما كان هذا صعبًا؟ وأنك لن تنصتي إلى أي جريونليش؟.. آه، لن يطول أمد هذا، فاجعلي هذا نصب عينيك! ولسوف أجتهد مثل الـ. فالأمر ليس شاقًا".

"نعم، مورتن"، قالت ذلك وهى سعيدة شاردة، بينما كانت تتأمل عينيه وفمه ويديه اللتين أمسكتا بيديها.

فسحب يدها وأدناها من صدره، وسألها بصوت عميق راجيًا: "ألا تبغين بعد ذلك أن.. ألا يجوز لي.. أن أؤكد.. ؟"

لم تجب، بل لم تنظر إليه، لكنها اندفعت ببطء بصدرها على تل الرمل لتدنو منه، فقبلها مورتن متمهلاً متكلفًا في فمها. ثم نظر كلٌّ منهما إلى اتجاهٍ مختلف من الرمل، وقد اعتراهما خجل بلا حد.

الفصـل العاشـــر

عزيزتي الآنسة بودنبروك

منذ زمنٍ بعيد لم يعد يرى مُرسل الخطاب محيا الفتاة الفاتنة؟ إن هذه السطور القليلة للغاية ينبغي أن تقول لك إن هذا المحيا لم يغب طيفه قط عن خياله، وإنه ظل طوال هذه الأسابيع المرهقة يذكر عصر ذاك اليوم الجميل بصالون والديك، حينما أفلت من فمك وعدٌ، كان شبه وعدٍ حيي، لكنه أثلج صدره، وقد مضى على ذلك أسابيعٌ طويلة اعتزلت فيها الدنيا من أجل التفكير والتدبر. حتى صار لي أن آمل أن تكون مهلة الاختبار قد انقضت. إن مُرسل الخطاب يسمح لنفسه، عزيزتي الآنسة، بأن يرسل إليك مع كل التقدير، طي الرسالة، خاتمًا صغيرًا عربونًا لمودته الأبدية. مع أرق التحيات لشخصك وأعز القبلات ليديك يرسلها إليك

المخلص الوفى لشخصك النبيل

جريونليش

والدي العزيز

يعلم الرب كم كان غضبي! بعد أن تلقيت منذ قليل رسالةً مرفقًا بها

خاتمٌ من جريونليش، حتى إن الصداع أصابني من الانفعال، ولم أجد وسيلةً أفضل من أنني أعيد إرسال كليهما إليك. إن جريونليش لا يريد أن يفهمني، كما أن هذا الذي كتبه بشاعرية عن "الوعد" لم يكن ببساطةٍ هو ما يعنيه. لذا فإنني أتوسل إليك متضرعةً ألاَّ تتردد في إبلاغه أن رغبتي الآن لهي أقل ألف مرةٍ عن ذي قبل في منحه موافقتي لحياةٍ أبدية معه، وأن عليه أن يدعني وشأني، إن كان يريد الحفاظ على احترامه لنفسه.

ولك أنت، يا أفضل والد، أستطيع أن أخبرك من جانبٍ آخر، أنني قد ارتبطتُ بإنسانٍ أحبه ويحبنى حبًا لا يمكن وصفه. آه، يا أبى، فبوسعي أن أكتب في ذلك دواوين كثيرة، أعني مورتن شفارتسكوبف، الذي سيصير طبيبًا، وعندما يصبح "دكتورًا" سيطلب يدي. إنني أعلم أن التقاليد تحتم عليَّ أن أتزوج رجل أعمال، إلا أن مورتن ينتمي إلى المجتمع الآخر من الرجال المرموقين، أي المثقفين. وهو ليس غنيًا، وهو الأمر الذي يمثل أهمية لديك ولأمي، لكني لابد أن أقول لك يا أبي إنني برغم حداثة سني، إلا أن الحياة علمتني أن الثراء وحده ليس دائمًا هو الذي يسعد كل إنسان. ترسل لك ألف قبلة

ابنتك المطيعة

أنطوني

ملحوظة: إن الخاتم، كما أرى، من ذهبٍ رخيص وخفيف الوزن.

ابنتي العزيزة طوني

لقد وصلتنى رسالتك. وإيماءً إلى فحواها أخبرك أنني بدافع شعوري

بالمسؤولية فقد بادرت بإبلاغ السيد جريونليش بوجهة نظرك بصيغةٍ أقل حدة. إلا أن تبعة ذلك بلغت حدًّا اهتز لها كياني. إنك فتاةٌ عاقلة، وحياتك الآن تتعرض لظرفٍ جاد؛ مما يجعلني لا أتردد في أن أبصرك بالتبعات التي قد تنجم عن خطوةٍ متسرعة من جانبك. فقد تملك اليأس السيد جريونليش لدى سماعه ما قلت، فصاح إنه يحبك إلى حد ألاَّ شيء يمكن أن يعوضه عن فقدانك، وأنه سوف ينتحر إن تمسكتِ بقرارك.

ولما كنت لا أستطيع أن آخذ حديثك عن ميلك لرجلٍ آخر على محمل الجد؛ لذا فإنني أرجوك أن تكبحي جماح غضبك نحو الخاتم الذي أُرسل إليك، وأن تراجعي موقفك من الأمر كله بجدية، مرةً أخرى.

إن عقيدتي المسيحية، يا ابنتي العزيزة، توصي المرء باحترام مشاعر الآخرين، ولا نعلم أن قاضيًا أعظم سوف يسألك ذات يوم عن رجلٍ، سخرتِ من مشاعره بعنادٍ وبرود، قد ارتكب جرمًا بقتل نفسه.

وأود أن أذكِّرك بما نصحتك به ذات يوم شفاهةً، ويسعدني أن سنحت لي الفرصة لأكرره عليك كتابةً.

فبرغم أن الحديث الشفوي أكثر حيويةً، وله تأثيرٌ مباشر، إلا أن الكلمة المكتوبة أفضل؛ لأنها تُنتقى وتُصاغ برويةٍ فتبقى مسجلةً، ويعيد كاتبها مرارًا قراءتها بصيغتها المحسوبة والمدروسة، حتى يكون لها الأثر نفسه.

ونحن، يا ابنتي العزيزة، لم نولد من أجل هذا الذي نراه بعيوننا قصيرة النظر، أي سعادتنا الشخصية الصغيرة؛ لأننا لسنا كائنات فردية منفصلة عن بعضها البعض، وإنما حلقة من سلسلة، ولم نكن على الحالة التي نحن عليها دون سلسلة هؤلاء الذين سبقونا وأرشدونا إلى السبيل الذي اتبعوا هم

فيه ما وصلهم من سُنن مجربة وفاضلة، بمثابرة دون التفات، يمينًا ويسارًا.

إن طريقك، كما أتصوره، أصبح أمامك منذ أسابيع طويلة، واضحًا بمعالم محددة، ولن تكوني ابنتي، وحفيدة جدك الراقد بسلام بين يدي الرب، ولا فردًا يستحق الانتماء لأسرتنا، إن عقدتِ العزم على المضي بعنادٍ ورعونة في طريقٍ غير سوي. هذا، يا عزيزتي أنطوني، هو ما آمل أن تتدبريه بقلبك.

ويرسل إليك التحيات الحارة كلٌّ من والدتك وتوماس وكريستيان وكلارا وكلوتيلده (والأخيرة قد أقامت عدة أسابيع لدى أبيها في أونجناده)، وسوف نسعد جميعًا إن تعودي قريبًا إلى أحضاننا.

مع كل الحب الصادق

والدك

الفصـل الحادي عشَر

هطل المطر كالسيل. صارت السماء والأرض والماء يسبح كلٌّ منها في الآخر، بينما هبَّت الريح لتسوق المطر وتدفع به إلى زجاج النوافذ، فلا يسيل عليها قطراتٍ، بل برگًا يغيِّمها. أصواتٌ مولولة يائسة يُسمع حديثُها في مداخن المدافئ.

ما إن دخل مورتن بعد الغداء بغليونه إلى الشرفة، ليتابع حال السماء، إذا به يرى رجلاً في سترة طويلة ضيقة، ذات خطوطٍ صفراء متقاطعة وقبعة رمادية، كما وقفت أمام المنزل عربةٌ مغلقة، كان سقفها يلتمع بالبلل، ولطخ الوحل عجلاتها.

حدق مورتن مضطربًا في وجه الرجل المتورد، فرأى للرجل جانبي لحية بديا كأنهما صُففا بالمسحوق الذي يُذهَّبُ به ثمر البندق في أعياد الميلاد.

نظر الرجل ذو السترة المخططة إلى مورتن كمن ينظر إلى خادم دون أن يراه، وقد رفَّت عيناه ليسأله بصوت ناعم: "أيمكنني الحديث إلى السيد القبطان؟"

فقال مورتن متلعثمًا: "بالطبع، أعتقد أن والدي.."

فحملق الرجل في عينيه، بعينين زرقاوين كعيني الأوز. وسأله: "هل أنت السيد مورتن شفارتسكوبف؟"

فرد مورتن، وهو يبذل قصارى جهده ليقرأ تعبير وجهه: "نعم، يا سيدي".

"ها أنت ذَا! حقًّا" قال الرجل ذو السترة المخططة، ثم أردف: "ألا تكرمت بإبلاغ السيد والدك بوجودي، أيها الفتى. اسمي جريونليش".

فقاد مورتن الرجل خلال الشرفة ليفتح بابًا إلى يمين الممر يفضي إلى المكتب، ليعود هو إلى غرفة المعيشة ليبلغ والده. فلما خرج السيد شفارتسكوبف، جلس الفتى إلى المائدة المستديرة، وارتكز برسغيه عليها دون أن يلتفت إلى أمه الجالسة إلى النافذة المضببة، وقد انشغلت برتق الجوارب، فبدا كأنه يطالع الصحيفة البائسة التي لم تنشر سوى خبر احتفال القنصل فلان بعيد زواجه الفضي. أما أنطونيا فكانت بالطابق العلوى تستريح بغرفتها.

دخل القبطان إلى المكتب، وقد بدت عليه ملامح من قنع بطعام الغداء الذي تناوله. وكانت سترة زيه الرسمي مفتوحةً فوق صدريةٍ بيضاء مقوسة. وقد ارتفع بحدة فوق وجهه المتورد شاربُ البحارة الرمادي بلون الفولاذ. وكان لسانه يجري مرتاحًا بين أسنانه، بينما كان فمه المستقيم يتخذ أوضاعًا غريبة. وانحنى انحناءة سريعة قوية ولسان حاله يقول: هكذا يكون الاستقبال حقًّا.

ثم قال: "نهارك سعيد، تحت أمرك، سيدي!"

فانحنى السيد جريونليش أيضًا على مهل، بينما كان يسحب شدقيه إلى أسفل، وهو يقول هامسًا: "همم".

لم يكن المكتب سوى غرفةٍ صغيرة للغاية، كُسيت جدرانها بالخشب بمقدار ارتفاع قدم، بينما يكشف الباقي عن جدران جرداء من الحجر الجيري. وأمام النافذة، التي كان المطر لا يزال يصخب فوقها، عُلقت ستائر بلون أصفر مموه. وإلى يمين الباب كانت طاولة بسيطة مغطاة بالورق، وقد ثُبتت على الحائط فوقها خريطة كبيرة لأوروبا وأخرى أصغر لبحر البلطيق. وتدلى من وسط سقف الغرفة نموذج سفينة شراعية. وأشار القبطان لضيفه بالجلوس على الأريكة المقوسة المكسوة بغطاء من المشمع، القائمة بمواجهة الباب، ليرتاح هو على مقعد خشبي ذي مسند وقد عقد يديه فوق بطنه، بينما جلس السيد جريونليش على آخر حافة الأريكة دون أن يمس مسندها، وقد أحكم سترته المخططة، واضعًا قبعته فوق ركبتيه. ثم قال: "اسمي جريونليش، أكرر، جريونليش، جريونليش من هامبورج، ولكي أُزكي نفسي لديك، أذكر أنني أحد زملاء العمل المقربين لتاجر الجملة القنصل بودنبروك".

"يا لَه من شرف! تشرفنا بك، سيد جريونليش! لكن ألا يريد السيد أن يجلس على راحته، هل لك في قدح من الجروج بعد رحلة السفر؟ سأستدعي هذا في الحال من المطبخ".

فقال السيد جريونليش بهدوء: "إنني أسمح لنفسي بأن ألفت نظرك أن وقتي محدود، وأن عربتي بانتظاري، وأنني مضطر أن ألتمس حديثًا من كلمتين".

فكرر السيد شفارتسكوبف وقد اعتراه شيء من رهبة: "تحت أمرك، سيدي"، وخيم الصمت لبرهة. "سيدى القائد!" هكذا بادر السيد

جريونليش، وهو يهز رأسه بحزم وقد طرحها قليلاً للوراء. ثم صمت من جديد، ليعزز أثر خطابه، فيما أطبق فمه بقوة كصُرة نقود توثق برباط.

"سيدي القائد"، كرر ذلك، ثم قال بسرعة: "إن الأمر الذي جئتُ إليك من أجله يتعلق على نحوٍ مباشرة بالفتاة التي تسكن لديكم من عدة أسابيع".

فتساءل السيد شفارتسكوبف: "الآنسة بودنبروك؟"

"بالفعل"، أردف السيد جريونليش وهو ينكس رأسه صامتًا، وبدت تجاعيد حادة حول شدقيه.

"إنني أرى نفسي مضطراً لأن أصارحك" هكذا استطرد بتأكيد حاد واضح، بينما كانت عيناه تقفزان بانتباهٍ هائل من نقطةٍ بالغرفة إلى نقطةٍ أخرى ثم إلى النافذة، ثم أردف "إنني منذ حينٍ كنتُ قد تقدمتُ لطلب يد الآنسة بودنبرووك، وقد نلت موافقة كلا والديها، كما أن الآنسة نفسها قد منحتني كلمةً صريحة بحقي فى خطوبتها، وإن كانت الخطوبة لم تتخذ شكلها الرسمي بعد".

"بحق الرب؟" هكذا تساءل السيد شفارتسكوبف بحماس، ثم أضاف "لم أعلم عن ذلك شيئًا! تهانئي، سيد.. جريونليش! تهانئي الصادقة! فقد أنجزت شيئًا طيبًا حقًّا..."

فأجاب السيد جريونليش بتأكيدٍ بارد "ممتنٌّ جدًّا"، ثم استطرد بصوتٍ عالٍ طرِب "إلا أن ما ساقني إليك فى هذا الشأن عزيزي السيد القائد فهو مسألة أن مصاعب معينة اعترضت مؤخرًا طريق هذا الارتباط، وأن هذه المصاعب تنطلق من بيتك-؟"

ونطق الكلمات الأخيرة بتأكيدٍ متسائل، كأنه شاء أن يقول: أيكون ممكنًا ما تنامى إلى مسامعي.

لم يرد السيد شفارتسكوبف إلا برفع حاجبيه عاليًا حتى جبينه، وهو يمسك بذراعي المقعد بيدَي بحار لوحتهما الشمس، وقد انتشر عليهما الشعر الأشقر.

فقال السيد جريونليش مؤكداً بصوتٍ مفعم بالحزن: "أجل، حقًّا. هذا هو ما سمعت، فابنكم السيد طالب الطب قد سمح لنفسه، بغير علمٍ منه، بالتدخل في حقوقي، فقد سمعت أنه استغل وجود الآنسة لديكم ليحصل منها على وعودٍ ما..."

"ماذا؟" هكذا صاح القبطان متكئًا بقوةٍ على ذراعَي المقعد ليقفز مضيفًا "فلننهِ ذلك حالاً، سوف أنجز ذلك بنفسي.." وبخطوتين أصبح عند الباب ليفتحه بعنفٍ، ونادى عبر الممر بصوتٍ غلب عليه أقصى الغضب: "ميتا! مورتن! تعاليا ، فليأت كلاكما!"

فقال السيد جريونليش، وهو يبتسم برقة: "إن ما يؤسفني في الواقع هو أن ما خططته من أجل ابنك يتعارض مع تنفيذ حقوقي المسبقة ، سيدي القائد.."

فابتسم السيد جريونليش ابتسامة رقيقة، وقال: "إنه لمن دواعي أسفي الشديد أن يتعارض تنفيذ حقوقي، وهي الأقدم، مع خطتك لابنك، سيدي القائد".

فالتفت ديتريش شفارتسكوبف، محدقًا في وجهه بعينيه الزرقاوين الحادتين اللتين أحاطتهما تجاعيد صغيرة، وهو يجتهد بلا جدوى في فهم

كلامه.

"أيها السيدا" قالها بصوتٍ بدت نبرته كمن احترق حلقه بجرعة من شراب الـ"جروج".. ثم أضاف: "إنني، أيها السيد، رجلٌ بسيط لا أفهم هذا الكلام المنمق البليغ.. لكن لو أنك ربما تقصد أن.. كلاًّ! فلتفهم إذن أنك ضللت الطريق، يا سيدي، وأنك لا تعي ما أؤمن به من مبادئ! فأنا أعرف ابني جيدًا، كما أعرف، مَن هي الآنسة بودنبروك، فأنا، يا سيدي، رجلٌ يحترم نفسه كثيرًا، كما يعتز بذاته كثيرًا لكي يخطط لمستقبل ابنه. والآن فلتتحدث، أجبني عما يكون هذا، الذي سمعت، تفضل؟"

كانت السيدة شفارتسكوبف وولدها قد وقفا عند الباب، وقد أخذت المرأة تعدل من مئزرها غير مدركة لما يدور، أما مورتن فقد بدت عليه أمارات المذنب العنيد.. لم ينهض السيد جريونليش لدى دخولهما، فقد ظل جامدًا معتدل القامة متحليًا بالهدوء بسترته المحكمة، جالسًا على حافة الأريكة.

فتوجه القبطان بالحديث إلى مورتن: "هل سلكت مسلك الشاب الأحمق؟"

فوضع الفتى إبهامه بين أزرار سترته وتكدرت عيناه، بل إن أوداجه انتفخت بفعل العناد، وقال: "أجل، يا أبي، إنني والآنسة بودنبروك.."

"هكذا، إذن، فإنني أقول لك، إنك أحمق تافه وغبي كبير! فلترحل غدًا إلى جوتينجن، هل سمعتني جيدًا؟ في صباح الغد! ولنضع نهايةً لهذا العبث الصبياني، هذا اللهو الصبياني!"

فقالت السيدة شفارتسكوبف وقد عقدت يديها: "ديتريش، يا إلهي، لا

يمكن أن تُقرر الأمر هكذا! فمَن يدري.." ثم التزمت الصمت، وقد بدت الآمال الجميلة تنهار في عينيها.

والتفت القبطان إلى السيد جريونليش ليقول بنبرة جافة: "أيريد سيدي الحديث إلى الآنسة؟"

فقالت السيدة شفارتسكوبف متأثرةً مشفقة: "إنها بغرفتها! نائمة!"

"أنا آسفٌ لذلك"، قال السيد جريونليش وهو يلتقط أنفاسه، لينهض، وهو يردف: "على أية حال، فأنا أكرر أن وقتي محدود، وأن عربتي تنتظرني. وأنا أسمح لنفسي (هكذا قال، وهو يرسم أمام السيد شفارتسكوبف حركةً بقبعته من أسفل إلى أعلى) أن أعرب لك عن رضائي التام وكامل تقديري لمسلكك وموقفك الشهم، لك أزكى تحياتي، وقد تشرفت بلقائك. وداعًا".

إلا أن ديتريش شفارتسكوبف لم يمد يده إليه: لكنه انحنى بجذعه الضخم قليلاً إلى الأمام بسرعة خاطفة، كمن يقول هكذا تكون التحية.

أما السيد جريونليش فمرق بين مورتن وأمه بخطى واثقة ليخرج إلى الباب.

الفصل الثاني عشَر

وجاء اليوم الموعود ليظهر توماس بعربة آل كروجر. وصل الفتى في العاشرة من ضحى اليوم، وتناول قليلاً من الطعام مع الأسرة بغرفة المعيشة. وكان شمل الجمع قد التأم كعهده في أول يوم، فقط كان الصيف قد انقضى، وأصبح الجو باردًا وعاصفًا للغاية، ولم يعد الجلوس في الشرفة محتملاً، كما كان مورتن قد غاب.. كان في جوتينجن. ولم يودع أنطونيا الوداع المنشود، فيما كان القبطان قد وقف هناك ليقول: "هذه هي النهاية إذن، ها".

في الحادية عشرة صعد الأخوان إلى العربة التي أوثق في مؤخرتها رباط حقيبة أنطونيا الكبيرة. أما هي فبدت ممتقعة الوجه، ترتجف في سترتها الخريفية الناعمة من البرد والتعب وحمى السفر، وكذلك الشجن الذي يتصاعد من حين لآخر داخلها ليملأ صدرها بشعور ألم طاغٍ.

قبَّلت ميتا الصغيرة، وصافحت ربة البيت، وأومأت إلى السيد شفارتسكوبف، عندما قال لها: "لا تنسينا، يا آنسة. لقد كانت نوايانا طيبة، أليس كذلك".

"إذن، أتمنى رحلة طيبة، وتحياتنا الحارة إلى السيد الوالد والسيدة

القنصلة". ثم أُغلق باب العربة بالرتاج، ومضى بها الجوادان السمراوان البدينان. وبينما كان أفراد أسرة شفارتسكوبف يلوحون بمناديلهم، وضعت أنطونيا رأسها في ركن العربة ناظرةً من النافذة إلى الخارج. كانت السماء ملبدةً بالغيم الأبيض، بينما كانت بحيرة ترافه تقذف بأمواجها الصغيرة لتسابق الريح. ومن حينٍ لآخر، كانت قطرات المطر ترتطم بزجاج النافذة.

عند مدخل "الصف الأمامي"، جلس أناسٌ أمام أبواب بيوتهم يرتقون شباك الصيد، بينما جاء أطفال حفاة يسعون لتأمل العربة. هؤلاء هم من سيبقون هنا..

فلما فارقت العربة آخر البيوت التفتت أنطونيا لتلقي مرةً أخرى نظرةً على الفنار. ثم أراحت ظهرها وأغمضت عينيها الكليلتين المتوترتين. فلم تكد قد نامت ليلاً من القلق لتنهض في الصباح الباكر لتجهز متاعها، ولم ترغب في تناول الفطور. وقد شعرت بمذاقٍ ممل في حلقها الجاف. وشعرت بالضعف حتى إنها لم تحاول منع دموعها التي كانت تغرورق بها عيناها ببطء وحرارة كل لحظة.

وما إن أغمضت جفنيها حتى بدا أنها في الشرفة بترافمنده. فرأت مورتن شفارتسكوبف بشحمه ولحمه أمامها وهو يتحدث إليها، وينحني بطريقته لينظر إليها من حينٍ لآخر، متفحصًا لها بحسن نية وهو يضحك كاشفًا عن أسنانه الجميلة التي لم يعرف ذلك عنها، فيما يبدو.. فشعرت أثناء ذلك بالطمأنينة والانشراح.

استدعت إلى ذاكرتها كل شيء، كل ما سمعته وخبرته منه في الأحاديث الطوال، ومما بعث فيها شعورًا بالرضا المبهج أنها تعهدت لنفسها بأن تحفظ

لكل هذا جلاله وحرمته في داخلها.

إن ملك بروسيا قد اقترف إثمًا عظيمًا، وصحف المدينة ليست سوى أوراق بائسة، كذلك أيضًا، أنه تم تجديد القوانين الاتحادية للجامعات من أربع سنوات؛ سوف يبقى ذلك حقائق جليلة تواسيها، كنزًا سريًّا تستطيع تأمله حينما تشاء. وسوف تفكر في ذلك على قارعة الطريق، وهي بين أفراد أسرتها، أثناء تناول الطعام.. فمن يدري؟ فربما مضت في طريقها المكتوب عليها فتزوجت السيد جريونليش، فلن تعير ذلك أدنى اهتمام، لكن إذا خاطبها فسوف يخطر ببالها فجأةً أن تقول له إنني أعرف ما لا تعرفه.. أن كل النبلاء- من حيث المبدأ- أوغاد!

وابتسمت راضيةً.. لكن، فجأةً سمعت من بين صرير عجلات العربة، بوضوح تام حقيقي، مورتن وهو يتحدث إليها، فأصبحت تميز كل لفظ تحمله نبرة صوته الحانية، برنينها المتثاقل بعض الشيء. فسمعته بأذنها وهو يقول لها: "اليوم سيُضطر كلانا للجلوس على الأحجار، آنسة طوني"، فكان أن طغت هذه الفكرة البسيطة على مشاعرها. فانقبض صدرها من الشجن والألم، فلم تقاوم انهمار دموعها.. منزويةً في ركنها، أمسكت بمنديلها بكلتا يديها لتغطي وجهها وتبكي بمرارة.

فلم يكن من توماس إلا أن نظر في شيء من الحيرة إلى الطريق ولفافة التبغ في فمه، ثم قال في النهاية، وهو يربت على سترتها: "يا لكِ من مسكينة، أنطونيا! إنني أشعر بالأسى العميق حيالك، إنني أفهمك جيدًا، أتعرفين ذلك! ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟ ولكن عليك تجاوز ذلك. صدقيني، فلقد عرفت هذا".

فنشجت أنطونيا قائلة: "آه، إنك لا تعرف هذا أبدًا، توم!"

"لا تقولي ذلك. فعليَّ الآن على سبيل المثال أن أرحل في بداية العام المقبل إلى أمستردام. فقد أعد أبي لي وظيفة لدى "فان در كلّن وشركاه".. وسوف أفارقكم لزمن طويل، طويل".

"آه، توم، إن فراق الأهل لا يمثل شيئًا على الإطلاق!".

"أجل!"، قالها وهو يمطها بعض الشيء. ثم تنهد كأنه يريد مواصلة الحديث، إلا أنه سكت. وفيما كان ينقل اللفافة من شدق إلى آخر رفع أحد حاجبيه، والتفت برأسه إلى الناحية الأخرى، ليبادر بعد برهة: "إن مثل هذا الحال لا يستمر طويلاً، وهو ما سيحدث. ثم يطوي النسيان ذلك".

فقالت أنطونيا محبطةً: "إلا أنني لا أريد النسيان.. فهل يكون عزائي هو النسيان؟!"

الفصـل الثَّالث عشَر

ها هي العبَّارة، وها هو طريق اسرئيلدورف، وجبل أورشليم، ثم بورجفلد. ثم مرت العربة ببوابة بورجتور التي ترتفع إلى يمينها أسوار السجن، ومضت العربة بحذاء "كوبرج" ثم عبرته.. فراحت أنطونيا تتأمل ديار الجمالون، ومصابيح الزيت المعلقة عبر الشارع، وأيضًا مصحة "الروح القُدُس"، وأمامها أشجار الزيزفون شبه الجرداء.. يا إلهي لقد بقي كل شيء على ما عليه! لقد ظل كما هو دون تغيير، مُعززًا مُكرمًا، بينما كانت هي تتذكره حلمًا قديمًا جديرًا بالنسيان! تلك الدور الجمالونية الغبراء كانت هي الديار الموروثة المسكونة العتيقة التي تستقبلها لتعيش ثانيةً بين جدرانها. لم تعد تبكي، وتلفتت حولها بفضول.

كاد ألم الوداع يخبو في مواجهة هذه الطرقات بوجوه معارفها القدامى. ففي هذه اللحظة- فيما تسرع العربة خلال الشارع العريض- كان يمضي الحمال ماتيسن، فأنزل بعمق قبعته الصلبة المستديرة بوجه أجيرٍ مشاغب، كمن يقول إنني لست سوى كلبٍ ابن كلب.

ثم دخلت العربة شارع منجشتراسه، ليتوقف الجوادان السمروان البدينان يلهثان ويدقان الأرض بسانبكهما أمام دار بودنبروك. وكان توم حريصًا على مساعدة أخته في الترجل، بينما هرول أنطون ولينا ليحلا رباط الحقيبة. ولكن كان على الجميع الانتظار قبل الدخول إلى البيت، فقد كانت هناك ثلاث عربات نقل كبيرة تمر متقاطرة خلال باب البيت، وقد ارتفعت فوقها أجولةٌ مليئة بالحبوب، وُسِمت بخطٍ أسود عريض باسم شركة "يوهان بودنبروك".

كان صدى الصوت ذو الوقع الثقيل للعربات الثلاث يتردد وهي تتمايل عبر الممر الكبير لتهبط الدرج المستوي إلى الفناء. وكان جزء من الحبوب سيتم تخزينه خلف البيت، بينما ينتقل الجزء الآخر إلى مخازن "الحوت" أو "الأسد" أو "البلوط".

وجاء القنصل من المكتب، حاملاً ريشة الكتابة فوق أذنه، عندما دخل الأخوان إلى الممر، فاتحًا ذراعيه لاستقبال ابنته: "مرحبًا بك ببيتك، عزيزتي أنطونيا!".

فقبلته ناظرةً إليه بعينين لم يُشفيا من أثر البكاء، وارتسم فيهما بعض الخجل. إلا أنه لم يكن غاضبًا، ولم يذكر عن الأمر كلمة واحدة، وقال فقط: "لقد تأخرتما، لكننا ننتظركما على الفطور الثاني".

وكانت القنصلة وكريستيان وكلوتيلده وكلارا وإيدا يونجمان مجتمعين هناك على بسطة الدرج للتحية.

نامت أنطونيا ليلتها الأولى بمنجشتراسه بعمق وراحة، وفي صباح اليوم التالي، 22سبتمبر، نزلت بروحٍ منتعشة هادئة إلى غرفة الفطور. كان الوقت

ما يزال مبكرًا للغاية، فلم تكن الساعة قد بلغت السابعة بعد. فلم يوجد هناك سوى الآنسة يونجمان وقد جهزت قهوة الصباح.

"أهكذا، هكذا، أنطونيا الصغيرة، بنيتي"، قالت وهي تتلفت حولها بعينين صغيرتين يغالبهما النعاس، لتردف "في هذا الوقت المبكر؟".

أما أنطونيا فجلست إلى خزانة الأوراق الشخصية التي فُتح غطاؤها، وعقدت يديها خلف رأسها، وهي تنظر إلى بلاط الفناء الذي يلتمع بلون أسود من أثر البلل، وكذلك البستان الذابل الرطب، ثم شرعت تنبش في بطاقات الزائرين والرسائل فوق الخزانة.

على مقربة من دواة الحبر، وجدت دفتر التسجيل الضخم الشهير، بغلافه المضغوط وحافته المذهبة، وأوراقًا مختلفة. فلابد أنه قد استُعمل مساء أمس، ولم يكن غريبًا سوى أن الأب لم يضعه في الحافظة الجلدية ويغلق عليه الدرج الخاص به كعادته.

أخذته وقلبت صفحاته، وانساقت إلى مطالعته، لتغرق في قراءته. وكان أغلب ما قرأته أشياء بسيطة ومألوفة، إلا أن كل من كتب فيه كان قد استعار ممن سبقه طريقة التدوين دون مبالغة، وهو أسلوبٌ تأريخي موجز عفوي غير مقصود، يليق بالتحفظ الذي يرتقي إلى احترام العائلة الأصيل لنفسها ولتراثها وتاريخها. لم يكن هذا بالأمر الجديد على طوني، فقد سُمح لها أحيانًا بمطالعة هذه الأوراق. إلا أن فحواها لم يترك لديها قط أي أثر مثلما كان هذا الصباح. فقد تأثرت بالاهتمام الوقور الذي عولجت به أقل الوقائع الخاصة بتاريخ العائلة.. فارتكزت على رسغيها لتقرأ بشغفٍ متنامٍ وإعزازٍ وجدية.

فلم يغب أي حدث من ماضيها البسيط الشخصي. فمولدها وما أُصيبت به من أمراض أثناء طفولتها، ويومها الدراسي الأول، والتحاقها بدار الآنسة فايشبروت، وتثبيت عقيدتها؛ كل شيء كان قد تم تدوينه بعناية بأسلوب التجار الخاص بالقنصل، وباحترامٍ شبه مقدس للوقائع: ألم يكن أقل الأمور شأنًا هو من عمل ومشيئة الرب الذي قرر هذا المصير الرائع للعائلة. وماذا سوف يُسجل في المستقبل هنا تحت اسمها الذي ورثته عن جدتها أنطوانيت؟ ولسوف تطالع أجيال العائلة كل ما كُتب بنفس البِر الذي تتابع هي به تاريخ من سبقوها.

تنهدت وأراحت ظهرها إلى الخلف وقلبها يخفق محتفيًا. وقد تملكتها رهبة الإحساس بنفسها، وسرى في جسدها شعورها بأهمية ذاتها، وهو ما ألفته من قبل، مدعومًا من الروح التي شعرت بتأثيرها قبل قليل. "مثل حلقة في سلسلة"، كان هذا ماكتبه أبوها.. أجل أجل لقد كانت الحلقة المقصودة هي نفسها، وقد استدعيت لأهميتها العظيمة المسؤولة، لتتعاون بهمة وعزيمة في صنع تاريخ عائلتها.

أخذت تُقلِّب حتى بلغت نهاية الدفتر الضخم، حيث سُجل نسب آل بودنبروك كاملاً على إحدى الرقائق، بيد القنصل، بتواريخ واضحة، ملخصًا لها ومضيفًا إليها أقواسًا وهوامش: منذ زواج المؤسس الأول بابنة الواعظ بريجيتا شورن، وحتى زواج القنصل يوهان بودنبروك بإليزابيت كروجر في عام 1825، ونتج عن هذه الزيجة، على حد قوله، أربعة أبناء.. تلا ذلك تاريخ الميلاد باليوم والسنة، وأسماء التعميد مرتبةً بالتوالي، وتحت بيان الابن البكر سُجل أنه التحق في عيد الفصح من عام 1842 بشركة أبيه كمتدرب.

وأمعنت أنطونيا النظر طويلاً في اسمها، وفي الفراغ الذي تحته، ثم حدث فجأةً أن ارتجفت وداهمها الحماس والتوتر فابتلعت ريقها وأخذت شفتاها تختلجان ببعضهما بسرعة للحظة- لتمسك بالريشة، ولم تغمسها في دواة الحبر، بل غرزتها غرزًا فيها لتكتب بإصبع سبابتها المقوس، وبرأس محمومة مائلة بعمق على كتفها، بخطها الجامد المائل من اليسار إلى أعلى اليمين: "تمت *خطبتها في الثاني والعشرين من سبتمبر إلى السيد بندكس جريونليش، التاجر بهامبورج*".

الفصل الرَّابع عشَر

"إنني أوافقك الرأي تمامًا، يا صديقى العزيز. إنها مسألة مهمة ويجب إنجازها. بإيجاز: "إن هدية الزواج لفتاة من عائلتنا تبلغ 70000 مارك".

فرمق السيد جريونليش صهره المقبل بنظرة رجل أعمال جانبية فاحصة: "في الواقع.." استغرق قوله هذه العبارة نفس الوقت الذي كان يخلل فيه بأصابعه الجانب الأيسر للحيته الصفراء كالذهب مترويًا، فلما انتهى مِن "في الواقع"، رفع يده عن نهاية لحيته.

ثم استطرد: "أنت تعلم، يا والدي العزيز، التقدير العميق الذي أكنه نحو التقاليد والمبادئ الأصيلة! إلا أنه لا ينبغي أن نبالغ في هذا التقدير الحسن في مسألتنا هذه؟.. فالمشاريع تتوسع.. والعائلة تزدهر.. باختصار فإن الظروف تتغير وتتحسن".

فقال القنصل: "صديقي العزيز، إنك تنظر إليَّ كرجل أعمال سخي! يا إلهي.. إنك لم تمنحني فرصة لأتم كلامي، لأنك كنت تعتقد بالفعل أنني لن أمانع- اعتبارًا لهذه الظروف- في أنني سأضيف إلى الـ70000 عن طيب

خاطر 10000 أخرى".

"إنها 80000 إذن.." قال السيد جريونليش وهو يطبق فمه كأنه يقول: "هي ليست بالكثير، لكنها تكفي".

وكان أن تم الاتفاق على أفضل وجه، ثم داعب القنصل سلسلة المفاتيح الكبيرة في جيب سرواله، لينهض راضيًا . فها هو أخيرًا وصل بالـ80000 إلى أعلى قيمة لهدية زواج تقليدية.

وعند ذلك حياه السيد جريونليش، ثم سافر إلى هامبورج. لم تشعر أنطونيا بتغييرٍ كبير في وضعها الاجتماعي الجديد. فلم يعارضها أحدٌ في أن ترقص لدى عائلة مولندورف أو كيستنماكر أو في بيتها، أو أن تمارس التزلج في بورجفلد أو مروج بحيرة ترافه، مرحبةً بمجاملات الشبان.. وكانت فرصة قد أُتيحت لها في منتصف أكتوبر لتعايش أجواء حفل خطوبة أقيم تكريمًا للابن البكر ويولشن هاجنشتروم، فقالت: "توم! إنه لا يروقني أن أشارك في الحفل" لكنها مضت إلى هناك، وقضت وقتها على أفضل وجه.

وفيما عدا ذلك، فمن خلال اللمسة التي أضافتها إلى تاريخ العائلة اكتسبت الحق في أن تقوم وحدها، أو بصحبة القنصلة، بجولات شراء بكل محلات المدينة لاختيار جهازها، جهازها الراقي. ولأيام طويلة، أقامت خياطتان بجوار النافذة بغرفة الفطور لتطرزا الأسماء، وتلتهما كميات من الخبز الريفي والجبن الأخضر..

"موريه انتيك، ماما.. فلن أتزوج بدون موريه انتيك!"

"هل وصلت البياضات من محل لنتفيور، يا أمي؟"

"كلاًّ، يا بنيتي، ولكن وصلت اثنتا عشرة قطعة من مناديل طاقم

الشاي".

"جميل. لكنه وعدنا بإرسالها عصر اليوم، يا إلهي، لا بد من تطريز حواف الملاءات!"

"إيدا، الآنسة بيتريش تسأل عن الدانتيل اللازم للوسائد الصغيرة".

"أنطونيا، يا بنيتي، إنها بصوان البياضات إلى يمين الممر".

"ليناا".

"أليس بوسعِك أن تقومي بذلك بنفسك، يا حبيبتي".

هكذا انقضى أكتوبر، ونوفمبر. ثم جاء السيد جريونليش قبيل أعياد الميلاد ليقضي ليلة العيد المقدس بين أفراد أسرة بودنبروك، ولم يرفض دعوة الحفل لدى الزوجين كروجر العجوزين. وكان مسلكه نحو عروسه مفعمًا بالحنو، وهو ما كانت تستحقه. لم تكن هناك حفلات لا حاجة لها! أو عوائق اجتماعية! ولم تظهر مشاعر حبٍ فظة، كانت فقط قبلة عابرة على الجبين، في حضور الوالدين لإعلان الخطوبة.

كانت أنطونيا تدهش أحيانًا من أن سعادته الآن لا تكاد تتفق مع اليأس الذي أبداه أثناء رفضها له. فقد كان فقط ينظر إليها بروح مرحة كأنه قد امتلكها.. ومن حينٍ لآخر، عندما كان يختلي بها مصادفةً، كان يبدي روح دعابة ومزاح، فكان يحاول جذبها لتجلس على حِجره ليدنو بلحيته من وجهها، ويسألها بصوت يرجف طربًا: "لقد أمسكت بك؟ ألم تصبحي مِلكي؟" لترد هي عليه: "يا إلهي، إنك تنسى نفسك" ثم تتخلص منه ببراعة.

وعاد السيد جريونليش بعد عيد الميلاد بقليل إلى هامبورج، فقد كانت أعماله الرائجة تتطلب حضوره، ووافقته عائلة بودنبروك صمتًا بأن أنطونيا

كانت قد تعرفت عليه بما فيه الكفاية قبل الخطوبة. وقد تم الاتفاق على مسألة السَّكن من خلال تبادل الرسائل. أما طوني، التي كانت ستسعد سعادةً بلا حد بالحياة في مدينة كبيرة، فقد عبرت عن رغبتها في الإقامة بوسط مدينة هامبورج، حيث يوجد أيضًا مكتب السيد جريونليش، وإن كان يقع بشارع شبيتالشتراسه. إلا أن العريس قد حصل لنفسه بإصرار رجولي على حق شراء ڤيللا خارج المدينة بضاحية ايمزبيتل.. في موقع هادئ شاعري لتكون بمثابة عش صغير مثالي لزوجين في مقتبل العمر. وانقضى شهر ديسمبر، ومع بداية العام 1846 أقيم حفل الزفاف. فكانت ليلة ممتعة فاخرة حضرها نصف أهالي المدينة. وقد راقصت صديقات طوني، ومن بينهن ارمجارد فون شلينج التي حضرت إلى المدينة بعربة عالية كالبرج، أصدقاء توماس وكريستيان، ومن بينهم كذلك أندرياس جيسكه، طالب الحقوق وابن قائد المطافئ، وأيضًا شتفان وإدوارد كيستنماكر من شركة كيستنماكر وابنه، بقاعة الطعام، وفى الممر الذي رُش من أجل هذا الغرض ببودرة التلك.. وكان القنصل بيتر دولمان صاحب الحظ الأوفر في الصخب، فقد قام بتحطيم كل قدور الفخار التي طالتها يده فوق الأرض الحجرية للممرات الرحبة.

وقد واتت الفرصة السيدة شتوت، من شارع جلوكنجيسرشتراسه، لتختلط ثانيةً بالطبقة الراقية بعد مساعدتها للآنسة يونجمان والخياطة في تزيين أنطونيا لليلة الزفاف. فهي، والرب قادر على عقابها، لم تر قط عروسًا أجمل. وبرغم بدانتها إلا أنها ركعت على ركبتيها لتثبت فروع الريحان الصغيرة على الـ"مورينه انتيك" الأبيض وهى تتطلع بإعجاب.. وكان ذلك

بغرفة الفطور، فيما كان السيد جريونليش ينتظر أمام الباب مرتديًا الفراك الطويل وسترة من الحرير. وكانت أمارات جدية واستقامة ترتسم على وجهه المتورد، ولوحظت بعض البودرة على الشامة بجانب أنفه، وقد صفف بعناية سالفيه المصفرين كالذهب.

وهناك في صالة الأعمدة، حيث سيتم عقد الزواج، اجتمعت الأسرة، ممثلةً مجتمع النخبة! فهنا جلس الزوجان كروجر العجوزان، وقد بدا على كليهما بعضُ الكدر، وكانا كعهدهما دائمًا ظاهرةً جليلة. وكانت القنصلة كروجر تجلس هناك مع ولديها يورجن وياكوب، وقد جاء الأخير، كالأقارب من عائلة دوشامب، من هامبورج. وكان هناك جوتهولد بودنبروك وزوجته، سليلة آل شتيوفنج، جالسين بجوار فريديكه وهينريته وبفيفي، اللائي فات ثلاثتهن قطار الزواج.. وهناك كان والد كلوتيلده السيد برنهاردت، ممثلاً للفرع الآخر للعائلة الذي جاء من "اونجناده"، وقد أخذ يتأمل بعينين متسعتين منزل أقاربه الفخم بلا مثيل.

أما أقارب العائلة في فرانكفورت، فاكتفوا بإرسال الهدايا، تفاديًا لتجشم مشقة السفر.. وحل محلهم بعض مَن لا ينتمون للعائلة كالدكتور جرابوف، طبيب العائلة، والآنسة سيسيمي فايشبروت، الأم الروحية لطوني، فظهرت بشرائط خضراء جديدة للغاية تدلت من قبعتها على خصلات جانبي شعرها، مرتديةً ثوبًا أسود اللون؛ فلما هلت أنطونيا بجوار السيد جريونليش، شبت هي على أطراف أصابعها لتطبع على جبينها قبلة كان لها وقعٌ مسموع. وقد أحست العائلة بالرضا عن العروس. فقد بدت أنطونيا حسناء متزنة مرحة، برغم بعض الشحوب الناتج عن الفضول وتوتر السفر.

كانت الصالة مزدانة بالزهور، وقد أقيم هيكلٌ على الناحية اليمنى. وتلا كولنج، قس كنيسة سانت مارين، صيغة عقد القران مشددًا على توخي الاعتدال بكلمات مؤثرة. وجرى كل شيء طبقًا للنظام والعُرف. ونطقت بـ"نعم" بسيطة خيرة.. أما السيد جريونليش فغمغم "همم!" لينقي حلقه بعد ما أكل كثيراً وجيدًا على نحو غير مألوف، وبينما كان الضيوف يتوسطهم القس يستأنفون تناول طعامهم، قام القنصل وقرينته باصطحاب العروسين الشابين اللذين كانا قد أنهيا استعدادهما للسفر، إلى الخارج، حيث هب هواء الجليد الأبيض الضبابي. وكانت عربة السفر تقف أمام باب المنزل محملةً بحقائب سفرٍ كبيرةً وصغيرة.

وبعد أن أفصحت أنطونيا عدة مراتٍ عن يقينها بزيارة أسرتها في القريب العاجل، وأنها لن تنتظر طويلاً زيارة والديها لها في هامبورج، صعدت إلى العربة بروحٍ معنوية مرتفعة، بعد أن لفتها القنصلة بعناية بغطاء الفراء الدافئ. وكذلك اتخذ زوجها مكانه. أما القنصل، فقال: "وأنت.. جريونليش، إن الدانتيل الجديدة موجودة أعلى حقيبة اليد الصغيرة. فأخرجها قبيل الوصول إلى هامبورج ودسها تحت المعطف، حتى نتجنب قدر الإمكان دفع ضريبة الكماليات، وداعًا! ومرةً أخرى، وداعًا عزيزتي أنطونيا! كان الرب معكِ!"

وسألت القنصلة: "أستعثران في ارنسبورج على فندق جيد؟" فرد السيد جريونليش: "لقد تم الحجز يا والدتي العزيزة، تم حجز كل شيء!"

وبينما كان السائس يهم بإغلاق باب العربة، إذا أنطونيا تأتى بحركة مفاجئة. وبرغم المواقف التي تسببت فيها فإنها طرحت مرةً أخرى الغطاء

جانبًا وعبرت بلا اهتمام فوق ركبتَي السيد جريونليش الذي أخذ يزوم، لتحتضن أباها بحرارة: "وداعًا يا أبي.. وداعًا أبي الطيب!"، ثم همست بصوت خافت للغاية: "هل أنت راضٍ عنى؟".

فضمها القنصل للحظةٍ لائذًا بالصمت، ثم أطلقها ليصافحها بحرارةٍ بكلتا يديه.

هكذا صار كل شيء مهيئًا، فأُغلقَ الباب وضرب السائس بسوطه في الهواء، فانطلقت الجياد ليصلصل زجاج النافذة. بينما ظلت القنصلة تلوح بمنديلها الباتيستا حتى أخذت العربة المجلجلة تهبط الشارع لتغيب في ضباب الجليد.

ووقف القنصل شارد الذهن بجوار قرينته، التي كانت تحكم من لف غطاء كتفيها الفراء برشاقة.

"هكذا رحلت، بيتسي".

"نعم، جان، لتكون أول من يفارقنا، أتظن أنها ستكون سعيدةً معه؟"

"آه، بيتسي، إنها لراضية عن نفسها، وهذه أكثر ألوان السعادة رسوخًا التي يمكن الحصول عليها في الدنيا".

ثم عادا إلى ضيوفهما.

الفصل الخامس عشر

مضى توماس بودنبروك هابطًا شارع منجشتراسه حتى "فيونفهاوسن". متفاديًا السير في الشارع العريض حتى لا يضطر لحمل قبعته بيده على الدوام لتحية معارفه الكثيرين. واضعًا كلتا يديه في الجيبين الواسعين لمعطفه ذي الياقة وذي اللون الأخضر الداكن، مضى منطويًا على نفسه فوق الجليد الصلب اللامع كالبللور، الذي كان يصدر صريرًا تحت حذائه الشتوي الطويل.

كان يشق طريقه الذي لا يعرفه أحدٌ.. وكانت السماء تضيء زاهيةً، زرقاء باردة، أما الهواء فكان منعشًا لاذعًا عبقًا، كان جوًا عاصفًا قاسيًا ساطعًا نقيًا، بلغت حرارة صقيعه خمس درجات، كان يومًا من أيام فبراير بلا مثيل.

سار توماس بشارع فيونفهاوسن، ليعبر "بيكرجروبه" ليصل إلى تقاطع شارعٍ ضيق في "فيشر جروبه". وقطع ببعض الخطى هذا الشارع الذي يهبط متوازيًا مع منجشتراسه، ليصل إلى بحيرة ترافه عند مبنى صغير، محل زهور متواضع للغاية بباب ضيق ونافذة عرض صغيرة تافهة الشأن، صُف فيها على رف زجاجي أخضر اللون بعضُ أصص نباتات بصلٍ بجوار بعضها.

فلما دخل دقت أجراسٌ من الصفيح، كأنها كلبٌ حارس. ووقف بالداخل إلى طاولة، حيث كان حديث يدور بين البائعة الشابة وسيدة قصيرة القامة بدينة، متقدمة في العمر، ترتدى مئزرًا تركيًا. راحت تنتقي من بين بعض الأصص، مختبرة لها، وتشمها وهي تثرثر مساومةً مما اضطرها إلى مسح فمها بمنديل تستخدمه في حالة الرشح.

حياها توماس بودنبروك وانتحى جانبًا.. كانت قريبةً غير موسرة لآل لانجهالس، امرأة عانس تحمل اسم إحدى العائلات الراقية، دون أن تنتسب إليها؛ فلم تكن تُدعى إلى الحفلات وولائم العشاء الكبيرة، وإنما إلى جلسات ضيقة لتناول القهوة. وفيما عدا البعض، كان الجميع ينادونها بالعمة لوتشن. وحملت تحت إبطها آنية زهورٍ لُفت في ورق حريري لتتجه نحو الباب. وبعد أن حياها توماس ثانيةً قال لبائعة المحل بصوتٍ مرتفع: "اعطني.. بعض الزهور، من فضلك.. نعم، أيًا كانت. من النوع الفرنسي".

بعد أن أغلقت العمة لوتشن الباب، ومضت إلى حال سبيلها، قال هامسًا: "دعكِ من هذا، أنَّا، نهارك سعيد، أيتها الصغيرة أنَّا، فقد جئت اليوم بقلبٍ مثقل بالهموم".

كانت أنَّا ترتدى مئزرًا أبيض فوق ثوبها البسيط الأسود. كانت تتمتع بحسنٍ فائق. كانت رقيقةً كغزال، ولها وجهٌ يقترب من ملامح أهل الملايو: عظام وجنتيها بارزةٌ بعض الشيء، وعيونٌ سوداء ضيقة تتألق بوميض ناعم، وبشرة صفراء قاتمة، بلا مثيل في جميع أرجاء البلاد. أما يداها فكان لهما اللون نفسه، وكانتا بالنسبة لبائعةٍ بمثابة جمال غير مألوف.

مضت إلى طاولة البيع بالطرف الأيمن للمحل الصغير، حيث لا يستطيع

أحدٌ رؤيتها من خلال نافذة العرض. فتبعها توماس إلى الناحية نفسها من الطاولة، ليميل عليها ويقبلها على شفتيها وعينيها.

قالت: "لقد تجمدت تمامًا من البرد، أيها المسكين!".

فقال توماس: "خمس درجات، لكني لم ألحظ هذا، فقد كنت أمضي مهمومًا إلى هنا".

ثم جلس إلى الطاولة ممسكًا بيدها بين يديه، ليردف: "أجل، اسمعي أنَّا؟.. يجب علينا اليوم أن نتحلى بالعقل، فقد بلغ الأمر منتهاه".

"آه، يا إلهي" هكذا قالت شاكيةً، ورفعت مئزرها وقد تملكها الرهبة والكدر.

"كان لا بد أن يقع هذا ذات يومٍ، أنَّا.. إذن، لا تبكي! فعلينا التحلي بالعقل، أليس كذلك؟ فما عسانا فاعلين حيال ذلك. لقد قُضي الأمر".

فتساءلت وهي تنشج: "متى؟"

"بعد غد".

"يا إلهي.. لماذا بعد غد؟ بعد أسبوعٍ فقط.. عفوًا خمسة أيام!"

"إن هذا مستحيل، أيتها الصغيرة أنَّا. لقد تم إقرار وتنظيم كل شيء.. وهم ينتظرونني في أمستردام.. وليس بوسعي التأخر ليوم واحد حتى لو أردتُ ذلك!".

"كما أن المسافة بيننا بعيدة على نحوٍ مريع!".

"أمستردام، كلاَّ، ليست بعيدة! وبوسعنا أيضًا أن يفكر كلٌّ منا في الآخر، أليس كذلك؟ وسوف أكتب لكِ! انتبهي، سوف أكتب لك حالما أصل إلى هناك".

فقالت: "أما تزال تذكر.. ما حدث قبل عامٍ ونصف؟ أثناء عيد الرماة؟"

"يا إلهي، لقد مر عامٌ ونصف!.. كنت أعتقد أنكِ إيطالية، فاشتريت قرنفلة ووضعتها في عروة السترة.. وما تزال لديَّ، وسآخذها معي إلى أمستردام.. لقد كان الجو آنذاك في هذا المرج متربًا حرًا لا يطاق!".

"نعم، وقد جئتني بكوب من عصير الليمون من المحل المجاور.. إنني أذكر هذا كأنه وقع اليوم! كانت رائحة الناس والخبز المصنوع بالسمن تعبق بالمكان".

"وكنتَ تريد أن تركب معي الحلزون.. إلا أنني لم أتمكن من ذلك، فقد كان عليَّ أن أعمل، وإلا لوبختني السيدة".

"كلاَّ، أنَّا، لم يمكنك ذلك، وهو ما تفهمته تمامًا".

فقالت هامسة: "وكان هذا وما يزال طلبك الوحيد الذي رفضته".

وقبلها من جديد في فمها وعينيها.

"وداعًا، حبيبتي، أيتها الصغيرة الطيبة أنَّا!.. حقًّا. من الآن فصاعدًا، سنقول وداعًا!".

"آه، لكنك ستأتي غدًا مرةً أخرى".

"أجل، يقينًا، في هذا الوقت تقريبًا. وباكر بعد غدٍ كذلك، إن أمكنني التسلل.. ولكني أريد الآن أن أقول لكِ شيئًا واحدًا، أنَّا.. إنني سأرحل إلى مكانٍ بعيد إلى حدٍّ ما. نعم، فأمستردام بعيدة على كل حال، وأنتِ باقية هنا. فإياك وارتكاب حماقة، أتسمعين، أنَّا؟.. فلم يكن سلوكك إلى الآن معوجًا، هذا ما أردت قوله لكِ".

"أما أنت؟.. أما أنت؟".

"وحده الرب يعلم، يا أنّا، بتطور الأحوال! فلن نبقى شبابًا للأبد.. وأنتِ فتاةٌ ذكية، فلم تذكري شيئًا عن الزواج وما شابه ذلك".

"كلاَّ، لا سمح الرب أن أطلب منك ذلك".

"إنني مضطر، أتدرين، طالما كنتُ على قيد الحياة، إلى تسلم أعمال أبي، ولسوف أتزوج.. أجل، أنا أصارحك، عند الوداع.. وأنتِ كذلك.. هذا هو ما سوف يحدث.. فأتمنى لك كل السعادة، يا حبيبتي، أيتها الصغيرة الطيبة، أنَّا! لكن لا ترتكبي حماقةً، فلم يكن مسلكك حتى الآن معوجًا، أتسمعينني؟..، هذا ما أردتُ قوله لكِ..!"

كان الجو بالداخل دافئًا. وقد فاح عبيرٌ رطب من التربة والزهور في المحل الصغير. بينما كانت الشمس بالخارج تأخذ في الغروب. وكان شفقٌ رقيقٌ نقيٌّ، قد بدا شاحبًا كأنه رُسم على الخزف، وأصبح يزين السماء على الناحية الأخرى من النهر. وقد أخذ الناس يهرولون أمام نافذة العرض وقد دفنوا ذقونهم في ياقات معاطفهم المرتفعة، فلم يدروا بأمر الاثنين اللذين كانا يودع كلاهما الآخر في ركن محل الزهور الصغير.

الجـــزء الرَّابـــع

الفصـل الأوَّل

30 أبريل 1846

والدتي الحبيبة

لكِ مني ألف شكر على رسالتك التي أخبرتني بنبأ خطوبة ارمجارد فون شيلينج إلى السيد فون ماي بووم في ببنراده، كما أرسلت إليَّ ارمجارد دعوة (فخمة للغاية ومُذهبة الحواف) مرفقًا بها خطاب تتحدث فيه بسعادة غامرة عن عريسها الذي يبدو أنه فائق الجمال ومن أصلٍ نبيل. فيا لها من محظوظة. هكذا يتزوج الجميع: فقد تلقيت من ميونيخ دعوةً من إيڤا افرس تخبرني بزواجها من مدير مصنع للبيرة. إلا أنني لديَّ سؤالٌ، والدتي العزيزة، وهو عن سر عدم إبلاغي عن زيارة القنصلة والقنصل بودنبروك لنا حتى الآن؛ فهل أنتما بحاجةٍ إلى دعوة رسمية من جريونليش، وهو ما لا أراه ضروريًّا، فهو- حسبما أظن- لا يفكر في هذا على الإطلاق، فإذا ذكَّرته، قال: نعم، نعم، يا بنيتي، فلدى والدك مشاغل أخرى.

أم أنكما تظنان أنكما تسببان لي إزعاجًا، لا بالطبع! أم أنكما تظنان أن زيارتكما سوف تبعث فيَّ الحنين للوطن. فليرحمني الرب، فأنا امرأةٌ

رشيدة ناضجة عركتها الحياة.

وكنتُ قبل قليلٍ قد تناولت القهوة لدى السيدة كيسلاو، التي تسكن على مقربة مني. إنها أسرةٌ لطيفة، وكذلك الجيران على يسارنا، عائلة جوسمان، هي كذلك حلوة المعشر، رغم بعد منزلينا.

كما صار لنا صديقان طيبان يسكنان كذلك خارج المدينة: الدكتور كلاسن (الذي لابد أن أحدثك عنه فيما بعد) والمصرفي كيسلماير، صديق جريونليش الحميم، ولن يكون بوسعك تصور مدى غرابة أطوار هذا الرجل العجوز؛ وهو ذو لحيةٍ كاملة مشذبة، أما شعر رأسه فخفيف وخطه الشيب، يبدو مثل الزغب، ويتطاير مع كل نسمة هواء.

ولما كان يحرك رأسه مثل الطائر، وكان ثرثارًا للغاية، فقد أصبحت أدعوه دائمًا بالغُراب، إلا أن جريونليش كان يمنعني من هذا قائلاً إن الغُراب يسرق، أما السيد كسّلماير فرجلٌ شريف. وكان إذا مشى انحنى، وأخذ يطوِّح بذراعيه، أما شعره الخفيف فينحدر إلى منتصف مؤخرة رأسه، ليبدأ من هناك قفا أحمر ومجعد للغاية. إلا أن له روحًا مرحة للغاية! فأحيانًا يربت على وجنتي قائلاً: أيتها المرأة الطيبة، عسى أن يدرك جريونليش قَدر ما منَّ الرب به عليه إذ وُفِّق للاقتران بك!

ثم يخرج نظارةً (ولديه ثلاثًا منها عقدها بحبلٍ طويل على صدريته البيضاء) ليضعها على أنفه الذي ينكمش لذلك، ناظرًا نحوي بفمٍ فاغر، مستمتعًا إلى حدٍّ يثير ضحكي الصاخب في وجهه، إلا أنه لم يغضب لذلك قط.

أما جريونليش فهو منشغلٌ غالبًا؛ فهو يمضي إلى المدينة صباحًا بعربتنا

الصغيرة الصفراء، ولا يعود في الغالب إلى البيت إلا في وقتٍ متأخر، وأحيانًا يجالسني لمطالعة الصحيفة.

فإذا ما خرجنا للقاء أصدقائنا، كيسلماير أو القنصل جاودستيكر، على سبيل المثال، في الستردام، أو السيناتور بوك بشارع راتهاوس، كان علينا استئجار عربة حنطور.

ولطالما طلبت من جريونليش اقتناء عربة لحاجتنا الملحة لها هنا خارج المدينة، فكان يراوغني، إلا أن الأمر الغريب هو أنه لا يطيق اصطحابي إلى مثل هذه اللقاءات. وفيما يبدو لي فهو لا يحبذ تواصلي مع أهل المدينة، فهل يثير هذا غيرته؟

أما ڤيلتنا التي وصفت لك تفاصيلها، أمي الحبيبة، فهي رائعةٌ حقًّا للغاية، وقد ازدادت بهاءً بالأثاث الذي اشتريناه مؤخرًا.

ولن يلقى الصالون بالطابق الأرضي المرتفع أدنى اعتراض منك. فهو مبطنٌ تمامًا بالحرير، بني اللون. أما أثاث غرفة الطعام المجاورة له، فهو رائع للغاية، وقد كلفنا المقعد الواحد 25 ماركًا. وأنا أجلس الآن في غرفة القراءة التي نستخدمها كغرفة معيشة، هذا بالإضافة إلى غرفةٍ مخصصة للتدخين ولعب الورق.

أما البهو الواقع على الجانب الآخر من الممر، ويحتل نصف مساحة الطابق الأرضي، فقد أضيفت إليه الآن ستائر صفراء، فبدا فخمًا.

أما غرف النوم والحمَّام والملابس والخدم فتقع أعلى ذلك.

كما خصصنا سائسًا صغيرًا للعربة الصفراء. وأنا قانعةٌ إلى حدٍ كبير بكلتا الخادمتين. ولا أدري مدى تمتعهما بالأمانة، إلا أنني أشكر الرب على

أنني في غنًى عن مراقبة ثلاثتهم. وباختصار، فكل شيء صار لائقًا بمكانتنا.

إلا أن هناك الأمر الأهم، والدتي الحبيبة، وهو ما ادخرته للختام، أنه منذ قليل، داهمني شعورٌ غريب إلى حدٍّ ما، أتدرين، إنني لا أشعر أني بكامل عافيتي، لكني لا أحس أيضًا بنقيض هذا.

وهو ما أبلغته للدكتور كلاسن، حينما سنحت الفرصة لذلك. وهو رجلٌ قصير للغاية، ذو رأسٍ يغطيها بقبعة كبيرة مقوسة.

وهو دائمًا ما يضغط بعصاه الإسبانية، ذات المقبض المصنوع من العظم، على لحيته الطويلة التي استحالت إلى اللون الأخضر الفاتح تقريبًا، بعد أن ظل لسنواتٍ طويلة يصبغها باللون الأسود. وهو ما لابد أن تريه، يا أمي.

إلا أنه لم ينبس بكلمة، بل أخذ يعبث بنظارته وهو يغمز بعينيه الصغيرتين المحمرَّتين، مشيرًا إليَّ بأنفه التي تشبه ثمرة البطاطس، وأخذ يضحك وهو يتفرسني بوقاحة، حتى إنني لم أعرف إلى أي مكان أتجه.

ثم قام بفحصي ليقول إن كل الأمور على ما يرام، وما عليَّ سوى تناول المياه المعدنية، لأنني قد أعاني من بعض فقر الدم. آهٍ يا أماه، فلتتوخي الحرص التام لدى إخبارك والدي بهذا، حتى يدونه بسجل العائلة، ولسوف أطلعك بما يجد في الأمر في أقرب فرصة.

تحياتي الحارة إلى والدي وكريستيان وكلارا وتيلده وإيدا يونجمان.

ابنتك المخلصة في طاعتها

أنطوني

2 أغسطس 1846

عزيزي توماس

تلقيت بارتياح أخبار لقائك بكريستيان في أمستردام، فعسى أن تكون قد قضيت هناك أيامًا طيبة. إلا أنه لم تصلني أخبارٌ بعد عن مواصلة أخيك السفر إلى إنجلترا عبر أوستند، وأنا أطلب من الرب أن يكون قد وُفِق في هذا. إلا أنني أود ألا يكون قد فاته تعلم شيء ذي قيمة من السيد ريتشاردسون، بعد قراره طرق باب الوظيفة العلمية. كما آمل أن يحالفه التوفيق والبركة في عمله!

إن السيد ريتشاردسون (بشارع ثريدن) هو- كما تعلم- أحد عملاء متجرنا المقربين. ولمن دواعي سروري أن يعمل ولداي في مؤسسات تربطني بها أوثق علاقات الصداقة.

وعساك تشعر الآن ببركة ذلك: فأنا أشعر بارتياح تام، بعدما قام السيد ڤان دركيللن برفع أجرك خلال رُبع السنة هذا، وأنه يمهد لك كي تكسب أرباحًا إضافية فيما بعد، كما أنني مؤمنٌ بأن هذا كان نتاج ما أبديته من إتقانٍ للعمل وما سوف تبديه لاحقًا.

وبرغم كل هذا، فإن ما يؤرقني هو عدم تمتعك بالعافية التامة. فما كتبته لي عن حدة عصبيتك قد ذكرني بأيام شبابي، عندما كنت أعمل في انتفربن، واضطررتُ للسفر من هناك إلى إيمس للاستشفاء.

فإذا تعرضتَ لشيءٍ جاد من هذا القبيل، يا بني، فمن البديهي أن أساندك قولاً وفعلاً، برغم أنني أخشى من إنفاق مثل هذه المصروفات الإضافية في هذه الأوقات المضطربة سياسيًا.

وعلى أية حال، فقد سافرتُ أنا ووالدتك في منتصف يونيو إلى هامبورج لزيارة أختك أنطونيا. وبرغم أن زوجها لم يقم بدعوتنا إلا أنه استقبلنا

بحرارةٍ حافلة، وتفرغ لنا تمامًا أثناء يومي إقامتنا هناك، حتى إنه أهمل أعماله، فكاد لا يترك لي وقتًا لزيارة آل دوشامب في المدينة.

أما أنطونيا، فهى في شهرها الخامس، وقد أكد طبيبها على أن الأمر يمضي في مساره الطبيعي والمطمئن.

كما أود إبلاغك بأمر رسالة وصلتني من السيد ڤان دركيلن، وقد سررت لما عرفتُ من خلالها أنك على المستوى الشخصي تُعتبر ضيفًا مرحبًا به من قبل عائلته. فها أنت الآن يا بني على أعتاب مرحلة جني ثمار تربيتك التي سهر عليها والداك.

وقد تعود عليك نصيحتي بالنفع؛ فعندما كنت في مثل عمرك، وكذلك عنما كنت في برجن أو انتفربن، فقد كنت أؤدي واجبي نحو مديراتي بتفانٍ وإخلاص، وهو ما عاد عليَّ بأعظم فائدة.

وبغض النظر عن المكانة المشرفة التي حظيت بها من خلال علاقتك الوثيقة بعائلات رؤساءك في العمل، فإنك ستجد من يدافع عنك إذا ما أخطأت في عملك، ألا لا قدَّر الرب، أو فقدت رضا رؤسائك من حينٍ لآخر.

أما فيما يخص خطط أعمالك القادمة فإنها، يا بني، تشرح صدري بما تفيض به من اهتمام جاد، برغم أنني لا أوافق على بعضها.

فأنت تظن أن الاشتغال بتجارة ما ينتجه محيط موطننا من حبوبٍ وبذور وجلود وفراء وصوف وزيت وكُسب وعظام، لهي أكثر الأعمال ملاءمةً وأمانًا، ولذلك فكرت بالعمل بهذا المجال بجانب قيامك بأعمال الوساطة في عقد الصفقات.

وقد راودتني مثل هذه الأفكار عندما كانت المنافسة في هذا المجال ما

تزال ضئيلةً للغاية (بينما هي الآن في أوجها)، فخضتُ عدة تجارب بقدر ما أُتيح لي من فرص، فكانت رحلتي إلى انجلترا تهدف أيضًا إلى البحث عن تعاقدات لأعمالي في هذا البلد، فمضيت إلى آخر هذه البلاد صعودًا إلى سكوتلاندا، وعقدت هناك أواصر علاقاتٍ مفيدة، إلا أنني سرعان ما أدركت الخطر الذي يكتنف مثل صفقات التوريد هذه، وهو ما يحول تبعًا لذلك دون تنمية مثل هذه الأعمال، متعظًا بالمقولة المأثورة لسلفي المؤسس لهذه الشركة: "يا بني، فلتشبع رغبتك من العمل نهارًا، على ألا تأتي إلا بما يجعلك تنام مرتاح البال ليلاً".

وهو مبدأ سأظل محافظًا على قدسيته ما حييت، برغم الشك الذي ينتابني أحيانًا نحو هؤلاء الذين تتقدم أعمالهم على نحوٍ أفضل بكثير من أعمالنا، دون التمسك بمثل هذه المبادئ.

وأذكر منهم "شترونك وهاجنشتروم" اللذين ترتفع أسهمهما على نحو هائل، بينما تمضي أحوالنا على مهل شديد.

وكما تعلم مدى الانكماش الذي لحق بشركتنا منذ وفاة جدك، وأنا أبتهل إلى الرب أن أتركها لك على حالتها هذه على الأقل. أما الوكيل السيد ماركوس، فقد وجدت فيه مساعدًا صاحب خبرة ودراية. فإذا ما أحسن أهل والدتك الحفاظ على ما لديهم من نقود، فسوف يكون لميراثهم شأنٌ عظيم بالنسبة لنا.

وقد تراكمت عليَّ الأعمال الخاصة والعامة على نحوٍ غير مسبوق. فأنا شيخ زمالة متسلقي الجبال، كما انتُخبت نائبًا في الإدارة الأهلية باللجنة المالية، وزمالة الشؤون التجارية، وإدارة المراجعة المالية، ودار رعاية الفقراء.

والدتك وكلارا وكلوتيلده يبعثن إليك تحيةً حارة، كما يبلغك السلام العديد من السادة، السيناتور مولندورف والدكتور أوفرديك والقنصل كيستنماكر والوسيط جوش وس. ف. كوبن، ومن الموظفين السيد ماركوس، والقبطانان كلووت وكلوترمان. وليباركك الرب يا بني ولتجتهد وتصلي وتدخر.

المحب المخلص

والدك

8 أكتوبر 1846

والدَيَّ الحبيبين الموقرين

الموقع أدناه يشعر بحالةٍ من الرضا إذ يبلغكما بأن ابنتكما وزوجتي، التي أحبها من كل قلبي، أنطوني، قد وضعت بسلامٍ قبل نصف ساعة. فرزقنا الرب بابنة، وأنا لا أجد من الكلمات ما أعبر به عن سعادتي. أما حالة النفساء الغالية، وكذلك الطفلة، فعلى ما يرام. كما أبدى الدكتور كلاسن رضاه التام عن سير العملية. كما أخبرتني القابلة السيدة جروسجيورجيس أن الأمر انتهى كأن شيئًا لم يكن. إلا أن التوتر يرغمني على رفع القلم، مقدمًا تحية إجلالٍ وتقدير مفعمةً بكل الود.

ب. جريونليش

ملحوظة: لو كان المولود قد جاء ولدًا لكنتُ أطلقت عليه اسمًا جميلاً للغاية. والآن فأنا أود تسميتها "ميتا" إلا أن جريونليش يفضل "أريكا"..

طوني

الفصل الثَّاني

عندما جلس القنصل لتناول الطعام رفع الصحن الذي كان يغطي حساءه، وقال: "ما لك، بيتسي، هل أصابك مكروهٌ؟ ماذا تشعرين؟ يبدو أنك تعانين من شيءٍ ما!"

في قاعة الطعام الواسعة، بدا حجم مائدة الطعام المستديرة منكمشًا للغاية، فلم يعد يجلس إليها سوى الوالدين والآنسة يونجمان وكلارا ذات العشرة أعوام، وكلوتيلده الهزيلة المسكينة التي كانت تتناول طعامها في صمت.

نظر القنصل حوله.. فوجد كل الوجوه عابسةً مكدرةً، فيا ترى ماذا حدث؟

أما هو نفسه، فكان يعاني توترًا وقلقًا بعد سيطرة الاضطراب على البورصة، بسبب تعقد أحوال مقاطعة شلسفيج- هولشتاين.. وها هو اضطراب آخر يخيم على المكان: ففيما بعد، حين مضى أنطون لإحضار صحن اللحم، علم القنصل بما جرى في البيت: فقد تبدل حال "ترينا" الطاهية

فجأةً من خادمةٍ مخلصة ذات ميول محافظة إلى حالٍ من السخط السافر بعد أن أقامت علاقة صداقة مع صبي الجزار فتغيرت أفكارها، وهو ما أصاب القنصلة بانزعاجٍ شديد، فقد أثر هذا الإنسان، الذي لم يعرف سوى الدم، في تغيير وجهة نظرها السياسية على نحو سلبي.

فعندما لفتت القنصلة نظرها إلى سوء طهيها للحساء، إذا بها تخنق خصرها بذراعيها الحاسرتين، وتقول: "مهلاً سيدتي القنصلة، إن هذا الحال لن يستمر طويلاً، وسوف تتبدل الأوضاع لأجلس أنا على الأريكة في ثوب حريري، وتقومي أنت على خدمتي". وكان من البديهي أن تُفصل من عملها على الفور.

وهز القنصل رأسه. فقد أحس هو نفسه مؤخرًا بأمور تثير القلق. فبرغم أن الحمالين وعمال المخازن يميلون إلى نزعة المحافظة إلى حدٍّ كبير، حصنتهم من تغيير أفكارهم، إلا أنه كان هناك بعض الشباب من وشى مسلكه بروح التمرد الجديدة، التي انتشرت على نحو مريب.

وقد وقعت أحداث شغبٍ في الربيع برغم الانتهاء من إعداد مشروع دستور جديد، يلبي متطلبات العهد الجديد، وهو ما تم تدشينه سريعًا كمرسوم من خلال مجلس الشيوخ، ليكون دستورًا للدولة، برغم معارضة لبرشت كروجر وبعض الأعضاء المسنين المزعجين.

وقد تم انتخاب نواب الشعب، وانعقدت هيئة المواطنين، إلا أن الأمور لم تستقر فسادت الفوضى. وأصبح الكل ينادي بإعادة النظر في قانون الانتخاب، ودب النزاع بين المواطنين. كما دعا البعض إلى إقرار "مبدأ الطبقات" في القانون، وهو ما طالب به أيضًا يوهان بودنبروك، القنصل.

بينما طالب آخرون بقانونٍ عام للانتخابات، وهو ما رآه أيضًا هينريش هاجنشتروم. بينما صاح البعض الآخر مطالبين بـ: "قانون انتخاب طبقي عام"؛ وربما كان هؤلاء يفهمون معنى ذلك. وقد انتشرت مثل هذه الأفكار كالنار في الهشيم، الداعية إلى إلغاء التمييز بين المواطنين والسكان، وإتاحة الفرصة للحصول على حق المواطنة حتى لغير المسيحيين. فلا غرو أن يدور بخلد ترينا، خادمة بودنبروك، فكرة الجلوس على الأريكة في ثوب من الحرير. آه! فلسوف يحدث ما هو أسوأ. فالأمور تنذر بانقلاب رهيب.

كان ذلك أول أيام شهر أكتوبر من عام 1848، حين كان غمامٌ رقيق يسبح في سماءٍ زرقاء تنيرها شمسٌ بيضاء كالفضة، لم تكن بالقوة التي تمنع أزيز المدفأة وراء سورها العالي اللامع بغرفة المنظر الطبيعي، حيث جلست الصغيرة كلارا، الطفلة صاحبة البشرة الشقراء القانية والنظرة الصارمة، وقد انشغلت بالتطريز أمام طاولة الخياطة بجوار النافذة، بينما انشغلت كلوتيلده بنفس العمل بجوار القنصلة على الأريكة.

وبرغم أن عمر كلوتيلده لم يتجاوز كثيرًا عمر ابنة عمها المتزوجة، أي أنها أتمت عامها الواحد والعشرين، إلا أن بعض التجاعيد الحادة بدأت في الظهور على بشرة وجهها البيضاوي، كما كان شعرها المفروق- الذي لم يكن قط أشقر اللون بل رماديًا باهتًا- قد ساهم في إتمام صورتها كعانس عجوز. وقد ارتضت هي ذلك، فلم تقم بما يغير من وطأة ذلك. ولعلها كانت تريد التقدم سريعًا في العمر حتى تنأى بنفسها عن كل الظنون والآمال.

ولما كانت بلا حولٍ ولا قوة، فقد أدركت أنه لن يوجد رجلٌ على وجه الأرض يقدم على الزواج منها، فاستكانت لمستقبل تقبع فيه في غرفةٍ ما

صغيرة، وتعيش على معاشٍ ضئيل يوفره لها عمها القادر من صندوق جمعية خيرية لرعاية الأسر المرموقة.

أما القنصلة، فعكفت على قراءة رسالتين تحكي أنطونيا في إحداهما عن النمو السعيد للصغيرة أريكا، بينما يروى كريستيان بحماس في الأخرى عن حياة المدينة في لندن، مغفلاً ذكر عمله لدى السيد ريتشاردسون.. وقد كانت القنصلة- التي ناهزت منتصف الأربعين من عمرها- تشكو بمرارة مصير النساء الشقراوات اللائي يتقدمن سريعًا في العمر؛ فلون بشرتهن الرقيق المتناغم مع لون شعرهن الأحمر يشحب في هذا العمر، برغم كل حيل المحافظة على طراوته، أما الشعر نفسه فيبدأ الشيب في غزوه القاسي لولا فضل الرب عليها في امتلاكها الصبغة الباريسية التي تحول دون ذلك.

وكانت القنصلة قد قررت أن لا يعرف الشيب طريقه إليها أبدًا، ولسوف تضع على رأسها باروكة بلون شعرها أيام صباها.

وقد وضعت أعلى شعرها المصفف بإتقان شريطًا حريريًّا صغيرًا محاطًا بالدانتيل البيضاء، تمهيدًا لارتداء القبعة. كما حرصت على ارتداء تنورةٍ واسعة فضفاضة، أما الأكمام الشبيهة بالأجراس فكانت مبطنة بقماشٍ منشًّى. كما كانت بعض الأساور الذهبية تصدر وسوسة رقيقة حول معصمها.

كانت الساعة آنذاك تشير إلى الثالثة عصرًا، حينما ارتفع بغتة هتافٌ وصراخ ونوعٌ من الصياح المتجاسر وصفير ودبيب خطى كثيرة، صخب راح يتنامى ويقترب. فقالت كلارا، وهي تنظر من عين النافذة السحرية: "ماما، ما هذا؟ ما لكل هؤلاء الناس؟ وما سر سعادتهم البالغة هذه؟"

فألقت القنصلة بالرسالتين من يدها ووثبت جزعةً مهرولةً إلى النافذة

لتهتف: "أيكون هذا.. أوه، يا ربي، أجل إنها الثورة، إنه الشعب".

وكان ما حدث هو أن الاضطراب قد عم المدينة طوال اليوم. وفي الشارع العريض، كانت نافذة عرض متجر "بن تهين" لبيع المناديل قد تعرضت للرشق بالحجارة فتحطمت. والرب وحده يعلم مدى علاقة نافذة عرض بن تهين بالسياسة العليا. وارتفع صوت القنصلة المرتجف من قاعة الطعام، حيث كان الخادم أنطون منشغلاً بأدوات الطعام الفضية: "أنطون، انزل، أغلق باب البيت، أغلق كل شيء.. إنه الشعب".

فقال أنطون: "نعم، سيدتي القنصلة! فهل بوسعي الإقدام على ذلك؟ وأنا عبدٌ لديكم أيها السادة.. فإن وقع نظرهم على الزي الذي أرتديه.."

"هؤلاء البشر الأشرار"، هكذا قالت كلوتيلده وهي تمط كلامها، وقد غلبها الحزن، ودون أن تتوقف عن انشغالها بعملها. وفي هذه اللحظة كان القنصل يعبر صالة الأعمدة، ويدخل من الباب الزجاجي، حاملاً معطفه على ذراعه، ممسكًا بقبعته بيده.

فبادرته القنصلة جزعةً: "أتنوي الخروج الآن، جان؟"

فقال: "نعم، حبيبتي، فعليَّ الذهاب إلى هيئة المواطنين".

فقالت: "لكن الشعب، جان، الثورة.."

فقال: "إن الأمر ليس على هذا النحو من الخطورة، بيتسي، والرب هو الحافظ. وقد تجاوزوا بيتنا بالفعل، وسوف أخرج من الباب الخلفي".

فقالت: "جان، لو أنك تحبني، فلا تعرض نفسك لمثل هذا الخطر؟ أتريد تركنا هنا وحدنا؟ آه، إني خائفةٌ، خائفة".

"حبيبتي! أرجوك، لماذا تضطربين هكذا، إنهم سيتظاهرون قليلاً أمام دار

البلدية أو في السوق، ولم تتكلف تظاهراتهم الدولة سوى بضعة ألواح من الزجاج، هذا كل ما في الأمر".

"إلى أين أنت ذاهب، جان؟"

"إلى هيئة المواطنين.. وقد أصل متأخرًا، وقد أخرني بالفعل قضاءُ بعض الأعمال، ومن العار أن أتخلف اليوم. وهل تظنين أن هناك من يستطيع منع أبيك من الخروج، مهما تقدم به العمر".

"نعم، جان، فلتمض في حفظ الرب، لكن عليك توخي الحذر، أرجوك، ولتحافظ على سلامتك! ولتهتم بشأن أبي، فلو أنه تعرض لشيء.."

وجاءه هتاف القنصلة من خلفه: "متى تعود؟"

"حسنًا، في الرابعة والنصف أو في الخامسة.. حسبما يقتضي الأمر. فجدول الأعمال يشمل قضايا مهمة، على حسب..."

أما القنصلة فراحت تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بنظرات حائرة وهي تردد: "أنا خائفة، أنا خائفة".

الفصل الثَّـــالث

هرول القنصل مجتازًا أرض بيته الرحبة. فلما وصل "بيكرجروبه"، إذا به يسمع وقع خطواتٍ خلفه ليرى الوسيط "جوش" متدثرًا بمعطفه الطويل على نحوٍ بديع، وهو يصعد الطريق المائل قاصدًا الاجتماع، وقد أخذ يُهوِّي بقبعته اليسوعية بإحدى يديه الطويلتين الهزيلتين، وبيده الأخرى لوَّح بإشارةٍ تدل على الاستكانة التامة، ثم تحدث بنبرة حنق مقهورة: "سيدي القنصل.. أحييك!"

في حوالى الأربعين من عمره، كان الوسيط سيجسيموند جوش الأعزب رجلاً من أشرف الناس وأرفعهم خلقًا، رغم مسلكه؛ فقد كان أديبًا أصيلاً رائعًا.

وقد تميز وجهه الحليق بأنف معقوفٍ، وذقن مدببة بارزة، وملامح حادة، وفمٍ عريض ينحرف إلى أسفل. كان يطبق شفتيه الرقيقتين على نحو صارم حانق. فكان طموحه- الذي نجح في تحقيقه إلى حدٍّ ما- هو أن يبدو بمظهر الشيطان المتآمر، وهيئة رهيبة وسط بين نابليون والشيطان.

أما شعره الأشيب، فكان يصبغ جبهته بشيءٍ من العمق والعبوس. وكان

يعرب عن ندمه بصدق على أنه لم يكن أحدب. فقد كان ظاهرةً غريبة لطيفة بين سكان المدينة التجارية القديمة. كان واحدًا منهم لأنه- بصفته مواطنًا- كان يمارس عملاً مستقيمًا متواضعًا محترمًا من أعمال الوساطة. وكان مكتبه الصغير المعتم يشمل مكتبةً كبيرة مليئةً بدواوين الشعر من سائر اللغات، وأُشيع أنه منذ كان في العشرين من عمره عكف على ترجمة كل أعمال لوب دي ڤيجا الدرامية[*].

وقد قام ذات مرة، ضمن أحد عروض الهواة، بأداء دور "دومينجو" بمسرحية شيلر "دون كارلوس". وكان هذا أقصى ما حققه في حياته. وهو لم يتلفظ بكلمةٍ نابية، وحتى في حوارات عمله كان لا يخرج من بين أسنانه سوى العبارات المألوفة، وهو يرسم على وجهه أمارات من يقول: "أيها الوغد، إنني أصب لعناتي على أسلافك في قبورهم".

وكان إلى حدٍّ ما يُعد وريث الراحل جان جاك هوفشتده، وخليفته، إلا أن روحه كانت أكثر عبوسًا واستعراضية، فلم يملك تلك الروح المرحة الفكهة التي استعارها صديق يوهان بودنبروك الكبير من القرن الماضي.

وذات يومٍ خسر بالبورصة ستة ريالات ونصف دفعةً واحدةً، بعد أن ضارب بسهمين اشتراهما، فتملكه إحساسه الدرامي، مقدمًا عرضًا مسرحيًا، فتهالك على أريكة مجسدًا دَور من خسر معركة ووترلو، ضاغطًا قبضته على جبهته، راسمًا في عينيه أمارات الطريد من رحمة الرب، وهو يردد: "ها، عليك اللعنة".

---

[*] لوب دي ڤيجا: واحد من كبار ومشاهير الأدب الأسباني؛ (المحرر).

ولما كانت أرباحه القليلة الآمنة والهادئة التي يكتسبها من بيع قطعة الأرض هذه أو تلك تصيبه بالملل، فقد جاءته هذه الضربة القاصمة التي عاقبته بها السماء كمتآمر بمثابة متعة وسعادة استمرأها لأسابيع طويلة.

وقد اعتاد الرد على مَن يقول له: "سمعت أن مصيبةً ألمت بك يا سيد جوش وقد تأثرت لذلك"، أن يقول: "آه! يا صديقي العزيز"، ثم يضيف بالفرنسية: "إن الضربة التي لا تكسر تقوِّي"، وهو ما لم يفهمه أحد؛ فهل كانت هذه عبارة للوب دي ڤيجا؟ إلا أنه كان من المؤكد أن سيجسيموند جوش هذا كان رجلاً مثقفًا غريب الأطوار.

وبينما كان يصعد الشارع منحنيًا على عصاه، بجوار القنصل، إذ قال له: "ما هذا الزمن الذي نحياه، أيكون هذا زمن العاصفة والحركة!"

فأجاب القنصل: "أنت محقٌّ في ذلك. فقد تحرك الزمن. وقد يكون اجتماع اليوم مشوبًا بالتوتر، فإن مبدأ الطبقات..."

إلا أن السيد جوش استطرد: "كلاَّ، اسمع، لقد قضيت اليوم بطوله في الطريق أرقب الشعب. وكان بينهم فتيان رائعون تتقد عيونهم بالحنق والمتعة".

فضحك بودنبروك: "إنك الرفيق المناسب! فيبدو أنك معجب بذلك؟ كلاَّ، اسمح لي.. إنها أفعالٌ صبيانية، هذا كل ما في الأمر! فماذا يريد هؤلاء الناس؟ إنهم عددٌ من الشبان غير الأسوياء ينتهزون الفرصة ليشيعوا الفوضى".

"يقينًا! إلا أننا لا يمكننا إنكار.. فقد كنت متواجدًا حينما رشق صبي الجزار بيركماير نافذة عرض السيد بن تهين بالحجارة.. وقد كان مثل الفهد!" ونطق السيد جوش الكلمة الأخيرة وهو يضغط بشدة على أسنانه، ثم أردف:

"آه، ليس بوسعنا إنكار أن للمسألة جانبها الوجيه، ألا رأيت، إنه أمرٌ غير مألوف يتسم بالعنف، عاصفٌ، وحشي».. إنه صاعقة.. آه، إن الشعب جاهل، وأنا أدرك ذلك، إلا أن قلبي، هذا القلب، إنه معه".

كانا قد وصلا إلى المبنى البسيط المطلي بالأصفر، الذي يحتوي طابقه الأرضي قاعة اجتماع هيئة المواطنين. وكانت هذه القاعة جزءًا من محل للرقص وتقديم البيرة لأرملة تدعى سوركينجل، إلا أنه كان يوضع تحت تصرف السادة في أيام بعينها. ومن خلال ممر ضيق مرصوف، إلى يمينه محلٌ للطعام تفوح منه رائحة البيرة والطعام، يدخل المرء إليه يسارًا من خلال باب طليت ألواحه باللون الأخضر، وبلا مقبض أو رتاج، وكان ضيقًا ومنخفضًا حتى إنه لا يمكن تصور أن وراءه مثل هذه القاعة الرحبة.

أما القاعة فكانت باردة مقفرة، تشبه المخزن، ذات سقف مطلي تبرز منه ألواحه الخشبية، وجدران مطلية، ونوافذه الثلاث العالية بلا ستائر، ومزدانة بصلبان باللون الأخضر. وإلى الجانب الآخر منها كانت صفوف مدرجات الجلوس، وتقوم أسفلها طاولةٌ بغطاءٍ أخضر فوقها جرسٌ كبير وملفات وأدوات كتابة، خُصصت لمقرر الجلسة ومديرها ومفتشي المجلس الحاضرين. وعلى الجدار المواجه للباب، كانت مشاجب غطتها المعاطف والقبعات. وما إن تجاوز القنصل ورفيقه باب القاعة الضيق حتى استقبلهما ضجيج أصوات. وأدركا أنهما آخر الواصلين. كانت القاعة غاصةً بالمواطنين الواقفين في حلقات يتناقشون، وقد وضع بعضهم يده في جيب سرواله، أو خلف ظهره، أو رفعها في الهواء، وقد التأم شمل مائة عضو من 120 من أعضاء الهيئة.

كان عددٌ من نواب إقليم المقاطعة قد فضل البقاء بالبيت في ظل الأحوال الراهنة.

وكانت هناك جماعة تقف بعد المدخل، تتكون من أناس أقل شأنًا، اثنين أو ثلاثة من رجال الأعمال غير المهمين، ومدرس ثانوي، وراعي اليتامى السيد ميندرمان، والحلاق المحبوب السيد فنتسل. وكان السيد فنتسل قصير القامة، قوي البنيان، ذا الشارب الأسود والوجه الذكي واليدين المتوردتين، قد قام صباح اليوم بحلاقة ذقن القنصل؛ إلا أنه كان هنا ندًا لباقي الأعضاء. وكان قد قصر عمله على الوسط الراقي فحسب، مثل آل مولندورف ولانجهالس وبودنبروك وأوفرديك. وقد انتُخب لعضوية الهيئة بفضل إلمامه التام بشؤون المدينة، ومعاشرته لأهلها، ولباقته، واعتزازه الواضح بنفسه تجاه من هم أقل منه شأنًا.

وبعينين مفعمتين بالجدية هتف بحماس مخاطبًا ولي نعمته: "ألا عرفت آخر الأخبار، سيدي القنصل؟"

"فما عليّ معرفته، عزيزي فنتسل؟"

"إنه ما لم يكن أحدٌ قد عرفه حتى صباح اليوم، عفوًا، سيدي القنصل، فالشعب لا يزحف إلى دار البلدية أو إلى السوق، وإنما إلى هنا، عاقدًا العزم على تهديد هيئة المواطنين، بعد تحريض ريبسام، مدير التحرير، لهم".

"ايه، ليس هذا ممكنًا!" قال القنصل وهو يشق طريقه بين المجموعات الأولى ليصل إلى منتصف القاعة، بعد أن رأى صهره هناك مع الحاضرين من الشيوخ، ومنهم الدكتور لانجهالس ومولندورف. فصافحهم وهو يسأل: "إن الخبر صحيحٌ إذن، أيها السادة".

وفي الواقع، كان الحاضرون كافةً يعرفون بالأمر، فقد كانت الجماهير الغاضبة في طريقها إلى هنا، وها هي أصواتهم تقترب.

"الكلاب!" هكذا قال لبرشت كروجر ببرودٍ واحتقار، وهو الذي كان قد جاء بعربته. وكانت الهيئة الوقورة السامية لـ"الفارس العصري" قد بدأت في التراجع تحت وطأة حالته الراهنة لبلوغه الثمانين من عمره. أما اليوم فقد وقف منتصبًا تمامًا، بعينين شبه مغمضتين، وعلى نحوٍ من الجلال والازدراء كان قد أرخى شدقيه اللذين ارتفع فوقهما طرفا شاربه الأبيض القصيران. وكان صفان من أزرارٍ من الأحجار الكريمة يبرقان فوق سترته السوداء المخملية.

وإلى مسافة غير بعيدة من هذه المجموعة وقف هينريش هاجنشتروم، وهو رجلٌ متوسط القامة، بدين، وخط الشيبُ لحيته الحمراء، يرتدي سترةً مفتوحة تحتها صدرية ذات مربعات زرقاء، عُلقت بها كاتينة ساعة سميكة. وكان قد وقف مع شريكه السيد شترونك، ولم يقم بتحية القنصل، على أي نحو.

أما تاجر المناديل بن تهين، الذي تبدو عليه أمارات الثراء، فقد التف حوله عددٌ كبير من السادة؛ فراح يحكي لهم مصابه في لوح الزجاج بنافذة عرض متجره: "قالب من الطوب، نصف قالب طوب، أيها السادة! طراخ.. مخترقًا المكان ليصيب طاقمًا من القماش الأخضر المضلع.. هؤلاء الرعاع.. حسنًا، إن هذ لأمر من أمور الدولة".

"إنها خسةٌ فجة" هكذا ترددت صيحة من ناحيةٍ ما، وكان صاحبها هو السيد شتوت، القاطن بشارع جلوكنجيسر، وكان يرتدي سترةً سوداء تحتها

قميص من الصوف، وشارك في الجدل بتأكيده الدائم الحانق مكررًا: "إنها خسة فجة"، وكان ينطق خسة "خصة".

وأخذ يوهان بودنبروك يجول بالمكان حتى يحيي صديقه القديم س. ف. كوبن هنا، ويفعل الشيء نفسه هناك، مع منافسه كيستنماكر، كما صافح الدكتور جرابو وتبادل بعض الكلمات مع مدير المطافئ جيسكه، والمقاول فويجت، والمقرر دكتور لانجهالس شقيق السيناتور، وكذلك مع بعض التجار والمعلمين والمحامين.

وبرغم أن الجلسة لم تكن قد افتُتحت بعد، إلا أن الجدل كان ساخنًا. وراح جميع السادة يصبون لعناتهم على هذا الكاتب، مدير التحرير، ريبسام هذا، بعد أن عرفوا أنه مَن حرَّض الجموع.. فماذا كان غرضه؟

وقد اجتمع هؤلاء لمعرفة إن كان سيتم الإبقاء على مبدأ الطبقات في تمثيل الشعب، أم سيتم إقرار حق الانتخاب العام للجميع. وكان مجلس الشيوخ قد تقدم بالقانون الأخير، فماذا يريد الشعب إذن؟ إنه يريد الإمساك بخناق السادة، هذا هو كل ما في الأمر. وهكذا وجد السادة أنفسهم، يا للعنة، في أسوأ موقف تعرضوا له يومًا ما.

وتحلق الجمع حول مفتشي المجلس ليعرفوا رأيهم. كما أحاطوا بالقنصل بودنبروك الذي كان يقينًا يعرف رأي العمدة أوفرديك في هذه القضية، بعد أن أصبح السيناتور الدكتور أوفرديك العام الماضي رئيسًا لمجلس الشيوخ، وصاهر القنصل يوستوس كروجر، لتنشأ بذلك صلة قرابة مع آل بودنبروك؛ مما جعلهم ينالون تقديرًا أعظم من الجميع.

وفجأةً علا الصخب بالخارج بعد أن وصلت الثورة أسفل نوافذ قاعة

الاجتماع، وفي الحال خرست الآراء هنا في الداخل. فانعقدت الأيدي على البطون والفزع يلجم أصحابها، وكل منهم ينظر إلى صاحبه أو نحو النوافذ، التي ساد تحتها عواءٌ صاخب طاغٍ مجنون، يصم الآذان.

ثم ساد السكون في الخارج فجأةً، كأن الثائرين قد خشوا مغبة مسلكهم، كما ران الصمت على القاعة. وأثناء هذا الهدوء العميق الذي خيم على المكان كله، سُمعت في ناحية صفوف المقاعد السفلى، حيث كان لبرشت كروجر يجلس، كلمة باردة ممطوطة وعميقة اخترقت الصمت: "الكلاب!".

وتبعها في الحال في ناحيةٍ أخرى صوتٌ مستاء كظيم: "خسة فجة"، ثم خيم على الاجتماع فجأةً صوت تاجر المناديل بن تهين متدافعًا مرتعشًا غامضًا: "أيها السادة.. أيها السادة.. انصتوا إليَّ.. فأنا خبير بهذا المبنى؛ فإذا ما اقتحمه هؤلاء، فثمة فجوة في السقف، كنت في صباي أطلق النار منها على القطط.. ويمكننا بسهولةٍ تامة التسلل منها إلى سطح الجيران، فنصبح هناك في أمان".

كان الوسيط جوش قد عقد ذراعيه ليرتكز بهما على طاولة المقرر منكس الرأس، محملقًا في النوافذ بنظرةٍ مثيرة للفزع ليقول: "جبنٌ مُذل، إنه جبنٌ، يا سيدي، لماذا؟ يا لَلعنة.. فالناس يقذفون بقوالب الطوب، وأنا أسمع ذلك هنا".

وفي هذه اللحظة ارتفع الصخب بالخارج من جديد، لكن دون أن يصل إلى حدته العاصفة السابقة، بل تصاعدت صيحات هادئة متواصلة مثابرة طربة يشوبها المرح، يتخللها من حينٍ لآخر صفيرٌ وهتافات متناثرة مثل: "المبدأ!" و"حق المواطنة"، فيما أخذ أعضاء هيئة المواطنين تصغى

باهتمام.

وبعد برهةٍ، ارتفع صوت المقرر السيد الدكتور لانجهالس، مخاطبًا الأعضاء بنبرة صوتٍ كظيمة: "آمل أن توافقوني الرأي بافتتاح الجلسة الآن".

وبرغم أن الاقتراح كان بسيطًا إلا أنه لم يلق أدنى دعم.

"أنا لا أؤيد هذا الرأي"، قال أحدهم بنبرةٍ محافظة صارمة لا تعطي فرصةً للاعتراض. وكان هذا رجلاً قرويًا يُدعى بفال من إقليم ولاية ريتساو، نائب قرية كلاين-شريتساكن، الذي لا يذكر أحدٌ أنه سمع صوته أثناء المشاورات. إلا أن أقل الآراء شأنًا كان ذا قيمة في مثل هذا الظرف الراهن.

وهكذا جاء رأي السيد بفال تعبيرًا عن كل أعضاء هيئة المواطنين، وهو ما صرح به بعفوية وغريزة سياسية واثقة.

أما السيد بن تهين فصاح غاضبًا: "فليحفظنا الرب! فبوسع مَن في الشارع أن يرانا هنا فوق مقاعدنا! إن الناس يقذون بقوالب الطوب! كلاً، يا لَلعنة، وهو ما أسمعه هنا".

وصاح كوبن، تاجر الخمور، يائسًا: "كما أن هذا الباب اللعين ضيق إلى حد أننا لو شئنا الخروج لحشرنا فيه!"

فقال السيد شتوت بنبرة مكتومة: "خسة فجة".

ومن جديد أخذ المقرر في الإلحاح: "أرجوكم أيها السادة أن تتداركوا الأمر، فعليَّ تحرير محضر جلسة اليوم خلال ثلاثة أيام، لتقديمه لحكومة الولاية.. بالإضافة إلى أن مجلس المدينة ينتظر نشره مطبوعًا.. وأود على كل حالٍ أن أنتقل للتصويت على افتتاح الجلسة".

وبغض النظر عن قلةٍ من الموطنين دعمت رأي المقرر، فلم يوجد مَن

كان على استعداد للانتقال إلى جدول الأعمال، فقد كان التصويت بلا معنى. ولم يكن من الحكمة إثارة الشعب، خاصةً أنه لم يكن هناك مَن يعرف مطالب الشعب. فلا ينبغي أن يُصدم بقرارٍ يدعم هذا الاتجاه أو ذاك. فلابد من الانتظار والتروي. وأعلنت أجراس كنيسة سانت ماريا تمام الرابعة والنصف، وتعاون الكل في اتخاذ قرار التحلي بالصبر. وبدأوا في التعود على الضجيج الذي يتنامى في الخارج حينًا ويهدأ حينًا آخر، ويتوقف ليعاود ثانيةً.

التزموا الهدوء والتقاط الأنفاس، ليجلسوا في مدرجات الصفوف السفلى وعلى مقاعدها.. ليدب النشاط بين كل هؤلاء المواطنين المجتهدين.. فأخذ بعضهم في الحديث عن أعماله، بل عقد صفقة هنا أو هناك.. ودنا الوسطاء من تجار الجملة.. وأخذ السادة المحاصرون يثرثرون كمن يجتمع أثناء جو عاصف ليتحدث عن شيء آخر، ثم ينتبه من حين لآخر إلى صوت الرعد، وقد اكتست وجوههم بأمارت الاحترام والجدية. وكان أن دقت الساعة الخامسة، فالخامسة والنصف، ليخيم الغسق. ومن حينٍ لآخر، كان هناك مَن يتنهد لأن زوجته تنتظره الآن بالقهوة، وهنا سمح السيد بن تهين لنفسه بأن يُذكِّر بفجوة السقف. إلا أن الأغلبية شاركوا السيد شتوت فكرته، عندما أخذ يهز رأسه متواكلاً وهو يقول: "إن بدانتي تحول دون ذلك".

أما يوهان بودنبروك فعمل بنصيحة القنصلة، فظل ملازمًا صهره وأخذ يتأمله قلقًا وسأله: "آمل ألا تكون هذه المغامرة البسيطة قد أرتعبتك، يا أبي؟"

أما لبرشت كروجر فتبدى قلقه في نفور عرقين زرقاوين في جبينه، أسفل ذؤابته البيضاء كالثلج. وفيما كانت إحدى يدي الأرستقراطي العجوز

تداعب أزرار سترته المصنوعة من حجر الأوبال، كانت يده الأخرى المزدانة بماسةٍ كبيرة ترتعش فوق ركبتيه.

ثم قال بعد أن حل به تعبٌ لم يعهده من قبل: "إنه هراء، بودنبروك! إنني منزعج، هذا كل ما في الأمر"، إلا أنه نقض ما قال حين غمغم فجأةً: "حقًّا، جان، علينا أن نقضي على هذه الخسة الوقحة بالرصاص والبارود.. هؤلاء الأوغاد..! الكلاب..!"

فزام القنصل ليهدئ من روعه "نعم.. نعم.. إنك على حق، فقد كاد الأمر أن يكون مهزلةً مهينة.. ما عسانا فاعلين؟ وما علينا سوى التفاؤل، وها هو المساء يقترب وسوف ترتد الجماهير على أعقابها".

فلم يتمالك لبرشت كروجر نفسه فسأل: "أين عربتي؟ إنى آمر بإحضارها".

ثم انتابه الغضب وارتعدت أوصاله كلها ليردف: "كنت قد أمرت أن تكون جاهزة في تمام الخامسة، فأين هي، فما جدوى بقائي هنا والجلسة لم تنعقد، وليست لديَّ النية أن يعتبرني البعض أحمق، أريد عربتي، هل اعتدى أحدهم على سائسي؟ فانظر ماذا يحدث هناك، بودنبروك!".

"صهري العزيز، بربك فلتهدأ، إنك تجهد نفسك.. وهذا لن يفيدك، وسوف أُمضي بالطبع لاستطلاع أمر العربة.. وقد ضقتُ ذرعًا بالأمر وسوف أطلب من الجماهير العودة إلى ديارهم".

واخترق القنصل القاعة مهرولاً، رغم اعتراض لبرشت كروجر، وبرغم أنه أُمر فجأةً بنبرة باردة مستهينة: "توقف، لتبق هنا، إنك تعرض نفسك للأذى بودنبروك!".

عند الباب الأخضر الضيق كان سيجسيموند جوش قد لحق به، وأمسك به بيده العظيمة وسأله بصوت مرَوَّع: "إلى أين سيدي القنصل؟"

بدا وجه الوسيط مليئًا بالتجاعيد، وكادت ذقنه المدببة تبلغ أنفه من فرط الصرامة، وتهدل شعره الأشيب ثقيلاً على فوديه وجبينه، وأنزل رأسه بين كتفيه ليبدو بهيئة شائهة وهو يصيح: "أنت تراني جديرًا بمخاطبة الشعب!"

فقال القنصل: "كلاَّ، من الأفضل أن أقوم أنا بهذا، فربما كان لديَّ معارف أكثر بين هؤلاء".

فرد الوسيط محدثًا نفسه: "فليكن، فأنت أعظم مني شأنًا". ثم رفع صوته: "لكني سوف أصحبك لأكون بجوارك أيها القنصل بودنبروك، وإن مزقني غضب العبيد مطلقي السراح إربًا!"

وعندما أصبحا بالخارج أخذ يقول: "يا لَه من نهار، يا لها من ليلة"!.. مؤكدٌ أنه لم يحس بمثل هذا الشعور بالسعادة من قبل، فأردف: "نعم! سيدي القنصل، إنه الشعب!".

كانا قد عبرا الممر ليصلا إلى باب المبنى بالخارج، ووقفا على درجٍ ضيق تفضي درجاته الثلاث إلى الرصيف. فبدا لهما الشارع غريبًا. كان مقفرًا، ومن النوافذ المفتوحة المضيئة المحيطة كان بعضهم يتطلع بفضول إلى الجموع الزاحفة في الظلام نحو مبنى هيئة المواطنين.

لم يكن عدد الجماهير يزيد على عدد المجتمعين بالقاعة، وكان يتألف من شباب عمال الميناء والمخازن وبعض الخدم والتلاميذ وبحارة سفن تجارية، وآخرين من أهالي أحياء المدينة الفقيرة، خرجوا من حواريها وأزقتها وطرقاتها وساحاتها.

كما كان هناك أيضًا ثلاث أو أربع نساء يأملن في جني مكاسب من وراء هذا العمل، وهو ما كانت طاهية بودنبروك تمني به نفسها. وكان بعض المتذمرين قد أرهقهم الوقوف فجلسوا على الرصيف واضعين أقدامهم في مجرى تصريف المطر، وقد أخذوا يلتهمون خبزًا بالزبد.

كانت الساعة قد اقتربت من السادسة، وبرغم أن الغسق كان قد خيم من زمنٍ، إلاَّ أن مصابيح الزيت المعلقة بسلاسل عبر الشارع لم تكن قد أضيئت بعد.

كانت هذه الحقيقة المتمثلة في هذا الخرق السافر والنادر للنظام هو أول ما أثار غضب القنصل بودنبروك بحق، وكانت هي ما جعلته يشرع في الحديث بنبرة حانقة، موجزًا: "أيها الناس، ما الذي تفعلون في هذا اليوم الأغبر!".

فنهض مَن كانوا يتناولون وجبة العصر فوق الرصيف، بينما شب البعض من خلفهم على أطراف أصابعهم، أما بعض عمال الميناء، العاملين لدى بودنبروك، فوضعوا قبعاتهم عن رؤوسهم. كان الاهتمام قد شمل الجميع فتدافعوا، بينما قال البعض هامسًا: "إنه القنصل بودنبروك، القنصل بودنبروك سوف يلقي كلمة! اغلق فمك، كريشان، فبوسعه إلقاء خطب نارية!.. هذا هو السمسار جوش.. انظر! ابن القرود، إنه متوتر للغاية".

وسدد القنصل نظرة عينيه الصغيرتين الغائرتين إلى أحد عمال المخازن، منبعج الساقين والبالغ 22 عامًا من العمر، وكان يقف أمام الدرج مباشرةً ممسكًا بقبعته بيده، وقد امتلأ فمه بالخبز، فخاطبه: "كورل سمولت، تكلم، فقد آن الأوان، فقد كنتم تصرخون هنا طوال عصر اليوم".

فقال كورل سمولت، وهو يلوك الخبز بفمه: "نعم، سيدي القنصل، إن

الحال الآن على ما ترى، نحن نقوم بثورة".

"ما هذه الحماقة، سمولت!"

"نعم، سيدي القنصل، أنت تراها هكذا، لكن، لقد طفح الكيل.. فأصبحنا غير راضين عن هذا الأمر.. ونحن نطالب بنظامٍ آخر، ولا شيء غير ذلك".

"فلتصغ إليَّ سمولت، وكذلك أنتم أيها الآخرون، على العاقل منكم أن يعود لبيته، ولا ينشغلن بالثورة ولا خرق النظام".

فقاطعه السيد جوش، وهو يزوم: "النظام المقدس!"

أما القنصل بودنبروك فقال: "أنا أعني بالنظام.. حتى هذه المصابيح التي لم توقد بعد.. وهذا يجر الثورة إلى التطرف!".

كان كورل سمولت قد انتهى من طعامه، فوقف واثقًا والجموع من خلفه، وانبرى معارضًا: "نعم، سيدي القنصل، هذا هو ما تقوله أنت حقًّا، لكننا هنا فقط من أجل المبدأ العام لقانون الانتخابات".

"يا ربنا العظيم، أنت أيها التافه تهرف بكلام فارغ" هكذا قال القنصل، بعد أن نسى أن يخاطبه باللهجة العامية من شدة غضبه.

فقال سمولت ببعض التردد: "نعم، سيدي القنصل، فكل الأمور الآن كما ترى، لكن لابد من الثورة، فالثورة في كل مكان، في برلين وباريس".

"سمولت، فلتفصح أخيرًا عما تريد! ولتقل ذلك الآن!".

"نعم، سيدي القنصل، أنا لا أقول سوى إننا نريدها جمهورية، لا أقول سوى هذا".

"لكنك، أيها الأحمق.. لديك جمهورية بالفعل".

"نعم، سيدي القنصل، إذن فنحن نبغي واحدة إضافية".

فراح بعض المحيطين، ممن كانوا أكثر وعيًا، يضحكون من قلوبهم بسذاجة. ورغم أن القليلين منهم قد فهموا رد سمولت، إلا أن المرح عم الجميع، فأصبح أغلب الجمهوريين يطلقون قهقهاتٍ عميقةً بريئة. كما كان البعض قد أطل من نوافذ قاعة هيئة المواطنين يستطلعون الأمر، وهم ممسكون بأقداح البيرة. أما الوحيد الذي خاب أمله لهذا الانقلاب وتألم له فكان سيجيسموند جوش.

وفي النهاية، قال القنصل بودنبروك: "إذن، أيها الناس، أعتقد أن أفضل ما تفعلونه الآن هو أن تعودوا إلى بيوتكم".

أما كورل فقد أخذته الدهشة من الآثار التي أحدثها، فأجاب: "نعم، سيدي القنصل، هكذا هو الحال الآن إذن، ولندع الأمر يأخذ مجراه، وأنا سعيد أن السيد القنصل لم يغضب مني، إذن إلى اللقاء، سيدي القنصل".

وتفرقت الجموع وهم في أسعد حال.

إلا أن القنصل صاح: "سمولت، انتظر لحظة، ألم تر عربة كروجر؟ العربة الواقفة أمام بورجتور؟"

"بلى، سيدي القنصل، إنها في الطريق، مسرعة إلى هنا".

"حسنًا، فلتنصرف الآن بسلام، سمولت، ولتخبر يوخن أن يسرع فالسيد يريد العودة لبيته".

"سمعًا وطاعة، سيدي القنصل".

ووضع قبعته على رأسه، متأملاً المظلة الجلد بتأثر شديد، ثم هرول كورل سمولت هابطًا الطريق بخطى واسعة واثقة.

الفصل الرَّابــع

لما عاد القنصل بودنبروك وسيجسيموند جوش إلى الاجتماع، بدت لهما القاعة أكثر راحةً عما كانت عليه قبل ربع الساعة. فكان مصباحا الغاز على طاولة المقرر ينيران القاعة، وعلى ضوئهما الأصفر أخذ السادة من الواقفين والجالسين حول الطاولة يصبون البيرة من القوارير في أقداحٍ بيضاء، ليقرعوها متجاذبين أطراف حديثٍ صاخب، في جو يسوده الابتهاج.

أما السيدة زيوركينجل، أرملة زيوركينجل، فقد استقبلت زبائنها المحاصرين بترحاب. ولما بدا أن الحصار قد يمتد لفترةٍ طويلة، فقد اقترحت بلغةٍ فصيحة أن تقدم لهم ما يتقوُّون به، مستغلةً الأحوال المضطربة لكي تبيعهم قدرًا كبيرًا من البيرة الصفراء المحتوية على قدرٍ ما من الكحول.

فلما عاد المفاوضان كان الخادم قد شمَّر عن ساعديه وهو يأتي بمزيد من الشراب، وعلى وجهه ابتسامةٌ مستبشرة. وبرغم حلول الليل وتأخر الوقت، بما يحول دون بذل مجهود لمراجعة الدستور، لم يعد لدى أحدهم رغبة في فض الاجتماع للعودة إلى البيت. وكان موعد تناول القهوة قد أزف على كل حال.

وعندما فرغ القنصل من مصافحة مهنئيه على ما أحرز من نجاح، اتجه

مباشرةً نحو صهره. وقد بدا لبرشت كروجر أنه الوحيد الذي لم يعتدل مزاجه، فقد ظل جالسًا معتدل القامة جامدًا مستاءً، وتلقى خبر تحرك عربته في هذه اللحظة ساخرًا. وكان لإحساسه بالمرارة أثرٌ أعظم في ارتعاش نبرة صوته من أثر تقدم عمره، وقال: "هل سمح لي الحثالة بالعودة إلى داري؟"

وبعيدًا تمامًا عما عُرف به، وكان يبديه من مسلك جذاب راح يبدي امتعاضًا وهو يتلقى المعطف فوق كتفيه. فلما اقترح القنصل اصطحابه، وضع ذراعه بذراع صهره قائلاً بنبرة غير مبالية "شكرًا".

كانت العربة الفخمة، ذات المصباحين الكبيرين المثبتين بمقعد السائس، تنتظر أمام الباب. فلما أُوقِد المصباحان ابتهج القنصل ليصعد الرجلان إلى العربة، واتخذ لبرشت كروجر مكانه إلى يمين القنصل، فجلس صامتًا مائلاً للأمام وهو يكاد يغمض جفنيه، واضعًا غطاء العربة على ركبتيه، فيما كانت العربة تمضي مخترقةً الشوارع. وأسفل الطرفين القصيرين لشاربه الأشيب انسحب شدقاه في خطين عموديين بلغا ذقنه. بينما كان الحنق يوغر صدره جراء ما أصابه من خزي، ناظرًا إلى المقعد الشاغر أمامه ببرود و واستهانة.

كانت الطرق تضج بحركةٍ أكثر حيويةً مما اعتاده الناس في ليالي الإجازات، فقد سادتها الأجواء الاحتفالية. فكان الشعب يمضي في كل مكان فرحًا وسعيدًا بما آل إليه حال الثورة. حتى إنهم راحوا يغنون. فإذا مرت العربة بصبية صاحوا مهللين، وهم يقذفون بقبعاتهم في الهواء.

وقال القنصل: "إنني أعتقد عن حق بأنك متأثرٌ بما حدث، يا أبتي، ولو أننا تذكرنا كم كان الأمر كله ليس سوى حماقة هزلية.."

ولكي يقتنص من الشيخ ردًّا أو إيضاحًا أخذ في الحديث بحماسٍ عن

الثورة بشكلٍ عام. "لو علمت الجموع من غير أصحاب الأملاك ما سوف يعود عليهم عملهم هذا بفائدةٍ ضئيلة.. يا ربي! هكذا هو الحال في كل مكان! فقد تجاذبتُ عصر اليوم أطراف حديثٍ مع الوسيط جوش، هذا الرجل العجيب، الذي يرى كل الأمور بعيني شاعر ومؤلف دراما مسرحية، انظر يا صهري، لقد تم تدبير الثورة حول موائد الشاي الأنيقة في برلين، ثم أشعل الشعب القضية ليقذف بنفسه في خضمها.. فهل سيدفع هو الثمن؟" فقال السيد كروجر: "لو تكرمت وفتحت النافذة بجوارك".

فرماه يوهان بودنبروك بنظرة سريعة، لينزل زجاج النافذة. ثم سأله قلقًا: "هل حالتك على غير ما يرام، يا والدي العزيز؟"

فرد لبرشت كروجر بحزم: "كلا. على الإطلاق".

فقام القنصل بإسدال غطاء الفراء على ركبتي صهره كمن يريد الإتيان بأي فعل، وقال: "يعوزك شيء من طعامٍ وبعض الراحة".

وأثناء ما كانت العربة تجتاز شارع بورجشتراسه وقع حادثٌ مفزع؛ فعندما دنت العربة لخمس عشرة خطوةً من جدران الباب الذي كاد يغرق في الظلام، إذا بجماعة من صبية الأزقة الصاخبين الفرحين تمر هناك، وإذا بأحدهم، قد يكون كريشان سنوت أو هاينه فوس من المحتفلين بالثورة، يلقي بحجر يخترق العربة من النافذة المشرعة، حجر لا يكاد يكون بحجم بيضة دجاج، لم يكن يستهدف الأذى أو حتى العربة على الإطلاق، وقد مرق من النافذة بلا صوت، ليصدم بلا صوت كذلك صدر لبرشت كروجر المتدثر بالفراء الوثير، ثم انزلق على غطاء الفراء ليستقر على الأرض. وصاح القنصل غاضبًا: "يا لها من غلظةٍ وقحة، هل أصيب الناس اليوم بالجنون؟..

لكنك لم تصب بأذى يا صهري، أليس كذلك؟".

أما كروجر العجوز فلاذ بالصمت، صمت يثير الخوف. وحال الظلام داخل العربة دون إدراك تعبير وجهه، وقد جلس على نحو أكثر اعتدالاً وعلوًا وجمودًا عن ذي قبل دون أن يمس ظهره الوسادة خلفه. ثم صدر عن أعماقه.. كلمة وحيدة ثقيلة باردة ممطوطة: "الكلاب".

وآثر القنصل عدم استثارته أكثر من ذلك، فلم يعلق. مرقت العربة من خلال بوابة بورجنتور محدثةً ضجيجا مجلجلاً، لتصل بعد ثلاث دقائق إلى الطريق العريض، أمام السور ذي القمم المذهبة الذي يمثل حدود أملاك كروجر. كان هناك مصباحان مضيئان، يزدان غطاؤهما بزرين مذهبين، يقومان على جانبي باب البستان الرحيب، وهو مدخل طريقٍ يزدان جانباه بشجر الكستناء ويفضي إلى الشرفة. فأصيب القنصل بالفزع عندما رأى وجه صهره شاحبًا تتخلله تجاعيد واهنة.

كان التعبير البارد الجامد والمستهين، الذي كان يحتفظ به فمه حتى هذه اللحظة، قد استحال إلى تقلص متهدل منحرف ضعيف مما تظهره أعراض الشيخوخة.. وتوقفت العربة عند الشرفة. "فلتساعدني"، قال لبرشت كروجر رغم أن القنصل كان قد ترجل قبله، وسحب غطاء الفراء، ومد له ذراعه وعرض له كتفه ليتكئ عليهما. ثم قاده على مهله فوق الحصباء لبضع خطى قليلة حتى الدرج المكشوف الذي يفضي إلى قاعة الطعام. وعند مقدمة الدرج تهالك العجوز على ركبتيه لتهوي رأسه بقوة على صدره، حتى أن فكه الأسفل المرتخي اصطك بفكه الأعلى. ثم حامت عيناه وانكسرتا.

هكذا أسلم لبرشت كروجر، الفارس العصري، الروح.

الفصل الخامـــس

بعد سنةٍ وشهرين، وفي صباح أحد أيام شهر يناير من عام 1850، كان بخار الجليد يغشى الجو حين كان السيد جريونليش والسيدة جريونليش وابنتهما، التي بلغت ثلاث سنوات من عمرها، يتناولون فطورهم في غرفة الطعام المكسوة بخشب بني فاتح اللون، جالسين على مقاعد يبلغ ثمن الواحد منها 25 ماركًا.

وكان الضباب قد غطى زجاج النوافذ، فكاد يُخفي ما وراءه، حتى بدت الأشجار والشجيرات الجرداء كأنها طيفٌ هائم.

بجوار الباب المفتوح المفضي إلى غرفة القراءة، حيث تُرى بعض نباتات الزينة، كانت المدفأة خضراء اللون الواطئة المتقدة القائمة في أحد الأركان تصدر صوت قرقعة، وتنشر في أرجاء المكان دفئًا لطيفًا ذا عبق خفيف. وإلى الجانب المقابل كانت ستائر خضراء اللون قد لُملمت ليبدو الصالون المكسو بحرير بني اللون، وبابٌ زجاجي عال بُطنت خصاصُه بنسيجٍ قطني توارت خلفه شرفة صغيرة داخل الضباب الرمادي الأبيض.

أما الحرير الدمشقي ناصع البياض فوق المائدة المستديرة، فقد وُضع فوقه مفرشٌ مطرز أخضر اللون، غُطيت حوافه بإطارٍ مذهب وقطع خزفية شفافة، كانت تبرق أحيانًا كالصدف. وكان هناك موقد للشاي يصاعد أزيزه. وكانت سلة خبز مسطحة مصنوعة من فضة رقيقة على شكل ورقة نبات كبيرة ملتفة قليلاً ذات حروف زجزاجية قد احتوت فطائر مستديرة وشرائح مخبوزة بالحليب. وتحت غطاء من البللور كرياتُ زبد مكدسة، وتحت آخر أنواعٌ مختلفة من الجبن الأصفر والأخضر المرمري والأبيض. ولم تفتقد المائدة زجاجة من النبيذ الأحمر، وُضعت أمام رب البيت، فقد كان السيد جريونليش يفضل الفطور الساخن.

كان قد قام قبل ذلك بتشذيب لحيته، فبدا وجهه مورَّدًا في هذه الساعة من الصباح، وهو يجلس مديرًا ظهره للصالون، وقد ارتدى سترة كاملة سوداء، وسروالاً زاهي اللون بخطوط متقاطعة.

كان يتناول الطعام على الطريقة الإنجليزية، أي قطعة من اللحم الـ(كستليت) المحمر تحميرًا خفيفًا. وبرغم أن زوجته كانت تأنف منه بدرجة كبيرة إلا أنها كانت تجد ذلك نوعًا من الوجاهة، فلم تستطع قط استبداله بفطورها المكون من البيض والجبن.

أما أنطونيا فقد تدثرت في رداء الصباح، فهي تهيم بمثل هذه الثياب المنزلية، ولم تكن ترى هناك ما هو أكثر أناقةً من روب "نيجليجه".

ولما كانت في بيت أسرتها مولعةً بارتداء مثل هذه الثياب، فقد أصبحت أحرص على ذلك في بيت زوجها. وهي تمتلك ثلاثةً من هذه الثياب اللينة الرقيقة التي تفوق حياكتها المتقنة ثياب الرقص ذوقًا وخيالاً. إلا أنها ارتدت

صباح ذاك اليوم ثوبًا ذا لون أحمر داكن، يتفق لونه مع لون كسوة الأثاث؛ أما نسيجه المنقوش بزهر كبير فكان أنعم من القطن، وقد وشى بالـ"ترتر" باللون نفسه، الذي غطى الثوب كله كرذاذ المطر. ومن طرفي الياقة كان صفُ شرائط كثيفة من القطيفة الحمراء يمتد مستقيمًا حتى إطار طرف الثوب. وكان شعرها الكث ذو اللون الأشقر الداكن المزدان بشريط مخملي قد تهدل خصلاتٍ على جبهتها.

وبرغم أن مظهرها قد بلغ الكمال، كما كانت هي تدرك ذلك، إلا أن التعبير الطفولي الساذج الجريء ظل مرتسمًا على شفتها العليا البارزة.

وقد التهب جفنا عينيها الزرقاوين الرماديتين من أثر الماء البارد. أما يداها الرقيقتان البيضاوان القصيرتان بعض الشيء، فأحاط بمعصميهما الدقيقين إطار كُمين من القطيفة، وأصبحتا تحركان السكين والشوكة والقدح بشيءٍ من التسرع والحدة.

وبجوارها، وفي مقعد صغير يشبه البرج، كات تجلس الصغيرة أريكا بخصلات شعر قصيرة، وقد بدت بصحة جيدة، مرتديةً فستانًا مرحًا غير محبوك، مغزولاً من صوف سميك، وقد تشبثت يداها الصغيرتان بقدح ضخم توارى خلفه وجهُها تمامًا، وراحت ترشف الحليب مصدرةً من حينٍ لآخر تنهيدة توحي بالوداعة.

دقت السيدة جريونليش الجرس فجاءت على الفور الخادمة تينكا من الممر لتحمل الطفلة من المقعد البرج إلى غرفة ألعابها بالطابق العلوي. أما أنطونيا فقالت: "ألا تأخذينها في نزهة بالعربة في الخارج، تينكا، لنصف ساعةٍ لا أكثر، ولتلبسيها سترةً ثقيلة، أتسمعينني؟ فالضباب تكاثف".

وظلت أنطونيا مع زوجها، ثم قالت بعد فترة صمتٍ قصيرة، كأنها تريد وصل ما انقطع من حوار: "تبدو مدعاةً للسخرية، فهل لديك ما يبرر هذا؟ أو فلتفصح عن أسباب تناقض هذا.. إنني لا أملك المقدرة على رعاية الطفلة على الدوام".

"أنت لا تحبين الأطفال، أنطونيا".

"أنا لا أحب الأطفال!.. ليس لديَّ وقتٌ لحب الأطفال، فتدبير أمور البيت تشغلني؛ فأنا أستيقظ وبرأسي عشرون فكرة لابد من تنفيذها نهارًا، فإن ذهبت للنوم صرت مشغولة بأربعين أخرى لم يتم إنجازها".

"لديك خادمتان، إحداهما فتاة صغيرة".

"خادماتان، حسنًا، فلـ"تينكا" مهام الغسيل والنظافة والخدمة، أما الطاهية فهي دائمًا مشغولة؛ فأنت تأكل لحم الـ"كستليت" في الصباح الباكر؛ فلتتدبر الأمر، جريونليش، فـ"إاريكا" بحاجة لمربيةً عاجلاً أم آجلاً".

"ليس بمقدورنا توفير مربية الآن".

"مقدورنا! يا إلهي، ألا تستحي، فهل بلغ الفقر حد التنازل عن ضروريات الحياة، وقد نما إلى علمي حصولك على ثمانين ألف مارك".

"يا للثمانين ألف مارك!"

"يقينًا! تقولها مستهترًا، فالأمر لا يقف عندها، لقد تزوجتني عن حُب، حسنًا، فهل ما تزال على حبك لي؟ أنت لا تبالي باحتياجاتي، فلابد من مربيةٍ للطفلة، أما العربة فقد تناسيتها برغم حاجتنا لها كحاجتنا للخبز؛ فنحن نقيم دائمًا في الريف، ولا نستطيع امتلاك عربة نذهب بها لزيارة معارفنا

كما يليق بأمثالنا؛ لماذا تصر على عدم الذهاب إلى المدينة، إنك تفضل أن نُدفن هنا جميعًا حتى لا أرى أحدًا، إني لم أعد أطيقك".

لم ينبس السيد جريونليش بكلمة، بل صب كأسًا من النبيذ، ثم رفع الغطاء البللور ليلتقط قطعة جبن. أما أنطونيا فواصلت حديثها: "هل ما تزال على حبك لي؟ إن صمتك يعنى استهتارًا يدفعني أن أذكرك بمشهد بعينه بحجرة المنظر الطبيعي، كنت تبدو حينذاك مختلفًا. فمنذ أيام زواجنا الأولى لا تجالسني إلا مساءً من أجل تصفح الجريدة فقط. وقد كنت في البداية حريصًا على الاهتمام بشؤوني، وقد مضى هذا الزمن كأنه تبخر، فصرت الآن تهملني".

"أما أنت فتحرصين على تدميري".

"أنا؟ أنا أحرص على تدميرك".

"فتكاسلك وحبك للخدم وإنفاق المال.."

"آه، أتلومني على حسن نشأتي، ففي بيت أبي لم أكن بحاجة حتى للإشارة بطرف إصبعي. فأصبحت أشقى لتدبير شؤون البيت، إلا أنه بوسعي أن أطلب ألا تمنعني من أبسط احتياجاتي. إن أبي الثري لم يكن يتوقع أن أُحرم ممن يقوم على خدمتي".

"فاصبري إذن حتى ننتفع بهذا الثراء، حينئذٍ تحصلين على خادمة ثالثة".

"أتتمنى وفاة أبي، وأنا من أقول إنني من بيت ميسور، ولم أدخل بيتك خاوية الوفاض".

برغم أن السيد جريونليش كان يلوك طعامه، إلا أنه ابتسم، ابتسم مفكّرًا مكدرًا في صمت؛ مما أدى إلى اضطراب حال طوني.

ثم هدأ روعها وقالت: "جريونليش، أتبتسم حين تذكر وضعنا، هل أسأت تقدير مركزنا المالي، فهل تدهورت أعمالك؟ هل..."

أثناء ذلك سُمع صوت طرق قليل على باب الممر، ثم ظهر السيد كيسلماير.

الفصل السَّـادس

بلا إذنٍ دخل صديق الأسرة كيسلماير، بلا قبعةٍ أو معطف، وإن ظل مكانه عند الباب. كانت هيئته تتسق تمامًا مع وصف أنطونيا في رسالتها إلى أمها؛ فهو قصير القامة نوعًا ما، وليس بدينًا ولا نحيفًا. كان يرتدي سترة سوداء اللون تلمع بعض الشيء، وسروالاً ضيقًا وقصيرًا، وصدرية بيضاء علقت بها كاتينة ساعة طويلة دقيقة، تتقاطع مع اثنين أو ثلاثة من الأربطة. كما برزت من وجهه المتورد بشدة لحيته المشذبة التي غطت وجنتيه منحسرة عن ذقنه وشفتيه. أما فكه الأسفل، فكان خاليًا إلا من ضرسين.

وقف السيد كيسلماير مضطربًا حائرًا مشغول البال، واضعًا يديه في جيبي سرواله، وقد غرز نابيه المصفرَّين المستديرين في شفته العليا، فيما كان شعره الخفيف الأسود الأشيب يتطاير فوق رأسه، برغم خلو الجو من أي أثر للهواء.

أما اليوم، فلفظ "آه" عابرةً مرحة وصلها بإيماءة واهنة متوترة برأسه.

برغم هذا، فلا يمكن الاعتماد على هذا التفسير، فهناك حقيقة راسخة،

وهي أنه كلما أحس بحرج موقفه كان يزداد مرحًا.

اختلجت عينا جريونليش لدى رؤيته، وتملكته الظنون على نحو صريح فبادره: "أفي هذا الوقت المبكر".

فرد كيسلماير: "نعم"، ثم حرَّك في الهواء يدًا صغيرة متوردة معروقة كأنه يقول: "مهلاً، فلديَّ مفاجأة! أريد محادثتك على عجل يا عزيزي!".

كان حديثه يثير الضحك إلى أقصى حد، فقد كان يكور كل كلمة في فمه ليلفظها بكل ما أوتي من قوة غاشمة من فمه الصغير المذبذب الخالي من الأسنان تقريبًا.

أما أنطونيا فقالت: "تفضل يا سيد كيسلماير! اجلس، حسنًا فعلت بمجيئك، أصغ إليَّ، فلتكن حكمًا بيننا، فقد كنت قبل لحظة أتشاجر مع جريونليش، فلتخبرني: أليس من حق طفلة في الثالثة أن يكون لها مربية أم لا؟ والآن؟"

غير أن السيد كيسلماير بدا متجاهلاً لها مقطبًا وجهه، وقد فغر فاه قدر إمكانه، ثم أخذ يعبث بلحيته المشذبة، فصدر عنها صوت مقلق، ومن فوق نظارته راح يرمق مائدة الفطور الأنيقة وسلة الخبز الفضية وبطاقة قارورة النبيذ الأحمر، وعلى وجهه أمارات بشر لا يمكن وصفها.

لم يكن من أنطونيا إلا أن أردفت: "وقد زعم جريونليش أني أدفعه إلى الإفلاس".

فنظر كيسلماير نحوها، ثم تحول إلى جريونليش لينفجر في الضحك على نحو غريب، وصاح: "أنتِ.. تفلسينه.. يا إلهي، يا إلهي، يا لَه من زمن عجيب، إنه أمر يبعث على الضحك.. ضحك، بلا حدود". ثم راح يهدر موجات من

زفرات مختلفة. أما السيد جريونليش فراح يتململ فوق مقعده يمينًا ويسارًا بتوتر واضح، ويضع سبابته الطويلة بين عنقه وياقته تارةً، وتارةً أخرى يمسح براحة كفه فوق لحيته الصفراء كالذهب، ثم قال: "كيسلماير، كف عن هذا، أنت رجل عاقل، أتريد شيئًا من النبيذ؟ أتريد سيجارًا؟ ما سبب ضحكك حقًا؟"

"سبب ضحكي؟.. أجل، فلتعطني كأسًا من النبيذ وامنحني سيجارًا، سبب ضحكي؟ أترى أن زوجتك تدفعك إلى الإفلاس؟"

فرد جريونبليش حانقًا: "إنها لا تعرف سوى الرفاهية".

لم تحتج أنطونيا على ما قيل، بل رفعت شفتها العليا وأسندت ظهرها على راحتها، وأراحت يدها على حجرها فوق الشرائط المخملية التي يزدان بها معطفها المنزلي، وقالت:"نعم لقد خُلقت لهذا، وهذا واضح، وهو ما ورثته عن أمي، فكل آل كروجر لديهم ميل إلى الترف".

كانت أنطونيا تود التصريح بأنها هوائية عنيدة تنزع للانتقام. فقد كانت روح عائلتها المتأصلة فيها قد جعلتها لا تعرف مفاهيم الإرادة الحرة واتخاذ القرار، بقدر ما جعلتها تدرك سمات شخصيتها والإقرار بها بحياد متواكل.

أنهى السيد جريونليش إفطاره، وامتزجت رائحة دخان السيجارين بتلك المنبعثة من المدفأة. ثم قال رب الدار: "هل سيجارك انتهى، كيسلماير، فلتأخذ غيره، وهل أصب لك كأسًا من النبيذ الأحمر؟ لقد كنت تريد محادثتي، هل الأمر عاجل، مهم، هل ترى حرارة الجو هنا لا تحتمل، وسوف نمضي فيما بعد إلى المدينة. على أية حال، فجو غرفة التدخين أكثر برودة".

برغم كل محاولات الالتفاف هذه، إلا أن السيد كيسلماير لم يزد على أن

حرك يده، كأنه يقول "لا جدوى من وراء كل هذا يا عزيزي!"

وفي النهاية، نهض الاثنان، لتبقى أنطونيا وحدها. وفيما كانت تشرف على الخادمة وهي ترفع ما كان على المائدة، كان السيد جريونليش يصطحب رفيق العمل إلى غرفة القراءة. فسار أمامه مطرقًا غارقًا في أفكاره، أما السيد كيسلماير فراح يطوِّح بذراعيه حتى اختفى بحجرة التدخين.

بعد عشر دقائق مضت أنطونيا للحظة إلى الصالون لتمسح بمنفضة ملونة سطح المكتب الصغير اللامع المصنوع من خشب الجوز، وأيضًا أرجل المائدة المقوسة، ثم خرجت من قاعة الطعام إلى غرفة المعيشة، بخطى متئدة تتسم بالسكينة والوقار. فبدا أن ابنة بودنبروك لم تفقد شيئًا من كبريائها بعد زواجها من جريونليش. فقد مضت منتصبة القامة، مريحة ذقنها إلى صدرها، متأملة ما حولها بتعالٍ وهي تمسك بيدٍ حلقة المفاتيح الرقيقة المطلية،فيما وضعت يدها الأخرى في جيب الرداء الأحمر الداكن، الذي استمتعت بثناياه الناعمة وهي تحف بها، بينما كان تعبير فمها البسيط الساذج يشي بأن هذا الجلال ليس سوى لهو صبياني بريء.

ثم أخذت تدور بغرفة القراءة ممسكة رشاشًا نحاسيًا صغيرًا تروي به التربة السوداء لنبات ورقي، كانت تكن له حبًا جمًا، فقد كان يضفي الفخامة على بيتها.

وراحت تمر براحتها بحذر فوق براعم صغيرة تفتحت فوق سيقان قوية مستديرة، وأخذت تتفحص الفروع التي تنمو على نحو جليل، وأخذت تشذب طرفًا ذابلاً هنا وهناك. وفجأةً تنامى إلى سمعها الحديث الدائر بغرفة التدخين، بعد أن علت نبرته قبل دقائق بشكل ملحوظ إلى حد أن السيدة

جريونليش فهمت كل ما يقال، برغم الباب محكم الإغلاق والستائر المسدلة. فقد سمعت السيد جريونليش يصيح: "لا تزعق هكذا، أستحلفك بالرب أن تتعقل"، إلا أن صوته الرخيم لم يحتمل هذا الانفعال فتخللته الحشرجة.

ثم أردف: "أتريد سيجارًا؟"

فرد المصرفي: "بكل سرور. شكرًا". ثم ران صمت لفترة استهلك أثناءها السيد كيسلماير ما استهلك، ثم قال بإيجاز، هل تريد أم لا تريد، هذا أم ذاك؟"

"كيسلماير، مدد المهلة!"

"أها! لا يا عزيزي، لا، محال، لا جدال في هذا البتة".

"ولِمَ لا؟ ماذا جرى لك، أستحلفك بالرب أن نتفاهم، ألم تنتظر طوال هذا الوقت".

"ولا يوم فوق ما انتظرت، يا عزيزي، لنقل إذن ثمانية أيام، ولا ساعة بعدها، أليس بوسعك اللجوء إلى..."

"كيسلماير.. بدون ذكر أسماء!".

"حسنًا، بدون ذكر أسماء، أليس هناك من يستطيع الاعتماد على طيب الذكر السيد.."

"لا تذكر اسمه.. بربك لا ترتكب هذه الحماقة".

"حسنًا، لن أذكر أسماء، أليس بوسعك الاعتماد على الشركة الشهيرة، التي ترتفع بها أسهمك وتهبط، يا عزيزي؟ كم خسرت هذه الشركة في محنة إفلاس بريمن؟ خمسين ألفا، سبعين ألفا، مئة ألف، أم أكثر من ذلك؟ ألم

تكن الشركة مساهمة في ذلك، بل ساهمت بكل قواها، وهو أمر تعرفه العصافير على الشجر، أم أنها مسائل تخضع للهوى. بالأمس أصبح.. حسنًا، لن أذكر أسماء، لقد كان البيت التجاري الشهير يضعك تحت حمايته التامة دون أدنى اعتبار، واليوم أصبحت سوقه راكدة. أما بندكس جرينليش فهو أكثر ركودًا، وهذا أمر واضح لا شك فيه، ألا تعرف ذلك؟ وأنت حقًا أول مَن يجب أن يعرف هذا الاضطراب.. كيف يلقاك هؤلاء إذن وكيف ينظرون إليك، إن بوك وكوتسيكر يتمتعان بالكرم والثقة على نحو كبير. فما هو موقف بنك التسليف، إذن؟"

"إنه يمدد المهلة".

"أها.. أتكذب؟ فإني أعلم بالصفقة التي عقدتها بالأمس، كانت صفقة مجزية إلى أبعد الحدود. لكن.. لا تخجل، فطبيعي أن ترى صالحك في مناورتك عليَّ بأن هؤلاء مطمئنون إليك، لا يحركون ساكنًا ضدك.. كعهدهم في الماضي. إذن ياعزيزي فلترسل إلى القنصل.. فأنا أنتظر لأسبوع".

"دفعة تحت الحساب، كيسلمايرا".

"دفعة هنا وأخرى هناك.. إن الدفعات على الحساب لا يمنحها المرء إلا لمن هو قادر على ردها، فهل أُلدغ من نفس الجحر وأنا أعرف مدى قدرتك على السداد. ها، ها، دفعة تحت الحساب، إنه أمر مضحك".

"فلتخفض من صوتك، كيسلماير، وكف عن الضحك بهذا النحو المزري، إن مركزي مهدد، نعم أعترف بأنه مهدد، لكني أتوقع صفقات كثيرة على نحو أو آخر، وقد تعود عليَّ هذه الصفقات بالخير، اسمع! انظر، مدد المهلة لأوقع لك على 20٪ فائدة".

"لن يحدث شيء من هذا، لا شيء من هذا، إنك تثير الضحك، عزيزي، أنا لا أبيع إلا في الوقت المناسب، فقد عرضت عليك 8٪ لأمدد المهلة وعرضت عليك 12٪ و16٪ لأمدد لك المهلة كل مرة، لكني لا أفكر في إمهالك. وإن عرضت عليّ 40 ٪، لن أفكر يا عزيزي.. فمنذ الانهيار المدوي لإخوان فستفال في بريمن أصبح الجميع يسعون إلى إنقاذ وتأمين مصالحهم في البيت التجاري الشهير. وكما قلت لك فأنا لا أبيع إلا في الوقت المناسب، وقد كنت أحترم ما توقعه لي طالما كان مركز بودنبروك مستقرًا غير مهدد. وفي تلك الأثناء كنت أحصل أموالاً من الفوائد المتأخرة فأمنحك قروضًا، غير أننا نبقى على الأمر طالما ارتفعت أسهمه أو ظل على الأقل مستقرًا، أما إذا أخذ في الهبوط فعلينا أن نبيع، ما أريد قوله هو أنني أطلب رأسمالي".

"كيسلماير، ألا تستحي!"

"أها.. كم أطرب لهذه العبارة، فماذا تريد حقًا؟ إنك سوف تستعين حتمًا بصهرك، إن بنك التسليف لا يكف عن الصراخ، وأنت تحديدًا لست بعيدًا عن ذلك".

"كلا، كيسلماير، أستحلفك الإنصات إليّ بروية، فأنا صريح، أنا أقر صراحةً أن مركزي مهدد. فلست وحدك وبنك الائتمان فقط.. فقد طُلِب مني تسديد كمبيالات... كأن الجميع اتفقوا عليّ.."

"هذا أمرٌ بديهي في مثل هذه الأحوال.. لكن.. عليك تسديد المبلغ دفعةً واحدةً".

"كلاً، كيسلماير، أنصت إليّ، امنحني كرمك.. خذ سيجارًا آخر".

"لم أنته من هذا بعد، ولتدعني أنت وسيجارك في سلام، ادفع لي".

"كيسلماير، لا تتركني أهوي الآن، فأنت صديقي، وأكلت على مائدتي".

"ألم تأكل أنت أيضًا على مائدتي، يا عزيزي؟"

"بلى، بلى، لكن لا تهددني بحجب ثقتك عني الآن، كيسلماير".

"ثقة، تسليف بعد ما جرى، أأنت مجنون، قرض جديد؟"

"أستحلفك بالرب، كيسلماير، امنحني قرضًا بسيطًا، شيئًا قليلاً، فأنا أحتاج إلى بعض المبالغ، لأنفقها هنا وهناك، حتى أستعيد مكانتي وأسترد عافيتي. فإن ساعدتني ربحت صفقة عظيمة. فكما أخبرتك إن أمامي صفقات ستعود عليّ بالفائدة، وأنت تعلم أنني مجد مجتهد".

"نعم، أنت أحمق أرعن، يا عزيزي، ألا تنازلت لتخبرني عما تبحث عنه الآن؟ هل هناك بنك يقرضك مليمًا واحدًا، أم أن هناك صهرًا آخر، كُف عن هذا، فرهانك الأعظم عفا عليه الزمن، وهو يضن عليك بمثل هذا ثانيةً، مع تقديري، كل التقدير.."

"ألا خفضت من صوتك بحق الشيطان".

"يا لَك من أحمق! إنك مجدٌ مجتهد، لكن دائمًا لصالح الآخرين! أنت لا تتمتع مطلقًا بضميرٍ حي، إلا أنك لم تستفد من ذلك قط. وقد مارست عمليات احتيال، فسطوت على رأسمال لتدفع لي 16٪ بدلاً من 12٪ فقط. وقد فقدت مصداقيتك تمامًا دون أن تنتفع من وراء ذلك بأدنى فائدة. وبرغم أن لك ضميرًا مثل ضمير كلاب الجزار، إلا أنك نحس، لا قيمة لك، أحمق مسكين! وهناك مَن هم مثلك، لكنهم- في أفضل أحوالهم- ليس لديهم ما يتمتعون به سوى خفة الظل. فلماذا تخشى إبلاغ صاحبنا بالقصة كلها؟ لأنك لا تشعر بالطمأنينة، وأنت تفعل ذلك؟ فما فعلته حينذاك من أربع

سنوات لم يكن على ما يرام، ولم يكن ترتيبك مُبرأً من العيوب، أليس كذلك؟ أتخشى أن بعض الأمور.."

"حسنًا، كيسلماير، سأرسل رسالة، لكن.. لو رفض؟ وتركني أهوي؟"

"آه.. أهًا، عندئذٍ نشهر إفلاسًا بسيطًا، إفلاسًا بسيطًا، خفيف الظل للغاية، يا عزيزي، وهو أمرٌ لا يشغل بالي على أية حال! فأنا شخصيًّا قد استرددت مستحقاتي تقريبًا من فوائد قمت أنت بدفعها لي بين الحين والآخر.. كما أن لي اليد العليا عند إشهار إفلاسك، يا عزيزي.. ولتنتبه، فأنا لم أُخرج من هنا خالي الوفاض، فأنا عليمٌ بأحوالك، أيها الغالي! ففي جيبي قائمة الجرد، مسبقًا.. أهًا، ولسوف أهتم بألا تفلت مني سلة خبز فضية أو معطف منزل".

"كيسلماير، لقد أكلت على مائدتي".

"دعنا من مائدتك، أنا بانتظار ردك بعد ثمانية أيام، وأنا ذاهبٌ إلى المدينة؛ فقليل من الحركة يعود عليَّ بنفعٍ عظيم، تحياتي، يا عزيزي، ولتنعم بصباح سعيد".

كان السيد كيسلماير- فيما يبدو- ينوي الرحيل؛ بل إنه قد رحل بالفعل؛ فها هو دبيب خطاه يُسمع وهو يجر ساقيه متثاقلاً، وهو فيما يبدو قد مضى وهو يطوح بذراعيه.

كانت أنطونيا واقفة ممسكة بالرشاش النحاسي، عندما دخل السيد جريونليش إلى غرفة القراءة، فإذا بها تحملق فيه. فقال لها: "لِمَ تقفين هكذا، ولِمَ تحملقين هكذا؟" وقد كشر عن أنيابه، وأخذ يلوح بيديه بإشارات غامضة، وأخذ يميل بجذعه هنا وهناك، وشاع في وجهه شيء من شحوب، فراحت بقع حمراء تنتشر به كأنه أصيب بالحصبة.

الفصل السَّـابع

في الساعة الثانية بعد الظهر كان القنصل بودنبروك قد وصل إلى ڤيلا آل جريونليش، فظهر في الصالون مرتديًا معطفًا رماديًا، فعانق ابنته التي كانت عيناها تقطران مرارة.

كانت أمارات الشيخوخة والشحوب بادية في وجه الرجل، أما عيناه الصغيرتان فكانتا غائرتين، كما ازداد بروز أنفه للغاية، بعد أن ترهلت وجنتاه، وأصبحت شفتاه أرق مما كانتا عليه من قبل. أما لحيته التي وخطها الشيب، فقد تقلصت إلى نتف بين فوديه ووجنتيه، ونما شعرها أسفل ذقنه، وتوارى بعضه خلف ياقة قميصه المنشاة ورباط عنقه، كما امتد الشيب كذلك إلى شعر رأسه.

كان القنصل قد مر بأيام عسيرة، إذ أصيب ابنه توماس بنزيف في الرئة، وكان السيد فان دركيلن هو مَن أخبره بهذا المصاب الأليم، فترك إدارة أعماله لوكيله المخلص، وأسرع بالسفر إلى أمستردام. وهناك تأكد أن مرض ابنه لا يهدده بخطر مباشر، لكنه كان عليه الإسراع بالانتقال إلى الجنوب- جنوب

فرنسا من أجل الاستشفاء بهواء أكثر ملاءمة.

وما كاد يعود إلى بيته حتى تلقى هذه اللطمة التي هزت كيان متجره لفترةٍ ما، وهي إفلاس البنك في بريمن، حيث خسر ثمانين ألف مارك دفعةً واحدة.. كيف؟

لقد توقف المشترون عن سداد ثمن الأسهم المسحوبة على اسم شركة جبرودر فستفال، لتعود ثانيةً إلى الشركة. فلم تستفد منها الشركة حتى لمجرد التغطية. فلم تتردد الشركة في بذل قصارى جهدها في الحال، إلا أن هذا لم يحل دون أن يشعر القنصل بمرارة مباغتة من التجاهل والتحفظ والارتياب، مما يصاحب مثل هذه النوازل، ومثل هذا التردي الذي أصاب رأسمال متجره لدى البنوك و"الأصدقاء" والشركات بالخارج .

وقد وقف على قدميه مستوعبًا الأمر كله، وأعاد ترتيبه، وهدأ روعه واسترد ثقته بنفسه، وإذ به أثناء ما يكابده، ومن بين البرقيات والرسائل والحسابات، يُصدم بهذا أيضًا: لقد أُصبح بندكس جريونليش، زوج ابنته، عاجزًا عن السداد، فها هو يرجو ويتضرع ويلحف في رسالة طويلة مرتبكة بائسة للغاية طالبًا المدد بمبلغ يتراوح بين مئة ومئة وعشرين ألف مارك. وهو ما أخبر به القنصل زوجته على نحوٍ موجز عابر مطمئن.

وكان أن أرسل ردًا مقتضبًا إلى السيد جريونليش يطلب لقاء المصرفي كيسلماير ببيت الأول، ثم سافر إلى هناك.

هكذا استقبلته أنطونيا بصالونها المكسو بالحرير، وهو المكان الذي كانت تهيم به لدى استقبال ضيوفها، حيث ينتابها هناك شعورٌ طاغ بأهمية مكانتها الخاصة، دون أن تقف على سبب واضح لذلك.

بدت جميلة جليلة، مرتديةً ثوبًا رماديًا زاهيًا بأكمام على هيئة أجراس، وقد ازدان فوق الصدر والمعصمين بالدانتيل، كما ارتدت تنورة فضفاضة تساير أحدث موضة، وازدان عنقها ببعض الماس.

"طاب يومك يا أبي، أخيرًا.. إذن نلقاك! كيف صحة والدتي؟ هل لديك أخبار طيبة عن توم، لتضع عنك معطفك، وتتفضل بالجلوس يا والدي العزيز! أتريد أن تستعيد انتعاش مظهرك، لقد أعددت من أجلك غرفة الضيوف بالطابق العلوي، وجريونليش أيضًا يهيئ نفسه بالحمام".

"فلتدعيه الآن يا ابنتي، فأنا أود لقاءه هنا، تعرفين أن زيارتي هي من أجل الحديث مع زوجك، إنه حديث مهم للغاية يا عزيزتي أنطونيا! هل وصل السيد كيسلماير؟".

"نعم يا أبي، إنه ينتظر بغرفة القراءة يطالع الألبوم".

"وأين أريكا؟"

"إنها بغرفة الأطفال بالطابق العلوي، وهي تتمتع بصحة جيدة، وتنشغل الآن بتنظيف دميتها، ليس بالماء طبعًا لأنها دميةٌ من الشمع، وباختصار: فهي تقوم بتمثيل ذلك".

فرد القنصل: "مفهوم"، ثم تنهد مستطردًا: "أعتقد يا ابنتي الصغيرة أنك تجهلين موقف زوجك؟"

كان الرجل قد جلس على مقعد وثير من مقاعد المائدة الكبيرة، أما أنطونيا فقد قبعت عند قدميه فوق مقعد صغير وُضعت فوقه، على نحو منحرف، ثلاث وسائد صغيرة، بينما كان أبوها يعبث باهتمام بأصابع يده اليمنى بقطع الماس بعنقها. وردت طوني: "كلاَّ، يا أبي، أنا لا أدري شيئًا عن

هذا، وهو ما أقر لك به، يا لحماقتي، أتعلم أني حمقاء، فقد استمعت مؤخرًا إلى حديث دار بين كيسلماير وجريونليش، وبدا لي من نهاية حديثهما أن السيد كيسلماير يمزح، فقد كان حديثه باعثًا دائمًا على الضحك، وقد سمعت اسمك مرةً أو اثنتين".

"أسمعتِ اسمى، في أي سياق؟"

"لا أدري يا أبي، ولست أعلم مناسبة ذلك، لقد صار جريونليش يتملكه الحنق، نعم، صار لا يحتمل، هذا أمر لابد من ذكره! ثم استحال إلى شخصٍ رقيق فسألني عشر أو اثنتي عشرة مرة إن كنت أحبه، وإن كنت أقول كلمةً طيبة في حقه، إذا طلب منك شيئًا".

"آه".

"لقد أخبرني أنه راسلك، وأنك قادمٌ إلينا، وأنا أشكر الرب لمجيئك، فقد صار حالنا غريبًا إلى حدٍّ ما، وجهز جريونليش طاولة لعب الورق الخضراء وزودها بعدد من الأوراق وأقلام الرصاص، وأخبرني أنك ستتفاوض معه ومع كيسلماير".

مر القنصل براحته فوق شعرها، وقال: "اسمعي يا ابنتي العزيزة، أود أن أسالك عن أمر، أمر هام، فصارحيني.. أتحبين زوجك من كل قلبك؟"

فقالت طوني: "يقينًا يا أبي"، قالت ذلك وقد ارتسم على وجهها نفاق الأطفال، كما كان يبدو عليها في الماضي عندما كانت تُسأل: "ألن تزعجي مرةً أخرى ليزا، بائعة العرائس، طوني؟"

صمت القنصل برهةً. ثم عاود السؤال: "أنت تحبينه بالطبع، فلا تستطيعين العيش بدونه مهما كانت الظروف، أليس كذلك؟ حتى لو أراد

الرب أن يتبدل حاله فيؤول إلى وضع لا يمكن معه أن يستمر في توفير كل هذه الأشياء؟"

قال هذا وهو يشير بيده إشارة عابرة إلى أثاث الغرفة وستائرها، وكذلك الساعة المذهبة القائمة على قاعدة المرآة لينتهي إلى ثيابها.

"يقينًا يا والدي"، هكذا ردت أنطونيا بنبرة مواسية، كانت قد اعتادت الرد بها دائمًا إذا ووجهت بحديث جاد، وتحولت بنظرها من وجه أبيها إلى النافذة لترى مطرًا يهطل بالخارج رقيقًا كثيفًا بلا صوت، وارتسم بعينيها تعبير يغمر الأطفال حين ينتقل أحدهم من رواية أسطورة ليلقن الأطفال رؤية عامة عن الأخلاق والواجب، وهو تعبير يمزج بين الحيرة ونفاد الصبر، وبين الورع والحنق.

ظل القنصل برهةً يتأمل ابنته صامتًا بعينين ترفُّ أهدابهما. فهل اقتنع بجوابها؟ وكان قد قلَّب الأمر على كل وجوهه قبل أن يغادر بيته.

كان بوسع كل إنسان أن يدرك أن قرار يوهان بودنبروك الأول والسليم سوف يتجه بقوة إلى تجنب دفع أي مبلغ لصهره، إلا أنه عاد بذاكرته إلى إلحاحه- وهو لفظ لا يعبر عما فعله- في إتمام هذا الزواج، كما تذكر نظرة ابنته حين ودعها بعد حفل الزفاف، وتساؤلها "هل أنت راضٍ عني؟"

لذا أحس في قرارة نفسه بشعور كاد يجهده، وهو إحساسٌ بالذنب نحو ابنته، فقال لنفسه إن إرادتها هي التي ستحسم هذه المسألة، وهو الذي يعلم أنها لم توافق على هذه الزيجة بدافع الحب، لكنه كان يتوقع أن يتغير الحال كثيرًا بعد مرور أربع سنوات من الألفة، وكذلك مولد الطفلة، لترتبط أنطونيا بزوجها برباط الروح والجسد، وتأبى أية فكرة عن الانفصال لأية

أسباب، سواء كانت دينية أو دنيوية.

وفكر القنصل أن عليه في هذه الحال أن يرضى بدفع أية مبالغ مادية. وبرغم أن الوازع الديني وشرف المرأة يحتمان على أنطونيا أن تتبع زوجها إلى الصحراء دون شرط، إلا أنه كان عليها الإفصاح عن قرارها هذا، وهو ما يجعله يشعر أنه ليس من حقه أن يحرمها من كل ألوان المتعة والرفاهة التي اعتادتها منذ الصغر، هي التي لم يكن لها يدٌ فيما حدث.

هكذا شعر أنه يتحتم عليه منع وقوع كارثة، وأن يساند جريونليش مهما كان الثمن. وموجز القول إنه- بعد تدبره الأمر- عقد العزم على أن ياخذ ابنته وطفلتها معه، ويترك السيد جريونليش ليلاقي مصيره.

ألا لا قدر الرب ما هو أسوأ! وعلى أية حال، فقد راجع الفقرة القانونية التي توجب حق الطلاق حال عجز الزوج عن الإنفاق على الزوجة والأبناء. لكنه كان عليه في المقام الأول معرفة رأي ابنته. فراح يمسح على شعرها بحنان ليقول لها: "أنا أرى، أنا أرى يا بنيتي العزيزة ما أنتِ عليه من مكارم الأخلاق، إلا أنني ليس بوسعي أن أفترض أنك ترين الأمر كما يجب أن يُرى- وللرب الأمر- أي على أنه واقع حقيقي. وأنا لم أسألك عما تنوين فعله حيال هذا الموقف أو غيره، ولكني أسألك عما ستفعلين الآن، اليوم، في هذه اللحظة؛ ولا أدري مدى معرفتك وإدراكك للحالة الراهنة.. ولذلك فمن المحتم عليَّ إخبارك بأن زوجك مضطر للتوقف عن السداد، وفيما يخص عمله فإنه لم يعد بمقدوره مواصلته، أظن أنك فهمتِ ما أقصد..؟"

كادت أنطونيا أن تنهض عن وسائدها، وأسرعت لتقبض على يد القنصل وتسأله هامسة: "هل أفلس جريونليش..؟"

فرد هو بجدية: "نعم، يا بنيتي، ألم تحدسي ذلك؟"

فتلعثمت قائلةً: "لم أظن شيئًا بعينه".

ثم انحرفت بعينها ناظرةً إلى البساط: "إذن، لم يكن كيسلماير يمزح؟" ثم صاحت فجأةً: "يا إلهي" وتهالكت على مقعدها. وطاف بذهنها في هذه اللحظة كل ما يمكن أن تحمله كلمة إفلاس من معانٍ أدركتها بإحساسها كطفلة صغيرة، معنى غامضًا مروعًا.. "الإفلاس" هو أمرٌ أبشع من الموت، فهو يعني الاضطراب، الانهيار، الخراب، الخزي، العار، اليأس، الشقاء.

وردت: "هل أفلس؟"

كانت الكلمة بالنسبة لها طعنة قاصمة قضت عليها، فلم يخطر ببالها ما يمكن أن تساعد به، أو ما يمكن أن يساعد به والدها.

أما هو فرفع حاجبيه ناظرًا إليها بعينين صغيرتين غائرتين أثقلهما الهم والتعب، مفعمتين بقلق بالغ. قال لها مواسيًا: "لقد سألتك، عزيزتي طوني، إن كان لديك استعداد للعيش مع زوجك في ضنك وفقر؟"

فلما شعر في الحال بوقع كلمة "الفقر" القاسي، التي تعمد- تلقائيًّا- اختيارها على سبيل التهديد، أضاف إلى ذلك قوله: "وقد يتعافى ثانيةً".

فأجابته طوني: "يقينًا، يا أبي" إلا أن ذلك لم يمنعها أن تروح في نوبة بكاء، فأخذت تنتحب في منديلها، المنقوش عليه حرفا "أ ج" والمصنوع من قماش الباتيستا، المشغول بالدانتيل. وراحت تبكي كطفلة بلا خجل أو تجمل، وتركت شفتها العليا انطباعًا لا يمكن وصفه.

راح أبوها يتأملها مختبرًا: "أتعنين ما تقولين، يا بنيتي؟" فقد كان محتارًا مثلها.

ارتفع نشيجها قائلةً: "أليس ذلك واجبًا عليّ.. إنه يتحتم عليّ ذلك".

فقال بحزمٍ: "كلا.. على الإطلاق"؛ إلا أنه استدرك، بعد شعوره بالذنب: "أنا لا أُكرهك على ذلك إطلاقًا، يا عزيزتي أنطونيا، في حالة ارتباطك الوثيق بزوجك".

فنظرت إليه بعينين مغرورقين بالدمع، متساءلةً: "كيف يا والدي؟"

هز القنصل رأسه يمينًا ويسارًا حتى اهتدى إلى كلام مناسب، فقال: "بنيّتي الطيبة، قد لا تظنين أنه يؤلمني بشدة أن أدعك لهموم وآلام سببها لك ما جرى لزوجك وانهيار أعماله، وما يجره عليك من خراب بيتك.. فأنا آمل ألا أعرضك لمثل هذه المشاق، فآخذك أنت وابنتنا الصغيرة أريكا لتعيشا مؤقتًا في بيتي. وأظن أنك ستكونين شاكرة لي على ذلك".

لاذت أنطونيا برهةً بالصمت وهي تجفف دمعها، ونفثت بتكلف في منديلها، ثم ضغطت به على عينيها حتى لا تلتهبا، ثم سألت بنبرة تنطوي على الإصرار هامسةً: "والدي! أيكون جريونليش هو المسؤول؟ هل تورط في هذه الكارثة بسبب رعونته وخراب ذمته!"

فقال القنصل: "هذا هو الأرجح.. أقصد.. لا، لست أدري يا بنيتي، وقد أخبرتك أنني لم أناقشه والمصرفي في ذلك بعد".

وفيما يبدو، فإن أنطونيا لم تعر هذه الإجابة أي اهتمام، فقد مالت فوق وسائدها الحريرية الثلاث، واعتمدت بمرفقيها على ركبتيها، وارتكزت بذقنها على يدها، وشرعت تنظر برأس منكسة تتأمل الغرفة، حالمةً من أسفل إلى أعلى. ثم قالت، وهي لا تكاد تحرك شفتيها، بصوتٍ هامس: "آهٍ يا أبي، ألم يكن حينذاك من الأفضل.."

لم يكن بوسع القنصل رؤية وجهها، لكنه كان هو الوجه نفسه الذي ارتسم عليه هذا التعبير ذات مساء صيفٍ في ترافيمنده، حين استندت إلى نافذة غرفتها الصغيرة، وأراحت إحدى ذراعيها على ركبة أبيها، فيما كانت ترسلت يدها في تراخٍ. كانت حتى يدها هذه تعبر عن ألمٍ بليغ واستسلام رقيق، وحنين شجي مفعم بالذكريات، يحوم طيفه في أفقٍ بعيد.

أما هو فكان مستعدًا للإقرار من أعماق قلبه أنه كان من الأفضل ألا يتم هذا الزواج، إلا أن طوني لم يسعها سوى أن تتنهد قائلةً: "آه، لاشيء!"

هكذا بدا أنها، وقد قيدتها أفكارها، قد شردت بعيدًا ونسيت "الإفلاس". أما القنصل فقد رأى نفسه مضطرًا أن يقر بما هو واقع، فقال: "أعتقد أنني قد قرأت أفكارك، عزيزتي طوني، ومن ناحيتي فأنا لا أتردد في الاعتراف لك بندمي الآن على قرار أعتقدت صوابه وصحته آنذاك، وهو ندمٌ صادق. وأنا مؤمنٌ ببراءة ساحتي أمام الرب. فأعتقد أنني قد أديت واجبي على أفضل وجه، عندما حرصت على حياة زوجية تناسب ما نشأتِ عليه.. إلا أن القدر شاء أمرًا آخر.. فلا تظني أن والدك هو مَن غامر آنذاك بسعادتك باستهتار ونزق! فآنذاك كان جريونليش قد تقدم لي متجملاً بأفضل المزايا، فهو ابنٌ لقس، ورجل متدين عركته الحياة.. فلما استعلمت فيما بعد عن سير أعماله جاءت النتيجة لصالحه. وقد أعدت التفكير فيما حدث، فوجدت أن الأمر كله غامض، ويحتاج إلى تفسير. ولكنك لا تريني مذنبًا، أليس كذلك؟"

"كلاً، يا أبي، كيف تتفوه بمثل هذا القول! تعال، ولا تدع هذا الأمر يؤذيك، يا والدي المسكين.. فأنت تبدو شاحبًا، هل أحضر لك دواءً للمعدة؟"، وطوقت عنقه بذراعيها وقبلت وجنته.

فقال: "أشكرك، إذن، إذن.. دعي عنك هذا، أشكرك. حقًّا، لقد مررتُ بأيام عسيرة.. فما العمل؟ لقد تعرضت لمتاعب كثيرة، إنه ابتلاء من الرب، إلا أن هذا لا يحول دون شعوري بالذنب تجاهك، يا بنيتي. والآن، فالأمر كله يتوقف على سؤالي السابق لك، وهو ما لم تردي عليه ردًّا شافيًا، صارحيني، طوني.. هل تعلمت خلال سنوات الزواج هذه أن تحبي زوجك؟"

عاودت أنطونيا البكاء، وفيما كانت تخفي عينيها بمنديلها الباتيستا بكلتا يديها، قالت مولولةً: "آه! ماذا تقول يا أبي! أنا لم أحبه قط، بل كنت دومًا أمقته، ألا تعرف ذلك؟"

كان من العسير معرفة ما ارتسم على وجه يوهان بودنبروك، فقد كانت نظرات الفزع والهم تطل من عينيه، وقد أطبق شفتيه فتجعد شدقاه ووجنتاه، مثلما كان يحدث حين يفرغ من إنهاء صفقة مربحة، ثم قال بصوت هامس: "أربع سنين".

جفت دموع أنطونيا بغتةً، لتنهض من مقعدها ممسكةً بمنديلها المبلل وتصيح غاضبةً: "أربع سنين.. ها! لقد كان أحيانًا يجالسني مساءً ليطالع الصحف طيلة أربع سنين".

فتهدج صوت القنصل، وهو يقول: "لكن الرب وهبكما طفلةً".

"نعم، يا والدي، وأنا أحب أريكا كثيرًا، وإن كان جريونليش يدعي أني لا أحب الأطفال، لكني لن أنفصل عنها أبدًا، وهذا أمرٌ لابد أن تعلمه، أما جريونليش- فلا! جريونليش- لا!.. ثم يُضاف إلى ذلك إفلاسه الآن!.. آه، يا أبي، بكل أريحية أن تأخذني أنا وأريكا إلى البيت، ها أنت عرفت الردا".

عاود القنصل إطباق شفتيه وقد شمله الرضا التام، إلا أنه كان ما يزال

عليه أن يمس النقطة الأساسية، لكن الإصرار الذي أبدته أنطونيا جعله لا يقدم على الكثير، فقال: "برغم كل هذا، فيبدو لي أنك، يا بنيتي، تنسين تمامًا أن هناك من سيساعد، وهو أنا. فقد أعلن أبوك أمامك بالفعل أنه يشعر بالذنب نحوك، وفي هذه الحال.. حسنًا، في هذه الحال، حين تأملين منه.. تتوقعين أنه سوف يتدخل للإنقاذ، ويسدد ديون زوجك- خيرًا كان أو شرًا- فيحافظ على سير أعماله..."

ثم أخذ يراقبها قلقًا، فارتاح إلى ما بدا على ملامح وجهها من خيبة أمل. أما هي فسألته: "كم يكلفك هذا الأمر؟"

فقال: "وما فائدة ذلك، يا بنيتي.. فالمبلغ، المبلغ ضخمٌ للغاية".

ثم هز القنصل رأسه مراتٍ عديدة، كأن عبء التفكير في هذا المبلغ هو الذي يجعله يرتجف. ثم أردف: "وفي هذا الشأن، فلن أخفي عنك أنه، بغض النظر عن هذه المسألة، فإن شركتنا تعاني من خسائر، ودفع مثل هذا المبلغ سوف يعني إضعاف مركزها، مما يجعل استردادها لعافيتها أمرًا صعبًا.. صعبًا، وأنا لا أقول ذلك على أية حال من أجل..."

لم يتم عبارته. فقد هبت أنطونيا واقفةً، ثم تقهقرت إلى الخلف بضع خطوات، وكانت ما تزال ممسكةً بمنديلها، وهتفت: "كفى.. محال".

هكذا أبدت مقاومةً ما. فحسمت كلمة "الشركة" الأمر. فتأثيرها، على الأرجح، كان أكثر حسمًا من نفورها من السيد جريونليش. فانفجرت: "لن تفعل ذلك يا أبي، فهل تريد أن تفلس أنت أيضًا، كفى! لن يحدث هذا أبدًا".

في هذه اللحظة انفتح باب الممر بترددٍ ما ليدخل السيد جريونليش.

فنهض يوهان بودنبروك، وكأنه يقول من خلال ذلك إن الأمر قد انتهى.

الفصل الثَّـــامن

كان وجه السيد جريونليش مشوبًا بالبقع الحمراء، إلا أنه كان في كامل أناقته. فقد بدا مرتديًا سترة سوداء من نسيجٍ متين، ذات ثنايا، أما سرواله فكان بلون البازلاء، مثل ذلك الذي كان قد زارهم به أول مرة في منجشتراسه. وقد ظل واقفًا متراخيًا مطرقًا نحو الأرض ليقول بنبرةٍ ناعمة هامسة: "والدى.."

فانحنى القنصل ببرود، وعدَّل من رباط عنقه بحركةٍ حيوية.

فأضاف السيد جريونليش: "أشكرك على زيارتك".

فرد القنصل: "إنه الواجب يا صديقي، لكني أخشى أن يكون هذا فقط هو كل ما أستطيع تقديمه في شأن مسألتك".

فرماه صهره بنظرةٍ خاطفة، وقد ازداد تراخيه.

أما القنصل فاسترسل: "أعرف أن المصرفي السيد كيسلماير بانتظارنا، فما هو المكان الذي حددته للقائنا؟ فأنا مستعد لذلك".

فغمغم السيد جريونليش: "فلتتكرم باتباعي".

فطبع القنصل بودنبروك قبلةً على جبين ابنته، وقال: "فلتصعدي إلى ابنتك، أنطوني!".

ثم سار بصحبة السيد جريونليش الذي راح يمضي تارةً أمامه وتارةً خلفه، ثم قام بإزاحة الستائر الفاصلة بين قاعة الطعام وغرفة المعيشة.

وما إن التفت السيد كيسلماير، الواقف حيال النافذة، حتى انتفض شعر ذؤابته السوداء البيضاء، ثم استوى ثانيةً بهدوءٍ فوق رأسه. فقال جريونليش بجديةٍ وبساطة: "السيد المصرفي كيسلماير، القنصل بودنبروك، تاجر الجملة، صهري".

كان وجه القنصل جامدًا، بينما انحنى السيد كيسلماير مرسلاً ذراعيه، وقد عض شفتيه العليا بنابيه المصفرين، وقال: "خادمك، سيدي القنصل، إن سعادتى بالغة لإيثارك لقائي".

فقال السيد جريونليش، الذي أبدى أدبًا جمًا نحو ضيفيه: "فلتعذرني، كيسلماير، أن اضطررتك للانتظار".

تلفت القنصل هنا وهناك، ثم قال: "هلا بدأنا بما جئنا من أجله".

فأسرع رب البيت ليرد: "فليتفضل السيدان.."

أثناء انتقال السادة إلى غرفة التدخين، بادر السيد كيسلماير ليقول مجاملاً: "هل كانت رحلتك مريحة، سيدي القنصل؟.. هل هطل المطر، إنه أحد فصول السنة السيئة. إنه فصل مقيت قذر، ليت كان هناك شيء من الجليد، لكن ليس هناك سوى مطر وأوحال، إنه فصل كريه للغاية، للغاية".

فما كان من القنصل إلا أن قال لنفسه: "يا له من شخصٍ غريب الأطوار".

في وسط الغرفة الصغيرة، التي كان كساؤها يزدان بزهورٍ داكنة اللون، كانت هناك طاولة مربعة أُسدل فوقها غطاءٌ أخضر اللون. وكان هطول المطر بالخارج قد اشتد، فبلغ الظلام حد أن قام السيد جريونليش بإشعال الشموع الثلاث على الشمعدانات الفضية فوق المنضدة. أما الطاولة الخضراء، فقد اشتملت أوراق عمل موسومة بأختام الشركة (هـ ف. ر اكس.) وأوراقًا مستعملة هنا وهناك تعلوها تواريخ وتوقيعات، فضلاً عن الدفتر الرئيس السميك، وريشة مشحوذة، وأقلام رصاص، ووعاء رمل معدني ومحبرة.

أما السيد جريونليش، فقد أبدى أمارات وإشارات احترامٍ صامتة مهذبة متحفظة، كتلك التي يبديها مَن يشارك في تشييع جنازة. وقال بنبرة رقيقة: "والدي العزيز، هذا الفوتِي من أجلك، وأنت أيها السيد كيسلماير، ألا تفضلت بالجلوس ها هنا؟"

وفي النهاية انتظم الأمر، فجلس المصرفي مواجهًا لرب البيت، بينما ترأس القنصل الجلسة فوق الفوتي على جانب الطاولة الطويل، وظهر مقعده يلامس باب الممر.

انحنى السيد كيسلماير مرخيًا شفته السفلى، ونزع نظارته من صدريته مثبتًا إياها فوق أنفه المقطب، فاغرًا فاه، ثم أخذ يعبث بلحيته بحركة مثيرة للتوتر، ثم ارتكز بيديه فوق ركبتيه مشيرًا برأسه إلى الأوراق ليقول بإيجازٍ وسعادة: "أهاء ها هي الورطة بقضها وقضيضها!"

فقال القنصل: "أتأذن لي بإلقاء نظرة أكثر دقةً على الموقف".

ثم تناول بيده الدفتر الضخم، فإذا بالسيد جريونليش يحجب الطاولة

بيديه الطويلتين، وقد نفرت منهما عروق زرقاء، وأخذتا في الارتجاف، وهتف بنبرة متهدجة: "لحظةً، لحظةً يا والدي، فلتدعني أمهد للمسألة بكلمة. ولسوف تطلع على الأمر كله، لكن صدقني أنك سوف تطلع على مركز رجلٍ بائس، وليس رجل مذنب، ولتنظر إليَّ يا والدي، انظر إلى رجلٍ عركته الحياة بلا هوادة، لكن القدر لم يرحمه.. انظر إليَّ هكذا.."

فقال القنصل وهو يتململ بوضوح: "سوف نرى يا صديقي، سوف نرى".

فأعاد السيد جريونليش يديه إلى مكانهما منتظرًا مصيره.

مضت دقائق ثقيلة رهيبة سادها الصمت، أثناء ما كان السادة الثلاثة يجلسون في ضوء شموع مهتز، محاصرين بين أربعة جدران معتمة. لم يكن هناك من صوتٍ سوى خشخشة أوراق يتناولها القنصل، وصوت قطرات المطر بالخارج.

وكان السيد كيسلماير قد أدخل إبهاميه في فتحتي صدريته أعلى إبطيه وراح يحرك بقية أصابعه كأنه يعزف على البيانو، وأخذ ينتقل بنظره من هذا إلى ذاك بمرح بالغ. بينما كان السيد جريونليش يجلس دون أن يسند ظهره إلى مقعده، واضعًا يديه على الطاولة وهو ينظر أمامه مهمومًا، ليرمق من حينٍ لآخر صهره بطرف عينه متخوفًا. أما القنصل فراح يقلب صفحات الدفتر الرئيس، متابعًا بظفر إصبعه جداول تحوي أرقامًا، مقارنًا التواريخ، مدونًا بقلم رصاص أرقامًا ضئيلة غير مقروءة، وقد علا وجهه المتوتر أمارات فزع مما تيسر له الاطلاع عليه. وفي النهاية، وضع يده اليسرى على ذراع جريونليش، وقال مصدومًا : "يا لَك من مسكين!"

فقال جريونليش: "والدي.."؛ ثم طفرت من عيني الرجل البائس دمعتان

كبيرتان سالتا من وجنتيه إلى فوديه الصفراوين كالذهب.

فاقتفى السيد كيسلماير أثر هاتين الدمعتين باهتمامٍ بالغ، حتى إنه نهض ومال محملقًا في وجه الجالس أمامه فاغرًا فاه. وكان تأثر القنصل بودنبروك بذلك عظيمًا، وأشفق من الكارثة، وهو يشعر أنها طالته هو نفسه، إلا أنه سرعان ما سيطر على مشاعره، فقال وهو يهز رأسه دون إبداء أسف: "كيف يمكن أن يحدث هذا في تلك السنوات القليلة!"

فقال السيد كيسلماير بنفس منشرحة: "إنه لهو الصبية، في أربع سنوات يمكن أن ينهار المرء، إذا ما اعتبرنا بتبدل حال الأخوة فستفال ببريمن في زمن قصير".

فاختلجت عينا القنصل، ناظرًا إليه دون أن يراه أو يسمعه، وهو لم يعبر عن أفكاره الحقيقية التي شغلته.. فقد سأل نفسه مرتابًا بلا استيعاب لسر حدوث كل هذا الآن، تحديدًا؟ فما حدث لبندكس جريونليش الآن كان جديرًا بأن يحدث له قبل سنتين أو ثلاث. وكان بوسعه إدراك ذلك بنظرة واحدة. إلا أن قروضه لم تعرف حدًّا، وحصل لمشاريعه على أموال من البنوك وموافقات من بيوت تجارية عريقة يملكها أمثال السناتور بوك والقنصل جاودشتيكر، وكانت صكوكه تعادل النقد السائل، فلماذا الآن، الآن، الآن تحديدًا. وكان مدير شركة يوهان بودنبروك يدرك تمامًا ما تعنيه كلمة "الآن"- لماذا هذا الانهيار التام وحجب الثقة الجماعي الذي يبدو كأنه متفقٌ عليه، ولماذا هذا الهجوم الجماعي على بندكس جريونليش بلا أدنى اعتبار أو مراعاة، بل دون أي شكلٍ من أشكال الاحترام؟

لم يكن القنصل على هذا القدر من السذاجة لو لم يكن قد أدرك أن

مكانة بيته التجاري كانت تصب في صالح صهره جريونليش، بعد إتمام خطوبته لابنته. لكن، هل كانت مصداقية الأخير ترتبط بسمعته هو، هذا الارتباط التام الواضح الوثيق؟

هل كان جريونليش نفسه لا شيء؟ وتلك التحريات التي قام بها القنصل، وتلك الدفاتر التي قام بفحصها؟.. فلتكن إذن ما تكون فقد ازداد اقتناعه بقراره بألا يحرك ساكنًا لحل هذه المسألة. ولا بد أن حساباته كانت خاطئة! وفيما يبدو أن بندكس جريونليش قد أشاع تضامن يوهان بودنبروك معه، وهذا الخطأ، الذي يبدو أنه شاع على نحو رهيب، لابد من تدراكه الآن وللأبد.

ولا بد أن تشمل الصدمة كيسلماير هذا! فهل يملك هذا المهرج ضميرًا؟ وقد أصبح واضحًا لكل ذي عينين كيف قامر بلا خجل على أمر واحد، هو أن يوهان بودنبروك لن يدع زوج ابنته يتعرض للانهيار. وكيف ظل يمنح قروضًا لجريونليش الذي انتهى أمره منذ زمن، وظل يدفعه إلى التوقيع على فوائد ربا فاحشة.

قال القنصل باقتضاب: "انتهينا، فلنتحدث في المسألة. فإذا كان عليَّ كتاجر أن أقدم تقريرًا في هذا الشأن لأسفت لاضطراري أن أقول إن هذا مركز رجل بائس حقًا، إلا أنه يتحمل المسؤولية بدرجة كبيرة".

فغمغم جريونليش قائلاً: "والدى.."

فأسرع القنصل ليرد بلهجة قاسية: "مخاطبتك إياي هكذا تؤذي أذني". ثم أردف، وهو يلقي نظرة عابرة على المصرفي: "إن مستحقاتك يا سيدي لدى السيد جريونليش تبلغ ستين ألف مارك".

فرد السيد كيسلماير بارتياح: "فإذا أضفنا غرامات التأخير والفوائد إلى أصل الدين، يكون المطلوب هو ثمانية وستين ألفًا وسبعمائة وخمسة وخمسين ماركًا وخمسة عشر شلنًا".

"حسنًا، وليس لديك النية بأية حال للصبر عليه".

فراح السيد كيسلماير يضحك ببساطة، يضحك ملء شدقيه ضحكًا خاليًا من السخرية والتهكم، مسددًا نظره إلى القنصل، كأنه يطالبه مشاركته في الضحك.

كانت عينا يوهان بودنبروك الصغيرتان الغائرتان قد أصابهما الكدر، والتهبت حوافهما حتى احمرت عظام وجنتيه. فهو لم يطرح تساؤله إلا بدافع حرصه على المظاهر فحسب، فقد كان يدرك تمامًا أن أي تأجيل يقدمه دائنٌ واحد لن يكون له الأثر الحاسم في تغيير مركز المدين.

إلا أن أسلوب رفض الرجل أصابه بالخجل، وجعله يشعر بمرارةٍ قاسية. فكان أن قام بإزاحة كل ما أمامه دفعةً واحدة، وألقى بالقلم الرصاص بقوةٍ على الطاولة قائلاً: "وهكذا أعلن أنه لا رغبة لديَّ في أن تكون لي علاقة بهذه المسألة، تحت أي مسمى".

فصاح السيد كيسلماير، وهو يهز يديه: "أها، هذا كلامٌ محترم، فالسيد القنصل قد شاء إنهاء المسألة ببساطة تامة! وحسم وسلاسة!"

أما يوهان بودنبروك فلم يعره أي اهتمام.

ثم التفت بهدوء إلى السيد جريونليش، وقال: "ليس بوسعي مساعدتك يا صديقي.. ولتأخذ الأمور مجراها.. وليس بمقدوري الحيلولة دون ذلك، فلتتماسك واطلب الصبر والعون من الرب. وأنا مضطر إلى اعتبار أن هذه

الجلسة قد انتهت".

فجأةً، بدت أمارات الجدية على وجه السيد كيسلماير على نحو يثير الدهشة، إلا أنه أومأ مشجعًا السيد جريونليش، الذي لم يحرك ساكنًا، بل راح يعتصر يديه الطويلتين فوق الطاولة بقوة حتى سُمعت طقطقة أصابعه، ثم قال بنبرة مترددة: "والدي.. سيدي القنصل، إنك لن، إنك لا تبغي شقائي والقضاء عليَّ، أصغ إليَّ، فالأمر يدور حول عجز قدره 120 ألفًا؛ وأنت رجل ثري تستطيع إنقاذي! ولتعتبر المبلغ كما تشاء، اعتبره تسوية نهائية، كنصيب ابنتك من الميراث، اعتبره قرضًا بفائدة، ولسوف أجتهد.. وأنت تعلم أنني مجتهد مجد".

فقال القنصل: "لقد قلت كلمتي الأخيرة".

نظر السيد كيسلماير من خلال نظارته إلى القنصل، مقطبًا أنفه، ليسأله: "فلتأذن لي.. أليس بوسعك؟ إن سُمح لي بطرح فكرة عليك سيدي القنصل، بأن هناك فرصةً عظيمة قد واتتك لإثبات قوة شركة يوهان بودنبروك".

"قد تحسن صنعًا، سيدي، إن تركت لي وحدي مسألة تقدير مكانة شركتي، فلست مضطرًا لإلقاء أموالي في أول حفرة لإثبات قدرتي على السداد".

"لم يكن هذا قصدي! إن كلمة حفرة تعبيرٌ لطيف، لكن، ألا تعتبر، سيدي القنصل، أن إفلاس صهرك يلقي بظلال شكٍ على مركزك المالي، أليس كذلك؟"

"أذكرك مرةً أخرى بأن سمعتي في عالم المال هي شأنٌ خاص بي".

أما السيد جريونليش فنظر إلى وجه المصرفي بحيرة، وعاود القول: "والدي.. أتوسل إليك، فكِّر فيما تقدم عليه، فالأمر لا يخصني وحدي، أوه، فليلحق الدمار بي وحدي، أما ابنتك، زوجتي التي أحبها وكافحت كفاحًا مريرًا من أجل الحصول عليها.. وطفلتنا، ابنتنا نحن الاثنين، هذه الطفلة البريئة، أنتركها للبؤس؟ كلاَّ، يا والدي، فأنا لا أستطيع تحمل هذا، بل إنني أفضلُ عليه الانتحار، نعم، لأقتلن نفسي بيدي.. صدقني، ولتبرئ السماء ساحتك بعدها من كل ذنب".

بوجهٍ شاحب وقلب واجف، أراح يوهان بودنبروك ظهره إلى مسند مقعده. فها هي، للمرة الثانية، تداهم المشاعر هذا الرجل، والتى عبر عنها بصدق، فأصبح عليه أن يسمع التهديد المقيت، كما حدث من قبل، عندما أخبر السيد جريونليش بفحوى خطاب ابنته الذي أرسلته من ترافيمنده، ولتعتريه مرةً أخرى رهبة جيله الحالمة بالمشاعر الإنسانية، التي تعارضت دومًا مع روح نشاطه العملي.

إلا أن هذه الحالة لم تستمر أكثر من ثانية. فقد كرر لنفسه: "مئة وعشرون ألف مارك".. ليقول بعد ذلك بثبات وهدوء: "إن أنطوني هي ابنتي، وأنا أعرف كيف أحميها من معاناة لا يد لها فيها".

راح السيد جريونليش يتحول شيئًا فشيئًا إلى الجمود، عندما تساءل: "ماذا يعني كلامك هذا؟"

فرد القنصل: "سوف تعلم ذلك، حسنًا، لم يبق لديَّ ما أضيفه". ثم نهض ليثبت مقعده في مكانه على الأرض، ويتجه صوب الباب.

جلس السيد جريونليش لائذًا بالصمت، لا يحرك ساكنًا، بينما راح

شدقاه يختلجان دون أن ينبس بكلمة.

أما السيد كيسلماير فقد ردت حركة القنصل الأخيرة والنهائية روحه المرحة إليه، فملكت عليه كيانه، ليشتط في ذلك حتى صار رهيبًا. وقد انزلقت نظارته من فوق أنفه الطويل الصاعد إلى ما بين عينيه، أما فمه الصغير، الذي يبرز منه ناباه الوحيدان الصفروان فكان ينذر بالانفجار. وقد أخذ يطوح يديه الصغيرتين الموردتين في الهواء، وأخذ شعر رأسه الخفيف يرفرف، بينما كان وجهه، الذي قلصه وشوهه مرحه الطاغي، قد استحال إلى اللون الأحمر.

ثم صاح بصوت مضطرب: "أها، لقد صار الأمر مشوقًا للغاية، إلا أنه يجب عليك سيدي القنصل أن تتدبر مسألة دفن مثل هذا المثال الجميل اللذيذ من أزواج البنات!.. هذا المثال من الجد والاجتهاد لن تعثر عليه ثانيةً على أرض الرب الواسعة. أها، فقبل أربع سنوات لما كان السيف مسلطًا على الرقاب، والتف الحبل على الأعناق، فإذا بنا نستبشر الخير لما أُعلن فجأةً بالبورصة عن نبأ خطوبته إلى الآنسة بودنبروك، حتى قبل أن تتم.. فكل الاحترام! وكل تقديري الشخصي!"

فصاح السيد جريونليش: "كيسلماير!" وراح يحرك يديه كمن يدفع روحًا شريرة عن نفسه، ثم هرول إلى ركن الغرفة ليلقي بنفسه فوق مقعد وقد أخفى وجهه بين راحتيه، وانكمش حتى عانق جانبا لحيته فخذيه، وهو يرفع ركبتيه عدة مرات إلى أعلى.

أما كيسلماير فاسترسل: "كيف فعلنا هذا حقًّا؟ كيف بدأنا في اصطياد الابنة الصغيرة والثمانين ألف مارك؟ أوه! لقد تم تدبر الأمر! وهو أمر

يمكن تدبره لمن يملك سُدس هذا الجد والاجتهاد، فيقدم للصهر المنقذ دفاتر جميلة مستوفاة، دفاتر لطيفة لا تشوبها شائبة، مثبتٌ بها كل شيء على أفضل وجه، سوى أنها لم تكن تتسق تمامًا مع حقيقةٍ مُرة، وهى أن ثلاثة أرباع هبة الزواج ذهبت إلى تسديد الديون!".

أما القنصل فقد وقف عند الباب ممسكًا بمقبضه، وقد امتقع وجهه، كمن أشرف على الموت. وقد دب الفزع في أوصاله. فهل تواجد في غرفةٍ ضيقة مضطربة الأضواء مع محتالٍ وقرد مصاب بسعار الشر؟

ثم قال بنبرة تفتقد قليلاً من الثقة: "أيها السيد! إنني أحتقر وشاياتك الجنونية، حتى لو طالني نصيبٌ منها، أنا الذي لم يشأ تعريض ابنته للبؤس، فقمت بعمل تحريات جادة عن صهرى.. أما غير ذلك، فكان قضاء الرب!"

لم يشأ سماع المزيد فاستدار ليفتح الباب، إلا أن كيسلماير صاح به: "أهاه.. تحريات؟ لدى من؟ لدى بوك؟ لدى جاودشتيكر؟ لدى بيترسن؟ لدى ماسمان وتيم؟ لقد تم توظيفهم جميعًا، لقد كانوا جميعًا ضالعين! وقد كان جميعهم سعداء تمامًا أنه تم تأمين ديونهم بهذا الزواج".

صفق القنصل الباب خلفه.

الفصل التَّاسـع

كانت دوراء الطاهية المراوغة، منشغلةً بأداء عملها بقاعة الطعام، عندما أمرها القنصل: "فلتدعي السيدة جريونليش إلى النزول".

عندما وافته أنطونيا، قال لها: "فلتعدي نفسك يا بنيتي".

ثم مضى معها إلى الصالون. وهناك قال لها: "أسرعي بإعداد متاعك، وأرجو أن تكون أريكا على استعداد للرحيل. سنسافر إلى المدينة لنبيت في فندق، ثم نرحل في الصباح إلى دارنا".

فردت طوني: "نعم، يا أبي".

كان وجهها مشوبًا بالحمرة والاضطراب والحيرة. وأخذت تأتي بيديها بحركات متلاحقة بلا معنى على خصرها، وهي لا تدري بأي شيء تبدأ استعدادها، ودون أن تدرك حقيقة ما جرى. فسألت بانفعال وتخوف: "فماذا آخذ معي يا أبي؟ متاعي كافةً، ثيابي كلها؟ حقيبةً أم حقيبتين؟ وهل أفلس جريونليش بالفعل؟ يا إلهي، وهل آخذ معي حُليِّي؟ أبي، لابد أن نصرف الخادمتين، فلم يعد بوسعي دفع أجرهما، وجريونليش كان عليه أن يدفع لي

اليوم أو غدًا مصروف البيت".

"دعكِ من هذا، يا بنيتي، فسوف نرتب هذه الأمور، ولتأخذي ما هو ضروري فحسب، حقيبةً صغيرة وحيدة. وسوف أحضر متاعك فيما بعد، هيا، هل سمعتِ، إن لدينا.."

في هذه اللحظة انفرجت الستائر، ليدخل السيد جريونليش مهرولاً فاردًا ذراعيه مائل الرأس، كمن يريد أن يقول: "ها أنا ذا.. اقتليني.. إن شئتِ". وهرع إلى زوجته ليجثو أمامها على ركبتيه، أما نظرة عينيه فكانت تثير الشفقة، بينما كان جانبا لحيته الصفراء كالذهب أشعثين، وبدا على سترته الإهمال، كما انحرف رباط عنقه، وترك ياقة قميصه مفتوحة، وبدت بعض قطرات عرق على جبينه.

ثم قال: "أنطوني..! انظري إليّ.. ألديك قلب، قلب ينبض بالإحساس؟ أصغي إليّ.. أنت ترين أمامك رجلاً مُدمرًا، قُضي عليه، فإذا.. حدث، مات كمدًا إن أنكرتِ حبه، ها أنا أركع، فهل بمقدورك أن تقولي إني أمقتك -! إني أهجرك؟"

فبكت طوني، كما حدث تمامًا بغرفة المنظر الطبيعي، ذات يوم. فها هي ترى مرةً ثانيةً هذا الوجه المتقلص من الخوف، وهذين العينين الضارعتين؛ وها هي ثانيةً تتأثر مندهشةً برؤية هذا الخوف وهذا التضرع يكتنفهما الصدق خالصين من النفاق.

فقالت منتحبة: "انهض، جريونليش، بربك" وحاولت أن ترفعه من إبطيه: "أنا لا أكرهك، فماذا دفعك لقول هذا!"

ودون أن تعرف ماذا تضيف إلى ما قالته، التفتت عاجزة إلى أبيها،

فأمسك القنصل يدها وانحنى نحو صهره، ثم قادها إلى باب الممر. فصاح السيد جريونليش، بعد أن وقف على قدميه: "أتذهبين؟"

فقال القنصل: "لقد صارحتك بعدم قدرتي على تحمل مسؤولية ترك ابنتي لمصيرٍ بائس، لا ذنب لها فيه، وأضيف إلى هذا أنك أيضًا غير قادر على هذا، لا يا سيدي، لقد بددتَ ما تملكه ابنتي، ولتحمد ربك أنه حفظ قلب هذه الطفلة بريئًا نقيًّا لتنفصل عنك دون مقت تضمره لك، وداعًا".

هنا كان السيد جريونليش قد فقد عقله، فقد كان بوسعه الحديث عن فترة انفصال مؤقتة، وعن عودة الحياة إلى مجراها الطبيعي، وربما كان سينقذ نصيب زوجته من الميراث، لكنه كان قد فقد جده واجتهاده. كان بوسعه الإمساك بصحن البرونز الصلب فوق قاعدة المرآة، لكنه أخذ الإصيص الرقيق المنقوش بالزهور ليطيح به على الأرض ليتحطم إلى ألف قطعة.

ثم صاح: "ها، جميل! حسن! فلتذهبي، أتظنين أنني سأبكيك أيتها الحمقاء، آه، كلاًّ، إنك تخدعين نفسك، فأنا لم أقترن بك إلا من أجل مالك، فإن بدا غير كاف فارجعي إلى بيت أبيك! فقد ضقت بك ذرعًا.. ضقت بك ذرعًا!"

قاد يوهان بودنبروك ابنته إلى الخارج لائذًا بالصمت، لكنه ما لبث أن عاد متجهًا نحو السيد جريونليش، الذي كان عقد يديه خلف ظهره، ناظرًا من النافذة إلى المطر بالخارج، فربت على كتفه ونصحه هامسًا: "تماسك، وتضرع إلى الرب".

الفصل العاشـــر

ظل جو البيت الكبير بمنجشتراسه مكدرًا لوقت طويل، بعد عودة السيدة جريونليش مع ابنتها ليقيما هناك مرةً أخرى. فكان الجميع يمرون على ذلك مرور الكرام، ولا يذكرونه إلا مضطرين.. فيما عدا صاحبة الشأن التي لا تمل الحديث عن الأمر لتشعر بالتوحد معه.

وقد احتلت أنطونيا مع ابنتها الغرف بالطابق الثاني، تلك التي كان والداها يشغلانها أيام الجدين بودنبروك، وأُصيبت بشيءٍ من خيبة الأمل عندما أُوحى إليها أبوها بأنه لن يخصص لها خادمة. وظلت لنصف ساعة تتأمل ما صارحها به أبوها بعبارات ودودة، بأن وضعها كمطلقة يفرض عليها العزلة والابتعاد عن الحياة الاجتماعية في المدينة، حتى وإن كان هذا هو قضاء الرب ابتلاءً لها، وأنها لا ذنب لها من المنظور الإنساني.

إلا أن أنطونيا كانت تتحلى بخصلةٍ حميدة، وهي رضاؤها بأي وضع تفرضه عليها ظروف الحياة، لتتكيف مع الطارئ الجديد بحكمة وموهبة وسرور مفعم بالحيوية. فسرعان ما ارتضت دورها كامرأةٍ أصابها ابتلاءٌ لا يد

لها فيه، فحرصت على ارتداء ثياب داكنة اللون، وصففت شعرها الجميل ذا اللون الأشقر الرمادي مفروقًا مستويًا كالصبايا، معتبرةً نفسها غير متضررة من العزلة الاجتماعية، فأطلقت، وهي في البيت، العنان لتأملاتها عن الأهمية البالغة وسعادتها التي لا تنضب بجدية وأهمية وضعها وعن حياتها الزوجية وعن السيد جريونليش وعن الحياة والمصير بشكلٍ عام.

إلا أن بعضهم لم يكن يتيح لها الفرصة لذلك. فالقنصلة كانت مقتنعةً بأن زوجها قد أدى ما تمليه عليه المسؤولية بحكمة، فإذا أخذت أنطونيا في الحديث عن ذلك، كانت تشير بيدها البيضاء الرقيقة لتقول: "كفى يا بنيتي، فأنا لا يسعدني سماع شيء في هذا الشأن".

أما كلارا، ذات الاثني عشر عامًا، فلم تكن تستوعب مثل هذه الأمور. وكذلك كانت أيضًا ابنة العم كلوتيلده أغبى من أن تتفهم ذلك، فما كانت تتفوه إلا بألفاظٍ ممطوطة، وهى تعرب عن دهشتها قائلةً: "آه، أنطونيا! إنه أمر يُرثى له".

وعلى النقيض من هؤلاء، وجدت المرأة الشابة آذانًا صاغية لدى الآنسة يونجمان، ذات الخمسة والثلاثين عامًا، التي كانت تتباهى بأن شَعرها قد شاب في خدمة الطبقة الراقية، فكانت تقول: "لا تخشَي هذا الأمر، يا بنيتي، أنطونيا الصغيرة، فما يزال سنك صغيرًا، ولسوف تتزوجين مرةً أخرى". كما أنها كرست نفسها لتربية الصغيرة أريكا، وشملتها بحبها وإخلاصها، وراحت تحكي لها الذكريات والقصص نفسها التي حكتها على أبناء القنصل قبل خمسة عشر عامًا، خاصة حكاية العم الذي مات كمدًا في مارينفردر، لأنه تنكر لقلبه. أما أحب المسامرات وأطولها فكانت تلك التي تتقاسمها

أنطونيا مع أبيها بعد تناول الغداء، أو صباحًا أثناء الفطور الأول.

وهو الذي كانت تشعر نحوه قبل ذلك بالرهبة أكثر من الشعور بالحنو؛ مما كان له من نفوذ في المدينة، وهمته الفعالة الورعة الصلبة المتشددة. إلا أنها- أثناء حديثه إليها بصالون بيتها- قد اقتربت منه كإنسان وجعلها تشعر بالفخر والتأثر حين منحها فرصة الحديث الجاد والحميم عن هذا الأمر، وترك لها حرية اتخاذ القرار، وأنه- وهو من هو- أقر لها بأنه لا يشعر أنه بريء مما جرى لها، وهو أمر لم يكن ليخطر على بال طوني. أما وقد أقر بذلك، فقد صدقته، فلانت مشاعرها له. أما القنصل نفسه فإنه ظل متمسكًا بفكرته بوجوب مواساة ابنته في مصابها الأليم بمضاعفة حبه لها.

أما ما فعله يوهان بودنبروك مع صهره المحتال، فلم يكن بدافعٍ شخصي. فقد علمت أنطونيا وأمها من خلال بعض الأحاديث كيف أن السيد جريونليش قد سلك سبلاً غير شريفة للوصول إلى الـــ80000 مارك، إلا أن القنصل فضل عدم إفشاء هذا الأمر، وعدم إبلاغ العدالة عنه رغم شعوره بإهانةٍ بالغة لكبريائه، مؤثرًا التزام الصمت تجاه وقوعه ضحية لمثل هذا الاحتيال الخسيس. وعلى كل حال، فقد تشدد في إصراره على رفع قضية طلاق، حالما يتم إشهار إفلاس بيت بندكس جريونليش التجاري، الذي سبب خسائر غير هينة لبيوت تجارية أخرى بهامبورج.. وكانت هذه القضية، التي كانت أنطونيا هي محورها الرئيس، في جوهرها، هي الفكرة التي منحت أنطونيا شعورًا بالكرامة بلا مثيل.

ولما كانت أنطونيا لا تخاطب أباها قط بـ"بابا" أثناء مثل هذه الأحاديث فقد قالت: "والدي! ما هو مصير قضيتنا؟ فأنت ترى يقينًا أن كل شيء

سيكون على ما يرام، فالنص القانوني واضح تمامًا، وقد عكفت على دراسته بدقة، فهو ينص على "عجز الزوج عن إعالة أسرته". وهو ما سوف يأخذه السادة في الاعتبار. ولو أن ابنتي كانت ولدًا لكان من حق جريونليش الاحتفاظ بها".

وذات مرة أخرى قالت: "لقد فكرتُ كثيرًا في سنين زواجى يا أبي، ها! فقد كان هذا هو السبب إذن الذي كان يدفع الرجل إلى الرفض التام أن نسكن المدينة، برغم أنني كنت أتمنى ذلك من كل قلبي؛ إذن كان هذا هو سبب رفضه اتصالي بالآخرين بالمدينة، فهناك كان يكمن خطر أعظم مما كان عليه في إيمزبيتل، لأعرف- بطريقة أو أخرى- شيئًا عن أحواله.. يا لَه من محتال!"

فرد القنصل: "لا يجب أن ننصب أنفسنا قضاةً، يا بنيتي".

أو كانت تقول، وعلى وجهها أمارات الجدية، بعد حصولها على الطلاق: "هل دونت ذلك في سجلات العائلة يا والدي؟ لا، فهل تأذن أن أفعل أنا ذلك، أرجو أن تعطيني مفتاح خزانة الأوراق الشخصية".

ثم تبدأ بحماس وفخر لتسجل، تحت سطور خاصة بها كانت كتبتها قبل أربع سنوات: "فُصمت عرى هذه الزيجة في شهر فبراير لعام 1850، بحكم القانون". لتضع الريشة لتشرد متأملةً للحظة.

وقالت: "أبي، أعلم أن هذه الحادثة وصمةٌ في تاريخ عائلتنا. نعم، لقد خطرت ببالي هذه الفكرة. وقد يكون هذا مثل بقعة حبرٍ في الكتاب هذا. لكن فليهدأ روعك، فسوف يكون عليَّ أنا محو هذه الوصمة. فما أزال صغيرة، ألا ترى أنني ما أزال أتمتع ببعض الجمال؟ برغم أن السيدة شتوت

قالت لما رأتني: "يا إلهي، لقد كبرتِ، يا سيدة جريونليش"، فمهما كان الأمر، فمن المحال أن أظل على حمقي الذي كنت عليه قبل أربع سنوات؛ فقد أصبح عليَّ التكيف مع ظروف الحياة بالطبع، فما أود قوله لك إنني سوف أتزوج ثانيةً، وسوف ترى استقامة الأحوال مع شريك حياة جديد، ألا ترى ذلك؟"

"إن هذا بيد الرب، يا بنيتي، لكن من غير اللائق أن تتطرقي إلى مثل هذه الأمور الآن".

وكانت أنطونيا قد استمرأت في هذا الوقت استخدام عبارة "هذه سُنة الحياة"؛ ولدى ذكرها كلمة الحياة كانت تبدو في عينيها نظرةٌ جميلة وجادة توحي بأنها تتمتع بنظرة عميقة في مسألة الحياة ومصير الإنسان.

وزاد عدد الجالسين إلى المائدة بقاعة الطعام، بعد عودة توماس من "باو" إلى البيت في شهر أغسطس من العام نفسه. وهكذا سنحت لطوني فرصة مسامرة جديدة، فقد كانت تحب أخاها هذا، وتكن له الاحترام. وكان قد علم بأحزانها أثناء مغادرتهما ترافيمنده، وأبدى تقديره تجاه ذلك وهو الذي تتمنى من أعماقها في المستقبل أن يصبح ربًّا للعائلة ومديرًا للبيت التجاري.

وقال توماس: "نعم، نعم، لقد مر كلٌّ منا بتجارب عديدة، طوني".

ثم رفع حاجبه، ونقل لفافة التبغ الروسية من شدق إلى آخر. وفيما يبدو، كان يتذكر بائعة الزهور الصغيرة، صاحبة الوجه الملايوي، التي تزوجت مؤخرًا من ابن صاحبة محل الزهور، وأصبحت الآن تدير المحل بنفسها في فيشر جروبه.

وبرغم أن توماس بودنبروك كان يعاني بعض الشحوب، إلا أنه كان بمثابة ظاهرة أناقة محط الأنظار، وقد بدا أن هذه السنوات الأخيرة قد صقلت

خبرته. ومَن كان يراه كان يظن أنه جندي، وقد صفف شعره كتلتين أعلى أذنيه، وشاربه المفتول على الطريقة الفرنسية، وقد استوى مستقيمًا بالكواء. وبرغم قامته القوية ومنكبيه العريضين، إلا أن بنيته لم تكن قوية، وهو ما تبدى في العروق الزرقاء الناتئة في فوديه الدقيقين اللذين يرتفع الشَّعر عنهما كموجتين، وكذلك معاناته من ميل بسيط للارتعاش، وهو ما حاول الطبيب جرابو علاجه دون جدوى.

وكان شبهه بجده قد تعاظم، وهو ما تبدى في تفاصيل بنيانه الجسدي، مثل الذقن والأنف، وتحديدًا اليدين؛ فقد كانتا يدين أصيلتين لآل بودنبروك.

كان يتحدث الفرنسية بلكنة إسبانية، وكان يثير دهشة الجميع بإعجابه ببعض كتَّاب الحداثة الذين ينزعون إلى النقد والجدل.. ولم يجد في المدينة مَن يتفهم ميوله هذه سوى الوسيط العبوس السيد جوش. أما أبوه فكان يدين ذلك بشدة. إلا أن هذا لم يحل دون رؤية ما ارتسم بعيني القنصل من مشاعر اعتزاز وفرح نحو ابنه الأكبر، وكان قد استقبله محتفيًا به بوصفه مساعده الجديد في عمله. أما هو فأقبل على العمل بهمة أعظم عن ذي قبل، خاصة بعد وفاة السيدة كروجر العجوز في نهاية العام. وكان عليه تقبل فقدان المرأة المسنة برباطة جأش، وهي الطاعنة في السن وعاشت آخر أيامها وحيدةً، فانتقلت إلى بارئها تاركةً مالاً لآل بودنبروك يبلغ 100000 ريال كاملة، شكلت دعمًا قويًا للغاية لرأسمال الشركة.

وكان من تبعات هذه الوفاة أيضًا أنه ما إن تسلم يوستوس، صهر القنصل، بقية نصيبه من الميراث، حتى قام بتصفية أعماله ليتقاعد، بعد أن سئم الفشل الدائم. ولم يكن يوستوس كروجر المستهتر، ابن الفارس العصري،

إنسانًا سعيدًا. فقد كانت دماثة أخلاقه وحياته المرفهة سببًا لعجزه عن تأمين وضع قوي لا يتزعزع في عالم المال. كما كان قد بدد سلفًا قسطًا كبيرًا من ميراثه عن والديه. أما ابنه ياكوب، الابن الأكبر، فقد أصبح يمثل همًّا مقيمًا. ففيما يبدو أن هذا الشاب، الذى صادق في هامبورج الكبرى رفاقًا مستهترين، قد جشم أباه أموالاً كثيرة على مر الأيام.. وكانت مشاجرات مؤسفة تنشب بين والديه، إذا ما امتنع القنصل كروجر عن منح ابنه مزيدًا من المال، فكانت الزوجة الضعيفة الرقيقة تمنح هذا الابن الضال- سرًّا- هبات من المال.

أما الطامة الكبرى فوقعت تقريبًا في نفس وقت توقف بندكس جريونليش عن السداد، في هامبورج، حيث عمل ياكوب كروجر لدى "دلبك وكومب". وحدث بالإضافة إلى ذلك شيء آخر، منكر.. متعسف، لا أخلاقي، وهو ما تكتمه الناس ولم يسألوا يوستوس كروجر عنه. إلا أنه أشيع أن ياكوب قد حصل على عمل كمندوب تجاري، وأنه سيرحل بالسفينة عما قريب. لكن كان ثمة من رآه بالمدينة ذات مرة قبل رحيله، مما رجح احتمال أنه جاء كي يحصل من أمه على مال؛ بالإضافة لما دفعه له أبوه من تكاليف السفر. لقد كان فتى رقيع الهيئة سقيم المنظر.

وبإيجاز، فقد بلغت الحال بالقنصل يوستوس أنه كان يخص "بيرجن" وحده بالذكر، على أنه ابنه الوحيد. وبرغم أن ابنه بيرجن كان ضيق الأفق للغاية، إلا أنه لم يقترف إثمًا ما، وانتهى من دراسته بالثانوية بصعوبة، وأصبح يقيم منذ فترة في "يينا"، حيث كان يدرس القانون، إلا أنه فيما يبدو لم يُقبل على ذلك بعزيمة عالية، وإصرار على النجاح.

أما يوهان بودنبروك، فكان يشعر بحسرة كبيرة لتلك الظروف غير المشرفة إلى حدٍّ ما، التي تمر بها عائلة زوجته، ولذا كان تخوفه أعظم تجاه مستقبل ولديه. وقد كان محقًّا في وضع ثقته التامة في ابنه الأكبر، لما أبدى من همة. وعلى النقيض من ابنه الآخر كريستيان، فقد أرسل إليه السيد ريتشاردسن يخبره أن الفتى قد أتقن اللغة الإنجليزية، ويتمتع بموهبة أصيلة، إلا أنه لا يُبدي اهتمامًا كافيًا بالعمل، كما أنه يميل بشدة لملاهي المدينة العالمية، ومنها المسرح، على سبيل المثال.

وفي رسائله، أشار كريستيان نفسه إلى ولعه البالغ بالترحال، وشدد في رجائه بأن يأذن له والده في قبول وظيفة "هناك"، أي في دولة ما بأمريكا الجنوبية، قد تكون شيلي. لكن القنصل قال إن ما يدفعه إلى هذا هو حبه للمغامرة، فأمره أن يُتم علومه التجارية لدى السيد ريتشاردسن لسنة رابعة. وكان قد أرسل إلى والده عدة خطابات تشير إلى خططه المستقبلية. وأبحر كريستيان بودنبروك بالفعل في صيف عام 1851 إلى فالباريزو، حيث حصل هناك على وظيفة؛ وقد سافر من انجلترا مباشرةً دون أن يمر قبل ذلك على وطنه.

غير أن القنصل- بغض النظر عن أحوال ولديه- كان قد أحس بالطمأنينة، وهو يتابع دفاع أنطونيا عن وضعها دفاعًا مستميتًا، وبكل كبرياء كسليلة لآل بودنبروك. وكان عليها كامرأةٍ مطلقة أن تحتمل بالطبع الكثير من الشماتة والتجني من جانب أسر أخرى. وذات مرة كانت قد عادت من نزهة بوجه ممتقع، لتطرح قبعتها على أريكةٍ بغرفة القراءة، وتقول "آه! إن مولندروف هذه، سليلة آل هاجنشتروم وسيملنجر، هذه المخلوقة،

التي تُدعى يوليا، ما رأيكِ فيها يا أماه!، إنها لا تُحييني، كلاَّ، لا تحييني، فهي تتوقع أن أبادرها أنا بالسلام. فما رأيك في هذا؟ لقد التقيتُها بالشارع العريض مرفوعة الرأس، ناظرةً مباشرةً في وجهها".

"أنت تبالغين، طوني.. كلاَّ، فلكل شيء حدود. لمَ لا تبادرين السيدة مولندورف بالتحية؟ فهي من نفس عمرك، ومتزوجة مثلما كنت أنت".

"كلاَّ، يا أمي! يا إلهي، يا لها من حثالة!"

"فلتكفِّي، يا عزيزتي، عن عباراتك الجارحة".

"آه، إنني لا أستطيع كبح جماح غضبي".

كان مقتها لهذه الأسرة المتسلقة قد تنامى من خلال تصور أنطونيا المجرد بأن آل هاجنشتروم ظنوا أن لهم الحق في التعالي عليها، بعد أن رفعهم الحظ إلى مصاف العائلات الراقية. فبعد وفاة هينريش الكبير في أوائل عام 1851 قام ابنه هرمان (صاحب خبز الليمون واللطمة) بإدارة شركة التصدير الناجحة، بمشاركة السيد شترونك. وبعد ذلك بأقل من سنة كان قد تزوج ابنة القنصل هونيوس، أغنى رجال المدينة، الذي كان قد نجح في تجارة الأخشاب إلى حدٍّ أن استطاع أن يترك مليونين لكل واحد من أبنائه الثلاثة. أما شقيقه موريتس فقد كان، رغم معاناته من مرض صدري، طالبًا متفوقًا، ثم استقر بالمدينة كواحدٍ من علماء القانون. وكان رجلاً ذكيًّا ماكرًا فكهًا، بل وأديبًا، واستطاع تحقيق نجاح سريع في عمله. ولم يكن قد ورث شيئًا من ملامح عائلة أمه- سملينجر، إلا أن وجهه كان أصفر وأسنانه مدببة فلجاء. وكان الاعتزاز بالنفس يُعد أحد تقاليد العائلة. ومنذ اعتزل العم جوتهولد العمل راح يدور بأركان بيته المتواضع بساقيه القصيرتين وسرواله

الواسع، حريصًا على تناول الـ"بون بون" من علبة صفيح؛ فقد كان مولعًا بالحلوى. ومنذ هذا الوقت أصبحت علاقته بأخيه من أبيه، أخيه الأثير، أكثر هدوءًا واستسلامًا مع مر الزمن. إلا أن ذلك لم يحل دون شعوره بشيءٍ من ارتياحٍ خفي لطلاق أنطونيا بسبب عنوسة بناته الثلاث.

أما زوجته، سليلة آل شتيوفنج، وبناته الثلاث تحديدًا، اللاتي بلغن الآن السادسة، والسابعة، والثامنة والثلاثين، فأفرطن في إبداء الاهتمام بمسألة طلاق ابنة عمهن، اهتمامًا أوضح مما أبدينه تجاه خطوبتها وزفافها. وفي يوم "لقاء الأنجال"، الذي أصبح يُعقد في منجشتراسه، يوم الخميس من كل أسبوع، منذ وفاة السيدة كروجر الكبيرة، أصبح موقف أنطونيا في الدفاع عن نفسها ضدهن موقفًا يتسم بالضعف.

أما فيفي، الأخت الصغرى، فكانت قصيرة القامة، بدينةً، تصدر عنها حركة غريبة إذ تحدثت؛ فكانت تهتز مع كل كلمة تقولها، ويزداد الزَّبَد بين شدقيها، وعبرت عن رأيها، فقالت: "يا إلهي، يا لك من مسكينة، لقد صدر الحكم إذن؟ وها قد أصبحتِ كما كنت من قبل".

أما هنرييت، صاحبة القامة الطويلة واليابسة على نحو غير مألوف، التي تشبه أختها الكبرى في ذلك، فقد قالت: "آه، بل إن الأمر على نقيض هذا، لقد أصبحتِ أكثر شقاءً مما لو لم تتزوجي على الإطلاق".

وهو ما أكدته فريدريكه: "لابد من الإقرار بأن عدم الزواج أفضل بكثير".

أما أنطونيا، فقد أراحت رأسها إلى الخلف، بعد أن اهتدت إلى ردٍّ شافٍ بليغ، فقالت: "كلاَّ، عزيزتي فريدريكه، يبدو أنك وقعت حقًّا أسيرةً لخطأ

ما، أليس كذلك؟ فلقد خضتُ تجربة الحياة على أية حال، أتدرين، أنني لم أعد حمقاءا ثم إنه ما تزال أمامي فرصة للزواج ثانيةً أكبر مما تتاح لمن لم يتزوجن بعد".

فقالت بنات العم في نفس واحد: "أهكظا"، وقد لفظن كلمة "هكذا" على هذا النحو ليؤكدن على الإمعان في الحدة والسخرية.

أما سيسيمي فايشبروت، فكانت تتمتع بطيبة وحنكة، فلم تذكر هذه المسألة على الإطلاق. وكانت أنطونيا تقوم بزيارة مربيتها السابقة بالمنزل الصغير الأحمر بشارع ميولنبرينك رقم 7، الذى كان ما يزال غاصًا بالفتيات الصغيرات، برغم أن هذا النُزُل لم يعد يساير العصر. كما كان يتم دعوة الآنسة العجوز إلى منجشستراسة- من حينٍ لآخر- إلى وليمة لتناول لحم غزال أو أوزة محشوة. لتنهض بعدئذٍ على أطراف أصابعها لتطبع بتأثر، على جبهة أنطونيا قبلةً معبرة ذات وقعٍ مسموع. أما أختها السيدة كيتسلن، غير المتعلمة، فقد اشتدت بها وطأة الصمم مؤخرًا على نحوٍ سريع، حتى كادت لا تفهم شيئًا مما جرى لطوني. وكانت من فرط رقة حاشيتها تطلق أحيانًا ضحكة بريئة في غير محلها، مما يضطر سيسيمى دائمًا للدق على الطاولة صائحةً بها: "نللي!".

وبمرور الأعوام، تلاشى تدريجيًّا أثر قصة ابنة القنصل بودنبروك، حتى أن أنطونيا نفسها لم تكن تذكر أمر زواجها إلا من حينٍ لآخر، حين تلاحظ في وجه أريكا الصغيرة، الآخذة في النمو المعافى، هذا الشبه أو ذاك مع بندكس جريونليش. وعاودت ارتداء الثياب الزاهية وتصفيف شعرها فوق جبينها مجعدًا، والقيام بزياراتٍ لمعارفها كما كانت تفعل في الماضي.

وكانت تشعر على كل حالٍ بسعادةٍ غامرة عندما كانت تسنح لها الفرصة صيف كل عام لمغادرة المدينة لفترة طويلة بصحبة القنصل الذي أصبحت حالته الصحية، للأسف، تضطره لمثل هذه الرحلات من أجل الاستشفاء. وكان يقول: "أنا لا أعرف معنى أن يصير المرء عجوزًا! فأنا لا أستطيع إزالة بقعة قهوة على سروالي بشيءٍ من ماءٍ بارد، دون أن أشعر في الحال بالآم الروماتيزم الحادة الشديدة. فكم كان تمتعنا بالعافية فيما مضى؟"، وكان كذلك يعاني أحيانًا من نوبات دوار.

وكان قد سافر إلى أوبرسلتسبون وإيمز وبادن بادن وكيسنجن، ومن هناك كان ينطلق إلى رحلات ثقافية ترفيهية عبر نورنبرج إلى ميونيخ، ومن سالزبورج عبر إيشل إلى فيينا. وكان يمر في طريق عودته ببراغ ودرسدن وبرلين. وبرغم أن السيدة جريونليش قد اضطُرت للخضوع لبرنامج علاجي قاسٍ في مثل هذه المصايف، بعد إصابتها مؤخرًا بآلام عصبية معوية، إلا أنها رأت في تلك الرحلات أقصى ما تتمناه، كنوعٍ من التغيير؛ فهي لم تخف شعورها ببعض الملل من الإقامة بالبيت.

فكانت تسدد نظرها إلى سقف الغرفة متدبرةً حالها وتقول: "أوه، يا إلهي، أتدري يا أبي، إنها سُنة الحياة؛ فيقينًا قد عركتني الحياة.. لكن لهذا السبب تحديدًا يصيبني بعض الضيق لاضطراري الآن للبقاء دائمًا بالبيت كقطعة أثاث. لكني آمل ألا يساورك الظن أني لا أحب الإقامة بينكم، يا أبي.. وإلا استحققتُ العقاب، ولكان ذلك جحودًا مبينًا مني نحوكم! لكن هذه هي سُنة الحياة، أليس كذلك".

أما أكثر ما كان يزعجها فهو مناخ التدين الذي راح يتنامى في بيت أبيها

الرحب؛ فقد أصبحت نزعة الورع لدى القنصل تزداد حدةً كلما تقدم به العمر وازدادت وطأة مرضه، وكذلك أصبحت القنصلة تميل إلى هذه النزعة الروحية بعد تقدمها في العمر هي أيضًا. وكانت صلوات بدء تناول الطعام عادةً دائمة بدار بودنبروك، إلا أنه منذ زمن بعيد أصبح لزامًا على أفراد الأسرة والخدم الاجتماع معًا صباحًا ومساءً بغرفة الفطور لسماع رب الأسرة وهو يتلو آيات من الإنجيل.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد تزايدت زيارات القسس والمبشرين من عامٍ لعام، فقد أصبح البيت الأبوي الشريف بشارع منجشتراسه- الذي اشتهر أيضًا بطعامه الفاخر- معروفًا بكرم الضيافة منذ زمنٍ بعيد في عالم المذهب الإنجيلي الإصلاحي، والإرساليات الداخلية والخارجية. فأصبح السادة من أصحاب الثياب السود والشعر المسترسل يرحلون إليه من جميع أرجاء البلاد، ليقيموا هناك بضعة أيامٍ من أجل سماع الأحاديث الدينية، والحصول على وجبات طعامٍ مغذية وهبات سخية للأغراض المقدسة. كما كان يقصده أيضًا وعاظ المدينة كأصدقاءٍ للأسرة.

ولما كان توماس يتمتع بالوعي والكياسة، فلم يبد منه تجاه ذلك أدنى اعتراض. أما أنطونيا فكانت تسخر من ذلك ببساطة شديدة، بل كانت تسعد، للأسف، بالتهكم على رجال الدين كلما سنحت لها الفرصة لذلك. كانت مهمة إدارة اقتصاد البيت، وتحديد وجبات الطعام، تُسند إلى السيدة جريونليش، عندما كانت القنصلة تُصاب أحيانًا بالصداع النصفي. وذات يوم عندما زار البيت واعظ غريب، كانت شهيته للطعام تثير حالة عامة من المرح، فقد تحايلت وأعدت له حساء خنزير، وهو طبق اشتهرت به المدينة،

وهو نوع من حساء الخضروات يتكون أساسًا من الكرنب المخلل مضافًا إليه كل ألوان وجبة الطعام من: لحم الخنزير، وبطاطس، والبرقوق المخلل، والكمثرى المطبوخة، والقنبيط، والبازلاء، والبقول، واللفت، مع مزيج عصير فواكه؛ وهي وجبة لا يستسيغها إنسانٌ على وجه الأرض إلا مَن اعتادها منذ نعومة أظفاره.

أما أنطونيا فلم تكف عن سؤال الرجل "ما رأيك؟ أيطيب لك هذا، سيدى القس؟"

"كلاَّ؟ مَن كان يتوقع ذلك!" وأثناء ذلك كان يبدو على وجهها أمارات مكر صبياني، ثم تلوك بطرف لسانها بخفة شفتها العليا كما اعتادت أن تفعل كلما دبرت حيلةً ما. أما الرجل السمين فكان يطرح الملعقة جانبًا مستسلمًا، ليرد بسلامة نية: "سأتناول الطبق التالي".

لتقول القنصلة بسرعة: "يوجد طبق حلوى صغير".. فلم لم يكن من المعقول تقديم وجبة أخرى بعد هذا الحساء. ورغم توافر بعض أطباق الحلوى المعروفة باسم "الفرسان المساكين" و"هلام التفاح" المثالية فإن القس المخدوع كان يُضطر لمغادرة المائدة دون أن يشبع، بينما كانت أنطونيا تكبت الضحك، ويتماسك توم رافعًا أحد حاجبيه.

ذات مرةٍ أخرى كانت أنطونيا تناقش الطاهية "شتينا" بالممر في بعض شؤون المنزل، عندما عاد القس ماتياس من زيارةٍ ما، وهو من بلدة كانشتات، وقد اعتاد الإقامة ببيت القنصل لعدة أيام. فلما دق جرس باب مسقط الهواء، مضت "ترينا" تجر قدميها كعادة أهل الريف؛ لتفتح الباب. وكان القس قد شاء ملاطفتها، مختبرًا مدى إيمانها بالمسيح، عساه ينفحها شيئًا ما،

فسألها بود: "أتحبين سيدنا؟"

فاتسعت عينا ترينا وتورد وجهها، وقالت مترددة: "نعم، سيدي القس، لكن مَن تعني: سيدنا الكبير أم الصغير؟"

ولم تدع مدام جريونليش الفرصة لتحكي تلك القصة بصوتٍ مرتفع على المائدة، حتى إن القنصلة انفجرت في الضحك على نحو يألفه آل كروجر. أما القنصل فنظر إلى الصحن أمامه جادًا غاضبًا. أما القس ماتياس فقال مرتبكًا : "كان سوء فهم".

الفصل الحادي عشـر

جرت الأحداث التالية في أواخر صيف عام 1850، ظهر يوم أحد. حين كانت عائلة بودنبروك تجلس بغرفة المنظر الطبيعي منتظرةً القنصل الذي كان يرتدي ملابسه بالطابق الأرضي.

وكانت الأسرة قد تواعدت مع عائلة كيستنماكر للقيام بنزهة إلى إحدى حدائق الملاهي.

وفيما عدا كلارا وكلوتيلده، اللتين كانتا تقومان مساء كل أحدٍ بمنزل صديقة لهما بغزل جوارب لأطفال أفارقة صغار، كان الآخرون قد عزموا على تناول القهوة بالحديقة، وإذا سمح الجو فسوف يقومون بجولة بالقارب في النهر.

وقالت أنطونيا: "إن حال بابا يرثى له، فهل التزم مرةً بالموعد المحدد؟" هكذا قالت أنطونيا بعد أن انتقت، كعادتها، كلماتٍ متشددة. ثم أردفت: "إنه يجلس إلى مكتبه، ويجلس.. ويجلس.. فلابد من الانتهاء من هذا وذاك.. أيها الرب العظيم، وقد يكون ذلك ضروريًا؛ إذن فأنا لم أقل شيئًا، برغم أنني

لا أعتقد أننا سنفلس لو أنه ترك القلم من يده قبل ربع ساعة. حسنًا.. فإذا تأخر لعشر دقائق انتبه إلى موعده ليصعد السلم درجتين درجتين، رغم أنه يعلم أنه سيصاب باحتقان وسرعة ضربات القلب.. وهذا هو حاله لدى كل لقاءٍ أو خروج لنزهة! ألا يستطيع أن يوفر لنفسه بعض الوقت؟ ألا يمكنه الحضور في موعده ليذهب على مهله؟ إنه لا يشعر بالمسؤولية. فعليكِ أن تلفتي نظره إلى ذلك، ماما.."

كانت ترتدي حريرًا مزركشًا حسب الموضة، وتجلس على الأريكة بجوار القنصلة التي كانت ترتدي معطفًا ثقيلاً من الحرير، مشغولاً بالدانتيل السوداء.

وكانت قبعتها من الدانتيل والتُّل بأطرافٍ منعقدة أسفل الذقن، وقد تدلت إلى صدرها.

أما شعرها المفروق فكان أشقر مشوبٍ بلونٍ أحمر لا يتغير. وتحمل "بومبادورة" بين يديها بلونهما الأبيض وعروق ذات لون أزرق رقيق.

وفي مقعد فوتي بجوارها كان توماس يرتاح مدخنًا، بينما جلست كلٌّ من كلارا وتيلده متواجهتين بجوار النافذة.

ومن الغريب أن تلتهم تيلده كل يوم وجباتٍ كبيرة طيبة، دون أن يبدو على جسدها أي تأثر بذلك. فقد كانت دائمًا ما تزداد نحولاً، ولم يكن ثوبها الأسود البسيط للغاية ليخفي هذه الحقيقة. كان لها أنفٌ مستقيم متسع المسام، كبير الأرنبة، يتوسط وجهها البيضوي الهادئ الباهت، الذي يعلوه مفرق شعر ناعم رمادي اللون.

وقالت كلارا: "ألا ترين أن السماء ستمطر؟" كانت الفتاة الشابة معتادة

على ألا ترفع صوتها بالسؤال إلا وهي تسدد إلى كل مَن حولها نظرةً محددة صارمة.

وكان ثوبها البني يزدان أحيانًا بياقةٍ منبسطة صغيرة بيضاء منشاة وأساور بلون وشكل الياقة.

وقد جلست منتصبةً، ويداها بحجرها. وكان الخدم يخشونها أكثر من غيرها، كما كانت هي التي تتلو صلوات الصباح والمساء لفقدان القنصل قدرته على القراءة، بعد أن أصبحت تسبب له الصداع.

وسألت مرةً ثانيةً: "أتتخذين معطفك مساء اليوم، أنطونيا! فسوف يهطل المطر. يا لخسارة المعطف الجديد. وإن كنت أرى أنه من الأصوب أن تؤجلوا نزهتكم".

فرد توم: "كلاً، فسوف تأتي عائلة كيستنماكر.. لقد انخفض مؤشر الحرارة فجأة.. نحن بانتظار كارثة صغيرة.. سيل.. لن يستمر. والوالد لم ينته بعد، حسنًا. فبوسعنا التمهل حتى ينتهي المطر".

فرفعت القنصلة يدها مستعيذةً: "أتظن أنه سيكون هناك برقٌ ورعد، توم؟ آه، أنت تعرف أنني أخشى مثل هذا".

فقال توم: "كلاً، لقد تحدثت صباح اليوم بالميناء مع القبطان كلووت. وهو رجلٌ لا يخطئ التوقع. فسوف يكون هناك مطرٌ محدود.. حتى الرياح لن تكون قوية".

كان الأسبوع الثاني من سبتمبر هو الذي استعاد هذه الأيام السيئة المتأخرة من الصيف. فأصبح الصيف أكثر وطأةً على المدينة الآن من شهر يوليو، بسبب الرياح الجنوبية والجنوبية الشرقية.

فكان أن لمعت سماءٌ زرقاء داكنة غريبة فوق الأسطح، وأصبح لون الأفق باهتًا مثلما يحدث في الصحراء. فلما غربت الشمس كانت المنازل والأرصفة بالطرق الضيقة تبث حرارة مقبضة كأنها صادرة عن الأفران.

وقد تحولت الرياح اليوم تمامًا إلى الغرب، لينخفض معها مؤشر الحرارة.

وكان ما يزال جزءٌ كبير من السماء بلونه الأزرق، إلا أن مجموعة من السحب الزرقاء الرمادية سميكة وناعمة مثل الوسائد زحفت عليه.

واستطرد توم: "أنا أرى أيضًا أن المطر يطيب لنا، لأننا كنا سنموت ظمأً لو سرنا في هذا الطقس. فأنا لم أعايش مثل هذا حتى في باو".

في هذه اللحظة دخلت إيدا يونجمان الغرفة وبيدها الصغيرة أريكا. كانت الطفلة قد حُشرت في ثوب قصير مُنشى حديثًا لتنشر بالمكان عبق النشا والصابون، وبدا مظهرها طريفًا للغاية.

كانت تتمتع ببشرةٍ متوردة، وعينين ورثتهما عن السيد جريونليش، أما شفتها العليا فكانت لأمها. أما إيدا الطيبة فقد شاب شعرها كله حتى كاد أن يكون أبيض، برغم أنها لم تكد تتجاوز الأربعين. إلا أن ذلك كان متأصلاً في أسرتها مثلما كان شعر العم، الذي توفي إثر نوبة فواق، قد شاب وهو ما يزال في الثلاثين. على أن عينيها الصغيرتين السمراوين كانتا مفعمتين بالوفاء والحيوية والفطنة. وقد أصبح لها في خدمة آل بودنبروك عشرون عامًا، فكانت تفخر بحاجتهم إليها.

فكانت تشرف على المطبخ وقاعة الطعام وخزانات الملابس والخزف، كما كانت تقوم بشراء أهم الاحتياجات، وتقرأ للصغيرة أريكا وتحيك ثياب عرائسها، وتساعدها في واجباتها وتجيء بها ظهرًا من المدرسة، مدججةً

بالكثير من خبز فرانتس المحشو، لتذهب معها إلى نزهة عند ميولنفال.

وكانت كل سيدة تقول للقنصلة أو ابنتها: "يا لها من آنسة، تلك التي بخدمتكم، ياعزيزتي! يا إلهي، إنها تساوي وزنها ذهبًا، فماذا أقول! عشرون عامًا.. وستتمتع بالقوة حتى لو بلغت الستين! يا لهؤلاء الناس الأشداء.. ثم هذه العيون الوفية أيضًا! أنا أحسدك- يا عزيزتى!".

إلا أن إيدا يونجمان كانت هي أيضًا تعرف قدر نفسها. كانت تعرف مَن تكون، فإذا جلست عند ميولنفال على الأريكة نفسها التي تجلس عليها خادمة عادية حاملةً رضيعًا ما، وشاءت أن تبدأ معها حديث الند للند، كانت الآنسة يونجمان تقول: "صغيرتي أريكا، فلنبتعد عن تيار الهواء هنا!"، لتغادر المكان.

ضمت أنطونيا ابنتها الصغيرة وقبلتها على وجنتها الصغيرة المتوردة، لتمد بعدها القنصلة راحة يدها نحوها، وهي تبتسم ابتسامةً مضطربة.. فقد كانت ترقب السماء متخوفةً، بعد أن أصبح الغمام القاتم يغلب عليها، فيما كانت تدق بيدها اليسرى على وسادة الأريكة قلقةً، وتتنقل بطرف عينيها الرائقتين بتوتر نحو النافذة. فقد كان لأريكا أن تجلس بجوار جدتها، بينما اتخذت إيدا مكانًا على مقعد دون أن تريح ظهرها إلى مسنده، لتنشغل بالتطريز.

وهكذا جلس الجميع لبرهةٍ صامتين بانتظار القنصل. كان الهواء مقبضًا، وبالخارج كان آخر جزءٍ من اللون الأزرق قد اختفى، وتدلت السماء بلونها الرمادي الداكن، ودنت مثقلة بحملها.

أما ألوان الغرفة ولون الطبيعة على كساء الجدران ولون الأثاث والستائر

الأصفر فقد تلاشت، وخبا وميض ظلال ثوب أنطونيا، وانطفأ ألق عيون الناس.

فيما الرياح، الرياح الغربية، التي كانت تداعب أشجار فناء كنيسة سانت ماريا على الجانب الآخر، قد سكنت ولم تعد تعصف بالغبار في دوامات صغيرة بالطرق المعتمة. كانت لحظة من السكون التام.

هنا، فجأةً، كانت هذه اللحظة قد حانت.. فقد وقع حدثٌ مروع في صمت. فقد بدا الهواء الخانق كأنه تضاعف، كما بدا المناخ ممارسًا لضغطٍ متزايد بسرعةٍ خلال ثانية واحدة ليبث الخوف في العقول والكدر في القلوب ويجثم على الأنفاس.

وأسفل البيت كانت "سنونو" ترفرف منخفضةً على الشارع حتى كاد جناحاها يضربان أرض الطريق.

ولم يكن هذا الضغط المهيمن، هذا القلق، هذا الانقباض المتنامي ليُحتمل لو امتد أقل قدر من ذلك للحظةٍ أخرى، لو لم يحدث انفراجٌ فوري وطفرة بعد أن بلغ ذلك أوجه. تحولٌ بسيط منقذ يقع بموضعٍ ما يظن المرء أنه سمع وقعه بالفعل.. ولو لم تسقط في اللحظة نفسها قطرة ماءٍ واحدة لتسبق هطول المطر إلى حد طفح المصارف بالماء على الأرصفة.

أما توماس، الذي اعتاد من خلال المرض مراقبة أعصابه، فقد مال إلى الأمام في هذه اللحظة النادرة، ورفع يده إلى رأسه ثم ألقى بسيجارته. وطاف بناظريه في مَن حوله ليرى إن كان الآخرون قد شعروا واهتموا بذلك. فاعتقد أنه لاحظ شيئًا على أمه، بدا أن الباقين لم يلحظوه.

فقد نظرت القنصلة الآن إلى المطر الكثيف بالخارج، الذي حجب

كنيسة سانت ماريا تمامًا، لتتنهد قائلةً: "حمدًا للرب".

أما توم فقال: "إذن، سوف يبرد الجو في دقيقتين. وستعلق القطرات على الشجر بالخارج، ونحتسي القهوة بالشرفة، تيلدا، افتحي النافذة".

فاقتحم صخب المطر المكان على نحو أعظم وقعًا. وراح يدوي بالفعل. فهاج كل شيء وماج وأرغى وأزبد.

فقد زادت حدة المطر ثانيةً ليمزق حجاب الماء الكثيف ويفرق شمله، فأصبحت كل دقيقة تحمل رطوبةً جديدة.

هنا ظهرت "لينه"، الخادمة لينه، راكضةً خلال بهو الأعمدة لتقتحم الغرفة، حتى إن إيدا يونجمان صاحت بها مهددةً ومنتقدة: "يا إلهي، كم قلتُ!".

كانت عينا لينه الزرقاوان قد اتسعتا خاليتين من أي تعبير، وقد اضطرب فكاها لبرهة دون أن تتكلم. "آه، سيدتي القنصلة، آه كلاًّ، فلتسرعوا.. آه يا إلهي كلاًّ، ماذا دهاني.."

فقالت طوني: "لقد قامت بفعلةٍ أخرى! ربما شيء من الخزف الثمين! كلاًّ، ماما، يا لهؤلاء الخدم!".

إلا أن الفتاة صاحت خائفةً: "آه كلاًّ، سيدة جريونليش.. ليت كان هذا ما حدث، لكن ما حدث، حدث للسيد، كنت ذهبت إليه بحذائه، وكان السيد يجلس هناك على الفوتي عاجزًا عن الكلام، وقد امتقع لونه للغاية، أنا أظن أن حاله على غير ما يرام".

فصرخ توماس، وهو يدفعها إلى خارج الباب: "أسرعي إلى جرابو!".

"يا إلهي! يا إلهي!" هكذا صاحت القنصلة، وهي تعقد يديها بجانب

وجهها مهرولة إلى الخارج.

وردت أنطونيا لاهثةً: "أسرعي إلى جرابو.. بعربةٍ ما.. حالاً".

وهبط الجمع السلم ليصل غرفة النوم من خلال غرفة الفطور.

لكن يوهان بودنبروك كان قد مات.

الجـــزء الخامس

الفصـل الأوَّل

قالت القنصلة: "طاب مساؤك، يوستوس، هل أنت بخير، فلتجلس".

ضمها القنصل كروجر ضمةً قصيرة حانية، كما صافح ابنة أخته الكبرى التي كانت متواجدةً هي أيضًا بقاعة الطعام.

حينذاك، كان كروجر قد بلغ العام الخامس والخمسين من عمره، وكان ذا شاربٍ صغير ولحية غزيرة- تبرز منها ذقنه الحليقة- وقد وخط الشيب شعر لحيته. وكان حريصًا على العناية ببعض شعر قليل تناثر على رأسه الصلعاء الحمراء. ثم قال للقنصلة: "أتدرين بما جدَّ، بيتسي؟ إن الأمر لا يهمك كثيرًا، طوني؛ بإيجازٍ فقد تم بيع أرضنا المواجهة لبوابة بورجن تور، فهل تعرفين مَن اشتراها؟ ليس واحدًا فقط، بل اثنين، لتُقسَّم بينهما. وسوف يُشيد سورُ فاصل ليبني على القسم اليمين التاجر بن تهين، ويبني على يساره التاجر سورنسون كوخًا للكلاب.. حسنًا، إنه أمر الرب".

عقدت السيدة جريونليش يديها، ووضعتها في حجرها، وقالت: "إنه أمرٌ غريب، أرض.. جدي! هكذا إذن تُبدَّد الأملاك. كان بهاء المكان يتبدى في رحابته، التي لم تكن ذات قيمة، وإنما كانت من دواعي الأبهة، فهناك

بستانٌ واسع يمتد إلى النهر، ومنزلٌ قائم عند آخر الطريق الصاعد وطريق شجر الكستناء. أما الآن فسوف تُقطع أوصال الأرض ليقف بن تهين أمام بابٍ مدخنًا الغليون، وأمام بابٍ آخر يقف سورينسون. إذن فلأقُل أنا أيضًا إنه أمر الرب أيها الخال يوستوس، فلم يعد هناك من أبناء الذوات أحدٌ ليسكن هذه الأرض جميعًا، ولنحمد الرب أن جدي لم يشهد ما يحدث الآن".

كانت حالة الحداد ما تزال تنوء بثقلها على جو البيت إلى حدٍّ منع أنطونيا التعبير عن امتعاضها بعبارة أكثر وقعًا ووضوحًا.

كان ذلك في تمام الخامسة ونصف عصر يوم قراءة الوصية، بعد وفاة القنصل بأسبوعين. كانت القنصلة قد دعت أخاها إلى شارع منجشتراسه ليشارك توماس والوكيل السيد ماركوس الاجتماع للوقوف على أملاك وثروة القنصل. وقد أعلنت أنطونيا قرارها بالمشاركة في هذه الجلسة، وحرصت على أن تضفي على هذا الاجتماع جوًّا رسميًّا، وقالت إنها مدينة بهذا الاهتمام للأسرة والشركة، فبذلت جهدها في الاحتفاء بذلك فأرخت الستائر وأوقدت كل الشموع على الشمعدانات الكبيرة المذهبة، بالإضافة إلى مصباحي الغاز القائمين على مائدة الطعام، التي يمكن طيها وفتحها. وأعدت كمية كبيرة من الأوراق وأقلام الرصاص المشحوذة، ووضعتها فوق المائدة، ولم يعرف أحد الغرض من ذلك.

كان ثوبها الأسود يضفي جمالاً على قدها النحيل الفتي. ولعلها كانت أكثر مَن تأثر برحيل أبيها؛ فقد كانت الأقرب إلى قلبه في السنوات الأخيرة. وها هي دموعها تسيل لدى ذكر اسمه. وبرغم ذلك كان ترقبها للمشاركة في هذا

المجلس الصغير والجلسة المهمة قد ضرج وجنتيها الجميلتين بالحمرة، وبث تألقًا في عينيها، وبعث في حركاتها انشراحًا وأهمية. وعلى النقيض من ذلك، كانت القنصلة التي بدت معذبة ذابلة من الجزع والألم، ومن طقوس العزاء التي لا تحصى ومراسم الدفن. فبدا وجهها شاحب اللون، تحت قبعتها التي تدلت منها شرائط سوداء من الدانتيل. إلا أن الشيب لم يعرف طريقه إلى شعرها الأشقر المعقوص والمفروق. فهل كان ذلك من أثر صبغتها الباريسية، أم أنها كانت الباروكة. وهو سِرٌّ لم يكن يعلمه سوى الآنسة يونجمان، ولم تبح به قط لأيٍّ من نساء البيت. وهكذا جلس أفراد العائلة على جانبي مائدة الطعام بانتظار عودة توماس والسيد ماركوس من المكتب.

وقالت القنصلة: "إن الأمر يا عزيزي يوستوس هو.. لقد دعوتك.. بإيجازٍ: فالمسألة تتعلق بالصغيرة كلارا، وقد فوضني الراحل الغالي في اختيار الوصي لفترة ثلاث سنوات، وأنا أعرف أنك لا تحب ذلك، كما أنك مثقلٌ بواجبات نحو زوجتك ونحو ولديك".

"نحو ولدٍ واحد، بيتسي".

"حسنًا، حسنًا، فلنكن مسيحيين رحماء، يوستوس، فنغفر لمن يسيء إلينا كما أمرنا الرب، ولتذكر أبانا الذي في السموات".

فنظر إليها أخوها وقد اعترته بعض الدهشة، فمثل هذه المواعظ كان يرددها القنصل الراحل.

"على الرحب والسعة، بيتسي، حقًّا، ولسوف أقوم بهذه المهمة على خير وجه، فهل لي رؤية مَن سأقوم بالوصاية عليها، يا لها من طفلة تتسم بجدية تفوق الحد".

وجيء بكلارا، تمشي على مهل، وقد بدت شاحبةً، مرتديةً ثوب الحداد، كما وشت حركتها بتحفظها المهموم. فمنذ رحيل أبيها انقطعت لصلواتها في غرفتها. أما عيناها السوداوان فقد تجمدتا من أثر الألم والورع، فيما يبدو.

استقبلها الخال يوستوس بوقاره المعهود، فانحنى وصافحها وخاطبها بكلمات بليغة، ثم عادت أدراجها بعد أن طبعت القنصلة قبلةً على شفتيها. وعاودت القنصلة الحديث فسألت: "وكيف حال يورجن الطيب؟ وكيف يشعر في فيسمار".

فعاد يوستوس كروجر ليجلس، وهو يرفع كتفيه ويقول: "بخير، وأظن أنه عثر على مكانه المناسب، فهو فتى طيب، بيتسي، شاب طيب، وكان من حسن حظه أن رسب مرتين، فلم تكن دراسة القانون على هواه، فأصبح مقتنعًا تمامًا بعمله في البريد. والآن، فلتخبريني، فقد سمعت بمجيء ولدك كريستيان؟"

"نعم، يوستوس، سوف يجيء عن طريق البحر، فليحفظ الرب طريقه! وكم شقيتُ بطول غيابه. وقد أرسلت إليه خطابًا في اليوم التالي لوفاة جان، إلا أنه لم يتسلمه. أما سفره بسفينةٍ شراعية فيستغرق حوالي شهرين، لكنه قادمٌ يقينًا، فما أشد حاجتي إليه، يوستوس. وبرغم أن توماس قال إن جان لم يكن ليُسمح له بترك وظيفته في فالبريزو، ولكن، عفوًا، فأنا لم أره من ثماني سنوات تقريبًا، ثم يأتي في مثل هذه الظروف، كلاَّ، فلتظلوا جميعًا إلى جانبي في هذه المحنة".

فقال القنصل: "يقينًا، يقينًا" بعد أن لاحظ أن عينيها فاضتا بالدمع. ثم أردفت: "وقد أبدى توماس كذلك موافقته، فهل يجد كريستيان موقعًا أفضل

من شركة المرحوم والده، فبوسعه البقاء هنا، والعمل هنا، آه، وكل ما أخشاه، أن يصيبه الجو هناك بأذى".

ثم دخل توماس القاعة بصحبة السيد ماركوس، "فريدريش فيلهلم ماركوس"، وكيل أعمال القنصل الراحل، فبدا رجلاً طويل القامة، مرتديًا سترة بنية اللون، وقد وضع حول ذراعه شارة حداد. وكان إذا تكلم أخفض صوته متعلثمًا، مترددًا على نحوٍ ما، يتدبر كل كلمة قبل أن ينطق بها، وقد اعتاد أن يستخدم إصبعيه السبابة والوسطى المستقيمين برويةٍ وحرص في المسح على شاربه المشوب بلونٍ كستنائي أحمر، يغطي فمه، كما كان حريصًا على فرك يديه ليعطي انطباعًا بتوترٍ وشرود كبيرين، فيما كان دائم النظر بطرف عينيه مفكرًا، إلا أنه كان دائمًا منتبهًا متدبرًا لما يدور حوله. أما توماس بودنبروك فكان حريصًا على أن يدل مظهره ومسلكه على بث شعور جاد بمكانته، بعد أن أصبح مديرًا للشركة الكبيرة، وهو ما يزال في سن حديثة، إلا أنه كان شاحب اللون. وكان الخاتم الكبير، الموروث والمرصع بحجر كريم أخضر يزين إحدى يديه اللتين كانت بشرتهما بيضاء، بلون أساور قميصه البارزة من سترته السوداء، وكان لون يديه شاحبًا بلون الصقيع مما يدل على ما يعانيه من جفاف وبرودة تامين. وكان لونٌ أزرق يشوب أظافره البيضوية المعتنى بها تمامًا، أظافر ليدين كانتا في لحظات بعينها، وفي مواقف، بعينها، يسودهما بعض التوتر والغموض، ويمكنهما التعبير على نحوٍ لا يوصف عن حساسية انطوائية وتحفظ يشوبه التخوف. وهو تعبيرٌ ظل غريبًا عن أيدي آل بودنبروك، ولا يناسبها إلى حدٍّ بعيد؛ تلك الأيدي العريضة كأيدي المواطنين، إلا أنها كانت رقيقة التكوين.

وقد حرص توماس بدايةً على فتح مصراعي الباب المفضي إلى غرفة المنظر الطبيعي، ليسمح بانتشار حرارة المدفأة القائمة خلف سياج من الفورفورجيه. ثم صافح القنصل كروجر ليتخذ مكانه إلى المائدة في مواجهة السيد ماركوس، فيما رفع حاجبيه ليتأمل أخته أنطونيا مندهشًا. إلا أنها أراحت رأسها، على نحوٍ ما، إلى الخلف، وجعلت ذقنها على صدرها، حتى لا يبدي توماس أية ملاحظة على تواجدها.

سأله يوستوس كروجر: "ألم يحن الوقت لأن نخاطبك بلقب "السيد القنصل"؟ فالهولنديون فقدوا الأمل في أن تقوم بتمثيلهم توم، أيها العجوز".

"أجل، أيها الخال يوستوس، فقد آثرت هذا.. انظر، لقد كان بوسعي تولي القنصلية في الحال، إلى جانب المسؤوليات الأخرى، لكنني، أولاً، ما أزال حديث السن إلى حدٍّ ما.. وقد تشاورت مع عمي جوتهولد في هذا الشأن، فرحب وقبل ذلك".

"منتهى العقل يا بني. منتهى السياسة.. ومراعاة تامة لأصول اللياقة".

"السيد ماركوس، عزيزي السيد ماركوس!".

هكذا قالت القنصلة، وهي تمد يدها نحوه بعد أن قلبت راحة كفها بعيدًا عنه تمامًا، فتلقاها هو ببطء، وبنظرة جانبية حريصة ملتزمة. ثم أردفت: "لقد قمتُ بدعوتك إلينا، وأنت تعلم سبب الدعوة، كما أعلم أنك تشاركنا الرأي. فقد أبدى المرحوم زوجي في وصاياه الأخيرة رغبته في أن تساهم بجهدٍ محمود مخلص في خدمة شركتنا بعد وفاته، لا بصفتك وكيلاً فقط، بل كواحدٍ من الشركاء".

فقال السيد ماركوس: "يقينًا، سيدتي القنصلة، إلا أنني أرجوكم بكل

الإخلاص، أن تكوني على اقتناع بأنني أقدر بكل العرفان هذا الشرف الذي أوليتني إياه، فما أملك تقديمه للشركة هو قدرٌ ضئيل للغاية، وأنا أُشهد الرب والناس أنه ليس بوسعي ما هو أفضل من قبول عرضكم وعرض السيد ابنكم بكل الامتنان".

أما توماس، فقد مد يده عبر المائدة إلى شريكه، فقد كان الاثنان متفقين منذ زمن، ولم يكن ذلك سوى تعبير شكلي، وقال بسرعة وبساطة: "أجل، ماركوس، فأنا أشكرك من قِبلي على استعدادك لقبول تحمل جزء من عبء المسؤولية الضخمة".

أما القنصل كروجر فقال: "يقول المثل "المشاركة شرَك"، لكنكما ستقضيان على هذه الفرية. والآن فلننظر في الأمر، وأنا في هذا لا أهتم سوى بنصيب القاصر التي أقوم بالوصاية عليها، وفيما عدا ذلك فلا شأن لي به. هل لديك نسخةٌ من الوصية، بيتسي؟ وأنت، توم، هناك حسابٌ ما".

فرد توماس: "أنا أحتفظ به في رأسي". ثم أخذ في شرح الموقف محركًا قلمه المذهب فوق المائدة هنا وهناك. وقد أراح ظهره إلى الخلف، ناظرًا إلى غرفة المنظر الطبيعي. فقد كانت مسألة ميراث القنصل أكثر تعقيدًا مما أظن، فقد ضاعت بالطبع هدية زواج ابنته الكبرى- أنطونيا- أما خسارة الشركة في أزمة إفلاس بريمن عام 1851 فكانت ضربةً قاصمة، وكذلك خسائر عام 1848 والعام الحالى (1855)، كما سببت آثار الحرب أيضًا مزيدًا من الخسائر. إلا أن نصيب بودنبروك في ميراث كورجز، الذي كان قد بلغ 400.000 مارك فقد انخفض إلى 300.000 مارك، لأن يوستوس استنفد منه- سلفًا- جزءًا كبيرًا. وبرغم دأب يوهان بودنبروك على الجأر بالشكوى،

كعادة التجار، فإنه قد تم تعويض الخسائر بالإضافة إلى أرباح قدرها 30.000 ريـال خلال خمسة عشر عامًا، فهكذا تكون الثروة، بخلاف العقارات كافةً، قد بلغت 750.000 مارك. وكان توماس يجهل مقدار هذه الثروة، رغم اطلاعه على مجرى الأعمال. وبينما استقبلت القنصلة هذا الرقم بوقار هادئ، وبينما كانت أنطونيا شاخصة البصر في وقار رقيق، غير متفهمة، دون قدرة على إخفاء ما بدا عليها من أمارات شك متخوفة، كأنها تقول: "أيكون ذلك كثيرًا، كثيرًا جدًا؟ وهل نحن أيضًا أثرياء؟" وفيما كان السيد ماركوس يفرك يديه بمهل، وبدا مشتت الذهن، وتململ القنصل كروجر بوضوح، كان الرقم الذي ذكره توماس نفسه قد غمره بشعور عصبي ومؤثر من الفخر، فقال بصوت متهدج ويدين مرتجفتين: "كان يجب أن نصل إلى المليون منذ زمن، فقد كان جدي يملك في أفضل حالاته 900.000.. فيا لهذا المجهود الذي بذلناه منذ ذلك الوقت، ويا لهذا النجاح الكبير، ويا لهذه الصفقات المربحة هنا وهناك! وهدية زواج أمي، وميراثها! آه لكنها تلك النكسات الدائمة.. يا إلهي، إن هذا من طبائع الأمور، معذرةً، فأنا لم أتكلم إلا فيما يخص الشركة، ونسيت الأمور العائلية.. فيا لها من هدايا زواج، وما تقاضاه عمي جوتهولد من مبالغ، وتلك الى ذهبت إلى فرانكفورت، مئات الألوف تلك التي سُحبت من رأسمال الشركة.. ولم يكن هناك سوى ابنتين فقط لصاحب الشركة.. يكفي هذا، فأمامنا الكثير لنفعله، ماركوس!".

كانت عيناه للحظة قد تأججت بالشوق إلى العمل والفوز والنفوذ والطموح للسيطرة على الحظ. لقد داهمه إحساسٌ بأنه صار محط أنظار

الجميع، وهم يتطلعون إلى مقدرته على الارتقاء بمكانة الشركة القديمة أو حتى الحفاظ عليها.

أما في البورصة، فقد قوبل بتلك النظرات الفضولية المرتابة التي سددتها نحوه عيون رجال أعمال ساخرين متهكمين متشككين إلى حدٍّ ما، ولسان حالهم يقول: "هل بوسعك التغلب على هذه الأمور يا بني؟" فكان يقول لنفسه: "نعم.. إنني لفاعل".

وبينما كان فريدريش فيلهلهم ماركوس يفرك يديه بحذر، قال يوستوس كروجر: "هدئ من روعك، توم! لقد تبدلت الأحوال عما كانت عليه عندما كان جدك البروسي مُوردًا للجيش". وأخذوا في حديث مسهب عن تفاصيل مهمة وغير مهمة احتوتها الوصية، حديث شارك فيه الجميع، حديث أبدى فيه القنصل كروجر روحًا فكهة عندما راح يذكر توماس دائمًا بـ"صاحب السمو، الأمير الحاكم من الآن فصاعدًا"، وقد قال: "إن أرض المخازن تظل طبقًا للتقاليد تحت تصرف التاج دون شك".

وفيما عدا ذلك، جرت الأمور بما يقضي العُرف، فقد قضت القرارات على إبقاء الحال على ما هو عليه، وأن تكون السيدة إليزابت بودنبروك هي الوريثة الأصلية مبدئيًا، وأن يظل إجمالي الثروة للشركة، فيما أكد السيد ماركوس دعمه لرأسمال الشركة بمبلغ 120.000 مارك، هي نصيب مشاركته. وقد خصص لتوماس ثروة خاصة مؤقتة بمقدار 50.000، كما تم تخصيص نفس المبلغ لكريستيان في حالة استقلاله بعمل خاص. وأبدى يوستوس كروجر حماسًا عند ذكر الفقرة الخاصة بكلارا، التى جاء بها: "يتم تخصيص هدية زواج لابنتي الحبيبة الصغيرة كلارا، حال زواجها، على أن

يترك أمر تقدير المبلغ لزوجتي الحبيبة".

فقال: "لنقل 100.000"، وأراح ظهره للخلف، واضعًا ساقًا فوق الأخرى، عابثًا بشاربه القصير الأشيب؛ فقد كان هو السخاء نفسه. وقد تم تحديد المبلغ المخصص لذلك بثمانين ألف مارك.

ثم تلا ذلك: "في حالة زواج ابنتي الكبرى الحبيبة أنطونيا مرةً أخرى، فإنه نظرًا لحقيقة أنها منحت بالفعل حين زواجها الأول 80.000 مارك، فإنه لا يجوز أن يتخطى جهازها مبلغ 17.000 مارك". فما كان من السيدة أنطوني إلا أن مدت ذراعيها، لتشمر عن ساعديها برشاقة وانفعال، ثم نظرت إلى سقف الغرفة هاتفة: "جريونليش- ها"، فبدا ذلك وكأنها تنفخ البوق، نفير الحرب. ثم قالت: "هل تدري، يا سيد ماركوس، كيف حال هذا الرجل حقًّا؟ كنا ذات عصرٍ جالسين في سلام بالبستان، المواجه للبوابة.. وأنت تعرف يا سيد ماركوس بوابتنا!- حسنًا، فإذا بمن يهبط علينا، كان شخصًا بلحية صفراء كالذهب.. يا لَه من محتال".

فقال توماس: "إذن، لسوف نتحدث عن السيد جريونليش فيما بعد، أليس كذلك؟"

"حسنًا، حسنًا، لكنك ستقرني على رأيي، توم، فأنت راجح العقل، وقد مررت أنا بهذه التجربة، لقد كنتُ قبل ذلك بقليل شخصًا ساذجًا للغاية، وأنت تعرف، أن الحياة لا تقتصر على الصدق والعدل".

فقال توم: "أجل" ثم استأنفوا تناول التفاصيل، فعرفوا من نصوص الوصية بأمر إنجيل العائلة الضخم وأزرار القنصل الماسية، وبأمورٍ أخرى كثيرة.. وبقي يوستوس كروجر والسيد ماركوس لتناول العشاء.

الفصـل الثَّــاني

بعد غيابٍ لثماني سنوات عاد كريستيان بودنبروك في أوائل شهر فبراير عام 1856 إلى موطن أسلافه، قادمًا من هامبورج بعربة البريد، مرتديًا حلةً صفراء ذات خطوط متقاطعة كعادة أهل المناطق الاستوائية، وقد أتى معه بمنقار لسمكة موسى وعود قصب. وقد انتابته حالةٌ من الاضطراب والشرود حين استقبلته القنصلة بالقبلات، ولازمه هذا الشعور حين قامت العائلة في ضحى اليوم التالى لوصوله بزيارة الضريح الواقع خلف بوابة بورجتور، لتضع إكليلاً من الزهور، وفيما عدا كلوتيلدة المقيمة في "أونجناده" لرعاية والدها العليل، كان الجميع قد وقف هناك على الطريق أمام شاهد القبر الرحيب الذي يحتوى على أسماء الراحلين الأبرار، والذي نُقش عليه شعار الأسرة.. أمام الصليب المرمري المنتصب هناك، المستند إلى حافة دغل الضريح الصغير، الذي جرده الشتاء من أوراقه.

قامت أنطونيا بوضع الإكليل عند اسم أبيها الذي نُقش حديثًا على الشاهد بحروفٍ مذهبة. ثم جثت أمام الضريح- برغم الجليد- لتؤدي صلاة بصوت هامس. وبينما كان وشاح وجهها الأسود يتطاير، كان ثوبها يرفرف

حولها كأنها لوحة فنية. والرب وحده يعلم مدى الحزن والخشوع، وكذلك مدى إعجاب هذه المرأة الجميلة بنفسها الذي يعتمل في نفس هذه القطعة الفنية. فأما توماس، فلم تسمح حالته المزاجية له بالتفكير في ذلك، وأما كريستيان فكان ينظر بطرف عينه إلى أخته نظرة تحمل مزيجًا من الاستخفاف والتخوف، ولسان حاله يقول: "أبوسعك تحمل مسؤولية ذلك. ألن يصيبك الاضطراب حين تنهضين؟" فيا لَبؤس هذا المشهد! وقد لاحظت أنطونيا هذه النظرة حين نهضت، إلا أنها لم تضطرب لذلك على الإطلاق. فطرحت رأسها إلى الخلف وعدَّلت ثوبها ووشاح وجهها، واستدارت لتمضي بسكينة وجلال، مما سبب ارتياحًا واضحًا لكريستيان. فإذا كان القنصل بهيامه بحب الرب والمسيح هو أول أفراد بيته الذي عرف ورعى المشاعر غير الدنيوية السامية المتمايزة، فقد كان ولداه هما أوائل مَن فزعوا- من أسرة بودنبروك- من رؤية مثل هذه المشاعر البسيطة التلقائية. ويقينًا كان شعور توماس لفقدان أبيه أعظم من شعور جده بموت أبيه. إلا أنه لم يكن قد اعتاد الركوع أمام القبر، ولم يكن ليرتمي فوق الطاولة مولولاً كالأطفال، مثلما فعلت أخته طوني، إلا أن الألم اعتصره حين سمع السيدة جريونليش وهي ترثي- بين وجبتي الطعام- سمات وشخص أبيها الراحل بكلمات ممزوجة بالدمع. وقد واجه مثل هذه المشاعر المتفجرة بجديةٍ لبقة وصمت كظيم، وإيماء برأسه متحفظ. وكانت عيناه تغرورقان شيئًا فشيئًا بالدموع، دون أن يبدو على وجهه بوادر تغيير ما.

أما كريستيان فكان مختلفًا عنه. فلم يستطع تمالك نفسه ببساطة، وهو يرى تدفق مشاعر أخته البسيطة والطفولية فمال على صحن الطعام،

متجاهلاً، مبديًا حاجته للانزواء، مقاطعًا إياها عدة مرات بكلمات هامسة معذبة: "يا إلهي.. طوني.." بينما كان أنفه الضخمة قد انكمشت في تجاعيد بلا حصر. نعم، لقد أبدى مشاعر قلق وحيرة لدى تحول الحديث إلى ذكر المتوفَّى، وقد بدا أنه لا يخشى فحسب ظهور مشاعره العميقة الطبيعية، بل كان يخشى المشاعر نفسها ويتجنبها. وهو الذي لم يره أحدٌ يبكي موت أبيه. وعدم اعتياد ذلك، وحده، لا يفسر هذه الحالة. أما الأمر المحير فكان أنه برغم كراهيته لمثل هذه الحوارات، كان ينتحي مرارًا بأخته جانبًا لتقص عليه وحده أحداث وتفاصيل عصر يوم الاحتضار الرهيب: فقد كانت السيدة جريونليش أفضل مَن يصور مثل هذه الأمور. وكان قد وجه إليها هذا السؤال للمرة الخامسة "كان وجهه إذن ممتقعًا؟ بماذا صرخت الخادمة؟ كيف استطاع لفظ "آه..آه؟".. كانت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان تدوران بسرعة بالغرفة، مستغرقًا في التفكير، ثم قال فجأةً: "أمرٌ مريع"، وقد تملكته رجفة بادية للعيان، حينما نهض واقفًا وراح يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بعينين شاردتين متوترتين، فيما أبدت أنطونيا دهشة من أمر أخيها الذي كان يبدي حرجًا غير مفهوم من سماعها تُرثي أباها بصوت مرتفع، فإذا به هو يكرر بصوتٍ عالٍ للغاية، وهو شارد الذهن- نفس حشرجة الموت- التي كان قد بذل قصارى جهده في سؤال لينا الخادمة عنها.

ولم يكن نصيب كريستيان من الجمال قد ازداد البتة، فقد ظل هزيل البدن، شاحب اللون، وجلد وجهه مشدود بحدة حول رأسه، ومن بين عظام وجنتيه برزت أنفه الضخمة المعقوفة التي كان قوامها من العظام فقط. كما كان شعر رأسه ضعيفًا إلى حدٍّ ملفت للنظر. أما عنقه فكان دقيقًا مفرطًا في

الطول، وكانت ساقاه تتسمان بانبعاجٍ شديد إلى الخارج. بالإضافة إلى أنه تأثر كثيرًا بإقامته في لندن. ولما كان تعامله في فالباريزو يكاد يقتصر على الإنجليز، فقد اكتسب مظهره كله لمسة إنجليزية اتسقت مع هيئته. وقد تبدى شيءٌ من هذا في حلته الفضفاضة، بنسيجها الصوفي السميك وحذائه العريض المتين الأنيق، وكذلك في منظر شاربه الأشقر الأحمر الذي يغطي فمه معبرًا عن صرامةٍ ما. وكذلك يداه، ببشرتهما الباهتة والمسامية، كانتا مع أظافرهما القصيرة النظيفة المستديرة، تعطيان، لأسبابٍ ما، انطباعًا عن التأثر بالأسلوب الإنجليزي.

كان قد سأل أخته فجأةً: "أخبريني.. هل تعرفين هذه الشعور.. إنه عصيٌ على الوصف.. عندما يبتلع الواحدُ منا شيئًا جامدًا فيشعر بألم في الخلف، بالظهر كله؟" فيما كانت أنفه قد انكمشت في تجاعيد صغيرة حادة.

فقالت طوني: "نعم، إنه أمرٌ مألوف تمامًا، فما عليك إلا تناول جرعة من الماء".

فرد هو غير مقتنع: "أهكذا؟ لا، أنا لا أظن أننا نقصد نفس الشيء" وأخذت أمارات جدية تبدو على وجهه من حينٍ لآخر.. وكان هو أول من تكفل بإشاعة جو من التحرر والخلاص من الحزن. فهو لم يكن قد نسي ذاك الأسلوب الذي كان يقلد به الراحل مارسيلوس شتنجل، فكثيرًا ما راح يتحدث لساعات بطريقة شتنجل. فإذا ما جلس إلى مائدة الطعام، تساءل عن مسرح المدينة.. وعما إذا كانت هناك فرقةٌ جديدة، وعن الرواية التي تُعرض على المسرح.. فرد توم بنبرةٍ مفرطة في عدم المبالاة، حتى لا ينفد صبره: "لست أدري، فأنا لا أهتم بهذا الآن" فتجاهل كريستيان ذلك تمامًا

ليشرع في الحديث عن المسرح: "أنا لا أستطيع التعبير عن سعادتي بارتياد المسرح.. ولست أدري، إن كان أحدكم يعرف هذا الشعور؟ فبوسعي الجلوس لساعات بلا حراك محدقًا في الستار المسدل.. وأثناء ذلك أشعر بسعادة الأطفال حينما كنا نأتي إلى هنا لتلقي هدايا أعياد الميلاد.. وحتى محاولات ضبط آلات الأوركسترا! فسوف أمضي إلى المسرح من أجل سماع ذلك فقط!.. وأفضل ما أحبه هي المشاهد العاطفية.. فهناك بعض العشيقات اللاتي يعرفن معنى إحاطة وجه العشيق بأيديهن.. ولا تسألنني عن الممثلين.. فقد عرفت الكثير منهم بلندن وفالباريزو، وكنت أفخر في بادئ الأمر بالحديث معهم في أمور الحياة العامة. أما في المسرح فكنت أهتم بكل حركة يأتون بها.. إنه أمرٌ شائق للغاية! أن يلقي أحدهم بآخر كلماته ليستدير بهدوءٍ تام ليمضي إلى الباب على مهله مطمئنًا تمامًا ودون ارتباك، برغم أنه يدرك أن جميع العيون تتعلق بظهره.. فيا لها من مقدرة! وفي الماضي كنت دائمًا أشتاق للتواجد ذات مرة خلف الكواليس- لأكون- حقًّا هناك كأني في بيتي، هذا ما وددتُ قوله. تصوروا، كان ذلك ذات مساءٍ بمسرح أوبرالي بلندن عندما رُفع الستار وكنت ما أزال أقف على خشبة المسرح أحادث الآنسة ووترلوز، الآنسة ووترلوز، فتاةٌ رائعة الجمال، كفى! ففجأةً أرى أمامي الصالة، فلم أعلم، بالرب، كيف نزلت من خشبة المسرح". فلم يضحك من الموجودين سوى السيدة جريونليش، بينما كان كريستيان يواصل حديثه وعيناه تدوران بالمكان، فذكر مطربة تغني بمقهى موسيقي، وقد ظهرت تلك السيدة بباروكة، نُثرت فوقها البودرة، وأخذت تضرب الأرض بعصا طويلة وتصدح بأغنية "هذه ماريا".. أتعرفون "ماريا".. إنها تلك التي ارتكبت

أعظم الآثام، فإن كان هناك من اقترف ذنبًا أقبح، تكون "هذه ماريا"، فماريا هي الأسوأ، "أتعرفون هذا الإثم.." وقد نطق الكلمة الأخيرة مشمئزًا، وقد انكمشت أنفه، رافعًا يده اليمنى بأصابع معوجة. فما كان من القنصلة إلا أن قالت: "كفى، كريستيان، فهذا أمرٌ لا شأن لنا به" فلم يعرها كريستيان اهتمامًا، سوى أن تجاوزها بنظرةٍ عابرة. وكان قد عزم على التوقف عن الحديث قبل تدخلها، فيما كانت عيناه الصغيرتان المستديرتان الغائرتان لا تكفان عن الطواف المضطرب، وقد بدا أنه غارقٌ في تفكيرٍ عميق عن ماريا وما ارتكبته من ذنب. وإذا به فجأةً يقول: "إنه أمرٌ غريب.. فأحيانًا لا أستطيع ابتلاع الطعام! كلاً، إنه أمرٌ لا يثير الضحك، بل هو في رأيي أمرٌ بالغ الأهمية. فيخطر ببالي أنني لا أستطيع الابتلاع، وبالفعل يحدث ذلك، فيقف الطعام هناك في الخلف تمامًا، أما هذا هنا.. هذا العنق، وتلك العضلات فإنها تتوقف عن العمل ببساطةٍ تامة فتعصى إرادتي، أتدرون ذلك. نعم، فالمسألة هي أنني لا أجرؤ إطلاقًا على امتلاك إرادة حقيقية".

فلم تتمالك أنطونيا نفسها فصاحت: "كريستيان! يا إلهي، ما هذه الحماقة! أنت لا تجرؤ على أن يكون لك إرادة للبلع.. كلاً، فكل ما تقصه علينا يعرضك للسخرية!"

وبينما كان توماس يلتزم الصمت، قالت القنصلة: "إنها الأعصاب، كريستيان، حقًّا، وقد آن أوان عودتك لبلدك، فالطقس هناك كان سيصيبك بالمرض".

بعد تناول الطعام جلس كريستيان إلى البيانو الصغير بقاعة الطعام، وأخذ يقلد عازف البيانو، وراح كأنه يطرح رأسه إلى الخلف، وفرك يديه،

ونظر إلى الغرفة من أسفل، ولأنه لم يكن يتمتع بملكة العزف مثل معظم آل بودنبروك، ولم يكن بوسعه العزف إطلاقًا، فإنه بدأ بهدوء ودون أن يطأ المنافيخ في معالجة نغمة الـ"بِم"، مؤديًا مقاطع جنونية، ثم ارتاح إلى الخلف، ناظرًا بسعادةٍ إلى أعلى، ليهوى بقوة ونشوة على المفاتيح.. مما جعل، حتى، كلارا تغرق في الضحك. فقد كان عزفه زائفًا مفعمًا بالحرقة والشعوذة، مفعمًا بهزل لا يقاوم، حاملاً الطابع الأنجلو- أمريكي المثير للضحك، وبعيدًا كل البعد عن أن يكون له تأثير غير لطيف، فقد كان هو نفسه يشعر بكل الراحة والثقة.

"لقد حضرتُ حفلاتٍ موسيقية كثيرة للغاية، فأنا مفرطٌ في ولعي برؤية العازفين وهم يتعاملون مع آلاتهم الموسيقية!.. نعم، كم هو رائعٌ حقًّا أن تكون فنانًا".

وعاد لمواصلة حديثه، إلا أنه ما لبث أن توقف فجأةً ليغلب عليه على الفور طابع الجدية: هكذا، فجأةً، فبدا كأنه أماط لثامًا عن وجهه، فنهض ومس شعره الخفيف، متنقلاً إلى موضعٍ آخر حيث وقف هناك صامتًا مهمومًا بعينين مفعمتين بالقلق، وقد ارتسم على وجهه إيحاء من يصغي إلى أصوات موحشة.

وذات مساء، بينما كانت السيدة جريونليش تجلس مع أخيها توماس وحدهما، إذا بها تقول له: "أحيانًا أجد كريستيان غريب الأطوار إلى حدٍّ ما، أرأيته كيف تحدث؟ فهو يغرق في التفاصيل على نحوٍ غريب، هكذا أتصور.. لكن ماذا أقول! إنه يتناول الأمر من جانبٍ غريب للغاية، أليس كذلك؟.."

فقال توم:" نعم! أنا أعي تمامًا ماذا تعنين طوني، فكريستيان لا يكتم ما

في قلبه.. إنه أمرٌ يمكن أن نسميه الاتزان، الاتزان النفسي، فمن ناحيةٍ لا يكون بوسعه الحفاظ على تماسكه تجاه ما يبديه الآخرون نحوه من تفاهات غير لائقة؛ فهو عاجز أمام ذلك، ولا يعي كيف يكتم مشاعره فيفقد راحته النفسية تمامًا.. ومن ناحيةٍ أخرى فهو يفقد راحته النفسية أيضًا عندما ينزلق إلى الثرثرة على نحو يؤذيه، فيسبر أغوار نفسه، على نحوٍ غريب، أليس كذلك، كمن يهذي من الحمى، وهو حال الشخص الواهم الذي يفتقد إلى التماسك والتحفظ.. آه، إنه أمرٌ شديد البساطة، فكريستيان منشغلٌ كثيرًا بذاته، وبما يعتمل في داخله. فأحيانًا تنتابه لوثةٌ حقيقية تجعله يكشف عن أدق وأصغر تلك الأمور وينطق بها لسانه.. وهي أمورٌ لا يهتم بها أي إنسان عاقل، ولا يريد معرفة أي شيء عنها لسببٍ بسيط، إنها أمورٌ تسبب حرجًا إذا كُشِفَ عنها، ففي هذا الكشف يكمن عدم حياء عظيم، طوني.. أترين: لو أن شخصًا آخر غير كريستيان شاء الإعراب عن حبه للمسرح فإنه يعبر عن ذلك بنبرةٍ مختلفة عابرة موجزة متواضعة. أما كريستيان فيقول ذلك بنبرة تعني: أليس هيامي بالمسرح أمرًا غريبًا وشيقًا؟" فيما هو يجاهد الكلمات فيبدو كأنه يصارع من أجل التعبير عن شيء على نحو عظيم من الدقة والغموض والندرة".

ثم ألقى بلفافة التبغ إلى المدفأة خلف سياجها الفورفورجيه، ليستأنف حديثه: "أريد أن أخبرك بشيء: وهو أنني كنتُ أحيانًا أفكر في هذا الانشغال الرهيب المغرور والفضول، فقد تملكتني آنذاك نزعةٌ إلى مثل هذا الأمر. إلا أنني أدركت أن ذلك يقودني إلى شتات الذهن والفشل وعدم الاتزان.. بينما يمثل لي التماسك والاتزان أهمية قصوى، وسوف يكون هناك دائمًا من

يحق له الاهتمام بذاته، وبما يعتمل داخله من مشاعر، مثل الشعراء الذين لديهم المقدرة على التعبير عن مشاعرهم الأثيرة بثقة وبلاغة، بما يثري عالم المشاعر لدى الآخرين. أما نحن فلسنا سوى تجار بسطاء، يا بنيتي، والانشغال بمشاعرنا بائس فقير. ويمكننا عند الضرورة القول إن عزف آلات الأوركسترا يبعث فينا سعادة غريبة، وقد لا نجرؤ أحيانًا على التصريح بعدم قدرتنا على البلع.. آه، يا للعنة، فعلينا الانشغال بإنجاز شيء، مثل هذا الذي أنجزه أسلافنا.."

"أجل، توم، إنك تعبر عن وجهة نظري. فعندما يخطر ببالي ازدياد رواج تجارة آل هانجشتروم.. يا إلهي، هؤلاء الحثالة، أتدري، إن أمي لا تحب سماع هذه الكلمة، إلا أنها هي التعبير الوحيد الصحيح. فهل قد يظنون أنه ليست هناك بالمدينة من عائلات عريقة سواهم؟ ها! لابد أن أضحك، أتدري، لا بد أن أقهقه".

الفصل الثَّالث

كان مدير شركة "يوهان بودنبروك" قد أخذ يعاين شقيقه عند وصوله بنظرة فاحصة طويلة، وظل ينظر إليه- خلال الأيام الأولى- نظرةً غير ملفتة، عابرة، وبدون ظهور رأي محدد على ملامح وجهه الهادئة المتحفظة، إلى أن بدا له فيما بعد أنه أشبع فضوله واستقر على حكمٍ ما. فكان يتحدث معه بالبيت- بنبرة لا مبالية- عن أمور غير مهمة، ويتسلى كالآخرين عندما يؤدي كريستيان أحد عروضه. وبعد مرور ثمانية أيامٍ تقريبًا قال له: "سنعمل معًا إذن، يا صغيرى؟.. وعلى حد علمي، فقد تفهمتَ رغبة الأم، أليس كذلك؟.. على أية حال، فكما تعلم، لقد صار ماركوس شريكًا لي بنسبة ما أسهم به من رأسمال. وأنا أفكر في أن تحل محله، ظاهريًّا، كشقيقٍ لي، كوكيلٍ لأعمال الشركة، وهو منصب راقٍ على الأقل.. أما فيما يخص أعمالك، فأنا لا أعرف مدى خبرتك بالتجارة. فأنا أتصور أنك تسكعت بعض الشيء، أليس كذلك؟.. وعلى كل حال، فسوف يكون عملك هو المراسلات باللغة الإنجليزية.. ويبقى لي رجاء لديك، يا عزيزي، فبصفتك شقيق المدير سيكون لك موقعٌ أفضل من بقية الموظفين بالطبع، ولستُ بحاجة لأن أقول لك إنك

من خلال المساواة وتأدية واجبك بحماسٍ سوف تؤثر فيهم على نحو أعظم من استخدام امتيازاتك وتمتعك بحرية التصرف. وهكذا، فأوصيك باحترام مواعيد العمل، أليس كذلك؟" ثم قدم له اقتراحًا بخصوص أعمال التوكيل، وهو ما قبله كريستيان دون تفكير أو مساومة. فظهرت على وجهه أمارات الاضطراب والحيرة الناتجة عن تناقض رغبته المتدنية مع حماسه الشديد لإنهاء المسألة على وجه السرعة.

وفي اليوم التالي كان توماس يقدمه إلى العاملين بمكتب الشركة، وهكذا التحق كريستيان بالعمل في الشركة العريقة. واتخذت أعمال الشركة مسارها المتواصل وطيد الأركان بعد وفاة القنصل. لكن ما إن تولى توماس بودنبروك الإدارة حتى سيطرت على العمل روح أكثر عبقرية وتجددًا وجرأة، فبين الحين والآخر كان يقدم على إنجاز شيءٍ ما. ومن حين لآخر كان يبذل قصارى جهده وفكره لاستغلال مصداقية الشركة، التي لم تكن- تحت القيادة القديمة- سوى رمز أو نظرية أو ترف.. راح سادة البورصة يتغامزون عليه "ها هو بودنبروك يريد مشاركتنا"، إلا أنهم نظروا بعينِ الرضا إلى توماس، وهو يجر السيد الفاضل فريدريش فيلهلم ماركوس إلى هذا المجال، كأنه يحمله عبئًا ثقيلاً على كتفيه. فقد كان تأثير السيد ماركوس يمثل عقبة في سير العمل. كان يمر بإصبعه بعناية على شاربه، وبدافع شغفه الشديد للنظام، كان يهتم بتصحيح وضع أدوات الكتابة وكوب الماء على مكتبه، فاحصًا أمرًا ما من جوانبه المختلفة، وقد ارتسمت على وجهه علامات الجمود، بالإضافة إلى عادته في الخروج خمس أو ست مرات أثناء وقت العمل إلى الفناء ليمضي إلى دورة المياه، ليضع رأسه تحت الماء المتدفق من الصنبور

لاستعادة الحيوية. وكان رؤساء الشركات الكبرى يقولون لبعضهم البعض: "إن كلاً منهما يكمل الآخر"؛ وهو ربما ما كان يقوله القنصل هونيوس للقنصل كيستنماكر، وكان متداولاً بين عمال السفن وعمال المخازن، وكذلك بين أوساط الأسر البسيطة، فقد عرف أهل المدينة كيفية إدارة الشاب بودنبروك لأعماله.. حتى إن السيد شتون، الذي يسكن بشارع جلوكنجيسرشراسة، قال لزوجته التي تغشى المجتمعات الراقية: "إن كلاً منهما يكمل الآخر، هذا ما أؤكده لكِ". لقد صُبع العمل بلا شك بشخصية أصغر الشريكين، وهو ما تجلى في أنه هو مَن كان يتعامل مع موظفي الشركة والربابنة ومديري مكاتب المخازن وعمال النقل وعمال المخازن. فقد أدرك كيف يخاطبهم بلغتهم ببساطة مع حفاظه على المسافة بينه وبينهم. وعلى النقيض من ذلك، كان إذا خاطب السيد ماركوس أحد العاملين البسطاء باللهجة العامية فقال له: "أتفهمني؟" كان لسؤاله وقعٌ شاذ تمامًا، يجعل الجالس أمامه على المكتب يبدأ ببساطة في الضحك ليكون ذلك بمثابة إشارة البدء لإغراق جميع من بالمكتب في الضحك.

وكانت رغبةٌ عارمة تجتاح توماس بودنبروك للحفاظ على مجد الشركة وزيادة بريقها بما يناسب اسمها العريق، فكان مولعًا باستغلال سمات شخصيته في معركة النجاح اليومية؛ فقد كان على يقينٍ تام من أن نجاح بعض صفقاته كان يرجع إلى مظهره الواثق الأنيق، وأسلوبه الآسر وحديثه اللبق.

"لا يصح لرجل الأعمال أن يكون بيروقراطيًّا"، كان هذا ما قاله لشتفان كيستنماكر الشريك بمتجر "كيستنماكر وأولاده"، وزميله أيام الدراسة،

الذي ظل صديقه الأرجح عقلاً، فكان يصغي إلى كل كلمة يقولها ليرددها فيما بعد على أنها رأيه هو.

"يُضاف إلى ذلك التمتع بالشخصية، هذا هو رأيي. فإحراز نجاح كبير لا يمكن تحقيقه من العمل بالمكتب فقط.. فهذا لا يرضي غروري.. فلا يمكنك البقاء بالمكتب لتتوقع النجاح، لأنني أشعر دائمًا بالحاجة تدفعني إلى التواجد لأدير العمل بالنظرة والكلمة والإيماءة.. فأفرض عليه سيطرتي طبقًا لمشيئتي وموهبتي، أو حظي، كما تسميه أنت. إلا أن هذا، هذا التدخل الشخصي للتاجر، صار شيئًا فشيئًا لا يساير مجريات العصر، فالأيام تجري، لكنها تترك خلفها أفضل شيء، كما أتصور، فوسائط الاتصال صارت أسهل، وأصبحت معرفة مؤشر البورصة أسرع.. فتضاءلت المغامرة وتضاءل معها الربح.. نعم، كان حال أسلافنا مختلفًا. فقد كان جدي، على سبيل المثال، يسافر بعربة تجرها أربعة خيول إلى جنوب ألمانيا، هذا السيد العجوز، برأسه المضمخة بالبودرة، بصفته مورِّد الجيش القادم من بروسيا، وهناك يمارس فنونه في جذب الآخرين، فيربح أموالاً كثيرة، كيستنماكر. آه، فأنا أكاد أخشى أن تتدهور شخصية التاجر بمرور الأيام".

هكذا كان يجأر أحيانًا بالشكوى. لذلك كانت أفضل صفقاته هي التي يعقدها أثناء نزهة عائلية، على سبيل المثال، فكان يدخل إلى مطحن فيتجاذب مع صاحبه أطراف الحديث، فيشعر الرجل بالفخر، وأثناء ذلك يستغل الظرف المواتي ليوقع معه عقدًا مربحًا.. أما كريستيان فقد بدا، في بادئ الأمر، مقبلاً على عمله بحماس ومتعة حقيقيين. أجل، لقد بدا على غير العادة يشعر بالرضا عن عمله، وأقبل لأيامٍ عديدة على الطعام بشهية

مفتوحة، ويدخن غليونه القصير، مريحًا كتفيه في "الجاكت" الإنجليزى، معبرًا بذلك عن رضائه وراحة باله. وكان يذهب صباحًا إلى المكتب في نفس وقت ذهاب توماس إليه تقريبًا، ليجلس بجوار السيد ماركوس، في مواجهة أخيه، وإن كان ينحرف بعض الشيء بكرسيه المرن ذي المسند؛ فقد كان لديه مقعد بمسندٍ مثل المديرين الآخرين. وكان يبدأ بمطالعة الصحف حتى ينتهي على راحته من تدخين سيجارة الصباح. ثم يخرج من درج المكتب الأسفل زجاجة كونياك معتقة، ليفرد ذراعيه فيعطي نفسه مساحةً للحركة، ثم يقول: "إذنا" ثم يبدأ عمله راضيًا وهو يلوك أسنانه بلسانه. وكان يتقن على نحوٍ غير مألوف تحرير مراسلاته الإنجليزية، فقد كان يكتب الإنجليزية كما يتكلمها ببساطةٍ وعفوية وسلاسة، وفي الجلسات الأسرية كان يؤثر في جو الاجتماع بكلامٍ يفصح به- على طريقته- عما يعتمل بداخله. فقد قال ذات مرة: "إن الاشتغال بالتجارة لمهنةٌ جميلة تسبب السعادة حقًا، وهي مهنة مستقرة وثابة ومريحة.. لقد ولدتُ من أجل هذه المهنة! وبوصفي منتميًا لهذه الشركة، أتدرون.. بإيجاز، فأنا أشعر براحةٍ لم أحسها من قبل؛ فأنا أقبل صباحًا على المكتب بحماس، فأطالع الصحف، وأدخن، أتدبر هذا الأمر أو ذاك قدر الإمكان، وأحتسي الكونياك، لأعمل قليلاً. ثم يأتي موعد الغداء، فأتناول الطعام مع أسرتي، ثم أرتاح، لأستأنف العمل ثانيةً.. فأكتب، ولديَّ أوراقٌ خاصة بالشركة من النوع الفاخر الناعم النقي، ولديَّ ريشةٌ جيدة.. ومسطرة، وفتاحة مظاريف، وخاتم شعار الشركة، كلها من أفخر الأنواع وأفضلها.. وبهذا أنجز كل شيء بحماس، العمل تلو الآخر، بترتيب دوره، حتى أفرغ من أداء مهمتي. ليبدأ في الغد يومٌ جديد. فإذا أقبلت على طعام العشاء

كنت أشعر بالرضا التام.. رضا يغمر أوصالي.. حتى يداي تشعران كذلك بالرضا".

فصاحت طوني: "يا إلهي، كريستيان! أنت تهذي! أتشعر الأيدي بالرضا؟"

"نعم، حقًّا! ألا تعرفين ذلك؟ أنا أقصد.."

ثم عمد مجتهدًا للتعبير عن ذلك وتفسيره فقال: "أتعرفين.. إنني عندما أقبض يدي، أشعر بوهنها، لأني أجهدتها في العمل وهى ليست معروقة ولا تشعرني بالضيق.. بل أحس أنها طيبةٌ مرتاحة.. إنه نوعٌ من الرضا عن النفس.. فأجلس ولا أحرك ساكنًا دون أن يعتريني شعورٌ بالملل".

فخيم الصمت على الجميع إلى أن قال توماس بتجاهل تام، ليداري امتعاضه: "يبدو لي أننا لا نعمل من أجل.." لكنه أمسك عن تكرار معنى ما قاله أخوه ليردف: "إنني أضع نصب عيني أهدافًا أخرى".

إلا أن كريستيان لم يلتفت لقول أخيه، وراح يتنقل بعينيه متأملاً، وسرعان ما شرع يحكي قصةً وقعت في فالباريزو، واقعة قتل وضرب أفضى إلى الموت، كان قد رآها بعينيه.

"وهنا أخرج الولد مديته.."

لأسبابٍ ما، كان توماس لا يحفل بمثل هذه الروايات التي تمتلئ بها جعبة كريستيان، بينما كانت تجد فيها السيدة جريونليش متعةً وتسرية، وتستمع إليها القنصلة وكلوتيلده وكلارا بفزع، أما الآنسة يونجمان وأريكا فكانتا تصغيان إليها بدهشة. وكان توماس يتابعها بإشاراتٍ باردة ساخرة، مبديًا بوضوح اعتقاده بأن كريستيان يبالغ ويزيف الأحداث.. وهو ما لم يكن حقيقيًّا، إلا أنه كان يضفي عليها طابع الإثارة.

فهل كان توماس لا يحب معرفة أن أخاه الأصغر قد مر بتجارب أكثر منه؟ أم كان يشعر بامتعاض نحو الإعجاب بأعمال العنف المتطرفة في هذه الروايات عن المُدى والأسلحة النارية؟.. إلا أنه كان من المؤكد أن كريستيان لم يهتم برفض شقيقه لرواياته، التي كانت تستغرقه تفاصيلها على نحوٍ أعظم من توقع الآخرين له بالنجاح والفشل في ذلك، فإذا ما انتهى من الرواية كان يطوف الحجرة بنظرة شاردة.

وبرغم أن علاقة الشقيقين لم تتطور إلى الأفضل على مر الزمن، إلا أن كريستيان لم يكن هو مَن يسمح لنفسه بإبداء بُغضٍ ما نحو أخيه، أو يضمر له رأيًا أو حكمًا أو احتقارًا كما كان يفعل الآخر. فقد كان يؤثر الصمت، معترفًا لأخيه الأكبر بتفوقه وجديته التامة، وقدرته الأعظم وبراعته، وذلك على نحوٍ بديهي لا يشوبه أدنى شك. إلاَّ أن هذا الخضوع المفرط اللامبالي، الخانع تحديدًا، كان هو ما يستثير توماس؛ فقد كان كريستيان لا يدع فرصةً إلا وبالغ في الاستهانة بذلك، حتى ليبدو أنه لا يقدر إطلاقًا قيمة التفوق والبراعة والوقار والجدية. وقد بدا أنه لم يلحظ قط أن مدير الشركة يلقاه بامتعاض صامت متزايد.

وكان دافع شقيقه إلى ذلك هو أن إقبال كريستيان على العمل- بعد الأسابيع الأولى، بل بعد الأسبوع الثاني- قد أصبح أقل حماسًا بكثير عن ذي قبل، وتبدى ذلك أولاً فيما كان يعد به كريستيان نفسه لبدء العمل، وهو ما كان يبدو- أول الأمر- على أنه إقدام ممطوط ذو أسلوب رفيع ومبدع من مطالعة للصحف، وتدخين لسيجارة الفطور، إلى احتساء الكونياك، فيمتد الوقت بذلك حتى يشمل في النهاية وقت الضحى كله.

ثم أصبح كريستيان لا يلقى بالاً لمواعيد المكتب المحددة، فيظهر في الصباح متأخرًا وسيجارة الفطور بفمه، ليبدأ التمهيد للعمل، وفي الظهر يمضى لتناول الغداء بالنادي ليعود متأخرًا للغاية، وأحيانًا ما كان يرجع في المساء، وأحيانًا لا يرجع على الإطلاق.. وكان هذا النادي، الذي كان معظم رواده من التجار العزّاب، يحتوي بطابقه الأول على حانة وبعض الردهات المريحة، حيث كان الرواد يتناولون طعامهم لتدور هناك مسامرات عفوية، وإن لم يكن أغلبها بريئًا: فقد كانت هناك طاولة روليت. وكان من بين أعضاء النادى أرباب أسر يتمتعون ببعض الترف، مثل القنصل كروجر، وكذلك بالطبع بيتر دولمان، وسيناتور الشرطة كريمر، الذي كان الرجل الأول في المقدمة، على حد تعبير دكتور جيسكه، أندرياس جيسكه، ابن مدير المطافئ، زميل كريستيان أيام الدراسة، الذي عاد ليعمل بالمدينة كمحامٍ ليعقد أواصر صداقة مع كريستيان من جديد، وإن كان يُنظر إليه كرجلٍ يميل إلى الطيش.

أما كريستيان، فكان يغلب عليه اسم كريشان، سواء بالحق أو بالباطل، وكان صديقًا أو رفيقًا للجميع منذ زمن، حيث كان أغلبهم تلاميذ الراحل مارسيلوس شتنجل. فها هو يُستقبل هنا بالأحضان؛ فبرغم عدم تقدير التجار أو المثقفين لقدراته الذهنية إلا أنهم كانوا يعرفون مواهبه الاجتماعية المرحة، فقد كان في الواقع يقدم هنا أفضل عروضه، ويقص هنا أفضل رواياته، وكان يقوم بالعزف على البيانو، وكان يقلد ممثلين ومغنيي أوبرا من إنجلترا وأمريكا، وكان يتناول أحوال النساء بكل جوانبها بأسلوب هو الأكثر براءةً ومرحًا. فقد كان كريستيان بودنبروك بلا شك واحدًا من

أصحاب المغامرات، فكان يحكي عن مغامراته على متن السفن، أو بالقطارات، أو في ساو باولو، أو في ويتشابل أو في الغابات البكر.. وكان في روايته آسرًا جذابًا سلسًا في غير تكلف، وقد حمّل صوته نبرةً ممطوطة بها مسحةٌ من شجنٍ، ساخرةً وبريئة كمهرجي الإنجليز. وقد روى قصة كلبٍ تم شحنه من فالباريزور إلى سان فرانسيسكو داخل علبة، بالإضافة إلى أن الكلب كان أجرب. ويعلم الرب وحده أين كانت المزحة في هذه القصة، إلا أنها خرجت من فمه مضحكةً للغاية، ولابد أن يكون قد أثار ضحك كل من حوله، فقد كان يجلس هناك بأنفه المعقوفة الضخمة وعنقه الدقيق المفرط في الطول، وشعره الخفيف الأشقر الأحمر، راسمًا على وجهه أمارات جو قلقة وغير مبررة، واضعًا إحدى ساقيه الهزيلتين المنبعجتين فوق الأخرى، وقد أخذ يطوف بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين وهو شارد الذهن، ليبدو تقريبًا كأنه هو مبعث ضحك الآخرين، أو كأنهم إنما يضحكون من شخصه، أما هو فلم يخطر هذا الأمر بباله.

أما حديثه الأثير بالبيت فكان عن مكتبه في فالباريزو، وعن ارتفاع درجة الحرارة السائدة هناك، وعن شاب إنجليزي يدعى جوني ثندر ستورم، وهو صعلوكٌ غريب الأطوار، لم يره- و"الرب قادر على معاقبتي"- يعمل قط، إلا أنه كان تاجرًا بارعًا.. ثم يقول: "يا إلهي!" وفي هذا الجو الحار! إذا بالمدير يدخل المكتب.. ونحن رقود، ثمانية رجال، نرقد كالذباب، وندخن على الأقل من أجل طرد الناموس، يا إلهي! ثم يقول المدير: "حسنًا، ألا تعملون أيها السادة؟"

فيقول جوني ثندرستورم: "لاَ.. سير، كما ترى.. سيرا فيما نقوم جميعًا

بنفخ دخان السجائر في وجهه... يا إلهي!"

فسأله توماس مستثارًا: "لماذا تردد دائمًا يا إلهي؟" إلا أن ذلك لم يكن هو ما أثاره، وإنما شعوره بأن كريستيان لا يحكي هذه القصة بهذا المرح العظيم، إلا لأنها تتيح له الفرصة للحديث بسخرية عن العمل.

وحوَّلت الأم دفة الحديث بتأدب إلى وجهة أخرى.. وقد خطر ببال القنصلة بودنبروك أن الأرض تنوء بأمورٍ بغيضة كثيرة حتى يكره الأخ أخاه ويحقر من شأنه، وهذه هي الحقيقة حتى وإن بدت مُرة. إلا أن الناس لا يذكرون ذلك، بل يتكتمونه فلا حاجة لمعرفة ذلك.

الفصل الرَّابـــع

وحدث ذات ليلةٍ عصيبة من شهر مايو أن العم جوتهولد، القنصل جوتهولد بودنبروك، قد تُوفي بين ذراعي زوجته سليلة آل شتيونج. كان في الستين من عمره لما داهمته ذبحةٌ صدرية لفظ على إثرها أنفاسه الأخيرة وهو يتألم. كان جوتهولد، ابن السيدة يوسفينه الفقيرة، رقيق الحال مقارنةً بإخوته الأكثر ثراءً والأحدث سنًا من أبناء السيدة أنطوانيت، إلا أنه كان قد ارتضى نصيبه في الحياة منذ زمن، خاصةً في السنوات الأخيرة، بعد أن تنازل له ابن أخيه عن القنصلية الهولندية، فاعتاد تناول أقراص للصدر من علبة صفيح دون أن يضمر ضغينةً تجاه أحد. أما مَن كان يضمر ويحفظ هذا الخصام العائلي، ليظهره في شكل اعتراض دائم غير محدد، فكُن نساءه: ففيما عدا زوجته رقيقة الحاشية ضيقة الأفق، كانت بناته الثلاث، اللاتي لم يكن قادرات على رؤية القنصلة أو أنطوني أو توماس إلا وقد بدت في عيونهن شعلةٌ صغيرة سامة. وكان شمل الجمع يلتئم- طبقًا لتقاليد "يوم الأنجال"- في الساعة الرابعة من أيام الخميس، بالبيت الكبير بشارع منجشتراسه،

ليتناول الجميع هناك طعام الغداء، ويمضون معًا أوقات المساء.

وكان أحيانًا ما يحضر كذلك القنصل كروجر أو سيسمي فايشبروت، بصحبة أختها غير المتعلمة. وهنا كانت فرصة سيدات بودنبروك من الشارع العريض لينطلقن في حديثهن المفضل عن زواج أنطونيا الفاشل، ليدفعن السيدة جريونيلش للتفوه بعباراتها المتشددة، فيما يسددن نحوها نظراتٍ قصيرةً حادة، أو كُن يبدأن حديثًا عامًا عن التباهي الجارح بصبغ الشعر، أو يشاركن في الاستفسار عن أحوال ياكوب كروجر، ابن أخي القنصلة، كما كُن يسخرن من كلوتيلده المسكينة البريئة الصابرة، وهي الوحيدة في الواقع التي كان يجب أن تشعر أنها أدنى منهن؛ ولم تكن تلك السخرية بريئةً كتلك التي كانت تتعرض لها كل يوم من توم أو أنطونيا، فتقابلها الفتاة الفقيرة الجائعة بصبرٍ حميم عجيب. كما كُن يتهكمن على تزمت كلارا وتطرفها، وقد أدركن بسرعة سوء علاقة كريستيان بتوماس، فحمدن الرب على أنهن لم يكن بحاجة لاحترام كريستيان، فهو ليس سوى خيال مآتة، أو أضحوكة. أما توماس، الذي كُن لا يجدن فيه نقطة ضعف باديةً، والذي كان يقابلهن بشعور متزن واع كمن يقول: "أنا أعرف حالكن، وأرثي له".. فكن يبدين نحوه احترامًا لا يخلو من المقت. أما أريكا الصغيرة الزهرة المنعمة، فكن يُضطررن إلى القول إن نموها قد تأخر على نحوٍ يثير القلق، فتهتز فيفي وقد علق زَبَدٌ بين شدقيها، وهي تشير- بلا داعٍ- إلى الشبه المفزع بين الطفلة وبين المحتال جريونليش.

وها هُن الآن يقفن مع أمهن باكيات حول فراش الأب المحتضر، وبرغم أنهن كُن يرين أن أقاربهن في منجشتراسة كانوا سبب موت الرجل إلا أنهن

بعثن إليهم برسول إلى هناك؛ ففي منتصف الليل كان جرس باب البيت الخارجي يدق ليصل إلى الممر الكبير. ولما كان كريستيان قد عاد للبيت متأخرًا وهو يشعر ببعض المعاناة، فقد مضى توماس وحيدًا إلى هناك تحت مطر الربيع، ووصل بالكاد في موعده، ليشاهد الرجل العجوز وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم وقف طويلاً بغرفة المتوفَّى وقد عقد يديه متأملاً هذا المخلوق قصير القامة الراقد تحت الغطاء، ناظرًا الوجه الميت ذا الملامح اللينة والبشرة البيضاء، ليقول لنفسه: "لم تكن حياتك بأسعد حال، أيها العم جوتهولد، ولم تدرك- إلا بعد فوات الأوان أنه كان عليك الإقرار بالأمر الواقع واحترام ذلك، وأن للضرورة أحكامها.. ولو أنني كنت مكانك لفضلت البيت الثري على هذا الزواج لأحافظ على مظهري!.. فهل كانت لديك رغبةٌ في أن تكون غير ما كنت؟ وبرغم أنك كنت عنيدًا، وتؤمن أن هذا العناء شيء مثالي، إلا أنك لم تمتلك إلا قليلاً من الروح الوثابة، وقليلاً من الخيال، وقليلاً من المثالية بما يجعل المرء قانعًا بحماسٍ فاتر يراه أجمل وأسعد وأكثر رضا من حبٍ غامض، يشمل أملاكًا ما مجردة، واسمًا عريقًا، واسم شركة شهيرة، حبٌ يرعى ذلك ويحميه، يجلب المجد والقوة والعزة. لكنك افتقدت الروح الحالمة رغم استبسالك في معارضة أمر أبيك فيمن أحببت وتزوجت. كما أنك لم تملك الطموح أيها العم جوتهولد، فالاسم العريق ليس بالطبع سوى اسمٍ لمواطن، لكننا نتعهده بالعناية بأن نبقي عليه محبوبًا وقويًا إن عقدنا صفقة قمح، وإن حافظنا على كرامته في ركن صغيرٍ ما من العالم.. لكنك فكرت: سأتزوج ابنة شتيونج التي أحبها غير عابئ بالاعتبارات العملية، فهي من توافه الأمور وصغارها.. نعم، لقد سافرنا أيضًا

وتعلمنا ما يكفي لكي ندرك عن حق أن حدود طموحنا- إن نظرت إليها من الخارج أو من أعلى- هي حدود ضيقة وبسيطة. إلا أن كل شيء على وجه الأرض ليس سوى مسألة نسبية، أيها العم جوتهولد! ألم تعرف أن بوسع المرء أيضًا أن يكون رجلاً كبيرًا في مدينة صغيرة؟ وأنه يستطيع أن يكون امبراطورًا في سوق تجاري بسيط على بحر البلطيق؟ إلا أن ذلك يلزمه بالطبع شيءٌ من خيال، شيءٌ من مثالية.. وهذا ما افتقرتَ أنت إليه، وهو ما قد تكون أدركته أنت بنفسك".

ثم التفت توماس بودنبروك بعيدًا. مضى إلى النافذة وقد عقد يديه خلف ظهره، وارتسمت ابتسامةٌ على وجهه الذكي وهو ينظر إلى واجهة مجلس النواب ذات الطراز القوطي وقد توارت تحت وطء المطر وخفت ضوؤها.

وكان من طبائع الأمور أن انتقل منصب ولقب القنصلة الملكية الهولندية، الذى كان من حق توماس بعد وفاة أبيه مباشرة، ليعود الآن إليه ثانيةً؛ مما كان من دواعي فخرٍ بلا حد لطوني جريونليش، وعُلقت اللافتة البيضوية التي تحمل الأسدين والشعار والتاج على واجهة بيت منجشتراسه تحت عبارة: Dominus providebit (الرَّب حافظنا)

وبعد إنهاء هذا الأمر مباشرةً، وفي يونيو من العام نفسه، سافر القنصل الشاب في رحلة عملٍ إلى أمستردام، لم يكن يعرف ما سوف تستغرقه من وقت.

الفصل الخـــامس

"فقدان الأحباء يقربنا من السماء". لم يكن أحدٌ ليدهش لسماع مثل هذه العبارة شديدة الورع، أو غيرها، من فم القنصلة بعد وفاة زوجها؛ وهي عباراتٌ لم تألفها من قبل، إلا أنه سرعان ما بدا أن الأمر لم يكن عابرًا، وانتشر بالمدينة خبر أن القنصلة قد عقدت العزم على إحياء ذكرى القنصل خالد الذكر، وتحديدًا بأن تتبنى نزعته الورعة، تلك الميول الدينية التي تعاطفت معها في سنواته الأخيرة ومنذ تقدم بها العمر. وهكذا آلت على نفسها بث روح الراحل في أرجاء البيت الرحيب بهذا الخشوع المسيحي البسيط، الذي لا يجافي روح المرح النبيلة. فاستؤنفت صلوات الصباح والمساء على نطاقٍ واسع، لتجتمع العائلة بقاعة الطعام بينما يظل الخدم بصالة الأعمدة لتتلو القنصلة أو كلارا فقرةً من إنجيل الأسرة الضخم بحروفه الكبيرة، ثم يترنم أحدهم ببضع آياتٍ من كتاب المزامير، مصحوبة بعزف على الأرغن تؤديه القنصلة بنفسها. وغالبًا ما كان يحل محل الإنجيل كتابٌ للوعظ والتقويم، ذو غلاف أسود موشى بالذهب، أو ذلك المجلد الثمين، أو كتاب المزامير، أو ساعات الآلام، أو ترانيم الصباح، أو عصا

الحجيج، تلك التي كانت رقتها الدائمة تثير استنكار يسوع الطفل السعيد، وكان البيت ممتلئًا بها.

إلا أن كريستيان لم يكن يشارك عادةً في هذه الصلوات. أما توماس فقد اعترض على هذه الطقوس ذات مرة، بأسلوب حذر، وشيءٍ من المزاح، فتلقى ردًا برفض رأيه بأدبٍ ووقار. أما السيدة جريونليش فلم تلتزم دائمًا بسلوك قويم؛ فذاتصباحٍ حل بالمصادفة واعظٌ أجنبي ضيفًا على آل بودنبروك، مما اضطر الأسرة إلى غناء ترنيمة احتفائية شديدة الورع والتأثير، فصدحوا بالكلمات التالية:

لست سوى جثة غراب
شَلَّت خطاياه خطاه
يلتهم إثمه حناياه
كما ينخر الصدأ الفولاذ
أيها الرب خذني من أذني كلبًا
وألقِ لي برحمتك بعظمة
وخذني ضالاً آثمًا
إلى سماء رحمتك

فأحست السيدة جريونليش بانكسار نفسي، فرمت بالكتاب وغادرت الصالة.

وكانت القنصلة تأخذ على عاتقها أكثر بكثير مما تطلبه من أبنائها، فقامت- على سبيل المثال- بتأثيث "مدرسة الأحد" بدارها، فكانت تلميذات صغيرات من المرحلة الابتدائية يقمن- صباح يوم الأحد- بدق الأجراس

بشارع منجشتراسه، وكانت شتينه بوص من شارع السور، وميكه شتوت من شارع جلوكنجيسر، وفيكه سنوت من ضفة ترافه، أو قاطنات نزلة جروبلجروبه الصغيرة، أو انجلسفيش يأتين بشعورهن الشقراء المبتلة عبر الممر الكبير إلى غرفة البستان المضاءة، تلك الغرفة الواقعة هناك بالخلف، والتي لم تعد منذ زمن تُستخدم كمكتب، ليجدن هناك القنصلة بودنبروك سليلة آل كروجر، وقد ارتدت ثوبًا من الساتان الأسود الثقيل، فتقابلهن بوجهها الأبيض النبيل، وعلى رأسها قبعةٌ من الدانتيل أكثر بياضًا، وقد جلست إلى طاولةٍ صغيرة عليها كوب ماءٍ محلى بالسكر، لتلقي عليهن موعظةً على مدى ساعة. كما أسست ندوة "مساء أورشليم" وكان على طوني، شاءت أم أبت، حضورها مع كلوتيلده وكلارا. وكان يحضرها مرةً في الأسبوع حوالي عشرين سيدة، يجلسن إلى المائدة المفتوحة بقاعة الطعام على ضوء المصابيح والشموع؛ كنَّ نساءً بلغن عمر البحث عن مثوًى طيب في السماء، وهن يحتسين الشاي أو مشروب "الأسقف"، ويأكلن شرائح الخبز الفاخر بالزبد والبودينج، ويقرأن ترانيم وأعمالاً دينية، ويمارسن الأعمال اليدوية لتباع بأحد الأسواق في نهاية العام، لترسل قيمتُها إلى القُدس لتستخدم في الأغراض التبشيرية. وقد تكون النادي الديني في أغلبه من سيدات ينتمين إلى نفس الوسط الاجتماعي للقنصلة، وانضمت له السيناتورة لانجهالس والقنصلة مولندورف، والقنصلة كيستنماكر العجوز. إلا أن بعض السيدات المسنات، ممن يؤثرن الحياة الدنيا العلمانية، مثل السيدة كوبن، فكن يسخرن من صديقتهن بيتسي. كما انضمت إلى النادى أيضًا زوجات وعاظ المدينة، وكذلك القنصلة أرملة بودنبروك، سليلة شتيونج،

وسيسمي فايشبروت وأختها غير المتعلمة. ولما كان المسيح لا يعترف بالفروق أو المكانة، فقد شارك في ندوة "أورشليم" كذلك نسوةٌ فقيرات وغيرهن من البائسات، مثل تلك المرأة الصغيرة مجعدة الوجه، الثرية بما حباها الرب وبنماذج أعمال الكروشيه، التي كانت تدعى هيملسبرجر، وكانت آخر من تبقى من أسرتها على قيد الحياة، وكانت تقيم في مستشفى الروح القدس.

وكانت تقول إنني آخر نسل هيلمسبرجر، ثم تهرش تحت قبعتها بإبرة التطريز. ومن بين هؤلاء العضوات، اللاتي كن يحظين باهتمامٍ أوفر: توأم عانس غريب الأطوار، تطيان رأسيهما بقبعة رعاةٍ من القرن الثامن عشر، وقد بهت لون ثوبيهما منذ عدة أعوام، وكانتا تمضيان بالمدينة متأبطتين تسعيان في الخير. كانتا تحملان اسم جيرهاردت، زاعمتين أنهما نسل مباشر من باول جيرهاردت. ورُوي عنهما "أنهما لا تعانيان الفقر، بل تعيشان على الكفاف لتعطيا الفقراء كل شيء". أما القنصلة بودنبروك فكانت تخجل أحيانًا لهما فتقول: "أحبائي، إن الرب ينظر إلى القلوب التي في الصدور، إلا أن ثيابكما بالية إلى حدٍّ ما.. فلابد أن يهتم المرء بنفسه". إلا أنهما كانتا تطبعان قبلةً على جبين صديقتهما الأنيقة التي لا تستطيع إنكارهما، سيدة الدنيا، قبلة مفعمة بالتسامح التام والحب والشفقة يمنحها المتفوق صاحب الدرجة الأدنى لمن يبحث عن الشفاء وإن كان من النبلاء.

لم تكن المرأتان تعانيان من الغباء على أية حال؛ فكانت رأساهما الصغيرتان الدميمتان المنكستان كرأس ببغاء تشملان عينين سمراوين متألقين، تعانيان من بعض الغشاوة، وقد ارتسم بهما تعبيرٌ نادر يمزج بين البساطة والمعرفة، ينظران به إلى الدنيا، أما قلباهما فكانا عامرين بالمعرفة

العجيبة الغامضة، وكانتا تدركان أنه إذا دنا أجلنا جاءنا كل أحبائنا، مما اختارهم الرب إلى جواره، ليمضوا بنا محتفلين مبتهجين.

وكانتا تذكران كلمة "الرب" بسلاسة وأصالة المسيحيين الأوائل الذين تلقوا عن فم "المعلم" نفسه قوله: "الشيء الصغير يريكما إياي".

وكانتا تؤمنان بأغرب النظريات عن نور البصيرة، وعن الحدس، وعن نقل الأفكار وانتقالها.. لأن "ليا"- إحدى المرأتين- كانت صماء، إلا أنها كان بوسعها دائمًا تقريبًا معرفة ما يدور حولها.

ولما كانت "ليا" صماء، كان من الطبيعي أن تقوم بالتلاوة في أمسيات "أورشليم"، كما أقرت السيدات بجمال صوتها وتأثيره. فكانت تخرج من صُرتها كتابًا عتيقًا للغاية، كان ارتفاعه أكبر كثيرًا من عرضه على نحوٍ غير منطقي مثير للسخرية، وعلى غلافه النحاسي منقوشٌ رسم جدها الأعلى بوجنتين بارزتين على نحو غير مألوف. ثم تمسكه بين يديها لتقرأ، ولكي تسمع قليلاً مما تتلو كانت ترفع صوتها على نحو رهيب، ليبدو كصوت الريح إذا عوى بمدخنة المدفأة: "هل أراد إبليس ابتلاعي".

وخطر ببال أنطونيا جريونليش في هذه اللحظة سؤالٌ عن هذا الشيطان الذي يريد ابتلاع مثل هذه المرأة! إلا أنها لم تقل شيئًا، بل تخيلت أنها ستصبح يومًا ما دميةً مثل الآنستين جرهاردت. لم تشعر أنطونيا يومًا بسعادةٍ ما، بل تملكها السأم، وغضبت من القسس والمبشرين، الذين ربما تضاعفت زياراتهم بعد وفاة القنصل. كما اعتبرت أنطونيا أن الكلمة الأولى في إدارة البيت أصبحت لهم، بالإضافة إلى حصولهم على أموال طائلة. وبرغم أن النقطة الأخيرة كانت تهم توماس، إلا أنه سكت عن هذا، فيما كانت

أخته تغمغم من حين لآخر متهمةً هؤلاء الناس بأكل أموال دُور الأرامل، متذرعين بالصلوات الطويلة، وكان مقتها شديدًا لأصحاب الثياب السوداء هؤلاء. ولما كانت امرأةً ناضجة عركتها الحياة فلم تعد حمقاء، فقد أنكرت هذا الوضع الذي يفرض عليها الإيمان بقدسيتهم.

فقالت: "أمي! يا إلهي، أنا أعلم بحرمة اغتياب الآخرين.. حسنًا، لكن لابد أن أقول لك شيئًا برغم دهشتي أن الحياة لم تعلمك ذلك.. وهو أنه ليس كل من يطيل الرداء ويردد (الرب، الرب) لا تشوبه شائبة!". وظل موقف توماس غامضًا نحو مثل هذه الحقائق التي كانت أخته تعلنها بيقين لا يتزعزع. أما كريستيان فلم يلق بالاً لهذا الأمر، بل كان كل همه هو مراقبة هؤلاء الرجال بأنف مقطبة لكي يقلدهم فيما بعد بالنادي، أو بالبيت، إلا أن أنطونيا كانت هي حقًّا مَن يعاني من هذا النوع من الضيوف من رجال الدين. وحدث ذات يومٍ- حقًّا وحقيقيًّا- أن أحد المبشرين، وقد عمل بالشام والجزيرة العربية، ويُدعى جوناثان، وهو رجل بعينين واسعتين تفيضان بالاتهام والنقد، وله وجنتان متهدلتان في عبوس، قد تقدم نحوها وسألها بصرامة تقطر جزعًا أن تحسم أمرها فيما إذا كانت خصلات شَعر جبينها المكوية تتفق مع صحيح الخشوع المسيحي.. آه، إنه لم يقدر لباقة طوني جريونليش اللاذعة الساخرة. أما هي فلاذت بالصمت لبضع لحظات، وبدا عليها بوضوح أنها تقدح زناد فكرها، ثم بادرته: "أتأذن لي، سيدي القس، بأن أرجوك أن تهتم أولاً بخصلات شعرك؟!"

ثم انطلقت إلى الخارج وهي ترفع كتفيها بعض الشيء، طارحةً رأسها للوراء، محاولةً ضغط ذقنها إلى صدرها؛ فقد كان القس يوناثان لا يملك على

رأسه سوى بعض الشعر النادر، أجل يمكننا القول إن رأسه كانت جرداء.

إلا أنه قد سُجل لها نصرٌ أعظم من ذلك، فقد كان القس تريشكه، تحديدًا (تريشكه= الدموع)، من برلين، واكتسب هذا اللقب لأنه كان أثناء استغراقه في عظاته كل يوم أحد يجهش بالبكاء عند موضع بعينه.. كان تريشكه=الدموع يتسم بوجهٍ شاحب وعينين حمراوين ووجنتي جوادٍ حقيقي، وكان يقيم لدى آل بودنبروك ثمانية أو عشرة أيام، ليباري كلوتيلدة المسكينة في التهام الطعام، وليقيم أيضًا الصلاة.

وفي هذه الأثناء، وقع في غرام طوني.. لم يغرم بروحها الساعية للخلود، كلاًّ، بل بشفتها العليا، بشعرها الغزير، وعينيها الجميلتين وجسدها الفائر! ورجل الدين هذا، الذي له زوجة في برلين والكثير من الأبناء، لم يتورع عن تكليف الخادم أنطون بدس رسالةٍ في غرفة نوم السيدة جريونليش بالطابق الثاني. رسالة مزيج من آيات الإنجيل وعبارات عاطفية مشبوبة على نحو غريب.. وقد عثرت عليها أثناء توجهها للنوم، فلما طالعتها هبطت الدرج بخطى قوية إلى الطابق المسحور، لتدخل إلى غرفة نوم القنصلة، حيث قرأت بنفسها لأمها على ضوء الشموع رسالة الروحاني بصوتٍ عالٍ ودون خجل، حتى صار ظهور تريشكه=الدموع في منجشتراسه مستحيلاً.

وقالت السيدة جريونليش: "هكذا هم جميعًا! ها! هم جميعًا هكذا! يا إلهي، كم كنت حمقاء فيما مضى، غبية، يا أمي، إلا أن الحياة سلبتني ثقتي بالناس. فأغلبهم محتالون.. أجل، هذه هي الحقيقة للأسف. جريونليش..!" ورن هذا الاسم كأنه نفخة نفير أو زفرة قصيرة من بوق أطلقتها في الهواء، ورفعت كتفيها نوعًا ما، شاخصةً ببصرها إلى أعلى.

الفصل السَّــادس

كان سيفرت تيبورتيوس رجلاً قصير القامة نحيفًا، ذا رأسٍ ضخمة ولحيةٍ طويلة دقيقة شقراء تنقسم على جانبي وجهه، حتى إنه كان يطرح طرفيها على كتفيه بحثًا عن الراحة، وكانت رأسه المستديرة مغطاة بخصلات صغيرة كالوبر بلا حصر، أما أذناه فكانتا كبيرتين، حادتين للغاية، وتلتوي حوافهما للداخل، وتتدبب قمتاهما كآذان الثعالب. كما توسط أنفه وجهه كزر أفطس، وبرزت عظام وجنتيه. أما عيناه الرماديتان، الضيقتان عمومًا، فكانتا تنظران بقلقٍ مشوب بالحمق. إلا أنهما كانتا في لحظات بعينها تتسعان فجأةً، ثم تتسعان، وتتسعان، ثم تجحظان حتى تكادا أن تخرجا عن محجريهما.

كان هذا هو القس تيبورتيوس، من منطقة ريجا، وقد عمل لأعوامٍ بوسط ألمانيا. وها هو يزور المدينة أثناء رحلته إلى بلده، حيث حصل هناك على وظيفة واعظ. وجاء حاملاً توصية من أحد زملائه الذي تناول ذات يوم في منجشتراسة حساء سلحفاة ولحم خنزير بصلصة شالوت، فحل ضيفًا لعدة أيام على القنصلة، التي أفردت له غرفة الضيوف الرحبة بممر الطابق الأول، إلا أن إقامته طالت على غير توقع فمضت ثمانية أيام لم ير فيها أيًّا من معالم

المدينة، أو "رقصة الموت" أو "أعمال الرسل" بكنيسة سانت-ماريا، أو "مجلس النواب" أو "جمعية البحارة" أو "الشمس بعينيها الدوارتين" في الكاتدرائية. ومرت عشرة أيام وهو يكرر ذكر رحيله، إلا أنه كان يتراجع عن ذلك لدى أية أدنى كلمة تستبقيه. كان أفضل من السيدين يوناثان وتريشكه الدموع. فلم يهتم مطلقًا بخصلات جبين السيدة أنطوني المكوية ولا كتب إليها رسائل، إلا أنه انشغل وأبدى اهتمامًا أكبر بكلارا، أختها الصغرى التي تتسم بحظٍ أوفر من الجدية؛ فإزاءها، إن تحدثت، أو راحت أو جاءت، كانت عيناه تتسعان فجأةً تتسعان وتتسعان، وتجحظان لتكادا أن تفارقا محجريهما. كان يقضي اليوم كله تقريبًا بجوارها، حيث اعتاد الحديث معها عن أمور الدنيا والدين، أو يتلو عليها شيئًا بنبرة عالية متدافعة بلهجته العامية الغريبة المتراقصة شأن مواطنيه من أهل ساحل البلطيق. وفي اليوم الأول قال: "رحماكِ، سيدتي القنصلة! يا لهذا الكنز، ويا لتلك البركة الربانية التي منحكِ إياها الرب لما وهبكِ ابنتكِ كلارا؛ إنها طفلةٌ رائعة حقًّا!"

فلما ردت القنصلة: "إنك محق"، لم يثنه ذلك عن تكرار ما قاله، إلى أن راحت القنصلة تحدق فيه بوقارٍ بعينيها الزرقاوين اللامعتين، راجيةً أن يحكي لها عن مآله وآماله؛ فعرفت أنه من عائلة تمتهن التجارة، وأن أمه ذهبت إلى ربها، وأنه بلا إخوة وأخوات، وأن أباه العجوز يعيش في ريجا من ثروة معقولة، سوف تؤول ذات يوم إليه، أي إلى القس، فضلاً عن عمله الذي يوفر له دخلاً كافيًا. أما كلارا بودنبروك، فكانت قد بلغت آنذاك التاسعة عشرة من عمرها، وأصبحت بشعرها الداكن الناعم المفروق، وعينيها السمراوين ذات النظرة الحادة الحالمة، وأنفها المعقوفة بعض الشيء،

وفمها المطبق إلى حدٍّ ما زائد، وقوامها الممشوق، أصبحت سيدة شابة تتمتع بجمال خاص لاذع. أما في البيت، فكانت تؤثر علاقتها الوثيقة بابنة عمها كلوتيلدة المسكينة التي تضارعها ورعًا، وكان والدها قد توفي مؤخرًا وتتملكها فكرة الاستقرار، أي أن تذهب للعيش في بنسيونٍ ما بما ورثته من قروش قليلة وبعض الأثاث، ولم تكن كلارا بالطبع تشارك كلوتيلده خنوعها الدائم الصبور الجائع. بل كانت على النقيض، فكانت تخاطب الخدم، بل إخوتها وكذلك أمها، بنبرةٍ توحي بهيمنةٍ ما، وكانت بصوتها العجوز- الذي تعرف كيف تخفضه آمرةً، ولم ترفعه قط سائلةً- تتخذ هيئة الآمر الناهي. وكان بوسعها غالبًا أن تضفي على صوتها نبرة قصيرة، حادة، عجولة، متكبرة، تحديدًا في تلك الأيام التي كانت كلارا تعاني فيها من الصداع.

وقبل أن تخيم حالة الحداد على الأسرة بعد وفاة القنصل، كانت تشارك بوقار لا مثيل له في اللقاءات ببيت العائلة وبيوت الآخرين من الطبقة نفسها. فكانت القنصلة تتأملها غير قادرةٍ على إخفاء إدراكها باستحالة زواج هذه الابنة، برغم مهارات كلارا المنزلية، وبرغم هدية زواجها الثمينة، ولم يكن بوسعها تصور أحد التجار المتربصين المغامرين المحتسين للنبيذ الأحمر والمجاورين للأسرة، ليكون زوجًا لها، بل سوف تقترن هذه الفتاة الورعة الجادة بأحد رجال الدين. ولما كان هذا الخاطر يشرح صدر القنصلة، فقد لقيت مجاملات القس تيبورتيوس الرقيقة الموحية ترحيبًا معقولاً ولطيفًا لديها، وسرعان ما اتخذ هذا الأمر منحنى جادًا؛ فقد حدث أن قامت العائلة- ذات أصيل مشمس دافئ من أيام يوليو- بنزهة إلى "بوابة القصر"، ضمت القنصلة وأنطونيا وكريستيان وكلارا وكلوتيلدة وأريكا جريونليش،

بالإضافة إلى الآنسة يونجمان، ومعهم القس تيبورتيوس، فاجتمعوا هناك بمطعم ريفي ليتناولوا على طاولات خشبية في الهواء الطلق التوت والحليب والفريك الأحمر، ثم انطلقوا بعد تناول وجبة العصر للتنزه ببستان المطعم الرحب الممتد حتى النهر، وتحت ظلال أشجار الفاكهة المختلفة، وبين أدغال أشجار الخروب وعنب الذئب وحقول الهليون والبطاطس.

تخلف قليلاً عن الجمع كل من تيبورتيوس وكلارا بودنبروك. أما هو فبدا أقصر منها كثيرًا، وقد خلع عن رأسه الكبيرة قبعته القش السوداء المحنية، طارحًا طرفي لحيته على كتفيه، وأخذ يجاذبها، بعينين واسعتين، أطراف حديث طويل رقيق، مجففًا من حين لآخر جبينه بمنديل، وأثناء ذلك كان قد توقفا مرةً لتوافقه كلارا بصوت جاد هادئ قائلة "نعم".

فيما بعد، بعد العودة، حين كانت القنصلة تلوذ منفردة بغرفة المنظر الطبيعي، وهي تعاني من وطأة التعب ومرارة الجو، فيما خيم في الخارج سكون أصيل يوم الأحد، الباعث على التأمل، إذا بالقس تيبرتوس يجلس إليها مشاركًا لها هذا الغسق الصيفي ليبدأ حديثًا طويلاً هادئًا معها، لتقول القنصلة في النهاية: "عزيزي القس، هذا يكفي، فطلبك يوافق آمالي كأم، ومن جانبك، فقد أحسنتَ الاختيار، وهذا ما أستطيع تأكيده لك. فمَن كان يتصور أن زيارتك لنا وإقامتك بيننا ستنتهي إلى هذه البركة الرائعة!.. إلا أنني لا أستطيع حسم هذا الأمر اليوم، فعليّ أن أكتب إلى ابني القنصل، الموجود بالخارج كما تعلم، فارحل غدًا إلى ريجا بالعافية والسلامة لتتسلم عملك، أما نحن فنعتزم قضاء بضعة أسابيع على الشاطئ، وسأوافيك قريبًا بالرد، ولنلتقِ على خير بمشيئة الرب.

الفصل السَّـــابع

أمستردام، 20 يوليو 1856

فندق هت هاسييه

والدتي العزيزة!

ما إن تلقيت خطابك الوافي حتى أسرعت لأعرب عن خالص امتناني لكِ لما أبديتِه من اهتمام للحصول على موافقتي على المسألة المشار إليها. ولم يكن بديهيًّا أن أعلن موافقتي فحسب، بل أرفقها بأحر التهاني، لاقتناعى التام بأنكما- أنتِ وكلارا- قد أحسنتما الاختيار. كما أنني أعرف هذا الاسم الجميل "تيبورتيوس"، فأنا أؤمن إيمانًا تامًّا بأن والدي كان على علاقة عملٍ بوالده. وعلى أية حال، فإن كلارا سوف تنعم بحياةٍ هانئة، ولسوف يوافق هواها أن تكون زوجةً لقس.

إذن، فقد رحل تيبورتيوس إلى ريجا، وسوف يزور عروسه مرةً أخرى في أغسطس، وسوف يؤول الأمر في شارع منجشتراسه إلى حال أسعد، بل أسعد مما كنتم تتصورونه جميعًا، فعساكم لا تدركون دوافعي العجيبة إزاء هذه المفاجأة السعيدة لخطوبة الآنسة كلارا، وما يحققه من مصادفةٍ سعيدة للغاية.

أجل، يا أمي، أيتها المرأة الفاضلة، فإننى إن كنت أرتاح إلى إرسال موافقتى المكتوبة من أجل سعادة كلارا، من هنا في أمستل إلى بحر البلطيق، فإنني سأفعل ذلك بشرط الحصول في خطابك القادم على موافقة مماثلة على مسألة مماثلة!

ولسوف أدفع ثلاثة "جلدر" ذهبية لأرى وجهك، بل كذلك وجه أختي أنطونيا المنتشي لدى قراءتكما هذه الرسالة، لكن فلأصارحك بالأمر.

إن الفندق الذي أقيم به هو فندقٌ صغير نظيف، يطل على القناة مشرفًا على منظرٍ رائع، وهو يقع بوسط المدينة غير بعيد من البورصة. أما مهمتي التي جئت من أجلها، وهى عقد علاقات عمل جديدة وقيمة: فأنتِ تعلمين أنني أهتم بإنجاز ذلك بنفسي عن طيب خاطر، فقد اتخذت مجراها منذ اليوم الأول كما كنت أتمنى، وكنت معروفًا هنا بالمدينة منذ أيام دراستي. وبرغم وجود كثير من العائلات هنا لقضاء الصيف على الشاطئ، إلا أنني شاركت على الفور في لقاءاتٍ اجتماعية بكل حيوية، وشاركت في سهراتٍ محدودة عند آل فان هنكدوم ومولين. ولم يمر اليوم الثالث بعد وصولي، إلا وكنت أرتدي ثياب السهرة لتناول العشاء لدى مديري السابق السيد فان دركلين، وهو حفلٌ أقامه تكريمًا لشخصي فيما يبدو، بعيدًا عن نشاطه الموسمي. وإلى المائدة صادفت.. ألديكما رغبة في تخمين مَن صادفت؟ الآنسة أرنولدسن، جيردا أرنولدسن، رفيقة أنطونيا السابقة بالمدرسة الداخلية، وكان والدها حاضرًا، التاجر الكبير وعازف الكمان الأكبر، وكذلك ابنته المتزوجة وزوجها.

وإنني لأذكر جيدًا أن جيردا- ولتسمحي لي باستخدام اسمها مجردًا- قد

تركت في نفسي انطباعًا قويًا لم يمح أثره قط منذ كانت صبية صغيرة للغاية، حين كانت تذهب إلى مدرسة الآنسة فايشتبروت في مولنبرينك. وها أنا أراها الآن ثانيةً. وقد كبرت وترعرعت وصارت أكثر جمالاً وأكثر ذكاءً، ولتغفرا لي جموحي في وصف شخصيتها، تلك التي سيكون لكما رؤيتها وجهًا لوجه عما قريب. وقد تتصورين أنه كان هناك العديد من محاور الحديث حول مائدة الطعام. إلا أننا بعد تناول الحساء، انتقلنا من مجال الحكايات القديمة إلى أمور أكثر جدية وإثارة، على أنني لم أستطع منافستها في الحديث عن الموسيقى، فنحن آل بودنبروك للأسف لا نعرف عنها سوى القليل، إلا أنني تفوقت في الحديث عن الفن التشكيلي الهولندي، وساد التفاهم بيننا في مجال الآداب. لكن سرعان ما مر الوقت وبعد العشاء تعرفت على الوالد أرنولدش، الذي رحب بلقائي ترحيبًا حارًا، وفيما بعد بالصالون، قام بعزف بعض المقطوعات الموسيقية، وهو ما فعلته جيردا أيضًا، وبدت أثناء ذلك بمظهر رائع. ورغم جهلي بالعزف على الكمان إلا أنني أدركت أنها تتقن الغناء على آلتها (من نوع ستراديفاري الأصلي)، حتى إن عيون البعض قد اغرورقت بالدموع.

في اليوم التالي، قمت بزيارة آل أرنولدش في بوتينكانت، وقد استقبلتني هناك سيدة مجتمع عجوز اضطرتني للحديث معها باللغة الفرنسية. ثم جاءت جيردا، فتحادثنا كاليوم السابق لمدة ساعة، إلا أننا هذه المرة كنا أكثر تقاربًا، وقد زاد طموحنا في التعارف والتفاهم، فدار الحديث عنكِ يا أمي، وعن طوني، وعن مدينتنا الطيبة العريقة وعن نشاطي. وفي هذا اليوم تحديدًا كنت قد حسمت أمري: فإما هذه وإما لا أحد غيرها، وإما الآن أو لن

يحدث أبدًا، وقد التقيتها أثناء حفلة ببستان صديقي فان سفندرن، كما دعيت إلى أمسية موسيقية بسيطة عند آل أرنولدسن، وأثناء ذلك وضعتُ السيدة الشابة أمام تجربة، حيث أوحيت لها بتصريح بعينه تلقيت عليه ردًّا مشجعًا. وقد مر الآن خمسة أيام على زيارتي للسيد أرنولدسن ضحى ذاك اليوم لأطلب يد ابنته. وقد استقبلني بمكتبه الخاص، وقال لي: "عزيزي القنصل، لقد تلقيت طلبك على الرحب والسعة، وإن كان يصعب عليَّ كثيرًا أنا الأرمل العجوز، أن أبتعد عن ابنتي! لكنها هي؟ لقد صممت حتى الآن على عدم الزواج، فهل تكون أنت صاحب الحظ الأوفر؟".

إلا أنه أصيب بدهشةٍ بالغة لما أخبرته أن تشجيع الآنسة جيردا لي هو الذي منحني الأمل في بلوغ غايتي. لكنه طلب مهلة عدة أيام للتدبر، وأظن أنه نصحها بعدم الإقدام على ذلك بدافع الأنانية البغيضة، إلا أن محاولته باءت بالفشل. فقد وقع اختيارها عليَّ، وهكذا تمت خطوبتنا منذ عصر أمس. كلاً، يا والدتي العزيزة، إنني لا أريد أن ترسلي مباركتك لهذه الخطوبة الآن، فأنا راحل بعد غد، حاملاً وعد آل أرنولدش بزيارتنا في شهر أغسطس، الأب وجيردا وأختها المتزوجة، وحينئذٍ لن يكون بوسعك إلا الإقرار بأن هذه هي التي تناسبني، وأظنك لن تعترضي على أن جيردا تصغرني بثلاث سنوات فقط. وأعتقد أنكِ لم تتصوري قط أنني سأقدم على الزواج بطفلة من بنات مولندورف أو لانجهالس أو هاجنشتروم. وفيما يخص هذه الزيجة، فأنا أكاد أخشى أن يحسدني شتفان كيستنماكر وهرمان هاجنشتروم وبيتر دولمان والخال يوستوس، وأهل المدينة كافةً، فصهري رجلٌ مليونير.. فما عساهم، يا إلهي، يقولون عن ذلك. فهناك من سيلمح إلى هذا الأمر أو ذاك.

إننى معجب بجيردا أرنولدسن من كل أعماقي، إلا أنني لم أفكر قط أن أسبر غور أعماقي على نحوٍ كافٍ لكى أتبين أن ما همسوا بى بخبث لدى لقائنا الأول عن هدية الزواج الثمينة كان هو الذي ساهم في هذا الإعجاب، وبرغم حبي لها إلا أنني أزداد سعادةً وفخرًا بأن اقتراني بها يعني، في الوقت نفسه، تدفق دعم مالي كبير على شركتنا. وإذ أختم خطابي إليكِ والدتي العزيزة، فإنني أضع نُصب عيني أننا سوف نتحدث وجهًا لوجه بعد عدة أيام عن مستقبلى السعيد مهما طال الحديث، كما أتمنى لكِ قضاء وقت طيب ومعافٍ بالمصيف، كما أرجو إبلاغ تحياتى الحارة إلى الجميع.

المخلص في حبك

ابنك المطيع

توماس

الفصل الثَّـــامن

كان منتصف صيف هذا العام، في الواقع، حافلاً بالأحداث والاحتفالات لآل بودنبروك. ففي نهاية شهر يوليو كان توماس قد عاد ثانيةً إلى منجشتراسه، وقام بزيارة أسرته بالمصيف عدة مرات، كما زار كذلك التجار ممن اضطرتهم أعمالهم للبقاء بالمدينة. أما كريستيان، فقضى إجازته كلها على شاطئ البحر. وقد شكا ألمًا بساقه اليسرى لم يعرف له الدكتور جرابو سببًا، وهو ما ضاعف قلق كريستيان من الأمر. وكان كريستيان حريصًا على شرح ذلك، وهو يمسح بيده روحةً وجيئة على ساقه مقطبًا أنفه الضخمة، جاثلاً بعينيه ليقول: "إنه ليس ألمًا.. لا أستطيع أن أسميه هكذا، بل هو عذابٌ، مقيم، كامن، عذابٌ يثير توترًا في ساقي كلها.. تحديدًا في الناحية اليسرى، الناحية التي يقع فيها القلب.. أمرٌ غريب.. أنا أجده أمرًا غريبًا! فما رأيك حقًّا في ذلك، توماس؟"

ثم يمضي كريستيان إلى الشاطئ ليروي للمصطافين هناك بعض النوادر إلى أن يضج الجميع بالضحك، أو يدخل إلى قاعة المنتجع ليمارس لعبة الروليت مع بيتر دولمان والخال يوستوس ودكتور جيسكه وبعض المغامرين

من هامبورج. وقد قام توماس وطوني- كعادتهما كلما جاءا إلى ترافيمنده- بزيارة الزوجين شفارتسكوبف بالصف الأمامي. ومن فرط سعادته انطلق القبطان في حديث بالعامية: "نهارك سعيد، سيدة جريونليش، أما زلتِ تتذكرين؟ لقد مضى وقت طويل على ذلك، كان وقتًا طيبًا، يا للعنة.. وقد صار ابننا مورتن طبيبًا في برسلاو من زمن طويل. وقد مر بكل مستشفيات الدولة.. هذا الولد الشقي".

ومضت السيدة شفارتسكوبف لتعد القهوة. كما تناولوا وجبة العصر في الشرفة الخضراء، كما فعلوا في الماضي، إلا أن العمر كان قد تقدم الآن عشر سنوات كاملة، كما غاب كلٌّ من مورتن وميتا الصغيرة التي تزوجت من رئيس مركز هوفكروج، وشاب شعر رأس القائد كله، وتقاعد عن العمل مصابًا بصمم جسيم، كما وخط الشيب شعر الزوجة الذي كانت تلمه في ما يشبه شبكة أعلى رأسها. أما السيدة جريونليش فلم تعد حمقاء، بعد أن عركتها الحياة، إلا أن ذلك لم يمنعها من تناول كمية من عسل الشمع لتقول بعدها: "ذلك منتجٌ طبيعي نقي، وأنا أعرف ما ألتهمه!".

ومع بداية شهر أغسطس، كان آل بودنبروك وأغلب العائلات الأخرى، قد عادوا إلى المدينة. ثم حانت اللحظة الكبرى حين وصل في وقت واحد تقريبًا القس تيبورتيوس عائدًا من روسيا، وأتت أسرة أرنولدسن من هولندا في زيارة طويلة لمنجشتراسة.

كان المشهد جميلاً للغاية حين اصطحب القنصل عروسه للمرة الأولى إلى غرفة المنظر الطبيعي ليقدمها إلى أمه، التي قابلتها فاردة ذراعيها، وقد مالت برأسها جانبًا. أما جيردا فقد بدت فارهة الطول ممتلئة الجسد وهي

تخطو فوق البساط الزاهي بدلالٍ يتسم بانطلاق ذات السابعة والعشرين من عمرها، وتتمتع بجمال راقٍ غريب فاتنٍ غامض، بشعرٍ غزير أحمر قانٍ، وعينين سمراوين متقاربتين أحاطت بهما هالةٌ زرقاء رقيقة، وأسنان عريضة متلألئة حرصت على إظهارها عندما ابتسمت، وفمها ذي الرسم النبيل الرائع. أما وجهها، فاكتسى بلون أبيض باهت وقد شابه بعض التعالي، إلا أنها نكسته حين أخذت القنصلة رأسها بين راحتيها بحنو دافئ لتطبع قبلةً على جبينها النقي الأبيض.. ثم قالت: "نعم، والآن، فأنا أرحب بكِ في بيتنا وبين أفراد أسرتنا، أيتها الابنة العزيزة الجميلة المبروكة. ولسوف تكونين سبب سعادته، ألا أرى الآن كم جعلته سعيدًا؟" ثم سحبت ذراع توماس الأيمن نحوها لتقبله هو أيضًا.

لم يعرف البيت الكبير قط مثل هذه السعادة والروح الحميمة، اللّهُمَّ ربما، أثناء حياة الجد على أكثر تقدير. فها هو البيت يتسع برحابة لاستقبال ضيوفه، إلا أن القس تيبورتيوس كان قد اختار بدافع التواضع، غرفة بالناحية الخلفية بجوار قاعة البلياردو. أما الباقون فقد توزعوا بالغرف الزائدة عن الحاجة حول صالة الأعمدة بالطابق الأول.

وكان هؤلاء هم السيد ارنولدسن، وهو رجلٌ نشط مرح، في نهاية العقد الخامس من عمره، وله لحية قصيرة مدببة ابيض شعرها، وكانت كل حركة منه توحي بالانطلاق اللطيف، وابنته الكبرى، وكانت سيدة تشي ملامحها بالمعاناة، وصهره، وهو رجلٌ أنيق، محبٌ للحياة، اصطحبه كريستيان إلى النادي وفي جولات بالمدينة، وجيردا، وقد بدت أنطوني جريونليش سعيدة بعدم وجود سوى رجل دين واحد في بيت أسرتها هو سيفر تيبورتيوس.. بل

إنها كانت أكثر من سعيدة!

فخطوبة أخيها الحبيب، وحقيقة أن المصادفة قد اختارت صديقتها جيردا، وهذه الزيجة المبهرة التي تمنح اسم العائلة والشركة ألقًا جديدًا، وهدية الزواج بـــ300.000 مارك، التى كان الحديث يدور عنها همسًا، وما ستقوله أسرة هاجنشتروم تحديدًا عن ذلك.. كل ذلك ساهم في حالة السعادة الدائمة التي نعمت بها أنطونيا فراحت تحتضن عروس أخيها بحرارة ثلاث مرات على الأقل كل ساعة، وصاحت: "أوه، جيردا! أنا أحبك، أتدرين، لقد كنت دائمًا أحبك، وكنت أعلم أنكِ لا تطيقينني، وكنتِ تكرهينني دائمًا، لكن.." فقالت الآنسة أرنولدسن: "أرجوكِ طوني! كيف أكرهك؟ هل لى أن أسألكِ عما ألحقتِ بي من أذى؟"

برغم هذا ولأسبابٍ ما، ربما بدافع سعادتها الغامرة ومجرد رغبتها فقط في الحديث، أصرت أنطونيا بعنادٍ على كراهية جيردا الدائمة لها. أما من ناحيتها- واغرورقت عيناها بالدمع- فبادلت هذه الكراهية بالحب. ثم انتحت بعد ذلك بتوماس جانبًا لتقول له: "خيرًا فعلت، توم، يا إلهي، كيف أحسنت صنع ذلك! ليت أبي عاش ليرى ذلك.. وهو ما يدفعني للبكاء، أتدري حقًّا، إن ذلك لا يمحو شيئًا ما فحسب مما اقترفه ذلك الشخص الذي يعف لساني عن ذكر اسمه.." ثم خطر ببالها أن تنفرد بجيردا بإحدى الغرف لتحكي لها بإسهاب تام قصة زواجها من بندكس جريونليش. وتحدثت معها لساعات طويلة عن أيام المدرسة الداخلية، وعن مسامرتهما الليلية آنذاك وعن أرمجاردفون شيلينج من ميكلنبورج، وعن إيفا ايفرس من ميونيخ.. إلا أنها لم تهتم تقريبًا بخطوبة سيفرت تيبوريتوس لكلارا، كما لم يسعيا هما

لذلك. فقد كانا يجلسان غالبًا صامتين، وكلٌّ منهما يمسك بيد الآخر، يتحدثان بهدوء وروية عن مستقبلها السعيد. ولما كان عام الحداد لم ينقض بعد، فقد اقتصر حفل الخطوبتين على أفراد الأسرة فقط. لكن سرعان ما ذاعت شهرة جيردا أرنولدسن، برغم ذلك، في المدينة بما يكفي. نعم، فقد أصبح شخصها محور الحديث في البورصة والنادي ومسرح المدينة والشركة.

فقد قال المغامرون: "تمام"، وكانوا أثناء ذلك يتلمظون بألسنتهم، وهو أحدث أسلوب لأهل هامبورج في التعبير عما يشتهون من نبيذ أحمر، أو سيجار، أو وليمة عشاء، أو صفقة عمل مربحة. أما المواطنون المهذبون المحافظون الشرفاء فكان الكثيرون منهم يهزون رؤوسهم: "عجيب.. أمر هذه الأناقة، وهذا الشعر، وهذا القوام وهذا الوجه، أمرٌ بالغ العجب شيئًا ما". وعبر التاجر سورنسن عن ذلك بقوله: "إنها تمتلك شيئًا ما، يقينًا". وأشاح بوجهه أثناء ذلك مقطبًا أنفه كأن هناك من قدم له عرضًا فاسدًا بالبورصة، لكنه كان القنصل بودنبروك، وكان هذا ما يليق به، إنه متطلع بعض الشيء، توماس بودنبروك هذا.. وهو مختلف.. مختلف حتى عن أسلافه؛ فقد كان الجميع يعرفون، خاصة بن تهين، تاجر المنسوجات، أنه لا يشتري فقط كل ملابسه الراقية والمسايرة لأحدث صيحة من هامبورج- وهو ما يملك منها الكثير- بل كذلك معاطفه وستراته وقبعاته وصدرياته وسراويله وأربطة عنقه، بل أيضًا ملابسه الداخلية. كما كانوا يعرفون كذلك أنه يبدل أحيانًا، كل يوم، قمصانه مرتين، ويعطر منديله وشاربه المفتول كشارب نابليون الثالث. ولم يكن يفعل ذلك كله حبًا للشركة ومظهرها- فقد كانت شركة يوهان بودنبروك في غنى عن ذلك- بل بدافع نزعته الشخصية إلى الأناقة

الرفيعة والأرستقراطية.. فكيف يمكن التعبير عن ذلك، إنه أمر يعجز عنه الشيطان! ثم يضاف إلى ذلك اقتباساته من هايني وغيره من الشعراء، التي كان يضفيها أحيانًا على أمور عملية، أو أثناء طرح قضايا خاصة بالعمل أو بأعمال المدينة.. والآن تأتي هذه المرأة.. كلاً، ففيه هو شخصيًا، في القنصل بودنبروك "شيءٌ يقينًا".. إلا أن هذا بالطبع كان جديرًا بالملاحظة وكل إجلال. فقد كانت العائلة تتمتع باحترام بالغ، وبلغت الشركة أوج نجاحها، وكان مديرها رجلاً رقيقًا مهابًا يحب مدينته، وسيقدم لها مزيدًا من التقدم.. ثم تجيء هذه الزيجة المذهلة، وأشيع خبر الـ100000 ريـال وغيرها.. واعتبرت بعض النساء جيردا أرنولدسن "خرقاء" بكل بساطة، وجدير بالذكر هنا أن صفة "خرقاء" تعبير إدانة قاسٍ للغاية.

أما من كان قد أعجب إعجابًا جامحًا بعروس توماس بودنبروك لما رآها أول مرةٍ في الطريق، فكان الوسيط جوش، فكان يقول في النادي أو في جمعية التجارة، رافعًا كأس شراب البونش، مقلصًا وجهه المتآمر على نحوٍ رهيب: "ها! يا لها من أنثى، أيها السادة! هي هيرا وأفروديت، برونهيلد وميلوزين في امرأة واحدة.. ها، فالحياة حلوة فعلاً!".

ولم يكن أحد من الأهالي المحيطين به، الجالسين على أرائك من خشب ثقيل محفور في جمعية التجارة العتيقة، التي تدلى من سقفها نماذج لسفن شراعية وأسماك كبيرة، ليعي سر ظهور جيردا أرنولدسن البسيطة المتطلعة.

ولما كانت لقاءات آل بودنبروك قد اقتصرت على أفراد الأسرة، بعد أن حرموا من إقامة الحفلات، كان سيفرت تيبورتيوس يجالس كلارا، ممسكًا بيدها ليقص عليها نتفًا من سيرة والديه، أو يسرد عليها شيئًا من أيام صباه،

أو ما يحلم به مستقبلاً. أما آل أرنولدسن فكانوا يذكرون عائلتهم في درسدن، وهي الوحيدة الممتدة إلى هولندا.

أما السيدة جريونليش فكانت قد حصلت على مفتاح خزانة الأوراق الشخصية، لتخرج منها سجل وثائق الأسرة الذي دوّن فيه توماس آخر الأحداث، وقد حفل هذا الدفتر بتاريخ آل بودنبروك، وطالعت فيه أيضًا سيرة الخياط الذي عاش في روستوك حياة موسرة، كما عثرت فيه أيضًا على قصيدة أُلقيت أثناء احتفالٍ ما، قرأت منها:

حِذقٌ وحسن وقور تراءى لنا مجتمعين
فينوس أنـا ديومينا بيد فولكاني البارعة

وأثناء قراءتها كانت عينها تختلج ناظرةً نحو توم وجيردا، بينما كانت تلوك بطرف لسانها شفتها العليا. ولما كانت تقدر تاريخ عائلتها، فقد اضطرت للاطلاع على ما يخصها من مسألة تكره ذكرها.

وفي الساعة الرابعة من يوم الخميس، كان الضيوف من أفراد الأسرة يتوافدون، فجاء يوستوس كروجر وقرينته الواهنة، اللذان كانا يعيشان في شقاق، فهي لا تكف عن إرسال مالٍ إلى أمريكا، إلى ياكوب الفاشل، الذي حُرم من الميراث، وهو مالٌ كانت تقطعه من نفقات البيت لتعيش مع زوجها على الكفاف، ولم تجدِ محاولاته في منعها من ذلك. وجاءت أيضًا سيدات بودنبروك من الشارع العريض اللاتي رسخ في أعماقهن إيمانٌ بأن نمو أريكا جريونليش قد تأخر، وأنها ازدادت شبهًا بوالدها المحتال، كما كن يرددن أن عروس القنصل تصفف شعرها على نحو يلفت إليها الأنظار. كما حضرت سيسيمي فايشبروت التي لم يكن بوسعها وضع قبلة ذات وقع مسموع على

جبين جيردا إلا بعد أن شبت على أطراف أصابعها لتقول بتأثر: "أتمنى لكِ حظًا سعيدًا يا بنيتي الطيبة".

وعلى المائدة، شرب السيد أرنولدسن نخب العروسين وحياهما بكلمة مرحة مفعمة بالخيال، وبعد ذلك، فيما كان الآخرون يحتسون القهوة، كان هو يعزف على الكمان كأحد أبناء الغجر، فعزف بعنف وشجن مقطوعة رائعة، أما جيردا فجاءت بآلة الكمان الخاصة بها، التي كانت لا تفارقها (وهي نوع من ستراديفاري)، وشاركته عزفه بأنغامها الرقيقة، فقدم الاثنان عزفًا ثنائيًا رائعًا بغرفة المنظر الطبيعي على مقربةٍ من الأرغن، وفي المكان نفسه الذي قام فيه جد القنصل بعزف ألحانه القصيرة الشجية على الناي.

فما كان من طوني، التي أراحت ظهرها إلى أقصى مدى على مسند مقعدها، إلا أن هتفت: "رائع، يا إلهي، يا لروعة هذا!" ثم رفعت نظرها في حيدة وروية وجلال لتعبر عن مشاعرها الحية الصادقة فقالت: "كلا، أتدرون، تصاريف القدر.. فهو لا يمنح مثل هذه الموهبة لكل البشر! وقد حرمتني السماء من مثلها، أتدرون، برغم أنني كنت حمقاء، غبية.. حقًا، جيردًا، فأنا أكبر منكِ سنًا وقد عركتني الحياة.. عليكِ أن تركعي كل يوم لربك شكرًا لما أسبغ عليكِ من رحمة".

فردت جيردا: "عساكِ تقصدين لما أسبغ عليَّ من نعمة" وقد فترت شفتاها عن أسنانها العريضة باسمة.

ثم التأم شمل الجمع لبحث خطط المستقبل القريب، خلال تناولهم هلامًا بالنبيذ. فاتفقوا على أن يكون نهاية الشهر أو أوائل شهر سبتمبر موعد رحيل سيفرت تيبورتيوس وآل أرنولدسن. على أن يعقب عيد الميلاد

مباشرةً إقامة حفل زفافٍ فخم بكل ما تعنيه الكلمة- لكلارا في بهو الأعمدة أما حفل زفاف امستردام فيؤجل إلى بداية العام التالي لإتاحة الوقت للقنصلة لحضوره، أطال الرب عمرها ومتعها بالعافية.

وقد باءت محاولات إقناع توماس بالتأجيل بالفشل، فأمسكت القنصلة بذراع ابنها، وقالت: "أرجوكِ! إن الأولوية لسيفرت". وبينما تغاضى القس وعروسه عن رحلة شهر العسل، اتفق توماس وجيردا على خطة لرحلتهما تبدأ من شمال إيطاليا وصولاً إلى فرنسا، ليقضيا هناك شهرين، على أن تقوم أنطونيا أثناء ذلك- مع مصمم الديكور ياكوبس، من شارع منجشتراسه- بإعداد الدار الصغيرة الجميلة بالشارع العريض، التي كان يقيم بها رجل أعزب تركها لينتقل إلى هامبورج، وكان القنصل قد عقد عزمه على شرائها.

نعم، إن أنطونيا سوف تقوم بذلك على نحو يلقى قبول الجميع! وقد علقت على ذلك بقولها: "لسوف تجدانه فخمًا"، وهو ما آمن به الجميع.

وفى الغرفة نفسها، التي كان محور الحديث فيها يدور حول زفاف وجهاز وشهر عسل لزوجين من العرسان أمسك كل منهم بيد الآخر، كان هناك أيضًا كريستيان الذي أخذ يذرع المكان جيئةً وذهابًا بساقيه المنبعجتين وهو يعاني من ألم، ألِم ما بساقه اليسرى، وهو يراقب كل ما يجرى بعينيه الصغيرتين المستديرتين الغائرتين، وقد بدت عليه علامات الجدية واستبد به القلق والشرود. وفي النهاية توجه إلى ابنة عمه المسكينة وقد جلست بين مَن تحف بهما السعادة وبدت عليها أمارات المسنين، هزيلة، ملتزمة الصمت، جائعة، حتى بعد ما تناولته من طعام، فقال لها متقمصًا مارسيلوس شتنجل: "آه.. كلوتيلده، لسوف نتزوج نحن أيضًا قريبًا، أقصد: كل منا - منفردًا".

الفصل التاسع

كانت سبعة شهور تقريبًا قد انقضت حين عاد القنصل بودنبروك مع قرينته من إيطاليا. كان ذلك في الخامسة عصرًا عندما توقفت عربتهما أمام دارهما التي طليت واجهتها بالزيت، بينما كان الجليد يكسو الشارع العريض، فتوقف بعض الصبية والأهالى لمشاهدة العائدين يترجلان، وكانت السيدة أنطوني جريونليش في استقبالهما عند الباب، متباهية بما أنجزته من أعمال بالدار، ووقفت وراءها خادمتان، اختارتهما بعين خبيرةٍ ليقوما على خدمة زوجة أخيها، وقد وضعتا على رأسيهما قبعتين بلون أبيض، وارتدتا تنورتين من نسيج سميك مقّلم، وشمرتا عن أذرعهما لتكونا على أهبة الاستعداد.

وما إن ترجل جيردا وتوماس من العربة- التي كانت تحمل متاعهما أيضًا- حتى هرعت السيدة أنطوني بدافعٍ من حماسٍ للعمل والفرحة العارمة لتهبط الدرج العريض، ثم تقودهما إلى باحة البيت وهي تمطرهما بالقبلات.. "أخيرًا، أراكما هنا.. ها أنتما هنا إذن، أيها المحظوظان، اللذان زارا كل الأرجاء! ألا تريان الدار، وسقفها المرفوع على أعمدة! جيردا، لقد ازداد

بهاؤك، تعالي لأقبلك.. كلاً، في فمك أيضًا.. هكذا! نهارك سعيد أيها العجوز توم، فلأقبلك أنت أيضًا. لقد أخبرني ماركوس أن سير العمل أثناء سفرك كان على خير وجه. الوالدة بانتظاركما في منجشتراسه، لكن فلتنالا أولاً قسطًا من الراحة، أترغبان في احتساء الشاي، أم ستتوجهان إلى الحمام؟ إن كل شيءٍ جاهزٌ لاستقبالكما، ولن ينقصكما شيء. فقد بذل ياكوبس كل ما في وسعه، وأنا أيضًا".

فيما كانت الخادمتان تقومان بنقل المتاع بمساعدة السائس، كانوا يعبرون الباحة، وقالت طوني: "لستما بحاجةٍ ملحة إلى استخدام غرف الطابق الأرضى الآن.." ثم كررت "الآن"، وهى تلوك بطرف لسانها شفتها العليا. ثم فتحت على الفور بابًا إلى اليمين، وقالت: "المكان هنا جميل، وها هي فروع لبلاب أمام النوافذ، وهذا أثاثٌ بسيط من خشب السنديان، وهناك خلف هذا الممر ممرٌ آخر موازٍ أكبر حجمًا. أما هنا عن اليمين فيوجد المطبخ وقاعة الطعام، لكن هيا بنا نصعد إلى أعلى، لأريكما كل شيء". فصعدوا درجًا مريحًا فوقه بساطٌ عريض بلون أحمر قانٍ ليصلا إلى الطابق الأعلى ذي الباب الزجاجي الذي يفضي إلى ممرٍ ضيق، على جانبه قاعة الطعام التي توسطتها طاولةٌ ثقيلة مستديرة فوقها إناءٌ يغلي، أما جدرانها فقد بُطنت بورق يشبه حريرًا داكن اللون ضاربًا إلى الحمرة، وقد وُضعت أمام الجدران مقاعد من خشب الجوز ذات أقراص من الخيرزان وبوفيه ثقيل.

أما حجرة المعيشة فقد بدت مريحة، وقد كُسى أثاثها بقماشٍ رمادي اللون، ولم يكن هناك سوى ستائر فصلتها عن صالون مستطيل، به مقاعد فوتي ذات خطوط خضراء، كما كانت هناك قاعةٌ بثلاث نوافذ احتلت

مساحة ربع الطابق وخارجه، تفضي إلى غرفة نوم، وإلى اليمين منها من الممر، وقد ازدانت بستائر مزهرة، وبها سريران كبيران من خشب الماهوجني. ومضت أنطونيا إلى باب صغير يؤدي إلى خارج الغرفة، فأدارت مقبضه ليظهر خلفه ممر يقود إلى سلم حلزوني ينتهى إلى الطابق الأرضي، حيث يوجد الحمام وغرفة الخدم.

أما جيردا فقالت: "المكان هنا جميل، وأنا أود البقاء هنا". ثم جلست على فوتي بجوار الفراش وهى تتنهد، فمال القنصل عليها ليطبع قبلةً فوق جبينها قائلاً: "هل حل بك التعب؟ أجل، فأنا أيضًا بحاجةٍ إلى الاغتسال"، فقالت السيدة جريونليش: "أما أنا فسوف أهتم بأمر الشاي، وسأكون بانتظاركما بقاعة الطعام". ثم مضت خارجة.

كان بخار الشاي يتصاعد من أقداح "المايسن"، حينما عاد توماس ليقول: "ها قد جئت. وقد فضلت جيردا الراحة لنصف ساعة، فهي تعاني من صداع، وفيما بعد نذهب جميعًا إلى منجشتراسه، فهل الجميع هناك بخير؟ عزيزتي طوني؟ أعني أمي وأريكا وكريستيان؟" ثم أتى بالتفافة لطيفة وأردف: "حسنًا، فإنني وجيردا نقدم لكِ أخلص آيات الشكر على ما بذلته من أجلنا، أيتها الأخت الطيبة، فما أجمل صنيعك هذا، فلم يعد ينقصنا سوى بعض أشجار النخيل في الباحة من أجل زوجتي، وأن أنتقى بعض اللوحات الزيتية العملية. والآن، فلتخبريني عن أحوالك، وعما فعلتِ أثناء غيابي؟" ودفع بمقعد لتجلس أخته بجواره، وراح يحتسي الشاي في روية، وتناول كذلك قطعة من البسكويت، وأخذا يتناجيان.

أما أنطونيا فقالت: "آه.. توم! ما عساك أن تتوقع مني أن أفعل؟ إن حياتى

صارت خلف ظهري.."

"كلام فارغ! دعكِ من الحديث عن حياتك.. إنما هو السأم الذي تعانين منه معاناة شديدة".

"نعم، توم، لقد تملك مني السأم على نحوٍ غريب، فيجعلني أبكي أحيانًا. إلا أن انشغالي بإعداد هذه الدار قد فرّج عني هذا الكرب. وليس بوسعك تصور مدى سعادتي برجوعكما، لكني مللت البقاء بالبيت، أتعلم هذا؟ وليعاقبني الرب إن كان هذا إثمًا، فها أنا قد بلغت الثلاثين، إلا أنه ليس العمر الذي أرتبط فيه بصداقة حميمة مع الذين انقطعوا لطقوس الدين، أو مع الأختين جيرهاردت، أو مع أصحاب الثياب السود هؤلاء، ضيوف أمي الذين يأكلون أموال الأرامل؛ فأنا لا أصدق هؤلاء، توم، فهم ذئاب في ثياب حملان، هم فريق من الحيات، أما نحن جميعًا فبشر ضعفاء، خطاؤون. وإنني لأسخر منهم حين يلقون إليّ أنا، الابنة المسكينة، بنظرة شفقة. أنا التي ترى الناس كافة سواسية، وأننا لسنا بحاجة إلى وسيط بيننا وبين الرب واسع الرحمة. كما أنك تعرف مبدئي السياسي، وهو أن يكون المواطن للدولة".

أما توم فسألها: "إنكِ تعانين شيئًا من الوحدة، أليس كذلك؟"

قال ذلك ليعيدها إلى أصل الحديث، ثم أردف: "لكن، اصغي إليّ، أليست لديكِ أريكا؟"

"نعم، توم، وأنا أحب ابنتي من أعماق قلبي، وإن كان البعض يزعم أني لا أحب الأطفال، لكن، انظر، دعني أصارحك، وأنا المرأة النزيهة، التي يفصح لسانها بما في قلبها دون مراعاة للكلام المنمق".

"وهذا أمر طيب بحسب لكِ، طوني".

"باختصار، إن ما يحزنني هو أن ابنتي تذكرني بجريونليش، على نحو لا يطاق، وهو ما تردده أيضًا سيدات الشارع العريض من آل بودنبروك فيقلن إنها تشبه أباها للغاية. فإن رأيتها أمامي إذا بفكرة تستبد بي أني بلغت من العمر أرذله، وأصبحت لي ابنة كبيرة، وأعطتني الحياة ظهرها، حياة لم أعش فيها سوى بضع سنين. وقد أبلغ السبعين أو الثمانين وقد نزل بي الفقر، ولم يعد يشغلني سوى الإنصات لتلاوة ليا جيرهاردت. إنها فكرة تثير أشجاني، توم، لتصبح غصة في حلقي. فأنا ما أزال في مقتبل العمر، يحدوني حنينٌ إلى متع الحياة.. ومنتهى القول إني لا أجد راحةً ما سواء بالبيت أو بالمدينة، ولا تظن أني أجهل أحوالنا، فلم أعد تلك الحمقاء، وأنا أستطيع أن أعي ما يدور حولي. كما إنني مدركة لوضعي كامرأة مطلقة، وهو أمر واضحٌ لي تمامًا، وأصدقك القول، توم، إنني أتألم لشعوري أنني أسأت إلى اسم عائلتنا، وإن لم تكن لي يدٌ في هذا. أما أنت فبوسعك فعل ما تشاء، ولتربح مزيدًا من المال، ولتكون الرجل الأول بالمدينة، لكن سيكون هناك دائمًا من يردد: "حقًّا.. لكنه برغم ذلك له أخت مطلقة. وها هي يوليا مولندروف، سليلة آل هانجشتروم، لا تُضمر لي حبًا، وهي حقًّا حمقاء، لكن هذا هو حال العائلات كافة؛ إلا أنني في الواقع لم أيأس من عودة الأمور إلى نصابها الطبيعي؛ فما أزال في مقتبل العمر، أم إنني ما أزال على قدر من الجمال؟ ورغم عدم قدرة أمي على أن تهبني هدية زواج كبيرة، إلا أنها ستمنحني قدرًا معقولاً من المال على كل حال، فهل تراني أتزوج مرةً ثانية؟ أصارحك.. أن هذا لهو أعز أمانيّ، فإن تحقق ذلك عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي وزالت هذه الوصمة.. آه، يا إلهي، لو قُدر لي زوجٌ يليق باسم عائلتنا، فأنعم بالاستقرار مرةً أخرى! أترى

أن ذلك قد أصبح ضربًا من المستحيل؟"

"ألا لا قدر الرب، طوني، كلاً، كلاً، فقد كنت أتوقع ذلك دائمًا، لكني أرى أن الأهم من ذلك هو أن تخرجي قليلاً لترفهي عن نفسك، وتنشدي شيئًا من التغيير".

فقالت بحماس: "هذا هو ما أبتغي، لكن دعني أقص لك قصة".

تراجع توماس إلى الخلف مطمئنًا إلى ما اقترحه، وبينما كان الغروب يقبل، كان يدخن لفافته الثانية.

"أثناء سفركما، كنت على وشك استلام وظيفة، وظيفة مرافقة في ليڤربول، فهل كنت ستجد هذا أمرًا يشينك؟ لكن هذه قضية تحتمل اختلاف الآراء، نعم، نعم، قد يكون هذا في الأغلب عملاً غير لائق، لكنها كانت فكرة ألحت عليّ بالرحيل. وموجز القول إن هذه الخطة باءت بالفشل، فعندما أرسلت صورتي إلى السيدة، جاءني ردها بالرفض لأني على حد قولها أجمل مما ينبغي، فهي لها ابن شاب يعيش معها، فلما قرأت قولها: (إنكِ أجمل مما ينبغي) رحت أضحك من هذا كما لم أضحك من قبل". وكان أن ضج الاثنان بالضحك.

ثم أردفت أنطونيا: "إلا أنني بانتظار أمر ما، فقد وجهت لي دعوة، دعوة لزيارة ميونيخ من إيڤا ايفرس ، إيڤا نيدرباور سابقًا، التي تزوجت من مدير لمصنع بيرة. وخلاصة القول أنها طلبت مني زيارتها، ورأيت أن أستغل ذلك قريبًا، لكني لن أستطيع اصطحاب أريكا بالطبع، وقد رأيت أن أرسلها إلى مدرسة سيسمي فايشبروت حيث تلقى عناية فائقة، فهل تعارضني في هذا؟"

"كلاً، على الإطلاق، فعليكِ أن تعيشي أجواء أخرى، على كل حال".

فشكرته: "نعم، إن هذا هو ما أسعى إليه، لكن ماذا عنك أنت توم؟ فقد ظللتُ أتحدث عن أحوالي، فيا لها من أنانية، حسنًا، فلتخبرني الآن، فبربي لابد أنك كنت سعيدًا للغاية" فقال وهو يتدبر الأمر: "نعم، طوني". ثم أمسك عن الكلام ليزفر دخان اللفافة فوق الطاولة، وأردف: "أقول مبدئيًّا إنني سعيد، لأنني تزوجت وأصبحت لي أسرة وبيت، وأنتِ تعرفينني، فلم يكن بوسعي العيش كرجل أعزب، فمثل هذه الحياة تعني العزلة والصعلكة، وأنا كما تعلمين طموح بعض الشيء، ولا أرى نهاية يتوقف عندها مسار حياتي تجاريًّا، أو لنقل على سبيل التندر، سياسيًّا.. إلا أن الرجل لا يكسب ثقة الآخرين إلا إذا كان له أسرة وبيت، وقد كان الأمر دقيقًا للغاية، طوني، ومنذ زمن كنت أؤمن بأنه ليس في الدنيا من هي جديرة بي، إلا أن ما بدت عليه جيردا من مظهر كان هو الذي حسم الأمر، فاقتنعت في الحال أنها الخيار الوحيد، وإن كنت أعلم أن كثيرين من أهل المدينة غير راضين عن اختياري، بل ويستنكرونه، لكنها كائن مدهش، ويندر أن يكون لها مثيل، وهي غيركِ بلا شك، طوني، فأنتِ أكثر منها بساطة وأقل منها تكلفًا..". ثم خفف من حدة نبرته فجأة ليقول: "إن مزاجك، أيتها السيدة، أختي، لأكثر حدة، وهي أيضًا كذلك، لكن عزفها للكمان يجعلها متوازنة نفسيًّا، إلا أنها أحيانًا تصاب ببعض البرود. وباختصار، فهي لا تخضع للمعايير التقليدية، فهي تملك طبيعة الفنان، وهي إنسانة فريدة، محيرة، رائعة".

"نعم، نعم، نعم" هكذا ردت أنطونيا وهي تستمع إلى أخيها جادة منتبهة. وكان الظلام قد حل دون أن يخطر ببالها إشعال المصباح. وهنا انفتح باب الممر ليفصح الغسق الآفل عن قوام منتصب بثوب منزلي هفهاف مثني من

حرير ناصع البياض، وقد أحاط بالوجه الأبيض شعر غزير ذو لون أحمر قانٍ، وقد أحاط بطرف العينين السمراوين المتقاربتين هالات زرقاء بعض الشيء، كانت هي: جيردا والدة جيل آل بودنبروك القادم.

الجـــزء السَّـــادس

الفصـل الأوَّل

في قاعة الطعام البديعة، أخذ توماس بودنبروك في تناول طعام فطوره الأول، وقد اعتاد الإفطار وحيدًا؛ إذ إن قرينته باتت لا تغادر غرفة نومها إلا في وقتٍ متأخر للغاية، بعد أن أصبحت تعاني صباحًا من صداعٍ وانحراف مزاج بشكل عام. ثم يتوجه القنصل بعد ذلك مباشرةً إلى منجشتراسه، حيث ظل مكتبه هناك على حاله السابق، فيتناول فطوره الثاني بالطابق الأوسط مع أمه وكريستيان وإيدا يونجمان، فأصبح لا يلقى جيردا إلا في الرابعة عصرًا لتناول الغداء.

كان العمل هو الذي حفظ للطابق الأول حيويته، أما الطوابق الأخرى بدار منجشتراسه، فباتت مهجورةً شاغرة، بعد أن أُلحقت أريكا الصغيرة بمدرسة فايشبروت الداخلية، وبعد انتقال كلوتيلده المسكينة ببعض قطع الأثاث لتقيم بمسكنٍ رخيص لدى أرملة مدرس بالفرقة الثانوية، يُدعى دكتور كراوسيمنتس؛ حتى الخادم أنطون كان قد انتقل للعمل بدار القنصل لشدة الاحتياج إليه هناك، فيما كان كريستيان يمضي وقته في النادي. وهكذا أصبحت القنصلة والآنسة يونجمان تجلسان وحدهما في الرابعة

عصرًا إلى المائدة المستديرة التي لم يعد هناك داعٍ لمدها، فتاهت في قاعة الطعام الرحبة التي كانت بهيئة هيكل تحف به الأرباب.

فقد خبا تألق الحياة الاجتماعية في منجشتراسه بوفاة القنصل يوهان بودنبروك. وهكذا انفض الجمع من حول القنصلة، فيما عدا هذا القس أو ذاك، فلم يعد يزورها سوى أفراد العائلة أيام الخميس. وكانت قد أعدت أول حفل غداء تكريمًا لابنها وقرينته، فخصصت لذلك قاعة الطعام وغرفة المعيشة، وكذلك طاهية وأُجراء من الخدم، وأنبذة كيستنماكر، أي أنها أعدت حفل غداء. وبرغم أن اللقاء كان قد بدأ في الخامسة عصرًا، إلا أن روائحه ظلت عالقةً هناك، كما ظل لصخبه وقعٌ محسوس. وحضر جميع أفراد عائلات لانجهالس وهاجنشتروم وهوينوس وكيستنماكر وأوفرديك ومولندروف، ومنهم التاجر والمثقف والمتزوج والأعزب، وانتهى الحفل بلعب الورق، وعزف موسيقى استمتع به البعض. وقد ظل الحديث دائرًا عنه بالبورصة طيلة ثمانية أيام مشفوعًا بالثناء العظيم.

وقد تبين عن حق إلمام القنصلة الصغيرة بقواعد مراسم الاستقبال. وظلت هذا المساء هناك مع القنصل وحدهما في غرف مضاءة بالشموع الموقدة، وبين أثاث متداخل، بعد أن زُحزح من مكانه، وقد غمرهما أثر بخارٍ كثيف حلوٌ ثقيل/ كان قد تصاعد عن طعامٍ شهي وروائح عطور ونبيذ وقهوة وسيجار وزهورٍ وُضعت على المائدة وفي الحمام. فلما أصبحا وحدهما أمسك القنصل بيدها قائلاً: "كم كنتِ رائعةً، جيردا، فلم يبدر عنك ما يمكن أن يسبب لنا حرجًا. وهذا أمرٌ مهم للغاية، فأنا لا أميل إلى حفلات الرقص، حيث يتقافز الشبان هنا وهناك. كما أن المكان هنا غير مؤهل لمثل

هذه الأمور، وهكذا اقتصر الحفل على الراشدين. وبرغم أن الوليمة قد تجاوزت الحد المألوف من التكاليف إلا أنها لم تكن سيئة التدبير".

أما هي فقد عدّلت الدانتيل الذي بدا من خلفه صدرُها الساطع كالمرمر، وقالت: "لك الحق، وأنا مثلك، أؤثر الولائم على الحفلات الراقصة. فالولائم تشيع جوًا من الهدوء على نحوٍ واضح، وقد غمرني عزفي عصر اليوم بشعورٍ غريب.. حتى ركن عقلي للسكينة، ولو أن السماء برقت فلن يشحب وجهي أو تشوبه حمرة".

في الحادية عشرة والنصف ظهر ذاك اليوم، كان القنصل قد جلس بجوار أمه لتقرأ عليه تلك الرسالة:

ميونيخ 2 أبريل1857

ميدان ماريا بلاتس رقم 5

والدتي العزيزة

إنني أشعر بالخجل لعدم كتابتي إليكِ حتى الآن، وقد مر على إقامتي هنا ثمانية أيام، فأرجو المعذرة. وقد انشغلت خلال هذه الأيام بكل ما رأيته هنا انشغالاً تامًّا، وهو ما سوف أوافيكِ بتفاصيله عندما نلتقي فيما بعد، وإلا مت من الكتابة. أما الذي يهمني بالمقام الأول فهو أن يكون من أحبهم، أنتم جميعًا بخير: أنتِ وتوم وجيردا وأريكا وكريستيان وكلويتلده وإيدا يونجمان. آه، أما الذي لم أشهده في هذه الأيام، فكان متحفا البيناكويتك الجلبتويتك، ودار الهوفبروي هاوس والمسرح الملكي والكنائس، وغيرها الكثير مما أفضل أن أقص عليك أخباره وجهًا لوجه. فالكتابة عن مثل هذا الأشياء لهي أمرٌ شاق. كما قمنا أيضًا برحلة بالعربة إلى وادي نهر الايزارتال.

ومن المتوقع أن نقوم غدًا بنزهة إلى بحيرة فورم، وسوف نواصل هذه الرحلات. ونحن نقيم ببيت يشرف على ميدانٍ رائع للغاية بوسط المدينة، وفي القلب منه نافورة، وهو ما يشبه ميدان السوق بمدينتنا. وبيتنا هذا يقع على مقربة من مجلس النواب، فيا لَهَا من دار لم أر لها مثيلاً قط، فجدرانها كافة مزدانة بالرسوم الملونة لصور مارجرجس وهو يصرع التنين، وصور أمراء باڤاريا القدامى بملابسهم كاملة والشعار الخاص بكل منهم. فهل لكِ أن تتصوري هذا! نعم لقد أعجبتني مدينة ميونيخ التي قيل عن مناخها إنه مفيدٌ للأعصاب، فلم أعد أعاني آلام المعدة الآن، وقد أقبلت على احتساء البيرة؛ لأن الماء هنا غير صحي إلى حدٍّ كبير، إلا أنني لم أستطع بعد التعود على الطعام هنا. فهو لا يشتمل إلا على القليل من الخضراوات، على سبيل المثال، كما تحتوي الصلصة على كمية أكبرِ من الدقيق، وقانا الرب شرها، والناس هنا لا يعرفون معنى لحم "ظهر العجل"، فالجزارون هنا يقطعون اللحم على نحو سيء للغاية. كما أنني أفتقد السمك، ومن غرائب الأمور أننا نضطر دائمًا إلى تناول سلاطة الخيار بالبطاطس مع البيرة، وهو ما يستنفر أعصاب معدتي. لكن على الغريب أن يتكيف مع المجتمع الأجنبي. وهم هنا يستعملون عملةً معدنية غريبة، كما أن التفاهم مع البسطاء والخدم لهو أمر شاق، فبينما أتحدث معهم على نحو أسرع مما اعتادوا يخاطبونني هم بلكنة غير مفهومة، يضاف إلى ذلك سيادة المذهب الكاثوليكي، الذي أمقته كما تعرفين ولا أعترف به.

هنا انتاب الضحك القنصل، وقد أراح ظهره إلى الأريكة، ممسكًا بشريحة خبز كساها بطبقةٍ من زبد وجبن الأعشاب، فكان أن قالت الأم:

"نعم! توم، فلتضحك إذن"، ثم راحت تدق بإصبعها الوسطى فوق الطاولة. ثم أردفت: "لكني أعجب بهؤلاء، فهم متمسكون بدين آبائهم، ومدينتهم تحتفي بإنجيلها، على غير ما نحن عليه هنا. وبرغم علمي بتعاطفك على نحوٍ ما مع كنيسة البابا، حين أقمت في إيطاليا وفرنسا، إلا أنني لم أر في ذلك دافع التدين، توم، بل هو شيء آخر أدرك معناه. إلا أن العبث واتباع الهوى في مثل هذه الأمور لجديرٌ بأقصى عقاب، برغم التزامنا بمبدأ التسامح. وأنا أتوسل إلى الرب أن يهديك وزوجتك جيردا إلى الطريق القويم، فأنا أعرف أنها مثلك، لا تتمتع بقوة الإيمان، وإنني لآسفة لهذا التعبير".

ثم واصلت قراءة الخطاب:

"وقد اعتلى النافورة، التي أراها من نافذتي، تمثالٌ للعذراء، يُكلَّل أحيانًا بالتيجان ليركع حياله عامة الشعب، ويقدمون إليه أكاليل الزهور وهم يبتهلون، وهو مشهدٌ رائع للغاية، لكن العودة إلى (مثواك الصغير) هو المكتوب. وفي أحيانٍ كثيرة يرتاد الطرف هنا رهبان يتحلون بالوقار، ولك أن تتخيلي يا أمي أنه، بالأمس في شارع تياتي، قد مر بي واحدٌ من كبار القسس بعربته، وأظن أنه الأسقف نفسه، فقد كان طاعنًا في السن. خلاصة القول إن الرجل تأملني بنظرات كتلك التي لضابط من ضباط الحرس! وأنتِ تعلمين، يا أمي، أني لا آمل خيرًا في أصدقائك من المبشرين والقسس، إلا أن تريشكه الدموع يُعد ملاكًا إن قارنته بهذا الماجن، الذي يعد واحدًا من رؤساء الكنيسة".

فكان أن استنكرت الأم ذلك، وقالت بحزن: "يا للعار". أما القنصل فقد قال: "هذه هي أنطونيا كما عهدناها".

"ماذا تقصد، توم"؟

"أعتقد أنها هي التي استدرجته إلى حدٍّ ما من أجل اختباره؟ فأنا أعرف طوني.. فكانت هذه النظرات بمثابة تسرية استمتعت بها، وقد كان ذلك أيضًا هدف الرجل العجوز"، فلم ترد القنصلة، بل واصلت القراءة.

"وقد أقام آل نيدرباور أول من أمس حفلاً كان سهرةً ممتعة للغاية، إلا أنني لم أستطع استيعاب حديث الرجل، فقد كان يتحدث أحيانًا بلكنة غير مفهومة، وكان من بين الضيوف أحد مغنيي الأوبرا الذي صدح ببعض الأغاني، كما كان هناك رسامٌ شاب طلب أن يرسمني فرفضت، فذلك يتجاوز حدود اللياقة، إلا أنني استمتعت بحديث رجل يدعى بيرمانيدر؛ فهل خطر ببالك أن تلقي أحدًا بمثل هذا الاسم، وهو يتاجر بحشيشة الدينار. وهو رجلٌ أعزب لطيف، يتحلى بالظرف والرزانة، وقد تصادف جلوسه إلى جواري على الطاولة، فأمضيت معه الوقت كله، لأنه كان البروتستانتي الوحيد بين الضيوف. وبرغم أنه أحد أهالي ميونيخ الطيبين، إلا أن جذوره تعود إلى مدينة نورمبرج. وقد أكد لي معرفته الجيدة باسم شركتنا، ولتوم أن يتخيل مدى تأثري بالأسلوب الوقور الذي نطق به اسم شركتنا. كما أنه استفسر بدقة عن أحوالنا، وعن عدد إخوتي وأخواتي، بل إنه ذهب إلى أكثر من هذا. كما سألني أيضًا عن أريكا وجريونليش. وقد اعتاد زيارة آل نيدرباور من حين لآخر، وسوف يصطحبنا في نزهة الغد إلى بحيرة فيرم. والآن، أستودعك الرب يا أمي، فلم أعد أقوى على مواصلة الكتابة. وأنا سوف أقيم هنا لثلاثة أو أربعة أسابيع سعيدة موفورة الصحة، هكذا هي عادتك في الدعاء من أجلي، لأقص عليك بعدها أخبار ميونيخ وجهًا لوجه، لأنني لا أعرف بأي من هذه

الأخبار أبداً إن كتبت ذلك، إلا أنني أؤكد لك استمتاعي بالإقامة هنا، وإن كان ينقص الطاهية إتقان الصلصة الجيدة. وأنتِ تظنين أن العمر تقدم بي وأصبح مستقبلي خلفي. إلا إنني- على سبيل المثال- لن أبدي معارضة إن تزوجت أريكا هنا مستقبلاً، لتنعم بالسعادة وموفور الصحة.. هذا ما وددت قوله".

وفي هذه اللحظة، اضطر القنصل إلى التوقف عن تناول الطعام ليستلقي فوق الأريكة مغرقًا في الضحك. "كم هي رائعة، يا أمي، فهي بلا مثيل إن شاءت النفاق، إنني متيم بها لأنها لا تستطيع تغيير جلدها، وإن كانت على بعد ألف ميل".

فقالت القنصلة: "حقًّا، توم، إنها ابنة طيبة تستحق كل خير" ثم أكملت قراءة الخطاب.

الفصـل الثَّـاني

بنهاية شهر أبريل كانت السيدة جريونليش قد عادت إلى بيت أبيها، وبرغم استعادتها لبعض ما اعتادت عليه في ممارسة حياتها، من مواظبةٍ على المشاركة في الصلوات، والاستماع لتلاوة ليا جيرهاردت في "أمسية أورشليم"، إلا أنها بدت أكثر انشراحًا وتفاؤلاً عن ذي قبل.

كانت قد وصلت من "بيشن"، حين استقبلها أخوها القنصل بمحطة القطار، ثم اخترقت بهما العربة بوابة هولشتاين، وقد حياها مجاملاً فقال إنها تُعد ثانى أجمل بنات العائلة بعد كلوتيلده، فردت هي: "يا إلهي، توم، كم أمقتك، أهكذا تهزأ بامرأة عجوز مثلي!".

وبرغم ذلك، فقد كانت هذه المقولة صائبة، فالسيدة جريونليش تولي نفسها أفضل وأجدى عناية. فمن يراها كان يعتقد أنها ما تزال في الثالثة والعشرين من عمرها، ولم تبلغ الثلاثين. فقد حرصت على عقص شعرها الغزير الأشقر الفاتح خلف أذنيها الصغيرتين بمشط عريض على هيئة سلحفاة، أما عيناها الرماديتان المائلتان إلى اللون الأزرق فكانتا ما تزالان مفعمتين برقةٍ معبرة، كما كانت شفتها العليا لطيفة الرسم، وقد تحلى وجهها

البيضاوي بطلاء مساحيق ذي ألوان رقيقة، وتدلى على جانبيه قرطان من الذهب، أنيقان إلى حدٍّ يفوق الوصف، كان لدى جدتها مثلهما في الماضي، إلا أنهما كانا مختلفين بعض الشيء. أما ثوبها الفضفاض فمن نسيج حريرى دقيق بلون داكن، ينتهى إلى ياقة من الساتان، وقد كست الدانتيل كتفيه مما منح صدرها شكلاً لطيفًا رقيقًا، وبدا تمتعها بالسكينة إلى أقصى الحدود. وفي لقاءات الخميس التي كان يجتمع أثناءها حول الطاولة كلٌّ من القنصل بودنبروك، وسيدات بودنبروك من الشارع العريض، والقنصل كروجر، وكلوتيلده وسيسيمى فايشبروت وأريكا، كانت أنطونيا تقص عليهم نتفًا من أخبار ميونيخ، وبيرة الشعير الدافئة، وحكاية الرسام الذي أراد رسمها، وعربات البلاط الملكي التي تركت في نفسها أكبر الأثر؛ وكانت تشير إلى السيد بيرمانيدر إشارةً عابرة، فإذا ما أبدت فيفي بودنبروك رأيًا في هذه المسألة أو تلك، كأن تقول إنها كانت رحلةً ممتعة حقًّا، إلا أنها لم ينتج عنها فائدةٌ عملية، كانت السيدة جريونليش تتجاوز عن هذا الكلام، مترفعةً عنه في وقارٍ، بأن تريح رأسها للخلف وهي تحاول ضغط ذقنها إلى صدرها. إلا أنه أصبح من عاداتها إن دق جرس باب مسقط الهواء في الباحة الكبيرة أن تهرع إلى بسطة السلم لتعرف هوية القادم.. فما المعنى من وراء ذلك، إن هذا هو ما كانت إيدا يونجمان تعلمه، وحدها، فقد كانت إيدا مربية أنطونيا وموضع سرها لسنين طويلة. وهي التي كانت تقول لها- من حينٍ لآخر- شيئًا بعينه: "طوني، يا بنيتي، سوف ترين أنه سيأتي! فهو لن يخذلك". وقد أبدى كل فردٍ من أفراد العائلة امتنانه لطوني، على ما أشاعته من جوٍ مرح.

كان جو الأسرة في أمس الحاجة إلى بعض التسرية، بعد أن ساءت علاقة

مدير الشركة بأخيه الأصغر، بل أصبحت تزداد سوءًا على نحو كريه، فيما كانت والدتهما تتابع مهمومةً تطور هذه الحالة. ولطالما سعت عند الضرورة للوساطة بين الأخين، فكان كريستيان يرضخ لنصيحتها بالحضور إلى المكتب في موعده وإن لاذ هناك بصمت حائر. كما أصبح يتلقى تعليمات أخيه على استحياء حقيقي، بلا اعتراض، ليتملكه توترٌ وشرود فيعكف على تحرير المراسلات باللغة الإنجليزية بحماس أكبر لعدة أيام؛ إلا أن استهانة الأخ الأكبر المستفزة بقدر أخيه الأصغر أصبحت تتعاظم بمرور الأيام، برغم أن كريستيان كان يقابلها دون رد، بل يشرد مفكرًا بعينين تجوبان فيما حولهما. ولم يكن انشغال توماس بأعباء عمله، وكذلك حالته العصبية، تسمحان له باستماع ما يردده كريستيان عن أعراض علته المتحولة، أو أن يواسيه ويحنو عليه ويرفق به، بل كان يعلن عن خيفته بهذه التفاصيل، ويصفها لأمه وأخته بأنها عرض تافه لخواطر باطنية كريهة.

أما الألم، العذاب مجهول السبب، الذي كان يلم بساق كريستيان اليسرى، فقط شُفي منه، بعد أن خضع لأساليب علاج مختلفة، إلا أنه كثيرًا ما كان يشكو على المائدة من صعوبة البلع. وقد أضيف إليها مؤخرًا معاناة من أزمة تنفس مؤقتة؛ وقد كانت عرضًا من أعراض الربو ظل كريستيان يظن أنه مرض السل لأسابيع عديدة. وكان يقطب أنفه وهو يصف لأسرته في إسهاب تفاصيل حالته وأعراضها. وبعد أن قام الدكتور جرابوف بفحصه، توصل إلى أن القلب والرئة بحالة جيدة، أما ضيق التنفس الذي يعاني منه- من حين لآخر- فهو ناتج عن تراخ محدود بعضلاتٍ معينة، ونصحه باستخدام المروحة من أجل تجفيف عرقه أولاً، ثم استنشاق بخار مسحوق

أخضر اللون ثانيًا. وقد حرص كريستيان على استعمال المروحة بالمكتب كذلك، فلما اعترض المدير رد بقوله إنهم في فالباريزو قد خصصوا لكل كاتب مروحة، لمواجهة حرارة الجو. لقد كان ذلك هو جوني تشدرستورم، يا إلهي.

إلا أنه ذات يومٍ ألمَّ به توتر فراح يتأرجح بمقعده، ثم أخرج المسحوق الأخضر من جيبه وأشعله، لينتج عنه دخانٌ كثيف ذو رائحة كريهة، عبّقت المكتب حتى أصيب البعض بنوبة سعال، كما امتقع وجه السيد ماركوس نفسه، وشحب لونه بشدة، فحدثت مشادةٌ صاخبة، كالفضيحة، أدت على الفور إلى حالة خصام، لولا تكتم القنصلة للأمر ومعالجته بروية وهدوء.

وبالإضافة إلى ذلك، كان القنصل يتذمر كذلك من مسلك كريستيان خارج البيت، وكان غالبًا ما يشاركه في ذلك زميله أيام الدراسة المحامي دكتور جيسكه! إلا أن القنصل لم يكن عنيدًا مكابرًا في هذا الشأن، فهو ما يزال يذكر أن مدينة أسلافه، تلك المدينة التجارية التي يمضي أهلها في طرفها بوقار وهم يضربون بعصيهم الأرض، وقد علت وجوههم أمارات نبل لا مثيل لها، لم تكن هي بالمدينة الفاضلة، مهد مكارم الأخلاق المُبرأة من كل إثم.

لم يكن النبيذ القوي ووجبات الطعام الثقيلة كفيلةً وحدها بتعويض أيام يقضيها بطولها فوق مقعده، وإنما كان يضاف إلى ذلك المعطف السميك المتين، لإخفاء ما قد يبدو من عيوب؛ فقد كان القنصل بودنبروك يعتبر الحفاظ على المظهر مبدأ لا يمس، وهو ينطلق في هذا من نظرة أهل المدينة إلى الحياة. أما المحامي جيسكه، فكان ينتمي إلى هؤلاء المثقفين الذين يتسم مسلكهم في الحياة بمظهر التجار، كما ينتسب إلى العزاب أصحاب السمعة

السئية، وهو ما كان واضحًا لكل ذي عينين. إلا أنه- مثله مثل الرجال الموسرين المؤثرين للحياة- كان على وعي بأهمية المظهر القويم، فيتجنب ما قد يسبب له متاعب. وكان مسلكه في مجال السياسة والعمل يتسم بالرزانة، مسلكًا لا تشوبه شائبة. وكان خبر خطوبته لآنسة من عائلة هونيوس قد شاع بين الناس، وهكذا يكون قد اقترن ببيت من الطبقة الراقية، ليحصل على هدية زواج محترمة. كما كان بالغ الحرص على مراقبة شؤون المدينة؛ حتى أُشيع أنه يطمح إلى عضوية مجلس الشيوخ، ليطمح بعد ذلك في مقعد العمدة الدكتور أوفرديك، الطاعن في السن.

أما خليله كريستيان بودنبروك، فقد اتجه ذات مرة بخطى واثقة نحو الآنسة مايير دى لاجرانج، مقدمًا إليها باقة من الزهور، قائلاً لها: "آنسة، ما أروع الدور الذي أديته!".

إنه كريستيان، الذي أدت به أخلاقه وترخاله لسنوات طويلة إلى حالة من اللامبالاة واستهتار بالغ السذاجة. كانت مشاعره جامحةً لا تعرف حدودًا في علاقاته العاطفية وغيرها، بعيدةً عن الحفاظ على وقاره وكرامته، وكانت المدينة كلها تتضرر- على سبيل المثال- بعلاقته بممثلة مغمورة بمسرح سومر، متخذةً من ذلك مادة للتسلية. وكذلك كانت مدام شتوت، من شارع جلوكنجيسر، التي تتصل بالطبقة الراقية، تحكي لكل سيدة تستمتع بسماع أن "كريشان" قد شوهد ثانيةً برفقة فتاة "تيفولي" على قارعة طريق ساطع الأنوار. إلا أن الجميع غضوا الطرف عن ذلك، فقد كان التزامهم بالأخلاق المحافظة يمنعهم من إبداء السخط حتى وإن شكوا في أمرٍ ما؛ فقد كان كريستيان بودنبروك محبوبًا فكهًا لا يمكن لمجتمع الرجال الاستغناء عنه بأية حال،

وكان يشاركه- مثلاً- في هذا الأمر القنصل بيتر دولمان، وهو الذي أدى به كساد تجارته إلى التماس العمل على نحو مماثل بريء.

وبرغم ذلك فلم يكن هناك مَن يأخذ أفعالهما مأخذ الجد، فهما لا يأتيان بأمور جادة، وهو ما تبدت دلالته في ذكرهما باسمهما الأول فحسب "كرستيان وبيتر"، في أرجاء المدينة والبورصة والميناء. أما آل هاجنشتروم ومَن على شاكلتهم من أصحاب النوايا السيئة فكانوا يميلون إلى الضحك من شخص كريستيان، لا مما يرويه من نوادر وحكايات.

أما هو، فلم يكن يلقي بالاً إلى هذا، أو كان يتجاوزه، بطريقته، بعد برهة من استغراقه المتوتر في تأملاته الغريبة. إلا أن أخاه القنصل كان يدرك خطورة ذلك، فكان يرى أن كريستيان يفتح أمام خصوم العائلة أبوابًا للهجوم عليها، بعد أن باتت العائلة تعاني من نقاط ضعف عديدة. فصلة القُرب لآل أوفرديك التي تشعبت، سوف تفقد قيمتها بعد وفاة العمدة، كما تلاشى آثر آل كروجر بعد أن ركنوا إلى العزلة، وهم يعانون من نوادر ابنهم؛ أما زواج العم جوتهولد غير الموفق فقد أصبح حالة يُرثى لها، بالإضافة إلى طلاق أخت القنصل، وإن كان هناك أمل في زواجها ثانية. أما أخوه، فيرى الناس مسلكه غير قويم، ليقضي رجال أعمال أوقات فراغهم في التسلي بنوادره سواء بحسن نية، أو على سبيل السخرية. إضافة إلى سعيه للاقتراض، بعد أن ينفق دخله خلال ربع السنة الأول عن آخره، فيتكفل دكتور جيسكه بتسديد نفقاته علنًا، وهو ما يسبب حرجًا مباشرًا للشركة.

وكانت استهانة توماس الشديدة بأخيه، التي يواجهها الأخير بلا مبالاة وشرود، تتبدى صورها في منغصات قليلة الشأن يعاني منها أفراد أسرة

واحدة، يخاصم أحدهم الآخر، فإذا دار- مثلاً- حديث حول تاريخ عائلة بودنبروك انتاتب كريستيان حالة غامضة تجعله يتحدث عن مدينة أسلافه بحرارة وحب وإعجاب؛ مما يؤدي بالقنصل إلى إنهاء الحوار ببعض كلام جاف، ذلك أنه لم يكن يتحمل هذا. وقد بلغت استهانته بشأن أخيه حد منعه من الشعور بالحب نحو ما أحبه هو، وكان يؤثر أن يتحدث أخوه عن هذه الأمور بلسان مارسيلوس شتنجل. وكان قد قرأ كتابًا ما في التاريخ ترك لديه انطباعًا عظيمًا، وقد أشاد به بكلمات ذات وقع طيب؛ ولما كان كريستيان إمعة ولم يكن متأثرًا بذلك، وقرأ الكتاب فاعتبره هو أيضًا كتابًا رائعًا، فلما أفصح عن شعوره بذلك على نحو بالغ الدقة كان ذلك كفيلاً بتجاهل توماس للكتاب، حتى إذا ذكره تحدث عنه عرضًا وبلا اهتمام، ليبدو كمن لم يقرأه تقريبًا تاركًا لأخيه أمر الإعجاب به وحده.

الفصل الثَّـالث

غادر القنصل بودنبروك "غرفة القراءة"، وهو مكان للقراءة خُصص للرجال، وكان يمضي فيه ساعةً بعد تناول الفطور، ليعود من بَعد إلى منجشتراسه، ليجتاز المسار المُعبّد المحاط بسياج من النباتات، والممتد بين الفناءين الأمامي والخلفي، ليصل سريعًا إلى البستان، ثم يعبر الباحة ليسأل في المطبخ إن كان أخوه متواجدًا بالبيت، بعد أن نبَّه بإعلامه حال وصوله، ثم يمر بالمكتب حيث يعكف الموظفون على أداء عملهم، فما إن يروه حتى يمعنوا في الاهتمام بالعمل. ثم دخل مكتبه الخاص، وتخلص من قبعته وعصاه ليرتدى ثوب العمل، ليتجه إلى موقعه بجوار النافذة في مواجهة السيد ماركوس مقطب الحاجبين، اللذين يلفت لونهما الأشقر الانتباه، وراح ينقل بين شدقيه متوترًا مبسمًا أصفر لسيجارة روسية انتهى من تدخينها. ثم تناول الأوراق وأدوات الكتابة بحركةٍ سريعة فجة، جعلت السيد ماركوس يمرر إصبعيه فوق شاربه مفكرًا، وأخذ يتفرس شريكه بروية، فيما كان شباب الموظفين قد علت وجوههم أمارات دهشة من سخط مديرهم.

وقد مضت نصف ساعة لم يُسمع خلالها سوى صوت احتكاك الأقلام بالأوراق، ونحنحة السيد ماركوس المتحفظة، ثم كان أن تجاوز القنصل بنظره قاعدة النافذة ليرى كريستيان قادمًا في الطريق وهو يدخن عائدًا من النادى بعد تناول فطوره وممارسة بعض الألعاب البسيطة، وقد وضع على رأسه قبعة تميل بعض الشيء فوق جبهته، مطوحًا عصا صفراء اللون، كان قد جاء بها من "هناك"، وكان مقبضها العاجي يمثل تمثالاً نصفيًّا لإحدى الراهبات. فبدا كأنه يتمتع بصحة طيبة ومزاج منشرح، وراح يشدو بأغنيةٍ ما عندما دخل المكتب، ليقول: "طاب صباحكم أيها السادة"، برغم أن وصوله المكتب كان في وقت العصر من يوم ربيعي صحو.

ثم اتجه إلى المكان الخاص به، "ليعمل قليلاً"، إلا أن القنصل هب واقفًا، ومر به مخاطبًا إياه دون أن ينظر إليه، وقال: "آه، يا عزيزي! فلتسمح لي بكلمتين" فمضى كريستيان في أثر أخيه، فتجاوز الباحة على عجل، وقد وضع توماس يديه خلف ظهره فحاكاه كريستيان على نحو تلقائي. واتجه نحو أخيه بأنفه الضخمة النافرة بين وجنتيه الغائرتين والتي بدت حادة معقوفة فوق شاربه الأشقر الأحمر المتهدل على فمه، على الطريقة الإنجليزية، أثناء سيرهما بالباحة، قال توماس: "لتصحبني يا صديقى لخطوتين في البستان". فرد كريستيان: "حسنًا"؛ ثم ساد من جديد صمتٌ أخذا خلاله يجولان بالبستان، على يسار الطريق الخارجي لواجهة البوابة ذات طراز الروكوكو، بينما كانت زهور البستان قد تفتحت عن بواكير براعم. وفي النهاية، أصبح نَفَس القنصل يتردد متلاحقًا، وهو يقول بصوت مرتفع: "لقد انتابني شعورٌ بالضيق الشديد من مسلكك منذ لحظات".

"مسلكي أنا؟"

"بلى! لقد علمت في غرفة القراءة بما أبديته مساء أمس من تعليق بالنادي، وكان تعليقًا نابيًا تجاوز حد أنني لم أجد ما أرد به على هذا فكانت فضيحة.. وقد عوقبت أنت برد كان محرجًا، أفلا قصصت عليَّ ما جرى؟"

"آه، عرفتُ الآن ما تقصد- فمَن أخبرك بذلك؟"

"وما أهمية هذا في تلك المسألة، لقد كان دولمان، وقد حكى لى ذلك بنبرةٍ تجعل حتى من لم يعرف هذه القصة لا يتمالك نفسه من الضحك".

"اصغ.. توم، أصارحك بأنني انتابني الخجل من أجل هاجنشتروم".

" أي خجل.. إذن فالرواية صحيحة، اسمع".

ردد القنصل ذلك صائحًا، رافعًا يديه مائلاً برأسه، وقد أخذ يلوح بيديه معارضًا: "أتتفوه علانيةً بمجلس يؤمه التجار والمثقفون فتقول إن أي تاجر ليس في حقيقة الأمر سوى محتال.. أنت، وأنت نفسك تاجر ينتسب إلى بيت تجار، يبذل قصارى جهده في سبيل توحيد الجهود، وترسيخ مكانة لا تشوبها شائبة".

فقال كريستيان: "توماس، لقد كنت- بالرب- أمزح، غير أنه في الواقع..." وقطب أنفه وأمال رأسه للأمام، وقطع على هذه الحال بضع خطى. فهتف القنصل: "مزاح، مزاح، فلعل من هو مثلي أن يفهم أيضًا معنى المزاح، إلا أنك رأيت كيف يفهم الآخرون أيضًا المزاح، حين جاءك رد هاجنشتروم قائلاً: "أما من ناحيتي أنا، فأنا أحترم مهنتي للغاية"، فإذا بك تقبع هناك كرجل فاشل، لا يحترم المهنة التي يمارسها".

"توم.. اسمعني، أرجوك، ماذا تقول! إنني أوكد لك أنهم أفاقوا من سباتهم

العميق ليضجوا بالضحك، كأنهم يشاركونني رأيي". أما هاجنشتروم هذا فقد كان جالسًا وقال في رعب حقيقي: "من ناحيتي أنا.." هذا الأحمق، لقد شعرت بالخجل من أجله، حتى إننى انشغلت بأمره وأنا في الفراش، وقد انتابني شعور غريب، لست أعلم إن كنت تعرف مثله".

قاطعه القنصل قائلاً: "كفى ثرثرة، أرجوك، كفى، وأصارحك بأنني أتفق معك في أن رده كان غير لائق، لكن كان عليك اختيار من توجه إليه هذا الكلام، إن كان من ذلك بُد، وإلا كان ذلك حماقة تعرضك لهذا الموقف المخزي؛ فها أنت ترى أن هاجنشتروم قد اغتنم الفرصة لتوجيه ضربة لنا، وليس لك فحسب، فهل وعيت معنى: "من ناحيتي أنا".. إنه يعنى: "إن مكتب أخيك، لهو المكان الذي يمكن أن تقول فيه مثل هذا الكلام، سيد بودنبروك"، هذا هو ما أراد قوله، أيها الحمار".

فرد كريستيان بعد أن تملكه التوتر، واستبدت به الحيرة: "حمار.. ماذا..؟"

أما القنصل فأردف: "وفي النهاية فلستَ حر نفسك، وبرغم ذلك فأنا لا أهتم بأن تجعل نفسك موضع استهزاء". ثم صاح: "إنك تسعى دائمًا إلى ذلك".

أثناء ذلك، كان لون وجهه قد شحب، ونفرت عروق زرقاء أسفل فوديه الضيقين، وقد رفع أحد حاجبيه الشقراوين، حتى إن شدة غضبه قد أثرت في نهاية طرفى شاربه المفتولين، فيما كان يلقى كلماته وهو ينظر جانبًا إلى قدمي كريستيان فوق الطريق الممهد بالحصى، وقد أخذ يطوح بذراعيه، وهو يقول: "لقد جعلت من نفسك مسخًا بحكايات غرامياتك وتصرفاتك الصبيانية، وأدوائك ودوائك الذي تعالجها به".

أما كريستيان، فهز رأسه، وبدت عليه أمارات الجدية البالغة، وأشار

بسبابته متوترًا، وقال: "لكن.. توماس! إن هذه المسألة ترتبط بحالة لا تستطيع استيعابها تمامًا، فلابد أن أريح ضميري.. ولست أدري إن كنتَ تعلم بهذا الأمر، فقد نصحني جرابو باستخدام دهان لعضلات العنق.. حسنًا! فإن لم أفعل ذلك، فأهملت استخدامه، فإنني أبدو ضائعًا، بلا حول، قلقًا، فاقد الثقة بنفسي، خائفًا، فتسوء حالتي، فلا يصبح بوسعي ابتلاع شيء؛ أما إذا استخدمته، فإنني أحس أني أديت واجبي، فتتحسن حالتي، ويرتاح ضميري، ويغمرني شعور بالسكينة والرضا، فأستطيع البَلع؛ ولكني لا أظن ذلك يحدث من أثر الدهان، بل هو اعتقاد، وأرجو أن تفهمني، يتغلب عليه اعتقاد آخر، اعتقاد مناقض، فهل يا ترى فهمت هذا.."

فصاح القنصل: "نعَم، نعم" ثم وضع رأسه بين راحتيه برهة ليردف: "فلتفعل هذا ولتظل على مسلكك هذا، لكن لا تفصح عنه، وكف عن الثرثرة! ولترحم الناس من نوادرك المقيتة، فهذه الثرثرة البذيئة تجعلك مسخًا طوال الوقت. إلا إنني أقول وأكرر ما أقول: إن أمرك لا يهمني، مهما بلغت من حمق، لكني أحظر عليك، هل تسمع، أحظر عليك أن تكون سببًا في إحراج الشركة، كما فعلت مساء أمس".

فلم ينبس كريستيان بكلمة، بل راح يخلل بيده شعره الخفيف الأشقر الأحمر، وأخذ ينظر حوله شارد الذهن حائرًا، وقد باتت في وجهه أمارات جدية قلقة، فلا شك أن كان يفكر فيما قاله. وسادت فترة صمت، وبدا عرق توماس في يأس غير باد.

ثم بادره مرةً ثانية بقوله: "حسنًا، لقد زعمت أن كل التجار محتالون! فهل أسفت على ممارستك هذه المهنة، وهل ندمت على أنك أصبحت تاجرًا؟ ولقد

حصلت من والدك حينذاك على الإذن بذلك".

فقال كريستيان مفكّرًا: "نعم، توم، فأنا في الواقع أفضل الدراسة بالجامعة، أتدري؟ وسوف يكون ذلك أمرًا لطيفًا جدًا، فبوسعي المشاركة كما شئت لأجلس هناك مصغيًا كأنني بالمسرح.."

"كأنك بالمسرح، إن نهايتك لهو مقهى الأغاني، أيها البهلوان.. وهذا ما أعنيه جدًا لا هزلاً". أما كريستيان فلم يحتج، بل شرد مفكرًا، وهو يتلفت.

"فأنت مَن تتهور وتفوه بهذا الكلام، وأنت مَن لا يعي ولا يدرك معنىً للعمل، أنت مَن يضيع عمره في اصطناع سلسلة من المشاعر والأحاسيس والمواقف من خلال المسرح والصعلكة والحماقات، وتستطيع الانشغال بها ومراقبتها ورعايتها، وتروى عنها بلا استحياء".

فقال كريستيان بشيء من الأسى: "نعم، توم" ثم أردف وهو يمسح رأسه براحة يده مرةً أخرى: "إن هذا هو الحق! لقد أحسنت التعبير عن هذا تعبيرًا صادقًا، وهذا هو الفرق بيني وبينك، أفهمت! فقد كان يستهويك ذات يوم مشاهدة الأعمال المسرحية، وهذا ما يميزك عني، كما ظللت لزمنٍ تُقبل على قراءة الروايات والقصائد وغيرها، لكنك كنت دائمًا قادرًا على التوفيق بين هذا كله وبين عملك المنظم وحياتك الجادة؛ وهذا هو ما أفتقر إليه، أليس كذلك! فقد استنفد الآخرون قدراتي، لقد قضت عليّ هذه الصغائر، هل تعلم ذلك؛ فلم تُبق عندي على شيء ذي قيمة، ولست أدري إن كنت تفهمني.."

وتوقف توماس ليعقد ذراعيه فوق صدره، ويصيح: "هكذا ترى أنت هذا، وتقر به بهدوء، وبرغم ذلك تتمسك بإبقاء الحال على ما هو عليه؛ فهل

أنت كلب إذن، يا كريستيان، فلكلٍّ منا كرامته، فليرحمنا الرب، فلن نكون جديرين بمواصلتها، لكن هكذا هو حالك، وهذا هو جوهر كيانك، فهل تملك رؤية وفهمًا لأمر ما تستطيع وصفه.. كلاًّ، لقد نفد صبري، كريستيان!".

تراجع القنصل بخطوةٍ سريعة ملوحًا بذراعه غاضبًا: "دعني أصارحك بنفاد صبري، فأنت تحصل على أجرٍ مقابل العمل، إلا أنك لا تأتي أبدًا إلى المكتب، وهذا لا يثير غضبي، فلتفعل ما شئت، وواصل إهدار حياتك. لكنك تحرجنا جميعًا أينما ذهبت وحيثما كنت. إنك بمثابة جُرح ملوث، عضو مريض بجسد الأسرة، أنت بمثابة الأذى لنا في هذه المدينة، ولو كان أمر بيتنا بيدي لقمت بطردك منه".

هكذا صرخ، وهو يشير إشارات عنيفة بعيدة تجاوزت البستان إلى الفناء والممر.. وفقد السيطرة على نفسه، بعد أن طفح به غضبٌ مكبوت منذ زمن بعيد. أما كريستيان، فخرج عن طوره على غير عادته، وقال مغضبًا: "ماذا تظن، توماس"؛ وقد وقف هناك بساقيه المنبعجتين، منحنيًا بعض الشيء، فأصبح مثل علامة الاستفهام، وقد دفع برأسه وبطنه وركبتيه إلى الأمام؛ أما عيناه المستديرتان الغائران فقد اتسعتا واحمرت أشفارهما واتصلت بعظام وجنتيه، وهي الحالة نفسها التي كانت تنتابه إذا غضب. ثم قال: "كيف تخاطبني على هذا النحو؟ ماذا فعلت لك؟ أما أنا فلن أنتظر حتى تطردني، وسأمضي من تلقاء نفسي؛ يا للعار". هكذا أردف ليرمي أخاه بهذا الاتهام الصريح، وتبع ذلك بحركة من يده كأنه يقبض على ذبابة. ومن الغريب أن توماس لم يرد له الصاع صاعين، بل التزم الصمت منكسًا هامته، متخذًا

طريقه حول البستان قانعًا أنه أثار غضب أخيه أخيرًا.. وفي نهاية الأمر، فقد أكرهه على الرد والاحتجاج على نحو شديد. ثم عقد يديه خلف ظهره، وقال بهدوء: "كريستيان، فلتصدقني، إن حوارنا هذا يؤسفني بحق، لكن هذه المواجهة كان لابد منها، وهو ما أعتبره أمرًا بشعًا في حق أسرتنا، إلا أنه كان على كل منا طرح أفكاره، كما كان علينا تبادل آرائنا بهدوء، وقد رأيت أنك عير راضٍ عما آل إليه حالك، أليس كذلك؟"

"لا توم، لقد كنتَ محقًا فيما ذهبت إليه، ففي بداية الأمر كنت قانعًا بعملي إلى حد كبير، لكني أعتقد أنني أفتقر إلى استقلالي بذاتي، ولطالما حسدتك أثناء قيامك بأداء عملك، وهو ما لا يناسبك في الواقع، فأنت لست مضطرًّا لفعل ذلك لأنك السيد الرئيس، الذي بوسعه إصدار الأمر لغيره بالعمل من أجله، إلا أنك تقوم على مراجعة الحسابات وتفرض هيمنتك، وتتمتع بحريتك.. وهذا أمرٌ مختلف تمامًا".

"حسنًا، كريستيان، ألم يكن بوسعك الإفصاح عن ذلك من قبل؟ فأنت لك حرية الاختيار في أن تستقل أو تكون أكثر استقلالاً. فأنت تعلم أن والدنا خصص لكل منا نصيبًا مؤقتًا من الميراث، قدره 50.000 مارك؛ ومن البديهي أني كنت على استعداد لتسليمك هذا المبلغ لكي تستثمره فيما هو أكثر رشدًا واستقرارًا. ففرص الاستثمار في هامبورج وغيرها آمنة وعديدة، لكنها فرصٌ بعينها يمكن أن تحتاج إلى مزيد من رأس المال، وبوسعك المشاركة في هذا الأعمال، فليعمل كلٌّ منا فكره في هذا الشأن، نتدبره ثم نطرحه على والدتنا، حين تحين الفرصة لذلك. إلا أنني لديَّ الآن ما يشغلني، فعليك مواصلة تحرير المراسلات الإنجليزية هذه الأيام، أرجوك. ثم سأله وهو

ما يزال بمكانه في الباحة، "ما رأيك مثلاً في "هـأ. وشركاه - هامبورج للاستيراد والتصدير"، فهناك علاقة تجمعني بالرجل، وأظنه سيرحب بالعمل معك".

كان ذلك قد حدث في نهاية شهر مايو لعام 1857، ليسافر كريستيان في أول يونيو إلى هامبورج عن طريق بيشن، وهو ما مثل خسارة جسيمة للنادي ومسرح النادي وتيفولي والمجتمع المتحرر كله. ولذلك ذهب جميع الماجنين إلى محطة القطار لوداعه، ومن بينهم الدكتور جيسكه وبيتر دولمان، وقد حملوا إليه الزهور وكذلك السيجار، وأخذوا يضحكون من أعمالهم وهم يتذكرون يقينًا كل ما كان يرويه كريستيان من نوادر. وفي النهاية، وبين تهليل الجميع، قام الدكتور جيسكه المحامي بمنح كريستيان وسام "كوتيون" الرفيع، وهو وسام من ورق مذهب، وثبته على معطفه، وهذا الوسام يقوم بمنحه بيتٌ على مقربة في الميناء، وهو مطعم يعلق على مدخله ليلاً قنديلاً أحمر اللون، وهو ملتقى لمن يسعى إلى مكان تسوده روح المرح. وقد تم منح المهاجر كريستيان هذا الوسام تقديرًا لإنجازاته الفائقة.

الفصل الرَّابـــع

ما إن دق جرس الباب الخارجي، حتى مضت السيدة جريونليش كعادتها إلى بسطة السلم، لتطل على الباحة من أعلى السور الأبيض. وما إن فُتح الباب حتى اهتز كيانها وهي مائلة على السور، ثم تراجعت بسرعة لتغطي فمها بمنديلها وقد لملمت أطراف تنورتها، ثم هرولت لتصعد وهي تميل للأمام بعض الشيء. أثناء ذلك إذا بها تلقى خادمتها يونجمان، لتهمس إليها بشيء، وعلى إثر هذه المفاجأة السعيدة ردت يونجمان باللغة البولندية بعبارة غير مفهومة. أثناء ذلك، في الحادية عشرة ظهرًا، كانت القنصلة بودنبروك، قد اتخذت مجلسها بغرفة المنظر الطبيعي ممسكةٍ بإبرتين كبيرتين من الخشب لتغزل شالاً أو مفرشًا، فإذا بالخادمة تخترق بهو الأعمدة، وتدفع الباب الزجاجى مهرولةً نحو القنصلة، وتضع في يديها بطاقة زيارة. عالجت القنصلة نظارتها التي تستعملها أثناء انشغالها بالغزل، ثم أمسكت البطاقة تطالعها لتعيد النظر إلى وجه الخادمة المتورد، وأخذت تنقل نظرها من البطاقة إلى وجه الخادمة، وفي النهاية، بادرتها بمودة: "عزيزتي.. ما هذا؟ وما

مغزاه؟".

كانت البطاقة تحمل شعار "اكس نوبّه وشريكه"، وقد شُطب منها اسم "اكس نوبّه" و"ج"، ليبقى "شريكه" فحسب. فردت الخادمة: "أجل، سيدتي، إنه سيدٌ ما، لا يتكلم الألمانية، وهو رجلٌ غريب الأطوار".

أدركت القنصلة أن "شريكه" هو طالب الزيارة، فقالت: "فليدخل"، فمضت الخادمة لتفتح ثانيةً الباب الزجاجي ليدخل رجلٌ قصير القامة، توقف قليلاً بطرف الغرفة غير المضاء، وغمغم بكلماتٍ قد تعنى: "من دواعي الشرف.."

"طاب يومك، ألا تفضلت بالاقتراب" قالت القنصلة هذا وهي ترتكز على وسائد الأريكة. ولما كانت لا تدري إن كان يتوجب عليها استقبال الرجل واقفةً، فقد نهضت بعض الشيء. أما الرجل، فقال بصوتٍ منغم ونبرةٍ ممطوطة مرتاحة، وهو ينحني متقدمًا خطوتين: "من دواعي سروري.." إلا أنه توقف عن التقدم، وهو يبحث عن مكانٍ للجلوس أو لوضع قبعته وعصاه، اللتين اصطحبهما إلى الغرفة، تلك العصا التي بلغ طولها قدمًا ونصف القدم، المقوسة كالمخلب. كان الرجل في الأربعين من عمره، بدينًا، قصير الأطراف، يرتدى سترة من جوخ، بنية اللون، انفتحت عن بطن ممتلئة بعض الشيء، تغطيها صدرية زاهية مزهرة تتدلى منها كاتينة ساعة ذهبية تبرق بها مجموعة أصلية من دلايات من العاج والعظم والفضة، كما ارتدى سروالاً قصيرًا للغاية ذا لون قد يكون مزيجًا من الأخضر والرمادي، من نسيج خشن غير مألوف، وقد أحاطت حوافه المستديرة والخاليةِ من الثنايا برقبة حذائه العريض. أما شاربه فذو لون أشقر فاتح، بدا كأهداب متناثرة علقت

بفمه، وبدت رأس كرأس سبع البحر بشعر أشعث و"أنف أفطس". وعلى النقيض من شاربه، برزت بين ذقن الرجل الغريب وشفته السفلى شامة، أما وجنتاه السمينتان فانتفختا على نحو ملحوظ لتضغطا على عينيه شبه المغلقتين في محجرين ضيقين، وقد صفا لونهما الأزرق، وإن أحاط بأركانهما بعض التجاعيد، وهو ما منح ملامح وجهه المنتفخ- على هذا النحو- تعبيرًا كان مزيجًا من الامتعاض وحسن الطوية المحافظة المؤثرة، وامتد تحت ذقنه الصغيرة خطٌّ حاد يصل إلى رباط عنقه الدقيق الأبيض. وقد انتفخ عنقه كالحوصلة، مما يجعله لا يتحمل ياقات القميص، وكان الجزء الأسفل من وجهه وعنقه ومؤخرة رأسه وقفاه ووجنتاه وأنفه قد بدت متداخلة بلا اتساق، ونتج عن هذا الانتفاخ أن أصبح جلد وجهه مشدودًا بحدة، فبدا لونه أحمر في شحمة الأذن وعلى جانبي الأنف. وكان قد أمسك بإحدى يديه السمينتين القصيرتين بلونهما الأبيض، وبيده الأخرى، قبعته الخضراء المزدانة بلحية التيس، مثل قبعات أهل تيرول. كانت القنصلة ما تزال على وضعها بين جلوس ووقوف، متكئةً على الأريكة حين رفعت نظارتها لتسأل الرجل بوقار وحزم: "أية خدمة أستطيع تقديمها لك؟" فوضع الرجل قبعته فوق غطاء الأرغن وقد بدا عليه التردد، ثم استكان وهو يفرك يديه الطليقين مرتاحًا، ليقول: "سيدتي، أقدم اعتذاري عما بدت عليه بطاقتي، لأني لا أملك سواها، فأنا أُدعى بيرمانيدر، الويس بيرمانيدر من ميونيخ، وعسى أن تكون سيدتي الجليلة قد علمت باسمي من السيدة ابنتها". قال ذلك بنبرة واثقة عالية تشوبها لهجة عامية ودية، يتخللها اقتضابٌ مفاجئ، مصحوبة باختلاج حميمي من عينيه، كأنه يقول كلانا يفهم الآخر.

هنا استوت القنصلة واقفةً لتمضي نحوه، وهي تمد يديها إليه مائلة برأسها. "أنت إذن السيد بيرمانيدر، لقد أخبرتني ابنتي بأمرك بالفعل، كما أخبرتني بما فعلته من أجل توفير إقامة مريحة لها.. أتقيم الآن بمدينتنا؟" فجلس السيد بيرمانيدر على فوتي بجوار القنصلة، بعد أن أشارت عليه القنصلة بذلك، ليخاطبها بلغته العامية: "أيدهشك ذلك؟" فلم تفهم القنصلة ما قاله، فسألته: "ماذا تعني من فضلك؟" أثناء ذلك كان هو يمر بيديه فوق فخذيه القصيرتين الممتلئتين قانعًا، إلا أنه أمسك عن ذلك ليخاطب القنصلة بجملة عامية أخرى. وبرغم أن القنصلة لم تفهم ما قاله، إلا أنها ردت "جميل"، ثم ارتاحت إلى الوراء واضعة يديها بحجرها مبديةً ارتياحها مجاملة له. فلما لاحظ السيد بيرمانيدر ذلك إذا به يميل للأمام ليرسم بيده دوائر في الهواء لا يعلم معناها سوى الرب، ثم قال، وهو يبذل قصارى جهده: "سيدتي الجليلة، إنك تعجبين لذلك". فردت القنصلة: "نعم، نعم، عزيزي السيد بيرمانيدر". ليعقب ذلك لحظات من الصمت، قطعها السيد بيرمانيدر وهو يزفر متنهدًا: "إنه النصيب". فأخذت القنصلة تنظر من طرف عينيها وهي تقول: "ماذا تعني من فضلك!". فأعاد الرجل تكرار ما قاله وهو يبالغ في رفع صوته، وفي شيء من الخشونة "هو النصيب"، فأردفت القنصلة متسائلة: "أتأذن لي، سيدي العزيز، بالسؤال عن السر الذي جعلك تقطع هذا المسافة الطويلة؛ فالسفر من ميونيخ إلى هنا رحلة شاقة". فأخذ السيد بيرمانيدر يلوح بيديه القصيرتين، ثم قال: "إنه العمل، العمل يا سيدتي الجليلة، إنه مصنع البيرة في فالكميله".

"آه، حقًا، فأنت تشتغل بتجارة حشيشة الدينار، عزيزي السيد

بيرمانيدر، إنه إذن مصنع نويه وشريكه، أليس كذلك؟ حقًا، لقد كان ابني يذكر تجارتك من حين لآخر بكل خير". ولم يكن ما قالته القنصلة سوى مجاملة منها له. إلا أن السيد بيرمانيدر تجاوز عن هذ المجاملة، ليقول: "هذا حق، لا شك فيه، لكني في الواقع استبدت بي الرغبة دائمًا في زيارة سيدتي الجليلة لأقابل السيدة جريونليش، وهذا هو حقيقة الأمر، وجعلني لا أخشى الرحلة". فقالت القنصلة ممتنة: "شكرًا لك" ثم صافحته مرةً أخرى مرحبة، وأضافت: "لكني عليَّ إبلاغ ابنتي بالأمر". ثم نهضت قاصدة جرسًا بغطاء مطرز، يتدلى بجوار الباب الزجاجي، ليدور السيد بيرمانيدر بمقعده نحو الباب، وهو يصيح: "نعم، باسم الرب، فهذا من دواعي سروري". وأمرت القنصلة خادمتها: "عزيزتي، أخبري السيدة جريونليش بأن تتفضل بالحضور". ثم ارتدت إلى الأريكة ليعيد السيد بيرمانيدر مقعده إلى سابق عهده، ويكرر وهو شارد الذهن: "إن هذا من دواعي سروري". ثم أخذ ينتقل بنظره بين كساء الحائط وبين دواة الحبر من خزف "سيفر"، فوق خزانة الأوراق الشخصية، إلى قطع الأثاث الأخرى، وهو يكرر ما قاله من قبل بلهجته العامية، وقد أخذ يمسح براحتيه فوق ركبتيه وهو يشهق شهيقًا عميقًا دون سبب معروف. وظل على حاله هذه حتى جاءت السيدة جريونليش، التي تعمدت عدم الإفراط في زينتها، فجاءت ترفل في ثوب زاهٍ وقد صففت شعرها على نحو مرتب، فبدا وجهها أكثر إشراقًا وجمالاً مما قبل، وهي تلوك شدقيها بلسانها بخبث. فما إن لمحها السيد بيرمانيدر حتى هب واقفًا ليمضي نحوها مرحبًا بحرارة بالغة، وقد اهتز كيانه وهو يصافحها بكلتا يديه صائحًا: "ها أنتِ، سيدة جريونليش، سلامٌ عليك، كيف حالك،

وماذا فعلت، يا إلهي، إن السعادة تكاد تذهب عقلي، أما تزالين تذكرين ميونيخ وجبالها؟ كنا آنذاك نتمتع بسعادة غامرة، أليس كذلك، وها نحن نلتقي ثانيةً، فمن كان يتوقع هذا؟" فكان أن رحبت أنطونيا أيضًا به ترحيبًا حارًا، وسحبت مقعدًا لتجلس إلى جواره لتجاذبه أطراف الحديث عن تلك الأيام التي قضياها بميونيخ. واتصل الحديث بينهما متدفقًا، بينما كانت القنصلة تتابعه مرحبة مشجعة، وهي تعيد صوغ عباراته بالفصحى، لتعود لتستريح على الأريكة سعيدة بما استوعبته. وقد كرر السيد بيرمانيدر ذكر مبرر زيارته للسيدة جريونليش، إلا أنه لم يبدِ أي اهتمام بذكر إنجازه لأمور تتعلق بمصنع البيرة، مما أوحى بأن ذلك لم يكن هدف الزيارة الحقيقي للمدينة، فيما أولى اهتمامه بالسؤال عن أريكا، وعن ولدي القنصلة، كما أبدى أسفًا بالغًا لغياب كلارا وكريستيان، لأنه كان يود دائمًا التعرف إلى كل أفراد العائلة. كما لم يتطرق قط إلى تحديد زمن إقامته بالمدينة. ثم خاطبته القنصلة: "سيد بيرمانيدر، أنا أنتظر وصول ابني بين لحظةٍ وأخرى لتناول الفطور، فهل تشرفنا بمشاركتنا تناول شيء من خبز الزبد؟" فما كادت القنصلة تنطق بذلك حتى أبدى قبوله للدعوة، وكأنه كان ينتظر ذلك. وجاء القنصل في ملابس العمل ليدخل مسرعًا إلى غرفة الفطور الخاوية، وقد بدت عليه أمارات الإجهاد والتوتر إلى حدٍّ ما، ساعيًا إلى فطور سريع، إلا أنه توقف لدى رؤيته هيئة الضيف الغريبة، في سترته الجوخ بقماشها الخشن ودلايات ساعته العظيمة وعصاه ولحية التيس فوق الأرغن، فنظر إلى الرجل، وقد انتبه إلى اسمه الذي طالما ذكرته السيدة أنطوني كثيرًا، ثم حدق بأخته بنظرة خاطفة، ليحيي السيد بيرمانيدر بود بالغ. إلا أنه لم يجلس ليتوجه

الجميع من فورهم إلى الطابق الأوسط حيث كانت الآنسة يونجمان قد أعدت مائدة الفطور، ليسمعوا هناك صوت "ساموفار"، الغلاية روسية الأصل التي تحتفظ بالشاي ساخنًا، وكانت هدية من القس تيبورتيوس وزوجته. وما إن جلس السيد بيرمانيدر، ورأى ما لذ وطاب فوق المائدة حتى قال: "إنكم في بحبوحة من العيش"، وكان قد اعتاد استخدام صيغة جمع المخاطب من حين لآخر، وبدا على وجهه أكثر أمارات البراءة. أما القنصل فقال: "سيد بيرمانيدر، إن هذه البيرة ليست من صنف الـ"هوفبروي"، إلا أنها على أية حال أفضل مذاقًا من تلك التي نصنعها محليًا". ثم قدم له كأسًا من نبيذ الـ"بورتو" البني اللون ذي الرغوة، الذي اعتاد هو نفسه تناوله أثناء الفطور، فقال السيد بيرمانيدر وهو يمضغ طعامه: "شكرًا لك، يا جاري"، ولم ينتبه إلى النظرة الحزينة التي رمقته به الآنسة يونجمان، بينما كان يحتسي نبيذ الـ"بورتو" ببعض التحفظ؛ مما حدا بالقنصلة أن تأمر بزجاجة من النبيذ الأحمر، ليبدو عليه انشراح أعظم على نحو ملفت للنظر، ليعاود تجاذب أطراف الحديث مع السيدة جريونليش. وكانت بطنه الكبيرة قد باعدت بينه وبين المائدة، كما جلس مباعدًا بين ساقيه على نحو كبير، مرتكزًا بيده السمينة البيضاء على مسند المقعد، وأخذ ينصت لحديث أنطونيا وردودها، وهو يميل برأسه الكبيرة ذات الشارب الشبيه بشوارب سبع البحر، وقد بدت على وجهه أمارات الانشراح ممتزجة ببعض التبرم، وعيناه تختلجان معبرتين عن حسن الطوية. أما أنطونيا فكانت تجهز له قطعًا من لحم مشوي مراعيةً آداب مائدة لم يألفها هو، معربةً في صرامة عن آرائها في شؤون الحياة، وقد استرجعت أيام إقامتها بميونيخ قائلة: "يا إلهي، سيد بيرمانيدر! ما أسرع

انقضاء الأيام الحلوة، إن هذا أمر يثير الشجن. ثم ألقت بالسكين والشوكة برهةً ناظرةً إلى سقف الغرفة متخذة سمات الجدة. وكانت تقوم من حين لآخر بمحاولات ساذجة مضحكة للتحدث بلهجة باڤاريا العامية. وسُمع طرقٌ على الباب ليدخل بعده أحد العاملين بالمكتب، حاملاً برقيةً للقنصل الذي أخذ يطالعها وهو يمس شاربه الطويل على مهله. ورغم اهتمامه الواضح بفحوى البرقية إلا أنه بادر ضيفه فسأله بلطف شديد: "كيف حال أعمالك، سيد بيرمانيدر؟" ثم قال للعامل: "حسنًا!" ليعود الرجل من حيث أتى. أما السيد بيرمانيدر فرد قائلاً: "آه، أيها الصديق" ثم نظر إلى القنصل نظرةً تدل على الحيرة، وقد انتفخت أوداجه أثناء ذلك وأرخى ذراعه الأخرى على مسند المقعد وهو يقول: "ليس لديَّ ما أقوله، فالحال بميونيخ على غير ما يرام". وكان يذكر اسم مدينة أسلافه بلفظ لا يمكن فهمه ولا يدرك إلا بالحدس.

"إن مدينة ميونيخ لا تشجع على العمل، فكل ما يعني أهلها هو الراحة واحتساء البيرة، فلا يلقون بالاً إلى البرقيات أثناء تناول الطعام. إن عاداتكم هنا لمختلفة بالفعل، وسوف أكون شاكرًا صنيعك! إن قدمت لي كأسًا آخرى.. إنه النصيب، وقد كان شريكي نوبه يؤثر الانتقال إلى نورنبرج، حيث البورصة، وروح المغامرة، إلا أنني لا أبرح ميونيخ، وهو أمرٌ غير طيب.. إنما.. المنافسة الغبية.. والتصدير، وهو أمر يبعث على الضحك.. وهو نفس الأمر كذلك حتى في روسيا".

ثم إذا به فجأة يسدد نظرةً خاطفة واضحة، ليقول: "جناب الرفيق، فلتنسَ ما قلته، فلقد وُفقنا في أعمالنا، فالشركة المساهمة لمصنع البيرة تحقق

أرباحًا تحت إدارة نيدرباور، فهل تعرف هذا؟ لقد كانت شركتنا صغيرة للغاية، فأصبحنا نقدم قروضًا للغير، وأصبح لدينا رصيد من السيولة النقدية بفائدة 4 ٪، مما أتاح لنا التوسع في البناء، وها نحن الآن نحقق أرباحًا مرتفعة، كما زادت مبيعاتنا، وأصبح لنا ربح سنوي جيد".

انتهى السيد بيرمانيدر من حديثه، واعتذر عن عدم قبوله لفافة تبغ أو سيجار، استأذن ليخرج من جيبه غليونًا برأس طويل من العاج، ومن خلال دخان الغليون أخذ يناقش القنصل في أحوال التجارة، وسرعان ما انتقل إلى السياسة متناولاً علاقة باڤاريا بروسيا وعلاقة الملك ماكس بالإمبراطور نابليون الثالث. وكان السيد بيرمانيدر يمزج حديثه بعبارات تستعصي على الفهم، فإن أمسك عن الكلام أطلق زفرات لا علاقة لها بما يقول. وكانت الدهشة تأخذ بالآنسة يونجمان فتوقف مضغ طعامها لتطالع الضيف متعجبةً، متأملةً إياه بعينيها السمراوين المتألقتين وهي تمسك، كعادتها، بالسكين والشوكة، على نحو متعامد مع المائدة، لتحركها هنا وهناك؛ فهي لم تألف سماع مثل هذه الألفاظ في هذا المكان الذي لم يعبقه دخان غليون مثل هذا، كما كان عدم مراعاة آداب اللياقة ممزوجًا بالضيق والارتياح أمرًا غريبًا عليها. أما القنصلة فقد تحملت بود، دون فهم، سماع رد الضيف على سؤالها عما يعانيه أهل مذهبه الإنجيلي، قليلو العدد، من أتباع الكنيسة البابوية. أما أنطونيا فبدا عليها الشرود وتملكها التوتر أثناء تناول الطعام. إلا أن القنصل كان مستمتعًا بذلك إلى أقصى حد، بل اضطُر والدته إلى طلب زجاجة أخرى من النبيذ الأحمر، كما ألح في دعوة السيد بيرمانيدر لزيارته بداره بالشارع العريض، معربًا عن سعادة قرينته البالغة

أيضًا بهذه الزيارة.

بعد مضي ثلاث ساعات، أعلن تاجر حشيشة الدينار عن عزمه على الانصراف، فنفض رماد الغليون، وشرب كأسه وهو يتمتم بعبارةٍ ما عن "الصيلب". هب واقفًا ليقول: "لقد تشرفتُ بلقائك سيدتي الجليلة، أستودعك الرب، سيدة جريونليش، أستودعك الرب سيد بودنبروك". أما إيدا يونجمان فأصابها خطاب الرجل بالتوتر وامتقع وجهها، وكان قبل أن يغادر المكان قد حياها: "نهارك سعيد، آنستي، نهارك سعيد".

وعندما أزمع السيد بيرمانيدر العودة إلى الفندق المتواضع الذي يقيم به، على نهر ترافه، إذا بالقنصلة تبادل ابنتها النظرات، لتمضي السيدة الكبيرة نحو السيد بيرمانيدر لتخاطبه: "إن صديقة ابنتي وزوجها بميونيخ لم يحلا ضيفين علينا، وقد لا تلوح فرصة قريبة لرد واجب استضافتهما، فلعلك يا سيدي تولينا مسرة إقامتك عندنا أثناء وجودك بمدينتنا. وسوف يجد ذلك منا الترحيب الحار". فلما مدت يدها نحوه إذا به يصافحها موافقًا بلا تردد، ملبيًا الدعوة بنفس القدر الذي لبى به الدعوة إلى الغداء، ثم انحنى ليقبل يدي السيدتين، وقد اكتسى وجهه أثناء ذلك بتعبير غريب، ثم جاء بقبعته وعصاه من غرفة المنظر الطبيعي، مكررًا وعده بإحضار متاعه في الحال، وأنه سيعود في الساعة الرابعة بعد إنجاز أعماله، ونزل الدرج بصحبة القنصل، ثم التفت عند الباب وهو يهز رأسه مغالبًا سعادته ليقول: "معذرةً، جناب الرفيق، فإن السيدة أختك لفتاةٌ رقيقة، رعاها الرب" ثم مضى إلى حال سبيله وهو يهز رأسه.

أما القنصل، فقد اعتقد أن عليه العودة من جديد إلى الطابق العلوي

ليطمئن على السيدتين، فيما كانت إيدا يونجمان تهرول هنا وهناك وهي تحمل بياضات السرير إلى غرفة الممر. وأما القنصلة، فكانت ما تزال بمكانها على مائدة الفطور، مسددةً نظرها إلى نقطةٍ ما بسقف الغرفة، وهي تنقر بأصابعها البيضاء فوق غطاء المائدة نقرًا هينًا. وأما أنطونيا، فكانت قابعة عند النافذة، عاقدةً ذراعيها فوق صدرها، لا تتلفت يمينًا أو يسارًا، بل شاخصة البصر، وقد بدا عليها أمارات الاعتزاز بالنفس والحزم، بعد أن خيم السكون على المكان؛ فيما كان توماس واقفًا عند الباب وقد أخرج لفافة تبغ من علبة مزدانة بعربة تجرها ثلاثة خيول، وقد أخذ يضحك حتى اهتز كتفاه، وتساءل: "حسنًا؟" فما كان من القنصلة إلا أن عقبت: "إنه رجلٌ ظريف".

فقال القنصل: "وهذا ما أراه" ثم ألقى إلى أنطونيا بنظرةٍ خاطفة مفعمة بمزيج من التعقل والمرح، كأنه يسألها بأدب جم عما إذا كانت تشاركه الرأي، فإذا بها تلوذ بالصمت، وتشخص ببصرها بحدة بنظرة جدية.

وأردفت القنصلة، وقد بدا عليها بعض الكدر: "لكني أعتقد أنه كان عليه أن يقلل من "عبارات اللعنة"، ولو أنني قد استوعبت ما قاله، فإنه كان يكثر من التلفظ بذلك".

"دعي عنك ذلك، يا والدتي، فهو حسن النية".

"كما أنه أيضًا يفرط في إبداء مسلكه المتواضع، أليس كذلك؟"

فقال القنصل: "وماذا كنت تتوقعين من رجل من جنوب ألمانيا"، ثم زفر دخان لفافته على مهل، وهو يبتسم لأمه، مختلسًا النظر إلى أنطونيا، إلا أن القنصلة لم تلحظ ذلك.

"إنك ستأتي إلينا اليوم مع جيردا لتناول الطعام، أليس كذلك، فاجعلني

أهنأ بذلك".

"على الرحب والسعة، يا أمي. وأنا أتوقع متعة عظيمة بزيارتنا هذه في الحق، أليس كذلك، فزيارتنا تختلف إلى حدٍ ما عن زيارات رجال الدين".

"لكل شخص طريقته، توم".

"إذن اتفقنا، ولأمضِ أنا الآن".

ثم أردف وهو يمسك بمقبض الباب: "على أية حال، فقد تركتِ لديه انطباعًا مؤثرًا.. طوني! نعم، بلا شك، أتعلمين ما قاله عنكِ قبل مغادرته البيت؟ لقد قال: "إنكِ فتاة رقيقة، على حد قوله".

فالتفتت إليه السيدة جريونليش مخاطبةً إياه بنبرة عالية: "حسنًا، توم، إنك تردد على مسامعي ما لا أمنعك من قوله، إلا أني لا أدري إن كان من آداب اللياقة أن تخبرني بما قاله، وأنا أود أن أفصح لك عما أفهمه، فقيمة الأشياء في هذه الحياة لا تُقدر بالقول أو الوصف، بل يتوقف الأمر على الإحساس بذلك في أعماق القلب وإدراكه، فماذا عن سخريتك من أسلوب السيد بيرمانيدر في التعبير عن نفسه، وماذا عن رأيك بأنه أضحوكة".

"مَن؟! لكنه لم يخطر ببالي مطلقًا، فلمَ أوليت هذا الأمر مثل هذا الاهتمام".

أما القنصلة/ فقالت: "حسنًا"، ناظرة إلى ابنها نظرة جادة، راجية، كأنها تقول: "ارفع يدك عنها".

ليقول هو: "لا تغضبي! فلم أقصد استفزازك، والآن/ سوف أمضي لآمر أحد عمال المخازن بإحضار الحقيبة.. إلى اللقاء".

الفصل الخامس

هكذا إذن انتقل السيد بيرمايندر للإقامة في منجشتراسه، وفي اليوم التالي لبى دعوة توماس بودنبروك وقرينته إلى الطعام، وفي اليوم الثالث، أي يوم الخميس، تعرف إلى يوستوس كروجر وزوجته وسيدات بودنبروك بالشارع العريض، اللائي اعتبرنه كائنًا غريبًا للغاية. أما سيسيمي فايشبروت فقد اتسم مسلكها نحوه ببعض الحدة، كما تعرف إلى كلوتيلده المسكينة والصغيرة أريكا، وأهدى لهما علبة حلوى، أي: بعض البونبون.. وكان يتمتع بنزعةٍ إلى الراحة الدائمة، أما زفراته المتململة فلم تكن سوى تعبير عن راحة مفرطة، وهو يدخن الغليون متحدثًا بلغةٍ غريبة، وقدرته الفائقة على الجلوس بمكانه مرتاحًا بلا حراك بعد تناوله الطعام وهو يدخن ويشرب ويثرثر. وبرغم أنه أضفى على أسلوب الحياة الرتيب بالبيت القديم لمسةً جديدة تمامًا وغير مألوفة إلا أنه لم يؤثر في التقاليد الراسخة هناك. وقد حرص على المشاركة في صلاة الصبح والمساء واستأذن لحضور درس الأحد التي تعقده القنصلة، بل قام بزيارة خاطفة لندوة أورشليم بالصالة، ليقدم

نفسه إلى السيدات، وما إن شرعت ليا جرهاردت في التلاوة حتى انسحب ذاهلاً.

وسرعان ما اشتهر بين أهل المدينة، وأصبح أفراد العائلات الراقية يتناولون- بفضول- سيرة ضيف آل بودنبروك الباڤاري، إلا أنه لم يكن له علاقه بالعائلات أو البورصة. ولما كان فصل الصيف قد حل ليتأهب أغلب أهل المدينة للذهاب إلى المصيف، فقد آثر القنصل ألا يقدم السيد بيرمايندر إلى هذا المجتمع.

إلا أنه حرص على إكرام ضيفه والاهتمام به، وكان- برغم ما يقتضيه عمله وانشغاله بشؤون المدينة العامة- حريصًا على توفير وقت لاصطحابه إلى المدينة، لمشاهدة معالمها التي تعود إلى العصور الوسطى، ومنها الكنائس والبوابات والنافورات والسوق ومجلس الشيوخ وجمعية البحارة، كما حرص على الترفيه عنه بشتى السبل، وقدمه إلى أصدقائه الحميميين بالبورصة. فلما شاءت القنصلة الإعراب عن امتنانها لما يبذله، رد بلا اكتراث: "آه، يا أمي"، فلم ترد القنصلة ولم تحرك ساكنًا، بل ابتسمت ناظرةً إليه بطرف عينيها الصافيتين، لتتحول إلى سؤال عن قضية أخرى. وقد كان مسلكها نحو السيد بيرمايندر يتسم بالود المعتدل على خلاف مسلك ابنتها.

وقد شارك تاجر حشيشة الدينار مرتين في "يوم الأنجال". وكان قد مر أسبوعٌ ونصف الأسبوع على إقامته، رغم تصريحه غير المباشر في اليوم الثالث أو الرابع من وصوله أنه قد فرغ من عمله المتصل بمصنع البيرة. وفي سهرات الخميس، كانت السيدة جريونليش تلقى نظراتٍ خاطفةً متوجسة على أفراد العائلة، ومن بينهم خالها يوستوس وبنات عمها بودنبروك أو

توماس، لتعرف أثر ما يقوله السيد بيرمايند وما يفعله. وفيما عدا ذلك، فإنها كانت تظل بلا حراك ملتزمةً الصمت، وقد امتقع وجهها، أو كانت تغادر المكان.

وذات ليلة هادئة من ليالى شهر يونيو، كان النسيم العليل يداعب الستائر الخضراء المسدلة على النافذتين المشرعتين بغرفة نوم السيدة جريونليش بالطابق الثاني، فيما انبعثت أشعة أنوار خافتة من فتائل تحترق سابحةً فوق زيتٍ يطفو فوق ماءٍ في إحدى المشكاوات، فيتأثر ضوؤها وينتشر بخارها في أرجاء الغرفة الرحبة، وفوق مقاعدها المبطنة بالكتان رمادي اللون. هناك كانت ترقد السيدة جريونليش بفراشها، وقد غاصت رأسها الرشيقة في وسائد بحوافٍ عريضة من الدانتيل، وقد عقدت ذراعيها فوق الغطاء، بعد أن جافى النوم عينيها، لتتابع مسهدةً تهافتًا مُلحًّا لبعوضة كبيرة ببطن طويلة على المشكاة المنيرة، بينما كان جناحاها يخفقان ملايين المرات بلا صوت.

وعلى حائطٍ بجانب الفراش، وبين لوحتين عتيقتين من النحاس المحفور ومناظر للمدينة من عصر القرون الوسطى، كانت معلقةً لوحة كتب فيها حكمة تقول: "دع للرب أمرك" فهل رأت في هذه الحكمة مواساة لها، وهي ترقد مؤرقة الجفن لتتخذ قرارًا يحسم مصيرها، وحيدةً دون أن ينصحها أحد بالقبول أو الرفض. كان السكون قد شمل المكان إلى حد أنه لم يُسمع هناك سوى دقات ساعة الحائط، أو زفرات الآنسة يونجمان، من حينٍ لآخر بالغرفة المجاورة التي لا يفصلها عن غرفة نوم أنطونيا سوى بعض الستائر. وهناك كان النور ساطعًا، حيث كانت البروسية المخلصة تقبع معتدلة القامة، وقد

أخذت في ضوء مصباح معلق أعلى المنضدة، في رتق جوارب الصغيرة أريكا التي كانت أنفاسها تتهدج؛ فقد كانت الطفلة تقيم في منجشتراسه أثناء عطلة الصيف لمدرسة سيسمي فايشبروت. واعتدلت السيدة جريونليش في فراشها وهي تتنهد مريحةً رأسها بين راحتيها، متسائلةً بنبرة هامسة: "إيدا، أما تزالين تواصلين رتق الجوارب؟" فوافاها صوت إيدا قائلةً: "نعم، نعم، طوني، فما عليكِ يا بنيتى إلا الخلودِ للنوم، ولتستسلمي للنوم لأنكِ ستستيقظين مبكرًا".

"حسنًا، إيدا، فلتوقظينى في السادسة من صباح الغد".

"لكنكِ يا بنيتى يكفيكِ الاستيقاظ في السادسة والنصف، فقد كلفنا العربة بالحضور في الثامنة، فلتواصلي نومك حتى تستيقظي نشطة".

"آه، أنا لم أغفل بعد".

"آه، طوني، ذلك لا يصح، إلا إن كنت تريدين أن تصابي بالإرهاق في شفارتاو. فلتتناولي سبع جرعات من الماء، وارقدي على جنبكِ الأيمن ولتعدي من واحدٍ إلى ألف".

"آه، إيدا، أرجوكِ فلتأتي إليَّ لبعض الوقت، فأنا مسهدة، هذا كل ما في الأمر. وانشغال بالي يسبب لي صداعًا، انظري، لقد ارتفعت حرارتي، كما أصابتني متاعب المعدة، أم إنني أعاني من فقر الدم، فعروق صدغيَّ منتفخة للغاية، يكاد نبضها يؤلمني، وقد بلغ ضغط الدم بها هذا الحد، وهو ما لا يستبعد رغم ذلك أن الدم لا يصل على نحو كاف إلى الرأس". فإذا بمقعد يتزحزح ليظهر بين ثنايا الستائر طيف إيدا يونجمان، ضخمة البنية، وقد ارتدت ثوبًا بني اللون، بسيطًا لا يساير العصر.

"طوني! ارتفاع بدرجة الحرارة، دعيني اختبر ذلك يا بنيتي، فعساكِ تحتاجين إلى بعض الكمادات". ثم تقدمت كالرجال بخطى واثقة إلى الكومودينو لتخرج منه منديلاً، لتغمره بماء في إناء وتعود إلى الفراش لتضعه بحرصٍ فوق جبين أنطونيا، وهي تضغط عليه عدة مرات.

"شكرًا لك، إيدا، أشعر الآن بالراحة.. آه، تعالي لترتاحي قليلاً على طرف الفراش، إيدا، أيتها العجوز الطيبة، فها أنا قد انشغل فكري بالغد، فما عساي فاعلة، وأنا أفكر في كل أمر". وجلست إيدا إلى جانبها، وأمسكت ثانيةً بكرة الرتق أسفل الجورب لتُعمل فيه إبرتها، ثم مالت برأسها بشعرها الأشيب الناعم لتتابع عملها بعينيها السمراوين المتألقتين دومًا، وقالت: "هل تعتقدين أنه سيتقدم غدًا؟"

"يقينًا.. إيدا، بلا شك، فهو لن يضيع هذه الفرصة، فكيف كان من أمر كلارا؟ وقد مرت بتجربة كهذه.. لقد كان بوسعي تفاديه، وكان بمقدوري الانشغال بالآخرين فلا أقربه مني، لكن الوقت أزف، وهو سيرحل بعد غد، على حد قوله، ولا يمكنه أن يمد إقامته أكثر من ذلك، فإن لم يحسم أمره غدًا، فسيكون عليَّ اتخاذ القرار، فما عساي أجيبه إن هو سألني. لكنك لم تتزوجي بعد، وليست لديكِ مثل هذه التجربة؛ إلا أنكِ امرأةٌ صادقة، رشيدة، بعد أن بلغتِ الثانية والأربعين، أليس بوسعك أن تسدي إليَّ نصيحة، فأنا بحاجة إلى رأيك". تركت إيدا يونجمان الجورب ليسقط في حِجرها، لتقول: "نعم، نعم، طوني، فقد تدبرت هذا الأمر طويلاً، لكني لا أجد ما أنصحك به، وقد آن أوان أن يطلب يدكِ ويفاتح والدتك قبل رحيله، وقد كان عليكِ أن تجعليه يرحل قبل الآن، إن كانت لديك نية الرفض".

"إنتِ على حق، إيدا، لكن لم يكن بوسعي فعل ذلك، لكن عليَّ حسم الأمر في النهاية، غير أنني أعتقد أني ما تزال لديَّ القدرة على التراجع، وأن الفرصة ما تزال سانحةً لذلك، وهذا هو ما يؤرقني".

"فهل تستطيعين احتماله.. طوني؟ صارحيني!"

"نعم، إيدا، سوف أكذب إن قلت غير ذلك، إنه لا يتمتع بقدرٍ ما من الجمال، إلا أن الجمال ليس كل شيء في الحياة، وهو رجل طيب في حقيقة الأمر، كما أنه حسن النية.. صدقيني، فإذا ما قارنته بجريونليش.. يا إلهي! ذلك الذي كان يزعم دومًا أنه جاد مجتهد، ليخفي بخبث سوء طويته؛ أما بيرمايندر فهو مختلف عنه، أترين ذلك؟ وما أريد قوله إنه ليس لديه الطموح لفعل ذلك، ويرى الحياة أكثر يسرًا من ذلك، وهو ما يعتبر عيبًا من ناحية أخرى، وأنا موقنة أنه لن يصير مليونيرًا فهو قانع بما قُدر له، كما يردد أهل الجنوب، هذا كل ما عندي، إيدا، وهذه هي المسألة. وقد أحببته هناك بميونيخ، وهو يعيش مثل غيره ويسلك مسلك من حوله، من يتحدثون لغته، فهناك رأيته طريفًا، رقيقًا، مريحًا. وقد أدركت في الحال أنه يبادلني الشعور نفسه، ولعل ما شجعه على ذلك ظنه أني ثرية أو أكثر ثراءً مما أنا عليه. وكما تعلمين فإن أمي لا تستطيع منحي الكثير، إلا أنني أظن أن ذلك لن يغير من رأيه، فهو لا يسعى لجمع المال. ولأكتفِ بهذا، فهذا كل ما شئت البوح به.. إيدا".

"طوني.. إن أحوالك بميونيخ تختلف عن أحوالنا هنا".

"أحوالنا هنا مختلفة.. إيدا، عساكِ فهمتِ ما أقصد، فكل شيء هنا يختلف عن عالمه الذي يعيش فيه. فكل الأمور هنا أكثر حزمًا وطموحًا ورقيًّا، هنا..

يشعرني مسلكه بالخجل حقًا، أنا أصارحك بهذا، إيدا، وقد صادقته، حقًّا أنا أخجل منه، وربما كنت سيئة الطوية، أترين، وقد تكرر منه أنه قال لي ببساطة: البطة بدلاً من البتة، وهذه هي عادة أهل الجنوب، إيدا. وهو ما يقع فيه أكثرهم تعليمًا إن تحدث على راحته، وهم لا يضيرهم ذلك، ولا يلفت نظر أحد منهم، أما هنا.. فوالدتي تحملق فيه، ويرفع توم جاجبه، أما خالي يوستوس فقد تمادى إلى حد السخرية منه، وهو ما اعتاده آل كروجر دائمًا، بينما تنظر فيفي بودنبروك إلى أمها أو فريدريكه أو هنرييت، نظرة ذات مغزى ليعتريني أنا الخجل الشديد، مما يدفعني إلى مغادرة المكان، وأنا لا أستطيع تصوره زوجًا".

"ما هذا الذي تقولين، طوني؟ فسوف تعيشين معه في ميونيخ".

"أصبتِ، إيدا، لكن ستكون هناك خطوبة وسنقيم حفلاً لذلك، حسنًا، فكيف لي، بربك، مداراة خجلي أمام العائلة وآل كيستنماكر ومولندورف وغيرهم، لتواضع مستواه الاجتماعي.. لقد كان جريونليش أكثر منه رقيًا، إلا أنه كان في مقابل ذلك سيء الطوية، كما كان يردد السيد شتنجل دائمًا على ما يقال.. إيدا، إنني أشعر بدوار.. بللي الكمامة.. أرجوكِ" ثم استطردت قائلة: "قُضي الأمر.. لا مفر" ثم تنهدت إثر وضع الكمامة الباردة فوق جبهتها لتقول: "فأهم شيء أنني سأحصل ثانيةً على لقب زوجة، ولن أظل امرأة مطلقة، آه.. إيدا، إن ذكرى الأيام الخوالي تطاردني، حين جاء جريونليش هنا لأول مرة، وما أتاه من أفعال، كانت فاضحة، إيدا"؛ ثم استدركت لتقول: "ناهيكِ عما حدث في ترافيمنده مع آل شفارتسكوبف"، ثم نظرت إلى ما أنجزته من رتق لجورب أريكا بعيون حالمة لتستطرد قائلة: "وبعد ذلك

جاءت الخطوبة، ثم الانتقال إلى بيتنا في ايمزبيتل. لقد كان نبيلاً، إيدا، وحين أتذكر ثياب النوم أدرك أنني لن أرتدي مثلها لبيرمايندر، فالزمن يرغمك على الرضا بالقليل، أتعرفين هذا؟ ثم كان ما جرى مع الدكتور كلاسن، وابنتي، والمصرفي كيسهاير لنصل إلى نهاية المطاف. كانت نهاية مروعة لا يمكنك تصورها، فيا لَتلك المحن الرهيبة التي مررت بها في حياتي. إلا أن بيرمايندر لن يقترف مثل هذ الأفعال المرزية، فهذا آخر ما أتوقعه منه. ولسوف نعتمد على عمله بالتجارة، وأظن أنه يجني أرباحًا وفيرة من عمله مع نويه بمصنع البيرة. ولسوف تري بعينيكِ إيدا، أني سأجعله، بعد زواجنا، أكثر طموحًا، ليرفع من شأننا، ولسوف يجتهد لنهنأ جميعًا، لأنه في نهاية الأمر سوف يلتزم بذلك أمام آل بودنبروك". ثم عقدت يديها خلف رأسها لترنو إلى سقف الحجرة، وهي تقول: "ها قد مرت عشر سنوات كاملة على زواجي بجريونليش، عشر سنوات، ليصبح حالي هكذا، ويكون عليَّ الموافقة على زواج جديد. أتدرين الفرق؟ إن الأمر آنذاك كان يهمهم، مما جعلهم يلحون عليَّ ويعذبونني، أما الآن فهم يلوذون بالصمت مطمئنين إلى موافقتي. أتدرين إيدا، إن خطوبتي لألويس، هكذا أذكر اسمه الآن مجردًا من لقب عائلته، فلابد أن ينتهى الأمر إلى ذلك، وليس في ذلك ما يدخل السعادة إلى قلبي أو يسرني، فقبولى لهذا الزواج الثاني ليس إلا لإصلاح الزواج الأول ببساطة، وهو بمثابة إنقاذ اسم العائلة، وهو الأمر الذي يهم أمي وتوم".

"ما هذا الذي تقولين، طوني! إن كان ذلك أمرًا لا تريدينه ولا يوفر لكِ السعادة".

"إيدا، لقد عركتني الحياة، فلم أعد فتاةً حمقاء، بل أصبحت أنظر إلى

الأمور بوعي، أما أمي.. فقد لا تلحف في إلحاحها، فهي تتغاضى عن الأمور الشائكة لتقول: "حسنًا". وأما توم، فهو الذي يريد ذلك، وأنا أدرى الناس به! أتدرين، كيف يفكر توم؟ إنه يرضى بأي أحد! أي أحد، حتى لو لم يتمتع بآداب اللياقة، فلا يهمه في هذا الشأن أن يكون هذا الارتباط الجديد زواجًا ناجحًا، بل هو في نظره مجرد إصلاح لخطأ سابق. فما إن جاءنا بيرمايندر حتى بادر توم بالسؤال عن سير أعماله، فلما اطمأن لنتيجة ذلك، كان قد حسم الأمر. صدقيني فتوم رجلٌ سياسي يعرف ما يريد. ألم يكن هو الذي أطاح بكريستيان، وإن كان هذا التعبير حادًّا، ولماذا، لأنه كان يسبب حرجًا للشركة وللعائلة. وقد جاء دوري لأنفذ مشئيته، كما يعتقد هو.. إيدا، فالمسألة لا تتعلق بقول أو فعل، لكن لأنني فقط امرأة مطلقة، وقد شاء وضع نهاية له، وهو محقٌّ في ذلك. وبرغم ذلك فأنا أحبه، ويشهد الرب على ذلك، وهو شعور آمل أن يبادلني إياه. وفي النهاية، فأنا أيضًا كنت أتوق للعودة إلى حياة طبيعية، بعد أن سئمت الحياة بكنف أمي، وإن كان ما أفعله إثمًا، فليعاقبني الرب. فأنا لم أتم الثلاثين بعد، وما أزال أشعر أني شابة، ولكلٍّ نصيبه المقدر في هذه الحياة. ألم يدب الشيب في شعركِ وأنتِ في الثلاثين، وهو ما جنته عليكِ أسرتك وخالك برال الذي مات كمدًا".

هكذا ظلت تفكر فيما آل إليه حالها، لتردد من حينٍ لآخر: "قُضي الأمر، لا مفر"، لتستسلم بعد ذلك لنوم عميق هادئ لخمس ساعات.

الفصل السَّـادس

كان الضباب يخيم على سماء المدينة عندما كان السيد لونجيه، صاحب عربات الأجرة في يوهانيسشتراسه، قد جاء بنفسه في الساعة الثامنة بعربةٍ كبيرة مسقوفة ومكشوفة الجوانب إلى منجشتراسه، ليقول هناك: "خلال ساعة سوف تبزغ الشمس"، مما هدأ من روع الجميع. وكانت القنصلة وأنطوني والسيد بيرمانيدر وأريكا وإيدا يونجمان قد تناولوا طعام الفطور معًا، ليخرج كلٌّ منهم تباعًا إلى الممر الكبير استعدادًا للرحيل، منتظرين وصول جيردا وتوم. وبرغم أن السيدة جريونليش لم تأخذ قسطًا وافرًا من الراحة إلا أنها بدت رائعة الجمال، وقد ارتدت ثوبًا بلون الزبد ورباطة عنق من الساتان. ويبدو أنها قد تخلصت من أرق ترددها ومخاوفها بالأمس، فقد اكتسى وجهها بأمارات السكينة والرصانة أثناء ما كانت تجاذب ضيفها أطراف الحديث، وهي تزر بهدوء قفازها الخفيف، بعد أن استعادت اعتزازها بنفسها الذي كانت تمتاز به فيما سبق، وغمرها شعورٌ بأهمية شخصها وأهمية القرار الذي ينتظره الآخرون، ووعيها بأنه قد آن الآوان لاتخاذ قرار

مؤثر في تاريخ عائلتها؛ وهو ما جعل قلبها يخفق عاليًا. وفي الليلة السابقة كانت قد رأت بمنامها ذلك الموقع الذي ستدون به في مذكرات العائلة تاريخ وحدث خطوبتها، وهو الحدث الذي سيمحو من تلك المذكرات الوصمة وآثارها، فأصبحت الآن متلهفةً على لحظة ظهور توم لتومئ له برأسها إيماءةً مفعمة بالحيوية. ووصل توم وقرينته بعد الموعد بقليل، فلم تكن القنصلة تألف الانتهاء من زينتها في هذا الوقت المبكر. أما القنصل فبدا بهيًا متألقًا، في حلته ذات اللون البني الفاتح، وذات الخطوط المتقاطعة، وقد بانت من ياقتها العريضة صدريته الصيفية، فأشرقت عيناه حين رأى وجه أنطونيا يعلوه وقارٌ لا يوصف. إلا أن جيردا بدت بجمالها الغامض الذابل على النقيض من أخت زوجها المتألقة، فلم تُبد هذا الشعور بالابتهاج الذي يغمر من يُقبل على رحلة أو التمتع بيوم عطلة؛ فربما لم تنل قسطًا وافرًا من النوم. أما لون البنفسج العميق الطاغي على غيره من ألوان ثوبها، فقد جعل لون بشرتها أكثر بياضًا مما هي وأقل تألقًا، وإن اتسق على نحوٍ غريب مع لون شعرها الغزير الأحمر القاني. وأما عيناها السمراوان المتقاربتان فقد ازدادتا عمقًا، وصار لونهما أكثر قتامةً، وقد أحاطت بهما هالات زرقاء. ثم مدت جبينها نحو حماتهما منتظرةً أن تقبلها، ومدت يدها إلى السيد بيرمانيدر لتصافحه باستهانة. وما إن رأتها السيدة جريونليش حتى ضربت كفًا بكف، وصاحت: "جيردا، يا إلهي، ها أنتِ تزدادين جمالاً!" فما كان منها إلا أن قابلت هذه المجاملة بالتبسم، فقد كانت تمقت مثل تلك الخطط؛ فهي غالبًا كانت تفضل البقاء بالبيت لتسدل ستائره على نورٍ خافت تفاديًا لأشعة الشمس والتراب ورؤية الأهالي مرتدين ملابس الأعياد. كما كانت لا تطيق

رائحة القهوة والبيرة ودخان التبغ، ولم تكره في حياتها شيئًا قدر كراهيتها للتوتر والقلق. فلما أبدى توماس موافقته على نزهة شفارتاو، و"ريزه بوش"، ليتعرف ضيفه ابن ميونيخ على ضواحي المدينة العتيقة، قالت هي له عرضًا: "صديقي العزيز، عساك تعلم كيف خلقني ربي، فقد كتب لي الراحة والحياة الهادئة.. ولذا فأنا غير مهيأة للاستنفار وتبدل الأحوال. فلتغفروا لي ذلك". فهي لم تكن لتتزوجه لو لم يوافقها في ذلك.

"أجل، جيردا، فأنتِ على حق بلا شك، فالتسرّي بمثل هذه الأمور هو محض خيال، لكننا نشاركهم في ذلك حتى لا نبدو كالشريك المخالف، ولا بد أن نراعي مثل هذه المجاملات، أليس كذلك؟ وإلا بدونا منعزلين تعساء لنفقد اهتمام الناس. وهناك أمرٌ آخر، عزيزتي جيردا.. فلدينا جميعًا الدافع للاحتفاء قليلاً بالسيد بيرمانيدر، وأنا موقنٌ أنك تقدّرين هذا الموقف، فهناك شيء سوف يحدث، وسوف نشعر بالأسى، الأسى التام، إن لم يحدث هذا".

"إلا أنني، يا صديقي العزيز، لا أدرك مدى أهمية وجودي، ولكن فليكن لك ما أردت، ولنستمتع بهذا، وسوف أكون شاكرةً لك".

فلما خرجا إلى الطريق كانت أشعة الشمس تنسل بالفعل بين ضباب الصباح، بينما كانت أجراس كنيسة سانت ماريا تدق كعادتها أيام الأحد، فيما كانت زقزقة العصافير تملأ الجو. ورفع السائس قبعته لترد القنصلة تحيته بإيماءة، وقالت: "طاب صباحك، يا عزيزي". وكانت قد فعلت ذلك بدافع أنها ربة الأسرة، وهو أمر كان يسبب اضطرابًا ما لتوماس، ثم أردفت القنصلة: "فلنصعد إلى العربة أيها الأعزاء. وبرغم أن هذا وقت صلاة

الصبح، إلا أننا سننطلق إلى الطبيعة لنسبّح بحمد الرب هناك، أليس كذلك يا سيد بيرمانيدر؟"

"أجل، يا جناب القنصلة". ثم ارتقوا الواحد تلو الآخر درجتين من الصفيح ليدخلوا من خلال باب خلفي ضيق إلى العربة التي تتسع لعشرة ركاب، ليرتاحوا فوق وسائد ذات خطوط زرقاء وبيضاء، وضعت خصيصًا من أجل السيد بيرمانيدر. وأُغلق باب العربة ثم طقطق السيد لونجيه بلسانه، وهو يصيح مستحثًا جياده على الانطلاق، فمضت الخيول السمراء القوية بالعربة لتهبط منجشتراسه، بحذاء ترافه، وتمر ببوابة هولشتاين لتنعطف يمينًا إلى طريق شفارتاو الملكي، بين حقول ومراعٍ وأشجار وبيوت ريفية، فيما أصوات طيور القنابر ترتفع لتبحث أنظارهم عنها بين ثنايا ضباب مشوب بالزرقة، وقد أخذ يعلو متلاشيًا. أما توماس، فراح يدخن متأملاً حقول الحبوب، وهو يلفت نظر السيد بيرمانيدر إليها. وأما تاجر حشيشة الدينار، فقد غمرته روحُ شابة فأمال قليلاً قبعته المزدانة بلحية التيس، وأخذ يعمل على توازن عصاه ذات المقبض العاجى الغريب فوق راحة يده العريضة، بل فوق شفته العليا، رغم فشله الدائم في ذلك، إلا أن أريكا الصغيرة استقبلت ذلك باستحسان كبير، وأخذ يردد مكررًا: "لن نبلغ قمة جبل تسوجشبيتسه، إلا أننا سنقترب منها لنحس هناك بالدفء، ونعيش بعض المغامرات، سيدة جريونليش؟"

ليبدأ بعد ذلك في الحديث بحماس عن متسلقي الجبال، وهم يحملون حقائبهم على ظهورهم، ومطارق الجليد بأيديهم، فتبدي القنصلة إعجابها بما يرويه. ثم أعرب عن أسفه لغياب كريستيان الذي عرف عنه أنه رجل ذو

روح مرحة. ليرد القنصل: "قد يكون ذلك أحيانًا إلا أنه لا يبارَى في هذا المجال، حقًّا" ثم صاح منشرحًا: "سيد بيرمانيدر! سوف نتناول الكابوريا وجمبري بحر البلطيق، وقد أكلت ذلك عدة مرات من يدي أمي، إلا أن صاحبنا ديكمان، صاحب مطعم "ريزة بوش" لديه منها أنواع رائعة، كما أنه يقدم أيضًا جوز الزنجبيل الذي اشتهرت به هذه الناحية. فإن لم تكن سُمعته قد وصلت إليكم عند نهر إيزار بعد، فسوف تتعرفون عليه. وأوقفت السيدة جريونليش العربة مرتين أو ثلاثًا لتقطف من الطريق بعضًا من زهر الخشخاش، وبعض أزهار الحبوب. وفي كل مرة كان السيد بيرمانيدر يعرض عليها مساعدته بإلحاحٍ شديد، إلا أنه كان يمسك عن ذلك لخوفه من النزول من العربة والصعود إليها. أما أريكا فكانت تسعد برؤية أي غُراب. وأما إيدا يونجمان التي اعتادت- حتى في أفضل حالات الجو- على حمل مظلة، وارتدت كعادتها معطفًا طويلاً مفتوحًا واقيًا من المطر، فقد كانت تشارك أريكا- كمربية أصيلة للأطفال- لا فرحتها الظاهرية فحسب، بل أيضًا تحس بمشاعرها الطفولية نفسها وهي تضحك مقهقهةً بلا خجل، حتى إن جيردا التي لم تر إيدا قد أفنت عمرها في خدمة العائلة، راحت تنظر إليها من حين لآخر بدهشة وبرود. وما إن اقتربوا من محيط أولدن بورج حتى ظهرت أشجار الزان، لتخترق العربة هذه المنطقة مجتازةً ميدان السوق بالنافورة القائمة بوسطه، لتصل إلى الخلاء ثانيةً، وتعبر جسر جدول النهر، لتتوقف في نهاية الأمر أمام مطعم "ريزة بوش" ذي الطابق الواحد، مشرفًا على ميدان فسيح كسا العشب أجزاءً منه، وتخللته ممرات رمل وأحواض زراعية. وعلى الناحية المقابلة ارتفعت مدرجات غابة

يربط بينها درج مرصوف على نحو بدائي، مكونًا من جذوع أشجار ناتئة وأحجار بارزة، وقد اصطفت فوق هذه المدرجات بين الأشجار موائد بيضاء اللون وأرائك ومقاعد. ولم يكن آل بودنبروك أول الزائرين، فبغض النظر عن النادل بسترته المشبعة بالدهون، كانت هناك فتيات بدينات يهرولن رائحاتٍ غاديات بالميدان، وقد حملن الطعام البارد والمشروبات المنعشة والحليب والبيرة إلى موائد المدرجات، التي التفت حولها عائلات بصحبة أبنائها، وإن كانوا قد جلسوا متناثرين. وهرول السيد ديكمان صاحب المطعم، وقد غطى رأسه بقبعة من الغزل صفراء اللون، وقد شمر عن ساعديه ليعاون ضيوفه في مغادرة العربة. وبعد أن ابتعد لونجيه بعربته بادرت القنصلة: "سنقوم أولاً بجولة على الأقدام أيها الرجل الطيب، لنعود لتناول الفطور بعد ساعة أو ساعة ونصف، هناك من فضلك، بالمدرج الثاني" فأضاف القنصل إلى ذلك: "فلتبذل قصارى جهدك، ديكمان، ففي صحبتنا ضيفٌ نريد تدليله". فانبرى السيد بيرمانيدر معارضًا: "كلاً.. لستُ على شيء من ذلك، فقط شيء من البيرة والجبن فقط". إلا أن ديكمان لم يفهم ما قيل، فانطلق يعدد ما لديه في سلاسة: "لدينا كل ما يشتهي جناب القنصل، كابوريا، جمبري، شرائح لحم بارد مختلفة، أنواع شتى من الجبن، ثعبان بحر مدخن، حوت سليمان مدخن، وسيمون فيميه".

"حسنًا، ديكمان، فلتفعل ذلك، ولتقدم لنا حينئذ ستة أكواب من الحليب وقدحًا من بيرة "سيدل"، إن لم تخنّي الذاكرة، سيد بيرمانيدر".

"إذن، قدح واحد من البيرة، وستة أكواب من الحليب، فهل يفضل جناب القنصل الحليب بالسكر أما حليبًا بالزبد، ولكن ذلك بعد ساعة". فلما

عبروا الميدان قال توماس: "فلنزُر أولاً النبع، سيد بيرمانيدر، أي نبع: (آو)، وهو جدول تشرف عليه شفارتساو، وكان هناك موقع مدينتنا في العصور الوسطى الغابرة، قبل أن تحترق لتُشيد مرةً أخرى على ضفة نهر ترافه. إلا أن اسم الجدول ما زال يذكرنا بأحداث مؤلمة، وقد كنا في طفولتنا نلهو بأن يقرص أحدنا زميله بذراعه متسائلاً: "ما هو اسم الجدول الواقع بالقرب من شفارتاو، فيصرخ ذاك ألمًا مرددًا رغمًا عنه (آو) وهو نفس اسم الجدول". ثم أمسك توماس عن الكلام، ليتوقف على بعد عشر خطواتٍ من الطريق الصاعد، ويقول: "ها هم هناك.. لقد سبقونا، آل مولندورروف وهاجنشتروم". هناك بالمدرج الثالث، بشرفة يظلها الشجر، كانوا بالفعل هم أفراد العائلتين الذين تجمعهم أواصر متينة، وأخذوا يتناولون طعامهم وهم منهمكون في الحديث. وكان على رأسهم السيناتور مولندروف، وهو رجل شاحب اللون، بلحية دقيقة مدببة وخطها الشيب، وكان يعاني من مرض السكَّر. أما قرينته، المنتمية لآل لانجهالس، فأمسكت بمقبض نظارتها الطويل وأخذت تحركها، فيما أحاط بوجهها شعرها المنفوش كالعادة. وكان بصحبتها ابنها أوجست، وهو شاب أنيق تزوج بجوليا هاجنشتروم الجالسة بين أخويها هرمان وموتس؛ وكانت امرأة صغيرة القوام، بادية الحماس، لها عينان سوداوان واسعتان متألقتان، وتتدلى من أذنيها قطعتان من الماس تماثلان حجم أذنيها. أما القنصل هرمان هاجنشتروم، فقد ظهرت آثار النعمة على بدنه المتنامي. وقد أشيع عنه أن يفطر بتين وكبد الأوز. وكان ذا لحية شقراء يشوبها الاحمرار ويحرص على الاحتفاظ بها قصيرة. وقد ورث عن أمه أنفه الأفطس فوق شفته العليا على نحو ملفت للنظر. أما الدكتور مورتس فكان رجلاً

عريض الصدر، إذا تحدث انفرجت شفتاه عن أسنان مدببة مشقوقة. وقد اصطحب الأخوان زوجتيهما؛ وكان رجل القانون قد تزوج قبل سنوات بالآنسة بوتفالركن من هامبورج، وهى امرأةٌ اتخذ شعرها لون الزُبد، لا يبدو على ملامحها المتسقة آثار أدنى انفعال، وكانت على قدرٍ كبير من الجمال، رغم مظهرها الإنجليزي.

ولما كان الدكتور هاجنشتروم مشهورًا بثقافته، فقد حال هذا بينه وبين الاقتران بفتاةٍ قبيحة. كما كان بصحبتهما أيضًا ابنة هاجنشروم وابن موريتس هاجنشتروم، وقد ارتديا- كطفلين- ملابس بيضاء، كأنهما أصبحا منذ الآن مخطوبين، مما يؤكد حرص كل من عائلة هونيوس وعائلة هاجنشتروم على تنمية ثروتيهما. وكان الجميع يتناولون بيضًا مخفوقًا بلحم الخنزير. فلما دنا آل بودنبروك منهم قام هؤلاء بتحيتهم، فنكست القنصلة رأسها قليلاً شاردة مندهشة في آن واحد. أما توماس فرفع قبعته محركًا شفتيه، كمن يتمتم بعبارات مجاملات آلية. وأما جيردا فانحنت لهم معبرة عن تحية دبلوماسية للغرباء. أما السيد بيرمانيدر فقد تأثر بالصعود، حتى أخذ يطوح بقبعته الخضراء بتلقائية ليهتف صائحًا: "طاب صباحكم"، لتمسك السيناتورة مولندورف بنظارتها ناظرة إليهم. وفي النهاية كانت أنطونيا هي المتعالية، إذ رفعت كتفيها بعض الشيء، وأمالت رأسها إلى الوراء، محاولة أثناء ذلك ضغط ذقنها إلى صدرها لتلقي بالتحية، وقد تجاوزت نظرتها قبعة جوليا مولندروف العريضة الأنيقة.. وفي هذه اللحظة كانت قد حزمت أمرها وحسمته "حمدًا للرب، توم، حمدًا كثيرًا، أنك أرجأت فطورنا إلى بعد الساعة، فأنا أكره أن تتابعني يوليا هذه أثناء تناولي لطعامي،

ويا لهذه القبعة المجافية للذوق تمامًا حسب رأيي المتواضع".

"هذا فيما يخص قبعتها.. أما التحية، فلم تكن على قدر ما من الاهتمام، وليس هناك ما يثير غضبك، فالغضب ضار بالبشرة".

"أي غضب، توم، كلاَّ، فإن زعم هؤلاء بأنهم أرفع درجة من غيرهم لهو أمر أدعى للسخرية. فما الفرق بين يوليا هذه وبيني، إن جاز لي السؤال. وهي إن لم تكن قد تزوجت لصًّا فقد اقترنت بعُتُل كما قد ترى إيدا، ولو كان نصيبها مثلي، لعثرت على زوج آخر".

"ماذا تقصدين بالعثور على زوج؟"

"العثور على عتل.. توماس؟"

"إنه أفضل كثيرًا من لص".

"لسنا بحاجة إلى هذا أو ذاك، لكن لا يصح الحديث الآن عن هذا الأمر".

"حقًّا، لقد تخلفنا عن الجمع أيضًا، وها هو السيد بيرمانيدر يجتهد في الصعود".

كان طريق الغابة الظليل قد استوى، وسرعان ما وصلوا إلى "النبع"، وهو موضع جميل شاعري، يبرز به جسر من خشب فوق وهدة صغيرة. وثمة منحدرات وسهوب وأشجار متدلية بادية الجذور. وكانت القنصلة قد تزودت بقدح فضي أخذوا يتناولون به الماء من حوض حجري صغير أسفل النبع، ليرووا عطشهم بماء غني بالحديد. وكان السيد بيرمانيدر على قدرٍ من اللياقة، فراح يلح على السيدة جريونليش على تناول الماء قبله، ليقدم لها بعد ذلك أسمى آيات الشكر، مرددًا بأن ذلك أمر طيب، كما أخذ يتحين الإصغاء

والحديث مع القنصلة وتوماس وجيردا وطوني، بل أيضًا مع الصغيرة أريكا. وقد انتقلت تلك الحيوية أيضًا إلى جيردا التي كانت تعاني من الخجل والتوتر غير الظاهر. وسرعان ما عادوا من جولتهم، ليتخذوا مكانهم بالمدرج الثاني جالسين إلى مائدةٍ عامرة. وكانت جيردا أيضًا هي مَن بادرت بالإعراب عن أسفها العميق لاقتراب موعد رحيل السيد بيرمانيدر، بعد عقد أواصر علاقة يسرت كثيرًا القضاء على سوء الفهم الناتج عن لهجة بيرمانيدر العامية. وهكذا أصبح بوسعها الزعم بأنها أول من فهمت ترديد صديقتها وصهرتها أنطونيا لعبارة "الأمر للرب". أما السيد بيرمانيدر فقد أغفل كل ردٍ يشير إلى معنى "الرحيل"، بل أبدى حرصه على تناول ما لذ وطاب مما عمرت به المائدة التي تم تكن لتتاح له على ضفة الدانوب إلا نادرًا. وكان الجميع قد أقبلوا على تناول طعامهم الشهي على مهل، أما أريكا فقد أبدت سعادتها بمناديل الورق الحريرية التي رأتها تفوق مناشف البيت من التيل. واستأذنت النادل في الاحتفاظ ببعضها لتدسها بعد ذلك في جيبها. إلا أن حوار العائلة مع ضيفها استغرق وقتًا أطول مما كان متوقعًا، وبينما كان هذا قد دخن عددًا من السيجار الأسود وهو يحتسي البيرة، كان القنصل أيضًا يدخن لفافات التبغ، وقد بدا واضحًا أن أحدًا منهم لم يتناول مسألة الرحيل، بل راحوا يجترون ذكرياتهم متحاورين حول وقائع سياسية حدثت في السنوات الأخيرة. فلما روت القنصلة بعض نوادر زوجها الراحل، التي ترجع لعام 1848، ضحك السيد بيرمانيدر لذلك، ثم أخذ يروى نتفًا عن أحداث ثورة ميونيخ، وعن لولا مونتز التي اهتمت بها السيدة جريونليش أيما اهتمام. فلما أوشكت الساعة الواحدة بعد الظهر على نهايتها، عادت أريكا من جولتها برفقة إيدا

وقد بدا عليها التعب، حاملة بعض الزهور والعشب والحشائش، مما ذكَّر الأسرة بما اعتزموا من شراء جوز الزنجبيل. فنهض الجميع مزمعين التجوال بالمكان. فلما كانت القنصلة هي صاحبة الدعوة، فقد سددت الحساب بقطعة كبيرة من الذهب. ثم توقفت أمام المطعم لتطلب إعداد العربة للرحيل بعد ساعة، طلبًا لبعض الراحة بالمدينة، ثم شقوا طريقهم على مهل لارتفاع حرارة الشمس، متجهين نحو البيوث الصغيرة المحيطة بالمكان. وانتظم الطابور تلقائيًّا بعد اجتياز جسر "آو" مباشرةً، ودام الحال هكذا طوال الطريق؛ فقد تقدمت الآنسة يونجمان الجمع بخطواتها الواسعة، وبجوارها أريكا التي لم تكف عن الوثب، مواصلةً محاولات اصطياد فراشات الكرنب، ليأتي بعدها كل من القنصلة وتوماس وجيردا، وفي النهاية، وعلى مسافةٍ ما، جاءت السيدة جريونليش ومعها السيد بيرمانيدر. بينما كانت مقدمة الطابور تضج بصخب أريكا الصغيرة وصياح إيدا الغريب الساذج، وقد ران الصمت على ثلاثي القطاع الأوسط بعد أن انتابت جيردا حالة إحباط عصبي من جراء الغبار، فيما كانت القنصلة وابنها قد شرد ذهناهما متدبرين الأمر، وشمل السكون المؤخرة أيضًا فيما يبدو، حيث تجاذبت أنطونيا أطراف حديث هامس مع ضيفها الباڤاري؛ أما محور حديثهما فكان السيد جريونليش؛ حيث أبدى السيد بيرمانيدر ملاحظته عن أريكا اللطيفة، تلك الطفلة الجميلة الظريفة، إلا أنه لم يجد شبهًا يجمعها بأمها، فجاءه رد أنطونيا على ذلك بقولها: "إنها تشبه أباها تمامًا، وهو أمر لا يشينها، فمظهر جريونليش كان مهذبًا تمامًا! وكان ذا لحية صفراء كالذهب، فريدة، لم أر مثيلاً لها قط". وبرغم أن أنطونيا كانت قد روت له تفاصيل قصة زواجها

كافة أثناء إقامتها لدى نيدرباور في ميونيخ، إلا أنه كرر السؤال عن كل أمورها ليقف بدقة على جميع تفاصيل مسألة الإفلاس، وهو يرمش بعينيه مشاركًا إياها قلقًا اعتراها. فقالت: "لقد كان شخصًا سيئًا، سيد بيرمانيدر، عندما حررني أبي من أسره. فليس كل البشر في هذه الدنيا يتمتعون بحسن الطوية، وهذا درسُ لقنتني إياه تجارب الحياة، رغم حداثة سني، ورغم بقائي لعشر سنوات بلا زواج أو ما يشبه ذلك. لقد كان إنسانًا سيئًا، ولم يكن أسوأ منه سوى رفيقه المصرفي كيسلماير، فقد كان بغباء حمار. إلا أنني لا أعتبر نفسي ملاكًا منزهًا عن العيوب، فلا تسيء الظن بي. وقد أساء جريونليش إليَّ بإهماله لي، فإذا اجتمعنا ذات مرة انشغل بمطالعة الصحف، كما كان يخدعني بإلزامي بالإقامة في "ايمزبيتل" حتى لا أعرف. إلا أنني لم أكن سوى امرأة مكسورة الجناح، ترتكب الأخطاء أحيانًا وهو ما أدركته، ولأعطِ لك مثلاً عن هذا، فقد كانت حماقتي ونزوعي للتبذير وحبي لملابس النوم الجديدة، قد وفر لزوجي حجة الكدر والتبرم، لكني ألتمس لنفسي العذر بأنني كنت طفلةً حينما تزوجني، كما كنت إنسانة حمقاء ساذجة، فهل تصدق مثلاً أنني لم أعلم بقوانين الاتحاد المنظمة لشؤون الجامعة والصحافة إلا بعد أربع سنوات من صدورها، وكان ذلك قبل خطوبتي بقليل، وهي في عمومها قوانين جيدة، حقًا. لكن من المؤسف أن الإنسان ليس بوسعه سوى العيش مرةً واحدة، سيد بيرمانيدر، ولا يمكنه بدء حياته مرةً أخرى، ولو أنه استطاع ذلك لأصبح بوسعه أن يحسن إدارة أموره على نحو أفضل مما سبق. ثم لاذت بالصمت بعد أن اعتراها القلق، منكسةً رأسها، بعد أن مهدت بذكاء لفكرة استحالة بدء حياة جديدة، مع عدم استبعاد بدء حياة زوجية

أفضل حالاً. إلا أن السيد بيرمانيدر فوت تلك الفرصة، ليشن فقط هجومًا شرسًا على السيد جريونليش، نفرت معه تلك الشامة التي بذقنه الصغير المستدير.

"إنه رجل كريه، بغيض، إنه كلب، وكم أتمنى الآن أن أوجه إليه لطمة".

"أوه، كلاَّ، سيد بيرمانيدر، لا، لا كف عن هذا، عسى أن تواتينا المغفرة والسلوان، ولنفوض أمره إلى الرب، فهو وحده المنتقم، حفظنا الرب، ولتسأل أمي عن أحواله، فأنا لا أعلم عما آل إليه حاله، لكني أتمنى له حظًا أوفر، وإن لم يكن يستحق ذلك".

وهنا، كان قد بلغا هدفهما، وهو منزل صغير يشمل محل الخباز، فتوقفا هناك تلقائيًا، وهما ينظران نظرة جادة شاردة نحو أريكا وتوماس وجيردا، وهم ينحنون ليجتازوا باب المحل المنخفض على نحو غريب، دون أن يسأل أحدهما كيف كان ذلك؛ فقد استغرقهما الحوار تمامًا، إلا أنهما لم يناقشا إلى هذا الحين سوى أمور عارضة بلا قيمة. وكان هناك سياج يمتد بجوارهما ليحيط بحوض مستطيل ضيق تنمو فيه بليحاء، أخذت السيدة جريونليش تنكت أرضه بطرف مظلتها بهمة فائقة، وقد أمالت رأسها الذي كان يتدفق فيه دم ساخن، وقد وقف بجوارها-ملاصقًا لها- السيد بيرمانيدر، وقد مالت فوق جبهته الصغيرة الخضراء المزدانة بلحية التيس. وأخذ من حين لآخر يشاركها في نكت أرض الحوض بعصاه، وقد نكس هو أيضًا رأسه، إلا أنه أخذ ينظر إليها من أسفل إلى أعلى بعينيه الصغيرتين المنتفختين، المتألقتين بلونهما الأزرق الصافي، وقد وشاهما شيء من الحمرة، متأملاً إياها بشيء من الهم والتوتر والإخلاص. وهو ما أوحى به أيضًا شاربه المفتول المتناثر فوق

فمه. ثم بادرها: "أنتِ إذن تخشين الزواج، ولا تبغين إعادة التجربة ثانيةً، أليس كذلك، سيدة جريونليش..؟"

فقالت هي لنفسها: "إنه يخيب ظني، أينبغي عليّ التأكيد؟"

ثم أجابته: "نعم، يا سيد بيرمانيدر، وأنا أقر صراحةً بأنه أمر عسير أن أوافق على ذلك مرةً أخرى، فأرتبط برجل طوال حياتي، بعد أن أدركت أن قرارًا كهذا هو قرار جاد للغاية، ويحتاج إلى إيمان لا يتزعزع بأن هذا الرجل يتمتع بالفعل بالنبل وحسن الخلق، وحسن الطوية".

وهنا جرؤ على سؤالها إن كانت تعتبره هذا الرجل، فجاءه ردها: "نعم، سيد بيرمانيدر، أنا أعتبرك هذا الرجل". وعقب ذلك دار حوار ببعض كلمات هامسة موجزة ومعبرة عن الموافقة والسماح للسيد بيرمانيدر بمفاتحة القنصلة وتوماس، عندما يعودان إلى البيت. فلما رجع الجمع، وقد حملوا ببعض قراطيس جوز الزنجبيل، رمق القنصل الاثنين فرأى الارتباك يتملكهما، وبدا ذلك بوضوح على السيد بيرمانيدر، أما أنطونيا فغلفت اضطرابها بأدب هو أدنى إلى الرصانة. ودلف الجميع إلى العربة، بعد أن تكاثف الغمام في السماء، وبدأ المطر في الانهمار.

❖

كان توماس، كما اعتقدت طوني، قد قام- بعد وصول السيد بيرمانيدر- بالتقصي الدقيق عن أحواله المالية، فتوصل إلى أن "اكس. نوبّه وشريكه" ليست سوى شركة متواضعة إلى حدٍّ ما، إلا أنها ذات مركز راسخ تمامًا، كما أنه يجني أرباحًا جيدة من مشاركته في شركة البيرة المساهمة، تحت إدارة

السيد نيدر باور. فإذا ضم نصيب السيد نيدرباور إلى نصيب أنطونيا من الميراث وقدره 17000 ريال، فسوف يوفر ذلك لهما مستوًى معقولاً من حياة الطبقة المتوسطة دون رفاهية.

فلما أُبلغت القنصلة بالأمر، أتمت الاتفاق في حديث تفصيلي مع السيد بيرمانيدر وأنطوني وتوماس بغرفة المنظر الطبيعي، مساء ليلة الخطوبة. وكان مما تناوله هذا الحديث وضع الصغيرة أريكا التي تم حسم أمرها بانتقالها للحياة إلى ميونيخ تلبيةً لرغبة أنطونيا وموافقة خطيبها، مما كان له وقع طيب.

وكان أن رحل تاجر حشيشة الدينار بعد ذلك بيومين، حتى لا يثير غضب "نوبه"، ليعود في شهر يوليو ليصطحب السيدة جريونليش بالفعل إلى مدينة أجداده، ومعهما كلٌّ من توم وجيردا التي قضت معها أربعة أو خمسة أسابيع بمصيف كرويت، بينما ظلت القنصلة مع أريكا وإيدا يونجمان على شاطئ بحر البلطيق، وذلك بعد أن لاحت الفرصة للزوجين لمعاينة بيت بشارع كاوزنجر بميونيخ، وهو منزلٌ كان السيد بيرمانيدر قد انتوى شراءه، على أن يؤجر القسم الأكبر منه، وهو يقع على مقربةٍ من سكن آل نيدرباور؛ بيتٌ غريب، عتيق، بسُلم ضيق يمتد من الباب مباشرةً- على نحوٍ حاد مستقيم- إلى الطابق الأول، كأنه معراج إلى السماء. وبالطابق الأول، ثمة ممرٌ يفضي إلى غرفٍ قائمة بواجهة البيت.

وكان أن غادرت أنطونيا إلى البيت في شهر أغسطس، لتشرف على إعداد جهازها خلال الأسابيع التالية، الذي كانت تمتلك جزءًا كبيرًا منه من زيجتها الأولى؛ إلا أنه كان من الضروري إضافة قطع جديدة إليه. وقد تلقت ذات يومٍ من هامبورج- حيث اعتادت شراء احتياجاتها- قميص نوم لم

يكن بالطبع مزدانًا بالقطيفة، إلا أنه كان مزينًا ببعض الشرائط.

وكذلك كان السيد بيرمانيدر قد عاد إلى منجشتراسه، في أوائل الخريف، متعجلاً إتمام الأمر. وقد أقيم حفل الزفاف طبقًا لرغبة أنطونيا خاليًا من مظاهر البذخ، وقال القنصل: "فلندع مظاهر البذخ جانبًا، فهذه هي زيجتك الثانية؛ ويمكننا تجاوز ذلك، فها أنتِ تتزوجين مرةً ثانيةً، وبذا نصل ما انقطع".

كانت دعوات حفل الزفاف محدودةً. وكانت السيدة جريونليش حريصةً على إرسال إحداها إلى يوليا مولندورف، المنتمية لآل هاجنشتروم. أما شهر العسل، فقد تم تجاهله لرفض السيد بيرمانيدر هذا الأمر. ولما كانت أنطونيا قد عادت لتوها من المصيف فقد اعتبرت سفرها إلى ميونيخ أمرًا شاقًا. أما حفل القرآن الذي اقتصر على الأهل فقط، فقد أُقيم بكنيسة سانت ماريا، وليس ببهو الأعمدة كسابقه. وهناك، تحلت أنطونيا بالرصانة، وتزينت بزهر البرتقال بدلاً عن الريحان. وقد ألقى كبير القسس "كولنج" العظة بنبرةٍ أقل حماسًا عن عظة الزواج الأول؛ إلا أنه استخدم عباراتٍ جزلة تحث على الاعتدال كما اعتاد. أما كريستيان، فقد عاد من هامبورج وقد ازداد تأنقًا، وكان يتمتع بروحٍ مرحة رغم إصابته بوعكةٍ صحية. وأخبر أسرته بأن عمله مع بومستر يسير على ما يرام، وأعرب أنه حال زواجه، وكذلك زواج كلوتيلده، فإنهما سوف يقيمان بالطابق الأعلى، كلٌّ على حدة. وقد تأخر كثيرًا في الحضور إلى الكنيسة بعد زيارته للنادي.

أما الخال يوستوس، فقد أبدى تأثرًا بالغًا، وكان من الكرم أن أهدى الزوجين صحنًا بديعًا من الفضة المصقولة، رغم معاناته شظف العيش. فقد

كانت الأم المغلوبة على أمرها تلتزم بسداد ديون ابنها ياكوب الطريد، الذى حُرم من ميراثه منذ زمن. وقد أقام ياكوب مؤخرًا في باريس، حسبما وصل من أخباره. وتغامزت سيدات بودنبروك من الشارع العريض بقولهن: "عساها تفلح هذه المرة". فهل كن يتمنين لها هذا حقًّا؟ أما سيسيمي فايشبروت، فقد اتجهت إلى تلميذتها، وشبت على أطراف أصابعها لتقبل جبين أنطونيا، التي أصبحت تحمل لقب السيدة بيرمانيدر، ثم قالت بعبارةٍ رصينة مفعمةٍ بالوفاء: "أتمنى لك السعادة، يا بنيتي الطيبة".

الفصل السَّـابع

ما إن غادر القنصل بودنبروك فراشه في الثامنة صباحًا حتى هبط السلم الحلزوني، خلف البوابة الصغيرة إلى القبو، حيث اغتسل ليرتدي ثياب النوم مرةً أخرى، ويعكف على تدبير بعض الشؤون العامة. وكان قد انتظره بالحمام السيد فنتسل، عضو مجلس المواطنين، الذي كانت سِمات الذكاء تكسو وجهه، وقد حمل بين يديه المتوردتين وعاء ماء دافئًا، أتى به من المطبخ، كما تجهز أيضًا بأشياء أخرى. ثم جلس وقد أمال رأسه للخلف على مقعد كبير بمسند، بينما كان فنتسل يجهز صابون الحلاقة، ليشرع في حديثه، كعادته، بادئًا بالسؤال عن الطقس والنوم الهادئ بالليل، مُعرجًا بعد ذلك على الأحداث العامة الكبيرة وشؤون المدينة. وكان هذا الحوار يطول أمده، إذ كان السيد فنتسل يتوقف عن عمله، إذا تحدث القنصل.

"هل استمتعت بالنوم، جناب القنصل؟"

"شكرًا.. فنتسل.. هل الجو صحو اليوم؟"

"هناك صقيع، وضباب وجليد، حتى إن الصبية أقاموا منصة للتزلج

بشارع ياكوب، امتدت لعشرة أمتار، وكدت أصطدم بها عند رجوعي من زيارة العمدة.. عليهم اللعنة".

"فهل طالعت الصحف؟"

"فقط الإعلانات وأخبار هامبورج، أجل، فليس بها سوى قنال أورسيني.. شيء مريع.. وفي الطريق إلى الأوبرا.. إنهم مجتمع لطيف.. هؤلاء الناس هناك".

"إن ذلك غير مهم، أظن ذلك، وهو لا يعني الشعب في شيء، وليس له من أثر سوى مضاعفة قوات الشرطة، وممارسة الضغط على الصحف، وكل شيء آخر.. لكنه يتخذ حذره.. أجل، فلديه متاعب أبدية، وهذا حقيقي، فهو مستعد دائمًا لاتخاذ إجراءات لتأكيد موقفه، إلا أنه ينال احترامي، هو وحده. وليس بوسعنا سوى احترام التقاليد، كما تقول الآنسة يونجمان. وقد أعجبت بما فعله تجاه صندوق الخبازين وتخفيض أسعار الخبز، إنه يفعل الكثير من أجل الشعب بلا ريب".

"حقًا، لقد كان هذا هو رأي السيد كيستنماكر".

"شتفان؟ حقًّا.. لقد حادثته في الشأن نفسه".

"فحالة فريديريك فيللهم، ملك بروسيا، سيئة، جناب القنصل، وقد آل مصيره إلى النسيان، كما ردد البعض أنه لابد من تنصيب الأمير وصيًّا".

"أوه، فما يا ترى سيسفر عن هذا الأمر، وقد اتخذ فللهم هذا موقف الرجل المتحرر، وهو- يقينًا- لا يناهض الدستور؛ على النقيض من موقف أخيه المنفر، ولم يحصد هذا الرجل البائس من وراء ذلك سوى الأسى، هل هناك أخبار جديدة عن كوبنهاجن؟".

"لا جديد، جناب القنصل، فالناس هناك لا تتوافر لديهم العزيمة، وأعلن الاتحاد العام عدم شرعية الدستور العام لهولشتاين ولاونبورج.. وهؤلاء الكبار للغاية ليس بوسعهم العمل على إلغائه".

"حقًّا، فنتسل، إنها كارثة، فهم يتحدون البرلمان أن يكون بوسعه إنجاز ذلك، فيا ليت كان للبرلمان شيء من العزيمة، يا لهولاء الدنماركيين فأنا ما أزال أذكر جيدًا بيتًا من قصيدة شعر، كان يثير غضبي من الصغر، فهو يقول: (فلتعطني، واعطِ كل مَن تهفو قلوبهم إليك) فكنت أعتقد أنه يقصد الدنماركيين بـ(مَن)؛ ولا أستطيع تخيل أن الرب قد أعطى الدنماركيين شيئًا".

"فلتتصور أننا في هذا الوضع الهش، أتضحك؟! فلنعد إلى صفقة سكة حديد هامبورج؛ فقد خضنا من أجلها حربًا دبلوماسية، وسوف نفعل ما هو أكثر حتى نحصل من سادة كوبنهاجن على هذا الامتياز".

"حقًّا، جناب القنصل، فالمؤسف أن يلقى ذلك معارضة شركة سكة حديد التونا-كيل، بل هولشتاين كلها إن تأملنا الأمر بدقة، وهو ما قال به العمدة الدكتور أوفرديك. فقيام نهضة في كيل يصيبهم بالهلع البالغ".

"بالطبع.. فنتسل، فهذا هو ما ينشأ عن ربط بحر البلطيق ببحر الشمال. ولسوف نعاني مزيدًا من مؤامرات شركة التونا-كيل، فقد تقوم بمد سكة حديد أخرى شرقي هولشتاين، أو بين نويمنستر ونويشتادت، من أجل المزايدة فحسب، وهو أمر غير مستحيل. لكن علينا الثبات على موقفنا، فالطريق المباشر إلى هامبورج، هو مشروع يجب إتمامه".

"جناب القنصل يبدى تأييدًا قويًا للمشروع".

"طالما كان بوسعي هذا في إطار ما أتمتع به من نفوذ محدود.. فأنا أهتم

بسياستنا تجاه السكك الحديدية، وهو تقليد تلتزم به عائلتنا. فقد كان والدي منذ عام 1851 عضوًا بمجلس إدارة سكك حديد بوخن، وهو ما زكى انتخابي عضوًا بالمجلس نفسه، وأنا في الثانية والثلاثين؛ وإن كنت لم أبذل بالمجلس ذلك الجهد المأمول".

"أوه.. جناب القنصل، أتعني هذا بعد خطبتكم بمجلس المواطنين آنذاك"

"لقد كان للخطبة بالفعل أثرٌ ما، والنوايا الطيبة ما تزال متوفرة على أية حال. وأنا أحمد الرب على ما بذله والدي وجدي الأكبر من أجل تمهيد الطريق أمامي. فما اكتسبه هؤلاء من ثقة ومكانة في مدينتنا، ورثته أنا بلا مشقة؛ وإلا ما كنت أديت ما أقوم به. فعلى سبيل المثال، لن تجد شيئًا لم يفعله الوالد في سبيل إصلاح شؤون البريد في مدينتنا، أتذكر، فنتسل، مطالبته لمجلس المواطنين بتوحيد عربات هامبورج السريعة وعربات البريد، ومطالبته عام 1850 لمجلس الشيوخ الذي كان يعانيمن تراخٍ تجاه مسؤولياته، حيث ناشده بالانضمام إلى اتحاد البريد بين ألمانيا والنمسا، وكان أول من له الفضل في تمتعنا الآن بتعريفة مخفضة للرسائل والطرود، وطوابع البريد، والصناديق، وكذلك التلغراف بين برلين وترافيمنده. فإن لم يكن هو وآخرون قد ألحوا في هذا الشأن على مجلس الشيوخ- المرة تلو الأخرى- لصرنا الآن وإلى الأبد متخلفين عن بريد الدنمارك، وبريد تورن وتاكس. لذا فأنا أجد الآن آذانًا صاغية، إذا ما ناقشت مثل هذه الأمور".

"الرب يشهد على ما قاله جناب القنصل. فجناب القنصل لا ينطق سوى بالحق. فها هي لم تمر ثلاثة أيام على علمي بما قاله له العمدة الدكتور

أوفرديك: "لو حدث أن تمكنا من شراء أرض لمشروع السكة الحديد في هامبورج فسيكون القنصل بودنبروك ضمن الوفد الذي سنبعث به إلى هناك، فنحن بحاجة إلى جهد القنصل بودنبروك في هذه المفاوضات أكثر من حاجتنا إلى الآخرين من رجال القانون".. لقد كان هذا هو ما قاله.

"هذا ثناءٌ كبير لشخصي، لكن فلتكثر من الصابون فوق ذقني لتصبح أكثر نعومةً".

"في نهاية الأمر، فيتحتم علينا العمل، وهو ما لا يضير أوفرديك، بعد أن بلغ سن التقاعد. فلو أصبحت أنا العمدة لسارت وتيرة العمل على نحوٍ أسرع. ولا أملك التعبير عما أشعر به من رضًا تجاه البدء في إنجاز مشروع الإضاءة بالغاز لتختفي مصابيح الإضاءة بالزيت الخطرة بحلقات سلاسلها هذه. فالعالم يتقدم.. فنتسل، والعصر الجديد يُلزمنا بتحمل المزيد من الأعباء. ولنتذكر أيام صبانا، فقد كانت الطرق بلا رصيف، بينما كانت الحشائش تعلو لتخترق قطع البلاط، وكان هناك أمام المنازل مبانٍ وملاحق وأرائك. أما المباني فشُيدت عليها إضافات، وقد تهدم بعضها كذلك؛ وبرغم توافر المال لدى أفراد الشعب، فلم يكن بينهم من يعاني الجوع، إلا أن الدولة نفسها كانت فقيرة، وكانت الأمور كافة تتخذ مسارها الطبيعي، على حد قول صهرى بيرمانيدر، ولم يفكر أحدٌ في الإصلاح. لقد كانت تلك أجيالاً سعيدة ميسورة الحال. فلم يفكر أحدٌ في إجراء إصلاح: كما كان جاك هوفشتده، صديق جدي الحميم، يخرج للنزهة، ويترجم من الفرنسية قصائد غير لائقة. ولم يكن لهذه الأوضاع أن تستمر على حالها تلك، فأحوال كثيرة تبدلت، وسوف يصيب التغيير أكثر منها؛ فقد ارتفع عدد السكان إلى ما يربو على

50.000 نسمة، بعد أن كان 37.000 فقط كما تعلم، كما تغيرت كذلك أوضاع المدينة بما شُيد من مبانٍ جديدة، وأصبحت لدينا ضواحٍ واسعة وطرق جيدة، ونستطيع ترميم آثارنا من العصور المزدهرة؛ إلا أن هذا في النهاية ليس سوى تغيير ظاهري؛ أما الأمور الأهم فلم يتم إنجازها بعد، عزيزي فنتسل. وها أنا أسترجع ما قاله والدي الراحل: "هذا هو رأيي، الاتحاد الجمركي، فنتسل، يجب علينا الانضمام إلى الاتحاد الجمركي؛ فلم يعد مقبولاً أن تظل هذه القضية بلا حسم. فإن سعيت في هذا السبيل فعليكم جميعًا مد يد العون لي. كما يجب عليك أن تصدقني فإن انشغالي بالتجارة جعلني أكثر خبرةً من الدبلوماسيين، كما أن خوفهم من أن يهدد هذا الأمر استقلالنا وينتقص من حريتنا لهو أمرٌ يثير السخرية. فستفتح ملكنبورج وشلسفيج-هولشتاين لنا أبوابها، وهذا أفضل لنا، بعد أن فقدنا سيطرتنا على علاقتنا التجارية مع الشمال.. كفى". وفي النهاية قال القنصل: "اعطني المنشفة من فضلك، فنتسل".

كانت هناك بعض الأمور لم يكن الحديث قد تطرق إليها بعد، مثل تدني سعر الحنطة السوداء التي توقف سعرها عند 55 ريالاً، ومال إلى التراجع على نحوٍ سيئ، أو تناول حدث عائلي وقع بالمدينة، إلا أن السيد فنتسل كان قد انسل إلى القبو ليفرغ ما في وعاء الصابون على قارعة الطريق. أما القنصل فصعد السلم الحلزوني إلى غرفة النوم ليطبع قبلةً على جبين جيردا التي كانت استيقظت لتوها، وارتدت ملابسها.

وكانت مثل هذه الحوارات الصباحية البسيطة مع الحلاق الفطِن بمثابة تمهيد لأكثر الأيام عملاً وحركة، أيام تتطلب إعمال فكر، ويكثر فيها

النقاش والمساومات والتدوين والرواح والغدو. ويعود الفضل إلى رحلاته واطلاعه واهتماماته في أن يتمتع توماس بودنبروك- أكثر من غيره- بأفق يتجاوز حدود الفكر المحافظ، فصار يقينًا أول من يشعر بجدب وضآلة الأحوال المحيطة به. أما على مستوى الوطن- بمعناه الأوسع- فكانت النهضة العامة التي فجرتها سنوات الثورة قد انتهت إلى مرحلة من الخمول والركود والرجعية، ووصل بها الجدب حد ألا تشغل بال رجل متحمس. أما هو فكان يملك من الحيوية ما يكفي لتحويل إيمانه بالأهمية النظرية لقيمة الفعل الإنساني إلى حقيقة أثيرة لديه، ليوظف الإرادة والقدرة والحمية والحماس المتنامي من أجل خدمة المواطن البسيط الذي يضعه في قمة اهتمامه بدائرته، كما يوظف ذلك أيضًا من أجل اسم وشعار الشركة التي ورثها.. لقد كان يملك من الحيوية ما يكفي لتحويل طموحه إلى عظمة ونفوذ، وهو يأخذ ذلك على محمل الجد، ساخرًا منه في آنٍ واحد.

ما كاد يفرغ من فطوره- الذي قدمه إليه أنطون بقاعة الطعام- حتى ارتدى ملابسه استعدادًا للخروج، فاتجه إلى مكتبه في منجشتراسه، إلا أنه لم يقض هناك سوى ساعة واحدة، حرر خلالها اثنتين أو ثلاثًا من رسائل وبرقيات ملحة، وأصدر بعض التعليمات، ودفع بسير العمل للأمام. ثم كلف السيد ماركوس بالإشراف على تواصل سير العمل. ثم انطلق إلى الحياة العامة، فشارك في جلسات واجتماعات، وقضى بعض الوقت بالبورصة تحت إيوانات من الطراز القوطي التي يتميز بها ميدان السوق. ثم قام بمراقبة سير العمل في الميناء والمخازن، كما أجرى مع القباطنة مفاوضات بوصفه صاحب شركة ملاحة، ليقوم بإنجاز أعمال أخرى تخللها الإفطار الثاني

السريع مع والدته القنصلة، ثم تناول طعام الغداء مع جيردا، ليرتاح بعده لنصف الساعة على الأريكة، مطالعًا الصحف وهو يدخن سجائره. ثم واصل عمله إلى المساء، مراجعًا مسائل تجارته الخاصة، وأمور الجمارك والضرائب والمباني والسكك الحديدية والبريد والعمل الخيري، وألقى نظرةً على بعض المجالات، لم يكن منوطًا به مراجعتها، بل كانت من اختصاص العلماء، خاصةً الأمور المالية التي سرعان ما أظهر براعةً في تناولها. ورغم ذلك حرص على عدم إغفال حياته الاجتماعية، إلا أنه لم يكن يلتزم بمواعيدها، فغالبًا ما كان يحضر في آخر لحظة بعد أن تكون زوجته قد ارتدت ثوب السهرة، ووقفت العربة بانتظاره لنصف الساعة، فيقدم اعتذاره لجيردا، ثم يرتدي حلته الرسمية على عجل. كما كان حريصًا على إدارة الحديث بلباقة في الأماكن العامة والولائم والمراقص وأثناء السهرات. ولم يكن هو وزوجته على مستوى أقل من العائلات العريقة الأخرى في مراسم الاستقبال، بل كان يقدم طعامًا وشرابًا على أرفع مستوى، ويتمتع بكرم الضيافة وآداب اللياقة. إلا أن المجاملات التي كان يُحيي بها ضيوفه لم تكن على أعلى مستوى، وأما لياليه المريحة فكان يقضيها مع زوجته جيردا، مستمعًا إلى عزفها وهو يدخن، أو مشاركًا لها في مطالعة بعض القصص الألمانية والفرنسية والروسية، التي تحرص على انتقائها.

كان هذا هو نهجه في العمل الذي أحرز النجاح من خلاله، فارتقت مكانته بالمدينة. وعرفت الشركة رخاءً دام لأعوام، برغم ما اقتُطع لدعم كريستيان وزواج أنطونيا الثاني من رأسمالها. إلا أنه أثناء هذا كان يعاني ما يفت في عضده ويشوش أفكاره. كان كريستيان ما يزال بهامبورج، حينما

توفي شريكه السيد بورمستر إثر ذبحة صدرية مفاجئة في ربيع هذا العام 1858، فقام ورثته بسحب نصيبه من رأسمال الشركة؛ مما أدى بالقنصل إلى أن يحذر أخاه من مواصلة نشاط الشركة برأسماله هو فقط، بعد أن أدرك صعوبة الاستمرار عقب فقدان الجزء الأكبر من رأس المال فجأةً. إلا أن كريستيان أبدى إصرارًا على استمراره وحده، متكفلاً بكل التزامات شركة "هت.ف. بورمستر وشريكه"؛ مما أثار مخاوفه من حدوث مشاكل. أما كلارا، شقيقة القنصل المقيمة في ريجا، فلم يكدر عدم الإنجاب صفو حياتها الزوجية مع القس تيبورتيوس؛ فهي لم ترغب قط في الإنجاب، ولم تمتلك من مشاعر الأمومة سوى النذر اليسير، إلا أن حالتها الصحية لم تكن على ما يرام، كما جاء في رسائلها وخطابات زوجها، فقد هاجمتها مؤخرًا آلامٌ بالمخ راحت تتجدد على نحو قاس، وهي آلامٌ كانت تلازمها منذ طفولتها. وكان ذلك مثيرًا للقلق. أما همه الثالث فكان في دائرة عمله؛ فلم يكن قد شعر بعد بالاطمئنان إلى استمرار اسم عائلته. وقد واجهت جيردا هذه المسألة بلا مبالاة تحولت إلى نفور. فكان على توماس تحمل همومه في صمت.

أما القنصلة الكبيرة، فقد تولت أمر كلارا بنفسها فانتحت بالدكتور جرابو جانبًا، لتقول له: "دكتور، فليكن ذلك فيما بيننا فقط، فلابد من فعل شيء، أليس كذلك؟ فقد يساعد هواء الجبل في كريوث، أو هواء البحر في جليكسبورج أو في ترافيمنده، فماذا ترى؟" ولما كانت وصفة جرابو السهلة: "نظام غذائي صارم، حمامة صغيرة، قليل من خبز فرانتس" لا تجدي نفعًا في هذه الحالة، فقد اقترح الإقامة في بيرمونت وشلانجنباد. لقد كانت هذه هي الهموم الثلاثة، فماذا عن طوني؟ فيا لها من مسكينة.. طوني!

الفصل الثَّـامــــن

كتبت أنطونيا إلى والدتها خطابًا قالت فيه: "إن قلتُ لها: كُبيبة لحم، لم تفهم ما أعني، فاسمها هنا مختلف. فكيف لي أو لغيري من "خلق الرب" معرفة أن "كرنبيت" تعنى القنبيط. فإن ذكرت لها البطاطس المحمرة راحت تردد "ماذا!"، حتى أقول "مقلية"، فتفهم أني أعنى "محمرة". وهذه هي الخادمة الثانية بعد أن طردت الأولى "كاتي" قليلة الحياء، أو هكذا بدا لي، وقد أكون مخطئةً، وهو ما قد يظهر فيما بعد. لكني أصدقك القول إنني لا أستطيع هنا معرفة الفرق بين المعاملة الطيبة والمعاملة الفجة. أما هذه الخادمة فتدعى "بابيته"، وتنطقها هي "بابيت" وهي حسنة المظهر وتتمتع بكل سمات أهل الجنوب من شعرٍ أسود وعينين سوداوين وأسنانٍ تُحسد عليها، بالإضافة إلى طاعتها واستعدادها لطهي بعض صنوف الطعام -تحت إشرافي- مما اعتدناه نحن بمدينتنا، إلا أنها بالأمس طبخت طعامًا، عانيتُ بسببه كثيرًا، فقد استاء بيرمانيدر منه إلى حد أنه قاطعني طوال عصر اليوم ولم ينبس بكلمة، بل أخذ يغمغم فقط. وأود أن أصارحك يا والدتي بأن الحياة هنا

ليست دائمًا يسيرة".

لم يكن اختلاف المسميات وحده سبب نكد حياة طوني، فقد أصيبت أثناء شهر العسل بصدمة لم تتوقعها، ولم تخطر ببالها، صدمة قضت على أسباب سعادتها، وظلت تعاني من آثارها العميقة. فقد حدث أنه- بعد مرور عدة أسابيع على إقامتها بميونيخ- كان القنصل بودنبروك قد استطاع الإفراج عن نصيب أخته بالوصية، وهو مبلغ 51.000 مارك، حوله باسم السيد بيرمانيدر الذي قام بإيداعه إيداعًا آمنًا ومربحًا.

إلا أنه فاجأها بعد ذلك، دون أن يخالجه حياءٌ أو تردد، بقوله: "طونيرل- هكذا كان يناديها- إن هذا ما كنت أسعى إليه فحسب، ولن نحتاج بعدئذٍ إلى المزيد، فطالما شقيتُ في هذه الحياة، وقد آن الأوان كي أنعم بالراحة. وسوف أقوم بتأجير الطابقين الأرضي والأول، ونُبقي على مسكننا هذا، ونودع بذلك حياة الشقاء والكلل، لنأكل لحم الخنزير، ونذهب إلى حانة هوفبروي مساءً، فأنا لست مَن يفاخر بكثرة ماله، ولا أحب السعي الدائم لجني الأموال، بل أفضل الراحة على ذلك، ولتكن نهاية مطاف الكد، لأصبح من الذوات!".

أما هي، فصاحت من أعماقها بصرخةٍ خاصة بها، كانت عادةً ما تلفظ بها اسم السيد جريونيلش فتهتف: "بيرمانيدر!".

أما هو فلم يجب إلا بقوله: "ما عليكِ! فلتعقلي الأمر". إلا أنه سرعان ما شب بينهما خلاف، حل قبل موعده، بلغ من حدته أن قوض أركان سعادة حياتهما الزوجية. وجاءت نتيجة الخلاف لصالحه، بعد انهيار مقاومتها العنيدة أمام تشبثه هو بحياته، وجاءت النهاية المعروفة سلفًا؛ فقام السيد

بيرمانيدر بسحب نصيبه من رأسمال تجارة حشيشة الدينار، ليشطب السيد نوبه من بطاقته كلمة "شريكه"، بلون أزرق. ولم يعد لزوج أنطونيا ما يعمله سوى قيامه، بوصفه مالكًا، برفع الإيجار وتحصيل فوائد إيداعاته. مثله في ذلك مثل ندمائه بحانة هوفبروي، حيث اعتاد على تجرع ثلاثة لترات من البيرة، ولعب الورق على المائدة المخصصة لهم. وكان ذلك ما أبلغته للقنصلة ببساطة تامة.. أما خطابات السيدة بيرمانيدر إلى أخيها فكانت تقطر ألمًا. وهي التي كانت تعرف مسبقًا بأن السيد بيرمانيدر لم يكن على شيء من الجدية التي كان يتسم بها زوجها الأول، إلا أنه أطاح بكل آمالها تلك التي أبدتها للآنسة يونجمان ليلة خطوبتها، ولم يكن ليخطر ببالها قط أن يحنث بكل وعد قطعه يوم تزوج بسيدة من آل بودنبروك. إلا أنها استطاعت التغلب على هذا، فقد عرفت أسرتها من رسائلها باستسلامها للأمر. فقد اعتادت أسلوبًا لترتيب شؤون حياتها مع زوجها ومع أريكا، التلميذة، محافظةً على أسرتها، وعقد أوصر علاقة ودودة مع مستأجري الطابقين الأرضي والأول. وأخذت تكتب إلى عائلتها من حينٍ لآخر عن ارتيادها، مع صديقتها إيڤا، للمسرح الملكي "هوف تياتر". أما بيرمانيدر فلم يكن يميل إلى هذه الأمور، وعلمت أنه برغم سنوات عمره الأربعين، التي قضاها في ميونيخ "الحبيبة"، لم ير قط التحف التي يحتويها متحف "بيناكوتيك".

هكذا سارت بها الأيام، أما بهجتها التي كانت أنطونيا قد تخيلتها في زيجتها الجديدة، فقد تبددت مع آمالها، بعد أن ركن السيد بيرمانيدر إلى الراحة بعد حصوله على هدية زواجها. كما كانت قد فقدت الأمل في إبلاغ أهلها بأخبار عن سعادة أو تقدم ما في حياتها الأسرية؛ فقد ظلت على ما هي

عليه الآن، لا تحمل همًا ولا تتقدم إلى الأمام، وتتمتع بقدر قليلٍ من حياة مرفهة.

وقد قُدر لها العيش إلى آخر العمر على وتيرة واحدة، وهو ما كانت تعاني منه، كما اتضح من رسائلها أن ما تعانيه يجعل أمر تكيفها مع مجتمع جنوب ألمانيا صعب المنال، برغم تأقلمها مع بعض التفاصيل البسيطة، بعد أن توصلت إلى فهم لغة الخادمة والبائعين، وأن تستخدم تعبيرات أخرى غير التي اعتادتها، كما كفت عن تقديم "شوربة الخضار" لزوجها بعد إبداء تذمره منها، إلا أنها ظلت تعاني الاغتراب في محل إقامتها الجديد. وكانت تشعر بإهانة دائمة لجهل أهل الجنوب بقدر عائلة بودنبروك التي تنتسب إليها، وفى إحدى رسائلها روت أن أحدهم، من طائفة البنائين، قد اتجه نحوها وهو يحمل قصعة بيد وبالأخرى "حزمة فجل" ليسألها: "كم الساعة من فضلك، أيتها الجارة!". وبرغم طرافة المسألة إلا أنها لم تستطع التعبير عنها، ولكن يمكن تصور أنها مالت برأسها للخلف، ولم تعر الرجل اهتمامًا ما. وعلى أية حال، فلم يكن انعدام اللياقة، والمعنى الضيق للفوارق الطبقية، هما فقط سبب شعورها بالاغتراب وعدم قبول الآخر: فهي لم تقتحم عمق الحياة بمدينة ميونيخ ومسلك أهلها، إلا أنها كانت محاطة بجو ميونيخ، جو مدينة كبيرة خاصة بالفنانين والمواطنين الذين لا عمل لديهم، فكان جوًّا مشبعًا بقليلٍ من سوء الخُلُق، حرمها من التمتع بروح المرح. ومرت أيام.. لتلوح في الأفق بشائر سعادة يئس منها أهل منجشتراسه والشارع العريض؛ فلم تكن بضعة أيام قد مرت على عيد رأس سنة 1859 حتى تحقق الأمل؛ فها هي أنطونيا في سبيلها لأن تصير أمًّا لمرة ثانية، وقد تبدت فرحتها أيضًا في

رسائلها التي أصبحت تنضح بعبارات مفعمة بتعالٍ وكبرياء وسذاجة، وهي مشاعر هجرتها منذ زمن، وأعربت القنصلة عن أسفها لابتعادها القسري عن ابنتها في مثل هذه الحال.

لكنها أرسلت إليها تطمئنها بأن الرب سيرعاها. أما توم وجيردا فقد أبلغاها بحضورهما تعميد المولود؛ مما أدى إلى انشغال أنطونيا بترتيب استقبال لائق بقدرهما. فيا لها من امرأة تعسة، بعد أن كتب القدر بأن يكون هذا الاستقبال بائسًا إلى أبعد حد، وأنه لن يكون حفل تعميد حلمت به حفلاً بسيطًا بهيجًا تنتشر في أجوائه رائحة الزهر، وتُنثر خلاله الحلوى. فما إن جاءت المولودة إلى الدنيا حتى فارقتها بعد ربع الساعة، بذل الطبيب خلالها جهدًا هائلاً للحافظ على حياة هذا الكائن الضعيف بلا جدوى.

وكان القنصل بودنبروك وزوجته قد أدركا بعد وصولهما إلى ميونيخ أن الخطر قد حاق بطوني نفسها أثناء ولادتها للطفلة الأولى، وراحت معدتها تلفظ أي غذاء بسبب ما كانت تعانيه من إرهاق عصبي، إلا أنها استردت عافيتها فيما بعد ليرحل القنصل وزوجته مطمئنين إلى حالتها الصحية؛ إلا أنهما لم يرتاحا لأحوالها الأخرى. فقد بدا عليها جليًّا، وهو ما أدركه القنصل تحديدًا، أن المصاب المشترك لم يفلح في التأثير على مشاعر الزوجين تجاه بعضهما البعض. والأمر هنا لا يتعلق بحسن طوية السيد بيرمانيدر، فقد أخذه الحادث كل مأخذٍ، فسفح دمعًا غزيرًا حزنًا لوفاة ابنته، وانهمر على وجنتيه البارزتين منحدرًا فوق شاربه المفتول، وكان يصيح ملتاعًا وهو يشهق مرددًا: "يا للمصيبة، مصيبة، ياإلهي!" إلا أن خلودِه للراحة، كما خبرتها طوني، لم تتأثر بهذا المصاب كثيرًا، فلم تلبث سهراته بحانة هوفبروي أن

خففت وطأة هذا عنه، وسرعان ما عادت حياته إلى سيرتها الأولى، حياة المتواكل، المستسلم لمصيره، القانع بقدره، برغم تمرده أحيانًا وتكاسله أحيانًا، وهو ما كان يعبر عنه بقوله: "إنه ابتلاء".

وهكذا صارت رسائل طوني، منذ هذا الحين تطفح باليأس، بل والشكوى. فكتبت ذات مرة تقول: "آه، يا أمي، ما كل هذا الذي نزل بي، فمن جريونليش وإفلاسه إلى بيرمانيدر، المنتمي للذوات، إلى وفاة الطفلة، فأي ذنب جرَّ عليَّ كل هذا البؤس". إلا أن القنصل لم يكن بوسعه منع نفسه من التبسم لهذا التعالي المثير للضحك، الذي كان يغشى رسائل أنطونيا التي يصرخ الألم من بين سطورها، وكان هو الذي يعلم أن أنطونيا بودنبروك، أو السيدة جريونليش أي السيدة بيرمانيدر ما تزال تتشبث بكونها طفلة، لا تكاد تصدق ما مرت به من تجارب، فيعتبرها إحساسًا صبيانيًا بالجدية وأهمية شخصها متباهيةً- تحديدًا- بصلابة عودها. وهي لم تعرف ما اقترفته لتُعاقب بهذه الآلام، فرغم سخريتها من ورع أمها وإيمانها العميق، إلا أنها كانت هي نفسها على نحوٍ ما من هذا الورع وهذا الإيمان، وإلا ما اعتقدت بالعقاب والعدالة في الدنيا، هذا الاعتقاد الراسخ. يا لطوني المسكينة، فلم يكن آخر أحزانها هو وفاة ابنتها الثانية، فقد كان القدر يخبئ لها مصابًا أعظم، فما أن شارفت سنة 1859 على نهايتها حتى حل بها حادثٌ رهيب.

الفصل التّـاسـع

كان يومًا من أيام نوفمبر الأخيرة، ساده بردُ الخريف وتشبع الجو بالبخار منذرًا بسقوط الجليد، وقد خيم عليه الضباب الذي كان ينسل من شعاع الشمس من حينٍ لآخر. كان يومًا من تلك الأيام التي تعربد فيه بالمدينة البحرية تلك الرياح الشمالية الشرقية الحادة، وتزمجر بقسوة حول أركان الكنيسة المصمتة، والتى قد تصيب المرء بأدواءٍ يكون التهاب الرئة أقلها خطرًا.

ودخل القنصل توماس بودنبروك غرفة الفطور ظُهرًا ليلقى أمه هناك، وقد وضعت نظارتها فوق أنفها عاكفةً على مطالعة مكتوبٍ ما. فلما رأته أزاحت المكتوب بكلتا يديها كأنها تخشى إطلاعه عليه، وقالت: "توم، لا داعيَ للجزع، فهناك خبرٌ غير سارٍ لا أفهم مغزاه، جاءني من برلين.. فلابد أن يكون قد حدث شيء ما".

فقال باقتضاب: "عفوًا!" وقد امتقع وجهه ونفرت أعصاب ما تحت فوديه إثر ضغطه لفكيه. وفرد يده بحركةٍ حاسمة للغاية كأنه يقول: "أفضي إليَّ

بالأمر غير السار دون مقدمات".

ثم رفع أحد حاجبيه الأشقرين، وهو يسحب طرف شاربه الطويل بإصبعيه، وأخذ يقرأ المكتوب وهو ما يزال واقفًا. كانت برقيةً تقول: "لا تجزعوا، أصل مع أريكا على أسرع وجه، لقد قُضي الأمر.. أنطوني الشقية".

"أسرع وجه.. أسرع وجه" هكذا جاء تعليقه مضطربًا، ثم حملق في القنصلة، وهو لا يكف عن هز رأسه: "ماذا تعني بأسرع وجه".

"إنه أسلوبٌ ما للتعبير، توم، وهو لا يعني شيئًا، إنها تقصد (حالاً)، أو شيئًا من هذا القبيل".

"لكن.. من برلين، ما عساها تفعل ببرلين، وما جاء بها إلى برلين؟"

"لست أدري.. توم، وأنا لم أستوعب ذلك بعد.. فقد تسلمت البرقية من عشر دقائق، لكن هناك ما حدث يقينًا، وما علينا سوى الانتظار، وقد يصرف الرب عنا شر ما قضى، فلتجلس يا بني لتناول طعامك!" فجلس وصب آليًا شيئًا من شراب "بورتر" في كأسٍ سميك طويل. وهو يردد: "قُضي الأمر"، ثم قال: "أنطوني، ما تزال طفلةً"، وأخذ يتناول طعامه وشرابه لائذًا بالصمت. وبعد برهةٍ تشجعت القنصلة لتقول: "أيكون للأمر علاقةٌ ببيرمانيدر، توم؟"

فلم ينظر إليها مكتفيًا برفع كتفيه.

ثم هم بالانصراف، فأمسك بمقبض الباب، وهو يقول: "نعم، يا أمي، ليس بوسعنا سوى انتظار وصولها، فإن لم تباغتك الليلة في ساعةٍ متأخرة، فسوف تصل غدًا أثناء النهار، فآمل أن تخبريني بذلك".

❖

انتظرت القنصلة الساعة تلو الأخرى، بعد أن قُض مضجعها بالليل فاستدعت إيدا يونجمان، التي كانت حينئذٍ نائمةً بجوارها بالغرفة الأخيرة بالطابق المسحور، لتطلب منها ماءً محلًّى بالسكر، واعتدلت بفراشها لتجلس لوقتٍ طويل منشغلةً بالغزل اليدوي. وظلت مؤرقةً حتى بعد ضحى اليوم التالي. وكان القنصل أثناء تناول الفطور الثاني قد أخبرها بأنه حال قدومها فسوف تصل من بيوشن في الثالثة والدقيقة الثالثة والثلاثين عصرًا. ثم قبعت القنصلة بجوار النافذة بغرفة المنظر الطبيعي وهي تحاول مطالعة كتابٍ نُقش على غلافه الأسود سعفةُ نخيلٍ ذهبية.

وكان اليوم شبيهًا بالبارحة: بردٌ وبخار ورياح، بينما كانت المدفأة تئز خلف سورها الفورفورجيه، ولدى سماعها صوت عربةٍ ما كانت السيدة العجوز ترتجف متطلعةً إلى الخارج. وفي الساعة الرابعة، وفي لحظة سهوٍ كادت تنسى فيها ابنتها إذ بحركةٍ تدب أسفل الدار فمالت بجذعها بسرعةٍ على النافذة لتمسح بمنديلها الدانتيل ما علق بالزجاج من قطر المطر، لترى بالفعل عربةً تتوقف هناك تسمع بعدها دبيب خطًى يرتقي الدرج!

فأمسكت جانبي المقعد بيديها لتنهض إلا أنها آثرت الجلوس ثانيةً، لتلتفت فقط نحو ابنتها مبديةً شيئًا من الاستنكار. وإذ ظهرت أريكا جريونليش عند الباب الزجاجي، ممسكةً بيد إيدا يونجمان، دخلت أمها تهرول مقتحمةً الغرفة.

كانت السيدة بيرمانيدر ترتدى عباءةً مزدانة بالفراء، وفوق رأسها قبعةُ

لبَّادٍ مستطيلة.

انسدل منها غطاء وجهها. وبدت مرهقةً وممتقعة للغاية، ملتهبة العينين، وأخذت شفتها العليا ترتعش، كعادتها إذا أجهشت بالبكاء أيام طفولتها. ثم رفعت ذراعيها وأرسلتهما ثانيةً لتجثو حيال أمها، وتدفن وجهها في طيات ثوب السيدة العجوز وتنخرط في بكاءٍ مرير. وهكذا بدت كأنها قطعت الطريق من ميونيخ بوثبةٍ واحدة إلى أن بلغت غايتها لتطمئن بعد رحلة فرارٍ مرهقة. وبعد أن لزمت القنصلة الصمت للحظات بادرتها بعتابٍ رقيق: "أنطونيا!"، ثم نزعت بحرصٍ مشبكًا كانت أنطونيا قد ثبتت به شعرها بقبعتها، لتلقي به إلى الطاولة، وتربت بيديها حانيةً على شعر ابنتها الكث الأشقر الرمادي مهدئةً روعها.

"إيه، يا بنيتي.. ماذا جرى؟"

إلا أنه كان عليها التحلي بالصبر لتنتظر طويلاً حتى تتلقى ردًا على سؤالها، لكن أنطونيا لم تزد على ترديد: "أمي.. أمي".

فرفعت القنصلة رأسها نحو الباب الزجاجي، وقد ضمت ابنتها بذراعٍ، ومدت أخرى إلى حفيدتها الواقفة هناك، واضعةً سبابتها بفمها.

"تعالي، يا بنيتي، تعالي لتلقي عليَّ التحية، وها أنتِ بحمد الرب قد كبرتِ وأينعت. فكم بلغت من العمر الآن، أريكا؟"

"الثالثة عشرة، يا جدتي".

"إلى هذا الحد، ها قد صرتِ آنسة".

ثم تجاوزت أنطونيا لتقبل الصبية" "فلتصعدي الآن يا بنيتي مع إيدا، وسوف نتناول الطعام بعد قليل، فلديَّ حديثٌ مع أمك.. أليس كذلك".

هكذا أصبحتا وحدهما.

"حسنًا، عزيزتي طوني؟ ألا تكفين عن البكاء، فقد أمرنا الرب باحتمال البلاء، فقد قال في إنجيله: "احمل صليبك" فلعلك بحاجة إلى بعض الراحة والاستجمام، فلتصعدي إلى أعلى، فإن استرحت عودي إليَّ، فقد جهزت يونجمان الطيبة غرفتك، كما أنني ممتنة لبرقيتك.. التي سببت لنا قلقًا بالغًا".

وأمسكت عن الكلام لدى سماعها حشرجةً مرتعدة صادرةً عن طيات ثوبها تقول: "إنه رجلٌ دنيء، رجلٌ دنيء هو، دنيء".

هكذا أخذت السيدة بيرمانيدر تردد هذه الكلمة القاسية التي بدت أنها تدرك معناها تمامًا. وكانت أثناء ذلك تمعن في دفن رأسها في حجر أمها، وهي تقبض بيدها على جانب المقعد.

فسألتها السيدة العجوز بعد قليل: "هل تقصدين زوجَك بهذا القول، يا بنيتي، فمثل هذا الأمر لم يكن ليخطر ببالي، فهل آذاكِ، هل تشكين منه؟"

فصاحت السيدة بيرمانيدر: "بابيت.. بابيت!".

فرددت القنصلة متسائلةً: "بابيت؟"، ثم تراجعت لتنظر بعينيها الصافيتين عبر النافذة بعد أن فهمت ما جرى. ليخيم صمتٌ كان يخترقه من حينٍ لآخر نشيج أنطونيا الذي صار يهدأ شيئًا فشيئًا، إلى أن قالت القنصلة: "لعلي فهمتُ الآن أن مكروهًا ألمَّ بكِ.. وهو سبب شكواكِ.. لكن ألم يكن أمامك سبيلٌ آخر لإبداء غضبك غير تلك الوسيلة المتهورة؟ وهل كان رحيلك بابنتك من ميونيخ من الضرورة إلى حد أن يفهم من هم أقل منكِ ومني ذكاءً أن عودتك لزوجك أصبحت مستحيلة".

فصاحت السيدة بيرمانيدر: "وهذا هو ما لا أريده.. ولن يحدث أبدًا!"، ثم

رفعت رأسها بعنفٍ ناظرةً إلى وجه أمها بعينين مغرورقتين لتعاود دفن وجهها في طيات ثوبها أمها التي تجاهلت هذه العبارة.

أشاحت أمها برأسها ببطءٍ وقالت بصوت عالٍ: "حسنًا، فها أنتِ هنا الآن وانتهى الأمر. هنا سيكون بمقدورك تمالك نفسك لتروي لي كل ما جرى، وبعدها نفكر في إصلاح ذات البين بالود والتبصر والتروي".

فردت أنطونيا ثانيةً: "أبدًا!، أبدًا!"، ثم أخذت تروي ما جرى، وهي تدفن رأسها في طيات تنورة أمها، وقد مزقت أوصال روايتها المتفجرة بصيحات جزعٍ مروعٍ، مما أدى إلى عجز أمها عن فهم بعض كلامها. وبرغم ذلك اتضح أن ما جرى كان: أن اضطرابًا بأعصاب المعدة داهم السيدة بيرمانيدر أثناء نهار الرابع والعشرين من هذا الشهر؛ مما سبب لها توترًا فلم تركن إلى الراحة إلا في ساعةٍ متأخرة للغاية. إلا أنها استيقظت بمنتصف الليل من نعاسها المؤرَّق إثر حركةٍ بلا انقطاع أمام السلَّم لتسمع صوتًا مريبًا مع صوت اهتزاز الدرج، وضحكات يقطعها سعالٌ وشيءٌ من حديثٍ هامس به صدود وأصوات غريبة مغمغمة متأوهة. هكذا لم يعد ثمة أدنى شك في أمر هذه الأصوات. إلا أن حواس السيدة بيرمانيدر الخاملة لم تدرك شيئًا مما يجري إلا بعدما انسحب الدم من وجنتيها إلى قلبها الذي انقبض، واستحال وجيبه إلى خفقاتٍ ثقيلة مزعجة.

وانقضت لحظةٌ طويلة رهيبة بقيت خلالها بين وسائدها كأنما غُشي عليها وشُلت حركتها. فلما استمرت هذه الأصوات الشائنة، غادرت فراشها وقد غلبها القنوط والسخط والقرف لتفتح الباب عن آخره، بعد أن دست قدميها في خفي نعلٍ ممسكةً شمعةً بيدها، وهرولت حتى اقتربت من السلم:

وهو سلمٌ يرتفع على نحوٍ عمودي مستقيم ليصل إلى باب الدار مباشرةً بالطابق الأول.

وهناك، فوق الدرجات الأخيرة لهذا السلم العمودي اتسعت عيناها فزعًا لمّا اضطرت لرؤية تجسد تام لِما تخيلته بغرفة نومها، عند سماعها لأصواتٍ لا تحتمل اللبس.

كان شدًا وجذبًا، صراعًا محرمًا شائنًا بين الطاهية بابيت والسيد بيرمانيدر. وكانت الخادمة قد أمسكت بيدها حلقة المفاتيح وشمعة أيضًا مما يوحي بأنها كانت تؤدي عملاً ما بالبيت في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وراحت تتملص مقاومةً رب الدار الذي كان قد أزاح قبعته إلى مؤخرة رأسه، مطوقًا جسدها وهو يحاول مسح وجهها بشاربه المماثل لشارب سبع البحر، وهو ما كان يفلح فيه من حينٍ لآخر.

فلما رأت بابيت أنطوني صرخت بشيء من قبيل "يسوع، ماريا، جوزيف"، وهو ما كرره السيد بيرمانيدر "يسوع، ماريا، جوزيف" وهو يطلق سراحها. وفيما اختفت الخادمة ببراعة، في اللحظة نفسها كان يقف أمام زوجته متهدل الذراعين، منكس الرأس، وقد ارتخى شاربه، وأخذ يغمغم بعبارة لا معنى لها: "يا للمصيبة، يا له من بلاء".

فلما جرؤ على فتح عينيه، لم تكن هناك ليجدها بغرفة النوم بفراشها في وضع بين الجلوس والاستلقاء، وقد ارتفع نشيجها اليائس وهي تكرر كلمة "فضيحة"، فتهالك هو مستندًا إلى الباب، ثم حرك كتفيه ليلفت نظرها، وكأنه ينبهها: "فلتُهدئي من روعك، طونيرل، ما عليك، فلتهدئي من روعك، فقد احتفلنا مساء اليوم بعيد ميلاد رامزاور فرانتسل.. فأفرطنا جميعًا إلى

حدٍّ ما في الشراب".

إلا أن رائحة الكحول القوية التي عبقت غرفة النوم أثارت غضبها، حتى إنها أمسكت عن العويل وتلاشى ضعفها وانكسارها، فهبت بعد أن تملكها يأسٌ بلا حد، وراحت تصرخ في وجهه بكل ما تكنه له من قرف واحتقار تام لشخصه قلبًا وقالبًا.. إلا أن السيد بيرمانيدر لم يحتفظ بهدوئه فقد كانت رأسه متأججة؛ فلم يكتف، احتفاءً بصديقه رامزاور، بتجرع كثير من البيرة فحسب، بل احتسى الشمبانيا كذلك، فجاء رده عنيفًا، لينشب شجارٌ بينهما أعظم حدةً من ذلك الشجار الذي نشب عندما أعلن السيد بيرمانيدر عن تقاعده. فلما لملمت السيدة أنطوني ثيابها لتنسحب إلى غرفة المعيشة، إذا به يقذفها بكلمةٍ، كلمة لن تستطيع تكرارها، لن تستطيع شفاهها التلفظ بها أبدًا، كلمة.. كلمة..

كان هذا كله هو أهم فحوى ما أقرت به السيدة بيرمانيدر في طيات ثوب أمها. لكنها لم تستطع نسيان الكلمة، هذه الكلمة الرهيبة التي جمدت الدم في عروقها في تلك الليلة المروعة، فلم تكررها أوه، يا ربي، لم تكررها، هكذا أقسمت، برغم أن القنصلة لم تلح عليها، بل هزت رأسها متدبرةً على نحوٍ كاد لا يُرى، وهي تنظر إلى شعر أنطونيا الجميل الأشقر الرمادي، وقالت "أجل، أجل، كان عليّ سماع هذه الأمور المحزنة، طوني، وأنا أفهم كل ذلك تمامًا، يا بنيتي المسكينة، لأنني لست أمك فحسب، بل امرأة مثلك أيضًا.. وأرى الآن كم كانت آلامك حقيقية، وكيف نسي زوجك في لحظة ضعف ما يدين به لك".

"في لحظةٍ!" هكذا هتفت طوني. ثم هبت واقفةً. وتراجعت خطوتين

للخلف لتكفكف دموعها بعصبية شديدة. وأضافت "في لحظةٍ، ماما؟!.. لقد نسي ما يدين به لاسمنا.. إنه لم يعرف قيمة ذلك من البداية! إنه رجلٌ يستغل هدية زواج مَن اقترن بها ليركن إلى الراحة! إنه رجلٌ بلا طموح، فاتر الهمة، بلا هدف! رجلٌ لا يجري الدم في عروقه بل خمير البيرة.. نعم، أنا موقنةٌ من ذلك!".

"ثم يتدنى إلى هذا الدرك، مثلما فعل مع بابيت، ثم، إن اكتشفت دناءته، إذا به يرد بكلمة.. كلمة.."

هكذا وصلت ثانيةً إلى الكلمة، هذه الكلمة التي لم تكررها. وفجأةً تقدمت خطوةً للأمام لتقول بنبرةٍ واضحة هادئة ناعمة: "ما أجملها. من أين أتيتِ بها، ماما؟"

أشارت بذقنها نحو سلةٍ صغيرة مجدولة من الخيزران، سلة رقيقة صغيرة مزدانة بشرائط من الساتان، اعتادت القنصلة منذ زمنٍ ما وضع شغلها اليدوى بها.

فأجابت السيدة العجوز: "لقد تزودت بها، فقد كنت بحاجة إليها".

"ذوقٌ راقٍ!".. قالت أنطونيا، وهي تميل برأسها متأملةً السلة. واستقرت نظرة القنصلة أيضًا على السلة دون أن تراها، فقد كانت شاردة الذهن.

إلا أنها قالت في النهاية وهي تمد يديها نحو ابنتها: "حسنًا، عزيزتي طوني، أيًا ما كان الأمر فأنت الآن هنا، وأرحب بك من كل قلبي. يا بنيتي. فإذا هدأ روعك بحثنا كل الأمور.. فلتدعي عنك ملابسك ولتستريحي بغرفتك".. ثم نادت بصوتٍ مرتفع "إيدا؟! إلى قاعة الطعام، يا حبيبتى لتعدي المائدة من أجل السيدة بيرمانيدر وأريكا".

الفصل العاشر

بعد تناول الطعام مضت أنطونيا مباشرةً إلى غرفة نومها، بعد أن أخبرتها أمها بما ظنت بعلم توماس بوصولها، فبدا أنها لم تكن لديها حاجةٌ ملحة إلى لقائه. وفي مغرب ذلك اليوم، في الساعة السادسة، كان توماس يصعد متجهًا إلى غرفة المنظر الطبيعي ليجرى هناك حوارًا مطوَّلاً مع أمه، وبادرها بالسؤال: "كيف حالها، وكيف تصرفت؟"

فقالت: "توم، إنني أخشى أن نفشل في تهدئة روعها.. يا إلهي! إنها تشتعل غضبًا، ناهيك عن هذا اللفظ، لو أني أعرف ما تلفظ به".

"أنا ذاهب إليها".

"حسنًا تفعل توم، فلتتمالك أعصابك، حتى لا تزعجها، أتسمعني؟ فحالتها النفسية ليست على ما يرام، وهي لم تتناول طعامًا تقريبًا، وأنت عليمٌ بحال معدتها، فحادثها برفق". فصعد إلى الطابق الثاني، درجتين درجتين كما اعتاد، وأخذ يفتل شاربه شاردًا، إلا أنه تبسم وهو يطرق بابها بعد أن واتته فكرة معالجة المسألة بشيء من المرح. فتنامى إلى مسامعه إذنٌ

بالدخول مشحونًا بالوجع، ففتح الباب ليرى السيدة بيرمانيدر ما تزال بملابسها، وقد استلقت على الفراش بعد أن لملمت ستائره، وأراحت ظهرها إلى وسادةٍ، وقد وضعت دواء المعدة على الكومودينو، وألقت برأسها فوق راحة كفها ناظرةً إليه بابتسامةٍ عابسة، لينحني كي يشعرها بتقديره لشخصها، وقال: "سيدتي الجليلة، أي شرفٍ هذا الذي منحتني إياه ساكنة عاصمة البلاد وإيوان المُلك".

فقالت: "امنحني قبلةً.. توم!" ثم نهضت مائلةً نحوه بخدها لتعود فتستلقي على فراشها: "طاب صباحك، أيها الفتى الطيب؛ لقد أصبح حالك مختلفًا عما كنت عليه في ميونيخ".

"كيف ترين ذلك من خلف ستائر مسدلة؛ إلا أنه ما كان ليفوتنى هذا الثناء الذي هو حقك بالفعل". ثم أمسك بيدها، وهو يسحب مقعدًا ليجلس إلى جوارها.

"لقد قلت كثيرًا: إنك وكلوتيلده".

"يا للخزي، توم، كيف حال كلوتيلده؟"

"بخير بالطبع، فالسيدة كراوزيمنتس تقوم على رعايتها وتحرص على ألا تشعر بالجوع. برغم ذلك فهي تأكل هنا بشراهة في سهرات الخميس، وتقبل على التهام الطعام كأنها سوف تجتره لأسبوعٍ كامل". فإذا بطوني تضحك من أعماقها كما لم تضحك منذ زمن طويل، ثم توقفت متنهدةً متسائلة: "وماذا عن عملك؟"

"إننا نجتهد فيه، ونرضى بما قُسم لنا".

"فلنحمد الرب على أن الأمور- على الأقل هنا- على ما يرام، ولكني لست

مهيأة لحوار يظلله المرح".

"يا للأسى! فعلينا التحلي بروح المرح".

"كلا، توم، لقد انتهى الأمر، فهل بلغك كل ما جرى؟"

فأعاد قولها: "فهل بلغك كل ما جرى!".. ثم تخلى عن يدها ليدفع مقعده إلى الخلف بعض الشيء ويقول: "يا إلهي، يا لها من كلمة مؤثرة "كل ما جرى"، وما أعظم ما تحتويه عبارة "كل ما جرى"، فلقد دفنتُ أنا أيضًا آلامي فيها، أليس كذلك؟ أصغي إليَّ".

أما هي فلاذت بالصمت وهي ترمقه بنظرةٍ متعجبة للغاية، مستاءةً للغاية. فقال: "كنتُ أتوقع أن أرى وجهك على هذه الحال وإلا ما جئت إلينا، لكن، فلتأذني لي، عزيزتي طوني، إن تناولنا الأمر بقدرٍ من اليسر على ما تريه أنت من عسر، وهكذا يكمل كلٌّ منا صاحبه فتعم الفائدة".

"ما أراه أنا من عُسر، عُسر.. توماس!".

"يا إلهي، دعي عنك تلبس أدوار التراجيديا ولنتحاور ببساطة وننحي جانبًا عبارات (انتهى الأمر) و(كل ما جرى) و(ابنتكم البائسة)، أنطوني، ولتعقلي ما أقول، طوني، فأنتِ تعرفين أني أكثر الناس سعادةً بقدومك، ومنذ زمن وأنا آمل في زيارتك دون زوجك، لنجلس معًا جلسةً عائلية. ولكن مجيئك الآن على هذا النحو اعتبره- وعذراً- حماقةً، يا بنيتي.. نعم.. فقد سلك بيرمانيدر مسلكًا غير قويم، وهذا صحيح، ولسوف أشرح له ذلك، لتثقي في ذلك".

وقاطعته لتنهض واضعةً يدها فوق صدرها وهي تقول: "لقد أوضحت له ما أقترفه، ولم يكن الأمر قاصرًا على ذلك، فقد كانت بيني وبين الرجل

خلافاتٌ أخرى، وهو ما أريد أن تعرفه، وهو ما فاق كل طاقة احتمالي".

ثم استلقت على فراشها، وأخذت تتأمل سقف الغرفة، وقد بدت عليها أمارات التماسك والحزم. أما هو فنكس رأسه، كأنه يوحي بتأثره بكلامها، ثم أراح بصره على ركبته وابتسم: "إذن، فلن أكتب إليه لأوبخه، كما فهمت منك، فهذا شأنك وحدك، ويكفي تمامًا أن تقومي أنتِ بتقويم سلوكه المنحرف، فهذا من واجبك كزوجة، فإذا تأملنا ما حدث بوضوح غفرنا له أخطاءه البسيطة. فالرجل كان يحتفل بعيد ميلاد صديقه، ليعود بهذه الروح إلى بيته، أي روح مفعمة بالانشراح، فيقترف إثمًا بسيطًا، غلطةً ما، لا يصح ارتكابها".

فقالت: "توماس، أنا لا أفهمك، ولا أفهم أسلوب حديثك، أنت.. صاحب المبادئ، لكنك لم تشهده، لم تشهده ثملاً وهو يتعلق بها.. وكيف كانت حالته".

"هو مشهدٌ مثير للضحك حقًّا، وبوسعي تخيله، لكن المشكلة.. طوني، أنك تحمّلين الموقف فوق طاقته، وأظن أن آلام معدتك هي السبب؛ فقد أمسكت بزوجك في لحظة طيشٍ فأصابتك الدهشة إلى حدٍّ ما، إلا أن هذا ما كان ليثير غضبك إلى هذا الحد، بل كان جديرًا بأن يسري عنك، لتقتربي منه كإنسان. وأريد مصارحتك بأن الحق معك، حين ترفضين مسلكه في الحال، وألا تقابلي ذلك بابتسامةٍ صامتة، كلاًّ، لكنك هجرتِ بيتك، فلعل هذا كان احتجاجًا شديدًا وعقوبة أقسى مما ينبغي، وأنا أتمنى رؤيته الآن وقد قبع حزينًا؛ ومع ذلك فقد أنزلتِ به عقابًا عادلاً على أية حال. أما ما أتمناه فهو أن تستوعبي أمرك على غير هذا النحو من القلق، بل عليك معالجته بشيء من

الدبلوماسية، وهذا كلام بيني وبينك بالطبع. غير أنني أريد أن أوضح لك أن من المهم أن يتحلى طرفا العلاقة الزوجية بالفضيلة، أرجو أن تفهمي ما أقصد، فقد ارتكب زوجك خطأ بلا شك، آذى نفسه ليصبح عرضةً للإهانة. خاصةً أن فعلتِه كانت خطأ غير ضارٍ، عديم الخطر.. وباختصار، فكرامته باتت على المحك وأصبحتِ أنت أعلى منه قدرًا، وأوفر حظًا، على أن تعرفي سبل الحفاظ على ذلك، ولنعطه مهلة أسبوعين، نعم، أرجوكِ، أسبوعين تقضيهما بيننا، وهذا حقنا، وعندما تعودين بعد أسبوعين إلى ميونيخ، فسوف ترين".

"لن أعود إلى ميونيخ، توماس".

فقطب هو جبينه لينحني واضعًا يده فوق أذنه، وهو يتساءل: "ماذا؟"

أما هي فكانت قد رقدت على ظهرها، وهي تغوص برأسها في الوسائد، لتبدو أمارات الحزم على وجهها، ثم قالت: "أبدًا". ثم زفرت زفيرًا طويلاً عاليًا، وصدرت عنها حشرجةٌ خشنة ممطوطة، صارت ملازمةً لحالتها النفسية بسبب داء معدتها. وخيم السكون على المكان، لينهض بعدها توماس فجأةً وقد أمسك بمسند المقعد ليقول: "طوني، لا تثيري غبار فضيحة حولنا!" فلما نظرت إليه بسرعة رأت وجهه ممتقعًا، وقد أخذ يضغط على فكيه، مما جعلها تتراجع وتحركت في مكانها، ورفعت صوتها مصطنعةً الغضب لتخفي ما اعتراها من خوف، ثم نهضت بعد أن جعلت قدميها تنزلقان من فوق الفراش، وقد توردت وجنتاها مقطبةً حاجبيها، وردت وهي تهز رأسها بسرعة: "فضيحة.. توماس، أتنهاني عن إثارة فضيحة، وأنا قد طالني الخزيوالعار، أهكذا يكون مسلك أخٍ تجاه أخته؟ نعم؟ فلتأذن لي

بهذا التساؤل، فالحكمة وحسن التصرف هما من الأمور الحميدة، وهو ما تتمتع به، إلا أن هناك حدودًا لا يجب تجاوزها. وقد عركتني الحياة مثلك، إلا أن الخوف من الفضيحة لا يعني سوى الجبن حقًّا. وأنا أدهش أن تقول ذلك مَن هي مثلي لمن هو مثلك، أنا الحمقاء الرعناء، حقًّا؛ هكذا أنا وهو ما أدركه تمامًا. لكن إذا لم يكن بيرمانيدر قد أحبني قط لأني عجوزٌ شمطاء، فيكون مقبولاً أن تكون بابيت أجمل مني بالفعل، إلا أن هذا لا يعني لا مبالاتي بأصلي ومشاعري وما نشأت عليه. إنك لم تر كيف تجاهل هو ذلك، ومَن لم ير ذلك فلا يعرف شيئًا؛ فالكلام يعجز عن وصف ما بدا عليه من هيئةٍ مزرية، كما أنك لم تسمع اللفظ الذي نعتني به، أنا أختك، وقد أخذت ما أحتاجه مغادرةً غرفة النوم لأسمع لفظًا، لاحقني به، فاه به.. لفظ.. ما جعلني، بل أكرهني على قضاء الليل بطوله في حزم متاعي، لأوقظ أريكا في وقتٍ مبكر للغاية لأمضي بها، بعد أن عجزت عن البقاء في كنف رجلٍ نعتني بهذا اللفظ. وكما قلت فلن أعود إلى مثل هذا الرجل فتضيع روحي، وأفقد احترامي لذاتي طوال حياتي".

"هل تتفضلين بالإفصاح عن هذا اللفظ الكريه، نعم، أم لا؟"

"أبدًا، توماس، لن أتفوه بهذا أبدًا وأنا العارفة بقدر فضل هذا البيت عليَّ وعليك".

"إذن! لا جدوى من الحوار".

"قد يكون كذلك، كما أنني لا أرغب في معاودة النقاش حول هذا الأمر".

"فما عساكِ فاعلة؟ أتطلبين الطلاق؟"

"هذا ما أسعى إليه، توم، وهو قرارٌ لا رجعة فيه، وهو أمر يحتمه عليَّ واجبي نحو نفسي ونحو ابنتي، ونحوكم جميعًا".

فرد بهدوء: "إن هذا لن يجدي شيئًا" ثم استدار منصرفًا، كأن الأمر برمته قد انتهى، إلا أنه أردف: "يا بنيتي، إن الطلاق أمر يقتسمه طرفان، ومن الصعب للغاية تصور أن بيرمانيدر سوف يبدي موافقته وقبوله بهذا دون تردد".

لكن كلام أخيها لم يفت في عضدها، فقالت: "فلتدع لي هذا الأمر، فقد يخطر ببالك أنه سيرفض طمعًا في نصيبي من الميراث، تلك السبعة عشر ألف ريالاً، وهو ما فعله جريونليش من قبل، إلا أنه تم إرغامه على غير ذلك، وما تزال فرصتنا أكبر، ولسوف أطلب العون من الدكتور جيسكه، صديق كريستيان، وسيساعدني، وقد يختلف الحال هنا بعض الشيء. وأنا أعرف بما تفكر فيه، فحينذاك كان المبرر هو عجز الزوج عن إعالة أسرته، أجل، وها أنت ترى كم استفدت من تجربتي، رغم تظاهرك بأن هذا أول طلاق لي. لكني لا أكترث بذلك توم، فقد لا أفلح فيما أسعى إليه، وقد يكون ذلك مستحيلاً، ربما، وقد يكون الصواب في جانبك، إلا أن هذا لن يغير من الأمر شيئًا، لن يغير شيئًا في قرار اتخذته، وليأخذ المال؛ إلا أن هناك في الحياة أمورًا أكثر قيمة من المال. وبرغم ذلك فلن يرى وجهي مرةً أخرى". وزفرت بعد ذلك، مغادرةً الفراش لتجلس على فوتي وترتكز برسغها على جانبه، ممسكةً ذقنها بيدها، وقد التفت أصابع كفها الأربع حول شفتها، وظلت على حالها هذه وقد مالت بجذعها لتحدق في النافذة بعينين متأججتين. أما القنصل، فأخذ يذرع المكان جيئةً وذهابًا متنهدًا، وهو يهز

رأسه وكتفيه ثم وقف أمامها في النهاية، وهو يفرك كفيه مخاطبًا إياها بتوسل اليائس: "ما يزال لك عقل طفل، طوني، فكل ما قلتِه لا يعدو أن يكون هزلاً صبيانيًّا، لكن، أرجو أن تنظري للحظة واحدة إلى الأمر نظرة إنسان راشد. ألم تدركي أنك تتصرفين كمَن وقع في ورطة حقيقة، كأن زوجك فَجُر في خيانتك فوصمك بالعار أمام الناس كافة. فلتتذكري أن شيئًا من هذا لم يحدث، فلم يسمع أحدٌ بهذه الواقعة التافهة على سلم منزلك بشارع كاوفينجرشتراسه. ولو أنكِ عدتِ إلى دارك خاصةً إذا فعلتِ ذلك بهدوء، كأنكِ لم تأخذي ما حدث على محمل الجد، فلن يجرح هذا كبرياءك أو كبرياءنا؛ بل إن النقيض هو ما سوف يحدث، إن لم تفعلي ذلك؛ فلسوف تُجرح كرامتنا إن أقمتِ لمثل هذا الأمر التافه وزنًا فتثيرين غبار فضيحة حولنا".

حررت ذقنها من يدها لتنظر إلى وجهه. "حسنًا، فلتصمت، توماس، فقد حان دوري الآن، فلتستمع إليَّ، أليس كذلك؟ هل ما نفصح عنه، ليشيع بين الناس يكون هو فقط الفضيحة والخزي؟ لا، فالفضيحة الكامنة التي تنهش الروح في صمت وتقضي على احترام المرء لنفسه لهي أكثر فداحةً. فهل نحن آل بودنبروك، الحريصين على الظهور في أفضل حال كما ترددون هنا دومًا، علينا أن نقبل أن يكون ثمن ذلك هو الخزي والهوان نجترهما بين أربعة جدران؟ توم، لقد فاجأني موقفك، فهل تتخيل الموقف الذي كان والدك سيتخذه اليوم، لتضع نفسك مكانه ليستقيم تدبيرك، كلاَّ. فالصدق والوضوح هما الأساس ليكون بوسعك مواجهة الناس لتقول لهم: هذا موقفي، ونحن أجدر الناس بهذا، وأنا أعرف كيف خلقني الرب، ولذلك فلا

أخشى شيئًا، فلتلقاني يوليا مولندورف ولا تلقي إليّ سلامًا، ولتشاركنا فيفي بودنبروك هنا سهرات الخميس وهي تطفح بالشماتة وتقول: يا للأسى، لقد حدث لها هذا مرةً أخرى. لكن هذا كان في الحقيقة هو ما جناه عليّ الرجلان في المرتين. إن مكانتي لأرفع من ذلك، توماس، وأنا موقنة بصواب ما أقدمت عليه، أما خوفي من تعرضي لإهانةٍ ما من يوليا مولندورف وفيفي بودنبروك فلن يحملني على قبول وصمي بألفاظ مشينة فاه بها سكيرٌ بلغته العامية. أيدفعني خوفي من ذلك إلى تحمل زوج يعيش في مدينة ألف أهلها مثل هذه الألفاظ، ومثل هذه المناظر، وأن أتحمل هناك التنكر التام لشخصي وأصلي وما نشأت عليه، مقابل التظاهر بالهناء والرضا. إن هذا هو ما أعتبره أنا غير لائق، وهو ما أعتبره أنا فضيحة، هذا هو ما أراه".

ثم أمسكت عن الكلام لتريح ذقنها ثانيةً فوق يدها لتحملق غاضبةً في النافذة. أما توماس فقد وقف أمامها متحاملاً على إحدى ساقيه، وقد وضع يديه في جيبي سرواله، ناظرًا إليها دون أن يراها، بعد أن شرد فكره، فأخذ يهز رأسه ببطء ثم قال: "طوني، لا تخلطي الأمور، فهي أمور خبرتها في الماضي. فقد أظهرت كلماتك الأخيرة حقيقة ما تعانين، فالسبب لم يكن الزوج، بل تلك المدينة، والعلة لم تكمن فيما ارتكب الرجل على السلّم، بل كان كل شيء آخر هو السبب، وهو أنك لم تقوي على التكيف على الحياة هناك، أليس هذا هو الحق؟"

فصاحت: "الحق ما قلت، توماس"، ثم نهضت لتلوح بيدها في وجهه، وقد امتقع وجهها وبدت عليها سمات المقاتل، بعد أن أمسكت المقعد بيد، ملوحةً بالأخرى لتلقي خطبةً حامية حاسمة، تتدفق هادرة، فألجمت الدهشة

القنصل فراح يتأملها، وهي لا تتوقف إلا لالتقاط الأنفاس لتهدر من جديد. فقد كانت تسترسل معبرة حقًّا عن كل ما عانت من مقت وقرف خلال السنين الأخيرة، وكانت تضطرب أحيانًا وتخلط أمورًا بأخرى، إلا أنها كانت تعبر عما لاقته. وهكذا انفجرت، ريحًا عاتيةً، مسكونةً بإخلاصٍ يائس. وها هي تقذف في وجهه ما لا يستطيع له دفعًا. إنه أمر أساسي مهم لا خلاف عليه.

"إنك محقٌّ، توماس، ها أنا أكرر ثانيةً، ها، وقد عرفت ما أريد من هذه الحياة، ولن أعجب بعد الآن إن رأيت أمورًا معوجة، وقد عرفت رجالاً مثال تريشكه الدموع، واقترنت برجل مثل جريونليش، كما عرفت صعاليك المدينة، فأنا لم أكن قرويةً ساذجة، هذا هو قولي لك. أما قصة بابيت وما حولها، فلم تكن هي دافعي للفرار، صدقني، بل كانت هي القطرة التي أفاضت الكأس. ولم أكن بحاجةٍ إلى هذه القطرة، فقد فاض بي الأمر منذ زمنٍ بعيد، منذ زمنٍ بعيد، وكان سيفيض، فما بالك بهذا!

كما أنني أدرك أن هذا لم يكن وحده هو الحجر الصغير الذي هدم السد، ولكن شتات قراري كان قد تجمع لبنةً فوق أخرى حتى هربتُ من ميونيخ، كما ينطلق السهم. توم! فلم يكن بمقدوري العيش هناك بالجنوب، ولن يكون بوسعي ذلك، أقسم لك بالرب وملائكته المُنَزلة، فأنت لا تدري، توم، مدى بؤسي. فأثناء زيارتي لم أدعكم تلحظون شيئًا من أمري، فأنا امرأةٌ عاقلة لا تُزعج الآخرين بشكواها، أكتم ما في قلبي فلا ينطق به لساني، أميل إلى اعتزال الناس، إلا أُنني كنت أقاسي.. توم، أقاسي بكل جوارحي، كما يقال، ولتدعني أمثل نفسي بنبتةٍ، زهرة غُرست في تربة

أجنبية، مع اعتبار الفارق بأني امرأة قبيحة، ويا لها من تربة غريبة لم أكن لأُغرس في أغرب منها، حتى في تركيا. ومن الأجدر بنا، نحن أهل الشمال، ألا نغترب أبدًا، فالأفضل أن نظل على ساحل بحرنا، لنحتفظ بكرامتنا.. وقد كنتم أحيانًا تسخرون من إيثاري لطبقة النبلاء، حقًّا، ولطالما خطر ببالي أثناء هذه السنوات مقولة لرجلٍ ما، بادرني بها منذ زمن بعيد، فقال لي: "إنك تبدين عطفًا نحو النبلاء، أتعرفين لماذا؟ لأنك أنتِ نفسك نبيلة، ووالدك من العظماء، أما أنتِ فأميرةٌ، فهناك هوة تفصل بينك وبيننا، نحن الذين يعيشون على هامش مجتمعكم الراقي. هذا هو الحق، توم، فإننا نشعر أننا نبلاء، كما نشعر بهذا الفارق، لذا لا يليق بنا أن نعاشر مَن يجهل قدرنا، فلا يصيبنا جراء ذلك سوى الهوان والخزي، وسوف يرانا هؤلاء متعالين على نحوٍ يثير السخرية. وبرغم أن أحدًا لم يفصح عن ذلك، إلا أنني كنت أحس به طوال الوقت، وكان هذا سبب وجيعتي هناك، هناك في بلدٍ يأكل أهلها الفطائر بالسكاكين ولا يتقن أمراؤها اللغة الألمانية، ويتعجبون أن يلتقط الرجل المروحة لزوجته بدافع الحب. إن بلدًا كهذا يدفعك إلى الاستعلاء على أهله، توم. فهل أتكيف أنا؟ كلاًّ، مع أناسٍ بلا كرامة، عديمي الخلق والطموح والآداب والنظام، مع أناسٍ لا يعرفون واجب اللياقة، يجمعون بين القذارة والكسل والحمق والسماحة والسطحية في آنٍ واحد؛ أنا لا أستطيع التكيف مع هؤلاء. ولما كنت أنا أختًا لك أنت، فلن يكون بمقدروي ذلك. لقد استطاعت إيڤا ايفرس ذلك.. حسنًا، لكن، هل تستوي بنات بودنبروك مع بنات ايفرس، ناهيك أنها كانت تستفيد من زوجها، فكيف كان زوجي أنا! فلتفكر في الأمر، توماس، وعُد إلى نقطة البدء. لقد رحلت إلى هناك من

"هنا"، هنا البيتُ ذو المكانة، الذي يسعى أهله واضعين أهدافهم نصب أعينهم، لأقيم هناك لدى بيرمانيدر الذي ما إن تسلم هدية زواجي حتى تقاعد عن العمل.. ها. لكن أكان هناك غير ذلك مما يسبب لي سعادة؟ ثم ماذا؟ لقد كنا بانتظار مولود، وكم فرحت لذلك، فهو ما كان سوف يعوضني عن كل شيء، فماذا جرى! مات المولود، ولم يكن هذا بيد بيرمانيدر، كلاًّ والقضاء للرب، لقد تحمل ما بوسعه حتى إنه قاطع الحانة ليومين أو ثلاثة. لكن الأمر كان يقتضي هذا، توماس، فلم أعد أسعد حالاً مما كنت عليه، وهو ما تراه بعينيك. ولقد تحملته ولم أعترض، فكنت أعاني الوحدة، لا أجد أنيسًا، فإذا سعيت إليهم قالوا: (متكبرة)، فكنت أقول لنفسي: (لقد قبلته وارتضيته زوجًا مدى الحياة، رغم أنه كسولٌ وسمج إلى حدٍّ ما، وبرغم أنه خيب ظني إلا أنه طيب القلب، حسن النية)، فهل أكافأ على ذلك بهذا المشهد، أن أراه في تلك اللحظة القاسية وقد عرفتُ قدر فهمه لي، وأكثر من ذلك قدر احترامه لي، عندما قذفني بهذه الكلمة، كلمة لا يسُب بها عاملٌ من عمال مخازنك كلبًا، فلم يعد هناك ما أبقي عليه. ولو بقيت لكان ذلك عارًا عليَّ. وذات مرة اكتريت عربةً من محطة شارع هولستن فمررت بالحمَّال نيلسن، فانحنى لي، رافعًا قبعته الكبيرة، فرددت تحيته بغير تعالٍ، ولكن بطريقة والدي في تحية الآخرين هكذا.. باليد. لكني الآن هنا، وبوسعك أن تأمر بعربة يجرها عشرات الخيول، توم، لكنك لن تعود بي إلى ميونيخ. في الغد سوف أذهب إلى جيسكه".

كانت هذه خطبة طوني، لتلقي بعدها بنفسها على المقعد متهالكة، تضم ذقنها بيدها محملقةً في النافذة، أما القنصل فوقف هناك مأخوذًا حتى كادت

الصدمة تهز كيانه، ولاذ بصمتٍ تام، ثم تنهد وهو يرفع ذراعيه إلى كتفيه ليهوى بهما ثانيةً فوق فخذيه، ويقول بصوتٍ هامس: "حقًا، لافائدة!" ثم دار على عقبيه ليمضي نحو الباب، فشيعته كما استقبلته حزينةً عابسة، وسألته: "هل أنت غاضبٌ مني.. توم؟" وبينما كان يمسك بمقبض الباب البيضوي بيدٍ، أشاح بالأخرى قائلاً: "كلا، على الإطلاق!" فأشارت له بيدها وقد مالت برأسها على كتفها قائلةً: "تعال، توم، فأختك تعيش حياةً بائسة، وقد حطت عليها كل البلايا، ولا أحد لها يساندها الآن". فرجع متعبًا ليتناول يدها في لامبالاة وقد أشاح بوجهه عنها. وفجأةً بدأت شفتها العليا في الارتجاف، ثم قالت: "عليك الآن العمل وحيدًا، فليس هناك خير يرجى من كريستيان، أما أنا، فقد انتهيت، قُضي عليّ وليس بوسعي فعل شيء، ولم يعد أمامكم سوى التبرع لي بقليل من الزاد، فأنا امرأةٌ لا نفع لها، كما أنني لم أكن أتوقع أن يصل بي العجز إلى ما يمنعني من معاونتك، توم، ولم يعد أمامنا سوى الحفاظ على كبريائنا، نحن آل بودنبروك.. كان الرب في عونك".

ثم سالت دمعتان كبيرتان حاميتان كدمع الأطفال على وجنتيها، ليظهر على جوانبها بعض من تجاعيد دقيقة.

الفصل الحادي عشر

لم تهدأ طوني. فقد بدأت السعي وراء قضيتها، برغم أن القنصل لم يطلب منها سوى التزامها وأريكا للصمت وعدم مغادرة البيت حتى يهدأ روعها وتتماسك فتراجع موقفها. فقد يتحسن الأمر وتؤول الأحوال إلى الأفضل، على ألا يعرف أحدٌ بالمدينة بما جرى، كما أرجأ لقاء الخميس العائلي إلى أجلٍ غير مسمى. إلا أن السيدة بيرمانيدر قامت بعد أول يوم من وصولها بإرسال خطاب إلى دكتور جيسكه المحامي تدعوه لزيارتها في منجشتراسه. فلما جاء استقبلته بالغرفة الوسطى بالطابق الأول، ثم جلسا على مقعدين من الـ"فوتي"، بعد أن أوقدت نار المدفأة. وكانت قد زودت الطاولة الثقيلة، لغرضٍ ما، بأدوات كتابةٍ ودواة حبر وورقٍ أبيض كبير، جاءت به من خزانة الأوراق الشخصية بالطابق الأرضي. مالت برأسها للخلف عاقدةً ذراعيها فوق صدرها، متأملةً سقف الغرفة لتقول: "جناب الدكتور، أنت صاحب خبرةٍ بشؤون الحياة كإنسانٍ ومحام، لذا فأنا أود البوح لك بالأمر". ثم روت له كل ما كان من بابيت وما جرى في غرفه نومها. فلما

انتهت من روايتها، إذا بالدكتور جيسكه يعرب لها عن أسفه لاضطراره إلى إخبارها أن حادث السلم الأليم وسبها بلفظٍ لم تبح له به، لا يصلحان مبررًا كافيًا لطلب الطلاق. فردت هي: "حسنًا، شكرًا لك". كما فسر لها بإيجازٍ مبررات الطلاق القانونية، وقد أصغت بانتباهٍ وحرص بالغين لسرده تفاصيل النصوص الخاصة بنصيبها في الميراث، لتودع الدكتور جيسكه بودٍ وبوعد للقاء آخر.

ثم هبطت إلى الطابق الأرضي لتطلب لقاء القنصل بمكتبه الخاص، وبادرته: "أرجو أن ترسل في الحال إلى الرجل الذي لا أود ذكر اسمه. وقد علمت على نحوٍ دقيق بتفاصيل المسائل المادية، فعليه اتخاذ موقفٍ واضح. وفي كل الأحوال، فلن يراني ثانيةً. فإن وافق على طلاقٍ شرعي، قمنا بتسوية الحسابات، وطالبناه بحقنا في هدية الزواج، فإن رفض فلن يصيبنا هذا بالإحباط. ولك أن تعلم أن القانون يعطي بيرمانيدر الحق في الحصول على هدية زواجي على أية حال. وهو أمرٌ لا جدال فيه، إلا أنني أحمد الرب أن القانون يحفظ لي حقوقًا مادية على كل حال". فراح القنصل يدور بالمكتب عاقدًا يديه خلف ظهره، وهو يرفع كتفيه متوترًا، خاصةً بعد ذكرها تعبير: "حقنا في هدية الزواج" بكبرياءٍ واضح.

أما هو فلم يكن يملك فسحةً من الوقت، كما كان متعبًا حقًّا، فكان عليها مد حبال الصبر لتراجع نفسها خمسين مرةً، بعد ما علمت بعزمه على السفر الآن أو غدًا إلى هامبورج، للمشاركة في أحد الاجتماعات. وسوف يدور هناك حوارٌ مرير بينه وبين كريستيان، بعد أن أرسل إليه كريستيان طالبًا دعمًا ماليًّا تقوم القنصلة بخصمه من ميراثه فيما بعد، وذلك بعد أن

تدهورت تجارته، وهو، كما يبدو، أسرف في إنفاق ماله على المطاعم والسيرك والمسرح، لكي يسري عن نفسه، وينسى ما يعاني من منغصات. وقد أنفق ما فوق طاقته حتى استدان، وهو ما علم به القنصل الآن. وقد ساعده في ذلك ما يتمتع به اسم عائلته من سمعة طيبة. وعرف أهل شارع منجشتراسه والنادي، بل المدينة كلها سر ذلك، وهو: امرأةٌ مطلقة، لها طفلان جميلان، تُدعى إلينا بوفوجل، التي لم تقصر علاقتها على كريستيان بودنبروك وحده دون تجار هامبورج، علاقة حميمة باهظة الثمن. وموجز القول إنه كان يعاني من معضلاتٍ أخرى غير طلب أنطونيا للطلاق.

وهكذا كان عليه الإسراع بالسفر إلى هامبورج. فلما سافر القنصل إلى هناك عاد مهمومًا حانقًا. فلما علم بعدم وصول أية أخبارٍ من ميونيخ، وجد نفسه مكرهًا على اتخاذ الخطوة الأولى بنفسه. فقام بتحرير رسالةٍ قاسية، متناولاً الموضوع نفسه بشيءٍ من التعالي فقال: "لقد أصيبت أنطوني بصدمةٍ في حياتها الزوجية، ولم تجد في هذه الزيجة ما كانت تنشده من هناء، وذلك دون الخوض في تفاصيل هذا الأمر. أما رغبتها في الانفصال فهو حقٌّ يقرها عليه كل عاقلٍ، كما يبدو قرارها بعدم العودة إلى ميونيخ قرارًا نهائيًا". وختم ذلك بتساؤل عن تصرف بيرمانيدر حيال هذا الأمر.

مضت أيام مشحونةً بالقلق، ليجيء رد السيد بيرمانيدر، ردًا غير متوقع، لم يتوقعه الدكتور جيسكه أو القنصلة أو توماس، بل أنطوني ذاتها. فقد أبدى ببساطةٍ موافقته على الطلاق. وأرسل يقول إنه، مع أسفه من أعماقه لما وقع، ليعرب عن احترامه لرغبة أنطوني، بعد أن أدرك أن كلاً منهما لا يناسب الآخر. وسألها نسيان ما قد يكون قد سببه لها من منغصاتٍ خلال سنوات

زواجهما، وأن تغفر له ذلك. فإن لم يرها أو يرى ابنتها، فإنه يتمنى لهما كل ما يأمله من سعادةٍ دائمة، ثم وقع باسمه الويس بيرمانيدر. كما جاء رده واضحًا برد نصيب أنطوني من هدية الزواج في الحال؛ فبوسعه أن يعيش حياةً آمنة بما له من أملاك، كما أنه يتغاضى عن أية مهلة، لأنه ليس بحاجة لتسوية حساباته، كما أن البيت ملكٌ خالص له، ويمكنه في التو رد هدية الزواج. فكاد رده يشعر أنطونيا بالخجل، بل أحست لأول مرة بأن عليها ذكره بالخير لعدم تهافته على المال. ثم جاء الدكتور جيسكه على إثر ذلك ليباشر عمله، فتواصل مع الزوج للاتفاق على مبرر الطلاق، فتوافقا على أن يكون المسوغ هو كراهية من الطرفين يصعب الحياة معها. ثم بدأت إجراءات التقاضي، إجراءات قضية الطلاق الثاني لطوني التي تابعت مراحلها بحرص وخبرة قانونية وعزيمة وافرة، فكانت لا تنفك عن ذكر تفاصيلها أينما كانت، وهو ما أثار غضب القنصل في كل مرة، إلا أنها تجاهلت ذلك بعد أن أصبح كل همها هو التفوه بألفاظ مثل: "ثمار" و"محاصيل" و"حيازات" و"تفاصيل مسألة الزواج" و"أموال تحت التصرف". وكانت تجتهد في نطق هذه الكلمات، وقد أمالت رأسها للخلف، ورفعت كتفيها بعض الشيء. أما الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في نفسها، فقد ورد في تفاصيل ما ذكره الدكتور جيسكه. وهي فقرةٌ تتحدث عن "كنز" عُثر عليه في قطعة أرض تضمنتها هدية زواج، وقد تم تسليم الكنز بعد انفصال الزوجين، فراحت تخبر الجميع بأمر الكنز الذي لم يتحقق قط، وكان من بين هؤلاء إيدا يونجمان والخال يوستوس وكلوتيلده المسكينة وسيدات بودنبروك من الشارع العريض اللاتي تعجبن مما حدث، وراحت كلٌّ منهن تضرب كفًا بكف، وقد اتسعت عيونهن من فرط

الدهشة، ورحن يتمنين أن يكون لهن مثل هذا الحظ. كما أخبرت كذلك تيريزه فايشبروت التي التحقت أريكا بمدرستها مرة أخرى، وكذلك السيدة كيتلسن الطيبة التي لم تفهم شيئًا من هذه الأسباب العديدة.

ثم حل اليوم الذي أصدرت فيه المحكمة حكمًا بالطلاق البائن حسب نص القانون، لتغلق أنطونيا آخر باب من إجراءاتٍ رسمية اضطُرت إليها، فطلبت من توماس سجل مذكرات الأسرة لتدون به الحادث الأخير بخط يدها. وأصبح لها منذ هذه اللحظة الحق في ممارسة حياتها الجديدة، وهو ما واجهته ببسالة، فكانت تتجاهل كل همز ولمز صدرا بسوء نية مفرط عن سيدات بودنبروك. كما كانت تتعالى بترفع لا مثيل له على كبار آل هاجنشتروم ومولندورف، إن قابلتهم في طريقها. كما اعتزلت تمامًا تلك الحياة الاجتماعية التي اختفى أثرها منذ سنوات من بيث والديها، لتنتقل إلى بيت أخيها القنصل، وقنعت بعلاقتها بأفراد عائلتها: القنصلة وتوماس وجيردا وإيدا يونجمان وكذلك صديقتها ذات المشاعر الأمومية سيسمي فايشبروت. كما وجهت عنايتها بتلقي ابنتها أريكا تعليمًا راقيًا، بعد أن رأت فيها مستقبلاً لتحقيق أحلام غامضة كانت تراودها. هكذا مضت في حياتها، وهكذا مضى بها الزمن. وبعد حين، وعلى نحوٍ ما يزال غامضًا، عرف بعض أفراد عائلتها هذا اللفظ المروع الذي نعتها به السيد بيرمانيدر ذات ليلة، فماذا قال لها؟ لقد قال: "فلتذهبي إلى الجحيم، يا حثالة الخنازير".

هكذا كانت نهاية زواج أنطونيا بودنبروك الثاني.

[نهاية الكتاب الأول]

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.

* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .

* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

آفاق
عالمية

«آل بودنبروك» لتوماس مان: هي ملحمة العصر الحديث الفريدة، وإحدى روائع القرن العشرين الروائية التي أدت بمؤلفها إلى الفوز بجائزة نوبل (1929)، باعتبارها «دُرةً فنيةً يزهو بها الأدب الألماني. وهي الرواية الألمانية الواقعية غير المسبوقة حتى الآن، وقد احتلت مكانةً رفيعة بلا منازع، وكذلك في الآداب الأوروبية».

استبصارٌ فريد لمآل الطبقة الوسطى، التي يصبح انحدارها فانهيارها تمهيدًا- في ذاته- لصعود النازية.

وترجمة دقيقة، كاملة، عن اللغة الألمانية، تحقق معادلة الدقة والسلاسة معًا، محافظةً على الخصائص الأسلوبية لأحد سادة الإبداع الروائي العالمي

اللوحة والرسم للفنان الالماني: كارل سبيتزفيج - تصميم الغلاف: احمد اللباد

الهيئة العامة لقصور الثقافة
www.gocp.gov.eg